تصاعد المد الإيراني

في العالم العربي



السيد أبو داود

العبيكان
Obeikan

تصاعد المد الإيراني
في العالم العربي

تأليف

السيد أبوداود

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبوداود، السيد

تصاعد المد الإيراني في العالم العربي./ السيد أبوداود، الرياض، ١٤٣٤هـ

٤٨٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٥٣١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - العالم العربي - العلاقات الخارجية - إيران. ٢ - إيران - العلاقات الخارجية.

أ. العنوان.

ديوي ٣٢٧,٥٦٠٥٥ رقم الإيداع: ١٤٣٤/٤٨٦٦

الطبعة الأولى

1435هـ/ 2014م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥ ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥ ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧ ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

www.obeikanretail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تمهيد

الصفويون والدولة الصفوية في إيران

نشأة الصفوية:

ينسب الصفويون إلى صفي الدين الأردبيلي (في بلاد الديلم) وكان هو ووالده على المذهب الشافعي. درس القرآن والسنة، ثم انخرط في حلقات الصوفية خاصة حلقة الشيخ (فرج الأردبيلي) وأهم ما تعلمه هو كيفية جلب المريدين وتنظيمهم، وقد اعتكف زاهداً في جبل (سبلان) ولكنه فيما يبدو لم ينجح، فغادر المكان إلى شيراز منضماً إلى زاوية صوفية أيضاً تسمى زاوية عبدالله بن الخفيف الشيرازي. وفي الوقت نفسه انضم في خدمة شيخ صوفي اسمه مير عبدالله الفارس. ثم عاد إلى أردبيل محاولاً إنشاء مشيخة باسمه، لكنه لم يفلح، فغادرها إلى جيلان، وهي قريبة من أردبيل، وكان ذلك سنة ١٢٧٦م وسكن قرية هليه كسران، واعتكف في زاوية الشيخ زاهد الجيلاني الذي تمتع بحماية غازان خان المغولي حفيد جنكيز خان المعروف الذي كان يدعو إلى خضوع الإيرانيين لحكم المغول. وتزوج صفي الدين ابنة شيخه زاهد، فجعله مريداً له وخليفة وبعد وفاة شيخه سنة ١٣٠٠م رجع إلى أردبيل

حاملاً لواء الدعوة بالمعروف والنهي عن المنكر، واتجه صفي الدين في زاويته الصوفية إلى طريقة السماع والتغني والرقص الصوفي على الأنغام ما جلب له المريدين من الشباب الذين كان يشيع بينهم مبدأ التصوف القائم على فكرة الجبر، أي إن الإنسان مجبر على سلوك الطريق، ويجب عليه تقبل ما يأتيه، وهذا كان يخدم سلطة حكام المغول السياسية في هذه المنطقة في القرن السابع الهجري؛ ولذا فقد شجع هؤلاء الساسة انتشار الحركات والزوايا الصوفية خدمة لأغراضهم.

زاوية الشيخ صفي الدين في أردبيل وجدت الاهتمام الأكبر، وخاصة عند خواجة رشيد الدين فضل الله وزير السلطان المغولي غازان خان. كان رشيد من يهود همذان، وكان يملك دكاناً للعطارة والأعشاب وعن طريق ادعاء التطبيب توصل لخدمة السلطان، حتى عينه وزيراً بعد أن أسلم. ونقل عنه ممارسة أنشطة دينية؛ لأنه كان على معرفة بالتوراة. واستولى على الأراضي الزراعية وقسمها بين أولاده. وسعى خواجة رشيد إلى كسب تأييد شيوخ الزوايا الصوفية، وخاصة الشيخ صفي الدين الأردبيلي الذي حظي من الوزير رشيد بالعطايا الوفيرة التي مكنته من الإنفاق على زاويته ومريديه من الفقراء والمتطلعين للشهرة.

وبعد وفاة الشيخ صفي الدين سنة ١٣٣٤م قام ابنه صدر الدين مكان أبيه في رئاسة الزاوية، وكان ذلك في مقدمة حكم السلاطين الأليخانيين من المغول. وفي سنة ١٣٨٧م دخل الأمير تيمور فاتحاً أذربيجان بعد أن أخضع أقاليم إيران لحكمه بالقوة والقهر ونهب الأموال، فتقدم إلى زاوية الشيخ صدرالدين بالهدايا، وأظهر له المحبة، فبادله الشيخ بمثل ذلك، وبارك أعماله وفتوحاته.

وسنة ١٣٩٩م غزا السلطان تيمور بلاد الأناضول (تركيا) وأخضعها لحكمه، وجلب معه الكثير من الشباب وأهداهم إلى زاوية الشيخ صدر الدين في أردبيل، حيث يقام على تدريسهم وتعليمهم وهؤلاء أصبحوا فيما بعد نواة ما يسمى القزلباش، أي أصحاب القبات الحمر.

وسنة ١٤٤٧م حصل خلاف بين أولاد الشيخ صفي الدين على رئاسة الزاوية المهمة تلك في أردبيل، وما قدره من أموال، فكانت الغلبة لجعفر الابن الأكبر، وهرب الجنيد من أخيه متجهاً إلى الأناضول ومعه أولئك الشباب التتار من القزلباش وفي الأناضول أقام الشيخ الجنيد زاويته الصفوية من أولئك التتار في بيئة كانت تتشيع للأسلاف.

عقيدة القزلباش:

في منتصف القرن السابع الهجري ظهر في الأناضول شيخ صوفي اسمه حاجي بكتاش (توفي سنة ١٣٣٧م) يدعو إلى الجهاد، وأنه سينصر بالرعب، فاجتمع له الكثير من التتار والأتراك بهذا القصد أو بقصد السلب والنهب واتجه أولو الأمر لمهاجمة القرى المسيحية بعد أن ضعفت سلطة الدولة البيزنطية الشرقية في هذه الأجزاء. ونشر مريدو الشيخ طريقته الصوفية في الأناضول عن طريق تكوين الزوايا الصوفية، وأصبح الجميع يتبعون الطريقة البكتاشية. وبرز من بين هؤلاء البكتاشية الشيخ بدر الدين الذي اتسع نفوذه، فأصبح قاضياً في عسكره وزاويته الصوفية المجاهدة، وتجول في مناطق عدة طالباً للعلم. تعلم في الإسكندرون، ودخل في مذهب ما يسمى بأهل الحق، وهم شيعة متطرفون يؤلهون الإمام علي رضي الله عنه. ولما عرف السلطان

العثماني توجهات هذا الشيخ عزله، ولكن اثنين من تلامذته نشرا مذهبه ونفي الشيخ بدر الدين بمدينة أزنيك وفيها قام بتأليف كتابه: (الواردات) الذي احتوى على جملة من خليط بين أفكار صوفية تدين بوحدة الوجود وأفكار غلاة الشيعة (أهل الحق). وعبادة الأجداد عند التتار القدامى، وكان يعتقد في نفسه حلول روح الله فيه، وأنه معصوم، وأنه واجب الطاعة. واستطاع أن يحرف الكتاب، وينقل إليه هذه الأفكار الغالية، ودعا أتباعه إلى الجهاد باسم الدين ووجوب طاعته؛ لأنه الولي المطاع مثل ولاية الإمام علي رضي الله عنه!

فكثر مريدوه، وانتشر مذهبه، فكان هذا المذهب هو الخمير لجيش القزلباش الذي زحف في هذه المنطقة على إيران، وكون الدولة الصفوية.

قام بدر الدين يجمع أنصاره والثورة على الدولة العثمانية، فساعده على ذلك الشيعة البكتاشية، ولكن هذه الثورة قمعت، وحوكم الشيخ بدرالدين، وأعدم على الرغم من مشاركة كثير من اليهود والمسيحيين له في هذه الثورة[1]. وطاردت الدولة العثمانية مريديه، فاتجهوا إلى إخفاء عقائدهم في ظل النخبة، وأصبح عداء السنة هو دينهم وهدفهم.

وجد الشيخ الجنيد ابن الشيخ صفي الدين الردبلي الذي إن قلنا: إنه انتقل مع القزلباش من أردبيل إلى الأناضول وجد في مريدي الشيخ بدرالدين السالف بغيته لتنظيمهم، وضمهم إلى صفوف المرشدين البكتاشيين، فاتحدت تلك القوى خاصة عندما تجمعت في الإسكندرون مع خميرة (أهل الحق) الشيعة والغالية. وادعى هذا الشيخ الربوبية، وأنه من آل علي بن أبي طالب، واستكمل الفرائض الشرعية عن مريديه؛ لذا فلا غرابة أن يرى الباحث فيما بعد كيف أن الشاه إسماعيل الصفوي، وهو حفيد الشيخ الجنيد قد ادعى تلك الدعاوي

الباطلة نفسها. وطردت الدولة الجنيد الإسكندون، وتنقل من أماكن عدة مع مريديه حتى استقر الحال في ديار بكر. ثم بدأ يهاجم بجيش مريديه الجراكسة السيح بادعاء الجهاد، واكتسح داغستان وبعض أذربيجان. ولكن الجنيد قتل في هجومه على شروان، وتفرق مريدوه، ولكنهم تجمعوا مرة أخرى على زعامة ابن الجنيد المسمى حيدر، وهو طفل بمعونة من السلطان أوزون حسن في حزجان؛ لأنه ابن ابنته من الجنيد، وذلك بقصد الاستفادة من مريدي الجنيد، وتم له ذلك حين استولى على أقاليم في شمال شرق إيران، واستقر في هراة، ولقب نفسه ملك إيران، وكان على مذهب الشيعة الزيدية. وبقوة من هذا السلطان نصب الشيخ حيدر هذا، وهو ابن تسع عشرة سنة شيخاً على زاوية صفي الدين في أردبيل، وتحلق حوله أولئك المريدون التتار من شتى النحل الإباحية الجهادية المعتمدة على السلب والنهب موجهاً السلطان حسن كما يريد، وفي المقابل ترك للشيخ حيدر حرية كاملة في التصرف في أردبيل وحكمها إلى درجة تصنيع السلاح والاستعداد لاكتساح الأقاليم الأخرى خاصة بعد وفاة السلطان حسن هذا سنة ١٤٧٨م. وهكذا كون الشيخ حيدر هذا جيشه من القزلباش، وكانوا يخفون عقائدهم الشيعية المغالية عن طريق التقية.

بعد وفاة السلطان حسن تغلب ابنه يعقوب على حكم البلاد وبدهاء شديد استقل حيدر هذا السلطان، فأخذ يبسط نفوذه في أذربيجان، ويقتل السنة وشيوخ الشريعة بدعوى خلافهم مع السلطان يعقوب. وأمر الشيخ حيدر مريديه وجيوشه بلبس القلنسوة الحمراء باثني عشر (القزلباش). لتمييزهم عن غيرهم ودربهم على القسوة والشدة وصناعة السلاح والبطش الشديد بالخصم. فما كان من هذه السياسة إلا الاصطدام أخيراً بجيش السلطان يعقوب نفسه وفي معركة فاصلة قتل فيها الشيخ حيدر وتفرق القزلباش.

ودخلت أقاليم غرب إيران في صراعات بينها في هذه الحقبة انتهت بانتصار رستم بيك الذي أعاد نفوذ القزلباش التتار من الأناضول، وأحيا زاوية الشيخ حيدر في أردبيل، وأعاد نفوذ القزلباش السابق لهذه المنطقة رغبة منه في استعمالها لتأييد وبسط نفوذه. وقام بتنصيب الشيخ علي الابن الأكبر لحيدر على الزاوية تلك، وأعاد إليه ممتلكات وأوقاف تلك الزاوية.

ولكن القزلباش بعد استشراء أمرهم عادوا لقتال السنة والتسلط على علمائهم، فما كان من أمر علي إلا أن قتل في هزيمة مع القزلباش الذين أخذوا أولاد حيدر إبراهيم وإسماعيل وأخفوهما في مكان آمن. ثم سلموا إسماعيل إلى كاركيا ميرزا علي حاكم لاهيجان، وكان زيدي المذهب، ومن هنا نشأ الطفل إسماعيل.

الشاه إسماعيل والقزلباش:

ولد إسماعيل بن حيدر في أردبيل سنة ١٤٨٧م وأمه هي ابنة السلطان أوزون حسن المذكور سابقاً. وتعلم إسماعيل، وهو ابن السابعة المذهب الشيعي الزيدي أولاً من الخيط المختفي فيه. ثم قام جملة من شيوخ القزلباش بتعليم إسماعيل أسرار المذهب الشيعي المغالي، ولقبوه بالشاه أي شيخ الطريقة أو السلطان. وكان معلموه السبعة كلهم من التتر من أصول أناضولية. وقام القزلباش بإضفاء الصفات الكاملة على إسماعيل وعلى كونه (المرشد). ونفخوا فيه روح الانتقام لأبيه وجده اللذين قتلهما أهل السنة. وصدقهم في هذه التربية، فظن في نفسه العظمة، وغرسوا في ذهن هذا الشاب الحقد والكراهية ضد السنة وأن أهله ظلموا كما ظلم الإمام الحسين عليه السلام، وأدخلوا في ذهنه وروعه أن كل سني ما هو إلا ظالم أو سفاح يجب الانتقام منه والحذر منه.

نقل المعلمون السبعة إسماعيل من مدينة لاهيجان إلى أردبيل بحجة زيارة قبر الشيخ صفي الدين، ومن هنا بدأ بالدعوة ومناداة القزلباش من الأناضول وغيرها بالتوافد عليهم وأصبح لإسماعيل مسكن يضم آلاف القزلباش الذين اتخذوا تجمعهم شكل سياحة صوفية دينية، فإسماعيل اعتبر وريث شيخ طريقة يجتمع حوله المريدون، وهو أمر شائع قد لا يثير الأهداف السياسية المخبأة، وأن غالبية هؤلاء القزلباش هم من التتار من صحارى الأناضول ومن قبائل شتى.

قام القزلباش هؤلاء بالنهب والسلب للقرى المحيطة بهم، ثم اتسع عملهم إلى الأقاليم القريبة، وبدأ بأذربيجان وباكو... وأسقطوا حكم شروانشاه سنة ١٥٠٠م ثم سيطروا على تبريز ومن حولها، وسكان هذه المنطقة من السنة الشافعية يتحدثون اللغة الآذارية. ولكن الشاه إسماعيل أجبرهم على اعتناق مذهب الشيعة بسبب ما ربي عليه من كراهية للسنة منذ طفولته من قبل أمه ثم من قبل المحيطين به.

لقد أشبع إسماعيل منذ طفولته وشبابه كراهية السنة، ولقن جميع أدبيات الشيعة القديمة التي ذكرت في كتب الشيعة حول كراهية قتلة الحسين وعلي بن أبي طالب وكراهية الصحابة والخلفاء الراشدين. وكان يطلب من السنة في المساجد التبرء من أبي بكر وعمر وعثمان وإلا قتل السني من قبل القزلباش.

وقد تنظم في المدن التي استولى عليها إسماعيل فرق ما يسمى الدعوة إلى البراءة من أهل السنة وإعمال القتل لمن يرفض وساعد على ذلك أصحاب الأهواء والمجرمون الذين وجدوها فرصة للنهب والسلب. واتجه العقد والقتل على علماء السنة وهدم مدارسهم ومساجدهم أو تغييرها إلى الشكل المناسب

لفكرهم المنحرف. وانهال كثير من التتار وأصحاب المطامع على إسماعيل، والتحقوا بأعماله المشينة، وادعوا أنهم (أصحاب الحق) فسلبت أموال السنة بدأ في أذربيجان وأردبيل وما حولهما من مناطق، ثم اتسع الخرق شيئاً فشيئاً، وقاموا بسبي شباب السنة ونسائهم على اعتبار أنهم كفار وأجبروهم على شراء أنفسهم أو بيعها بوصفهم رقيقاً. ومن لم يتبرأ من السنة ويعتنق التشيع فمصيره القتل[٢].

وبدا تساقط المدن والأقاليم ابتداء من أصفهان وكرمان وقم وكاشان و... ولم يستعصِ الأمر على إسماعيل الصفوي غير كردستان (من إيران) فكانت جبالاً عصيبة قتل فيها القادة الذين أرسلهم الشاه إسماعيل ولم ينتشر فيها التشيع الصفوي وساعدته بعدئذ الدولة العثمانية لحمايتهم ما عزز انفصال هذا الجزء من كردستان عن إيران.

وسنة ١٥٠٨م هاجم الشاه إسماعيل العراق، وكان تحت حكم باريك بيك الذي هرب إلى دولة المماليك في الشام، وأعمل القزلباش السيف بأهل بغداد وخاصة السنة وعلمائهم وهدموا جامع الإمام أبو حنيفة الذي سبق أن بناه السلاحقة، وتركز حقدهم في بغداد وباقي المدن الرئيسة، واحتل القزلباش خراسان ثم هراة، وأعملوا فيها السيف، وطلبوا كالعادة من السنة البراءة من الصحابة، ومن لم يستجب خاصة من العلماء يقطع جسده أو يحرق كما فعلوا بالعلامة التفتزاني الحنفي المشهور بعلمه وورعه، فقد جيء به من السجن وطلب منه إسماعيل الفتيا بكفر أبي بكر وعمر وعثمان فأبى ذلك فأمر القزلباش بتقطيعه وحرقه، وهكذا فعلوا بالكثير من علماء السنة في المدن الرئيسة الإيرانية، وأخضعوا إيران بالإرهاب والرعب[٣].

كان الإيرانيون يطلقون على العربي (السيد) ويطلق على غيرهم (الموالي) وكانوا يعدّون الشاه إسماعيل سيداً من آل علي بن أبي طالب، ويبدو أن هذه النظرة استمرت عن الإيرانيين، حيث يُعدّ إلى اليوم أن رجال الدين الشيعة هم من العرب أصلاً، وأن البلاغ العصبي الديني جاءهم من العرب.

بعد أن خضعت أكثر الأقاليم الإيرانية للشاه إسماعيل الشاب، وكان عمره آنئذ اثنتي عشرة سنة اتجه إلى حياة اللهو والشراب والصيد، وكانت الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد مهادنة لإسماعيل الذي نعم بالرخاء حينما دب النزاع بين أبناء السلطان بايزيد على السلطنة، وتحرك البكتاش الشيعة من بلاد الأناضول موالين للقزلباش وللشاه إسماعيل، ولكن حينما استقرت السلطنة العثمانية للابن بايزيد سليم اتجه في جيش عثماني كبير معهم البنادق والمدفعية، وهو أمر لا يعرفه جيش الشاه إسماعيل، ودخل الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم نفسه إيران سنة ١٥١٤م والتقى الجيشان عند تشالديران، فهزم الشاه إسماعيل وقزلباشه وجرح إسماعيل، واختفى في حفرة متظاهراً بالموت، وقدم أحد جنوده الذين يشبهونه بلبس ملابسه، وتقدم للسلطان سليم مسلماً نفسه وأنه هو الشاه إسماعيل. ويبدو أن السلطان سليم خدع وأمر بسجن هذا الرجل على أساس أنه إسماعيل. ولكن إسماعيل بعد أن جن الليل هرب بعيداً ولجأ إلى غار في جبل قرب همذان، واعتلت صحته، ووهن عزمه بعد مقتل معاونيه ورجاله وتفرقهم عنه كلٌّ يطلب النجاة والكثير قتل في هذه المعركة. ودخل السلطان سليم تبريز وطهرها مما بقي من القزلباش وظن السلطان العثماني أن مهمته في القضاء على الشاه إسماعيل وقزلباشه قد انتهت، وأن التشيع قد دحر في إيران، فرحل عائداً إلى بلاده،

واستقر مدة في اماسيه ولم يكن في إيران سلطة مرشحة لحكمها حيث شتت القزلباش وقتلوا رجالها ومن هذه الثغرة استعاد القزلباش نفوذهم شيئاً فشيئاً، وعاد الشاه إسماعيل إلى تبريز مع بعض أنصاره وقام بالوقيعة مرة أخرى بكل من ساعد السلطان سليم على إعادة التسنين لتبريز، وفوض الأمر إلى ميزا حسين الأصفهاني الذي أصبح هو المتصرف بأمره ولم يعد الشاه إسماعيل يهتم بسياسة البلاد والعباد، وانكب على المتعة والشراب وأخذ إسماعيل في الكتابة إلى السلطان سليم مستعطفاً إياه وخاضعاً له في وقت كان سليم يفكر في غزو أوروبا واستعادة الأندلس.

وكاتب الشاه إسماعيل شارل الخامس إمبراطور إسبانيا وألمانيا وهولندا وجزءاً من إيطاليا على التحالف ضد الدولة العثمانية وقيل: إن الرسالة حملها القسيس بطرس الماروني أصله من جبل عامل بلبنان(٤).

وبدل الاستعداد من قبل السلطان سليم لغزو أوروبا نحو إخضاع الشام ومصر لحكمه خشية تآمرهم مع الشاه إسماعيل عليه، وبعد أن نجحت حملته تلك اتجه سنة ١٥٢٠م إلى غزو إيران مرة أخرى لإسقاط الشاه إسماعيل، ولكن لما وصل مرض ومات، وأما الشاه إسماعيل فقد كان منكبًّا على الخمر وبعيداً عن تسيير أمور الدولة وتركها إلى من فوضه بإدارتها وضعفت إلى أن توفي عن سبع وثلاثين سنة أي سنة ١٥٢٤م. قام القزلباش بتنصيب ابن إسماعيل البالغ عشر سنين الملك وتولى القزلباش إدارة أمور الدولة، فجلبوا في هذا العهد الفقهاء الشيعة اللبنانيين من جبل عامل إلى إيران، حيث تولوا تنضيد التأسيس بشكل عقديٍّ ديني مغالٍ جداً يشف عن ذلك ما قاموا بكتابته من مؤلفات في هذا العهد من أمثال المغلا محمد باقر المجلسي.

أمـا في تركيا فقد جاء السلطان سليمان القانوني بعد أبيه وكانت سياسته مهادنـة إيـران، حيث أطلـق سجنـاء القزلباشـ، وأعادهم إلى إيـران سنة ١٥٢٠م. واتجه إلى تنظيم جيشه لغزو أوروبا وخاصة بلجراد.

وسنة ١٥٣٢م توجه سليمـان القانوني بجيش لمحاربة القزلباش في إيران، فضـم أذربيجان، ودخل تبريز، وأخضع هذا الجـزء للدولة العثمانية، وهرب القزلباشـ بطهماسب إلى قزوين بعيـداً، فرجع السلطان سليمان من همدان إلى بغداد مطهراً تلك الأراضي من أمصار القزلباش.

وقـد دخل فقهاء الشيعة القادمون من لبنان إلى الصفويين الإرث الشيعي القـديم، وطوروا بعضه تحت عوامل مسيحية كانوا قد اقتبسوها من مسيحين لبنـان. فقـد أدخلوا موضوع الـبراءة الناشئ من تسميتهـم بالروافض، فهم يرفضـون ولاية أبي بكر وعمـر وعثمان ويتبرؤون منهم. ولـذا، فقد نشأت في العهد الصفوي جماعات البراءة التي تجوب الحارات والمدن لحث الناس على البراءة تلك أو تعريضهم للقتل؛ لأن رفضهم علامة للسنة.



مقدمة

منذ قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م والنجاحات التي استطاعت أن تحققها على جميع المستويات الداخلية والإقليمية والعالمية، والشعارات التي رفعتها من قبيل الدفاع عن المستضعفين والمظلومين ضد الشيطان الأكبر وقوى الغطرسة العالمية، هذا النجاح وسط بيئة عربية من الديكتاتورية والتسلط والقمع والاستبداد والتماهي مع الأجندتين الصهيونية والأمريكية، شكّل إرباكًا كبيرًا لدى قطاعات واسعة في العالم العربي تجاه تحديد الموقف من إيران وثورتها ومجمل توجهاتها السياسية والمذهبية.

جاءت ثورة إيران في حقبة زمنية سوداء على العالم العربي، فقد تزامنت مع توقيع اتفاقيات كامب ديفيد التي أخرجت مصر من معادلة الصراع العربي الإسرائيلي، وما تبع ذلك من طرد مصر من جامعة الدول العربية ومن قطع العرب علاقاتهم الدبلوماسية معها ومن نقل مقر الجامعة العربية من القاهرة، وما رافق ذلك من حالة شديدة من الانقسام والتشرذم العربي لم يسبق لها مثيل.

كان العالم العربي يعيش في حالة من انعدام الوزن والتفكك وفقدان البوصلة بعد أن خرجت أكبر وأهم دولة من معادلة الحل العسكري وسط حملات إعلامية من التراشق والسب المتبادل بين الأنظمة العربية، فإذا بالثورة الإيرانية تقوم لتقدم للمواطن العربي نموذجًا مختلفًا تمنى أن يراه في عالمه العربي، ولكن دون جدوى.

قارن المواطن العربي بين حال الشعوب العربية المقهورة تحت أنظمة الاستبداد وبين الشعب الإيراني، فاكتشف أن الإيرانيين أكثر حيوية في رفض القمع والاستبداد، فأعجب بثورتهم التي أسقطت نظامًا أكثر استبدادًا وعمالة من النظم العربية.

رأى المواطن العربي الثورة الإيرانية وهي تحاكم المسؤولين في نظام الشاه السابق وتعدمهم، بينما هو لا يستطيع أن يفعل شيئًا للمسؤولين في بلاده الذين ينهبون الثروات ويزورون الانتخابات، ويحكمون بالحديد والنار، ومع ذلك لا يستطيع القانون أن يصل إليهم، فيزداد فقدانًا للأمل في بلاده وفي الوقت نفسه يزداد إعجاباً بإيران وثورة إيران وقادة هذه الثورة.

رأى المواطن العربي الثورة الإيرانية التي تتحدى أمريكا، وتحتل سفارتها في طهران، وتحتجز المئات من الأمريكيين، وتوجه إليهم تهم التجسس، وتجبر الأمريكيين على الإفراج عن الأرصدة الإيرانية المجمدة في المصارف الأمريكية، وتطلق كل يوم عشرات التصريحات النارية ضد الشيطان الأكبر، فيزداد إعجاباً بالثورة وشعاراتها، في وقت يرى الانبطاح العربي أمام الأوامر والإملاءات الأمريكية.

وشاهد المواطن العربي وسمع قادة الثورة الإيرانية، وهم يطلقون التصريحات المنددة بإسرائيل التي تتوعد بإلقائها في البحر وإنهائها من

الوجود، والتي تؤيد في الوقت نفسه النضال الفلسطيني، وسمع عن تخصيص يوم لدعم القدس والمسجد الأقصى، فيفقد الثقة في الزعماء العرب الذين فشلوا في مواجهة إسرائيل، ويزداد إعجاباً بالثورة الإيرانية وموقفها من تحرير فلسطين.

كان عام ١٩٧٩م عاماً مشهوداً في حياة الحركة الإسلامية عامة، والحركة الإسلامية المصرية على وجه الخصوص. ففي هذا العام وصل المد الإسلامي في مصر أقصى ما يمكن، وكانت الجامعات المصرية هي منبت هذا المد المبارك ومحضنه؛ فلقد أدت دوراً كبيراً في تهيئة البيئة المناسبة للشباب الجامعي للانخراط في العمل الإسلامي، والتزود من الثقافة الإسلامية.

ومارس شباب الحركة الإسلامية المصرية في هذه الأثناء العمل السياسي من أوسع أبوابه، فلم يكن يمر يوم إلا وهناك مظاهرة في حرم الجامعة أو خارج الجامعة، إما للاحتجاج على شأن مصري داخلي، أو للاحتجاج على موقف دولي رأى فيه هؤلاء الشباب مؤامرة على المسلمين.

في هذه الأجواء دخل شباب الحركة الإسلامية في صدام مروع مع الرئيس الراحل أنور السادات؛ بسبب توقيعه اتفاقية السلام مع اليهود، وسيره وفق المخطط الأمريكي، ودورانه في فلكه.

وسط هذا الاضطراب اندلعت الثورة الإيرانية بقيادة «الخميني»، ونجحت الثورة في الإطاحة بالشاه، وتأسيس نظام سياسي يقوده علماء الدين الشيعة.

وقد كنت طالباً في الجامعة في هذا الوقت، وكنت أيضًا أحد أبناء الحركة الإسلامية، وعشت حالة الفرح التي انتابتنا إعجابًا بأخبار هذه الثورة.

كان إعجابنا يفوق الوصف بالخميني وتصريحاته، وربما كان ذلك نابعاً من الإحباط الذي كنا نشعر به، خاصة بعد أن ذهب الشاه مطروداً إلى الولايات المتحدة، فرفضت استضافته، وطردته، ففتح له السادات أبواب مصر، واستضافه حتى مات، ودفن فيها.

كنا وقتها نعتقد أن ثورة إيران هي الإلهام الذي سوف يحرك الجمود في العالم العربي والإسلامي من أجل التحول ناحية الإسلام، وإقامة نُظُم الحكم في بلادنا على أساس إسلامي، لم تكن لدينا الدراية الشرعية ولا الثقافية الخاصة بالشيعة ولا بتاريخهم، ولم يدر بخلدنا يومًا مراجعة موروثهم المذهبي والتاريخي، فضلاً عن معايشتنا لاتجاهات إسلامية واسعة الانتشار تسارع في تهنئتهم وتأييدهم بالثورة.

«كامب ديفيد» التي أخرجت مصر من معادلة الصراع، كان معناها ربط إرادة مصر بإرادة أمريكا وإسرائيل، فليس مسموحًا بأنواع معينة من التنمية الاقتصادية والعلمية والتصنيعية والبحثية، ومع مرور الأيام ودخول مصر بيت الطاعة الأمريكي الإسرائيلي أصبحت مسخًا مشوهًا لا يستطيع الفعل والتأثير، وباتت عاجزة فاقدة للإرادة، لا تجيد إلا إطلاق إعلامها لخداع الناس وتضليلهم أو سب العرب والتعالي عليهم والتغني ببطولات زائفة.

كان من المتصور أن مصر بعد أن جعلت السلام خيارها الإستراتيجي، أن تهتم بالتنمية السياسية والاقتصادية، لكن ما حدث كان تطورًا شديد السلبية للنظام السياسي، فتم تكريس الاستبداد والإصرار على أن تكون الحياة السياسية مزيفة وغير حقيقية، وأصبحت السياسة المصرية مسرحًا كوميديًا يثير الغثيان، وتسبب ذلك في شلل الحياة السياسية وفي حرمان مصر من الكفاءات النزيهة والعقول السياسية المبدعة.

الأبشع من ذلك أن السياسات الاقتصادية التي تم اتباعها كانت سياسات فاشلة، وأدت إلى أن تذهب ثروة مصر إلى جيوب حفنة من رجال الأعمال المشبوهين وإلى غير الأكفاء بل الفاسدين، وأن تصبح الغالبية العظمى من المصريين في حالة معاناة وضنك وصراع على رغيف الخبز، بعد أن انتشر الفساد، وسادت الفوضى الإدارية والمحسوبية.

كان هذا يحدث في مصر، أكبر وأهم دولة عربية، لكن على الجانب الآخر، وبعد الثورة، عاشت إيران عقوداً من المد الثوري والمجد الوطني، وتخلصت من الخوف والإحباط الذي كبل الجماهير سنوات طويلة، وأسست نظاماً سياسيًّا قويًّا وفعالاً، وأصبحت الانتخابات البرلمانية والرئاسية الإيرانية مشهودًا لها بالكفاءة والنظافة.

وعلى الرغم من أن الحرب مع العراق استنفذت طاقة إيران الاقتصادية، إلا إن السياسيين الإيرانيين الوطنيين استطاعوا أن يقيموا اقتصاداً قويًّا، وأن يؤسسوا صناعات وطنية لم تكن موجودة في إيران من قبل.

وأسست إيران تكنولوجيا الصواريخ، وتعاونت مع الصين وكوريا والأرجنتين وروسيا ودول الكتلة الشرقية، حتى نجحت في النهاية في أن يكون لديها صواريخها الخاصة بتكنولوجيا محلية متطورة تم توطينها داخل إيران. ولم تكن الصواريخ فقط هي التي شهدت تطويرًا في مستوى الأسلحة والقدرات العسكرية، فقد شهد التطوير مختلف أنواع الأسلحة والذخائر، بل إنه تم تطوير الطائرات، بل إن إيران أصبحت تصنع السيارات والحافلات، وغيرها.

وكان من المحطات المهمة في التطوير والتحديث، القمر الصناعي محلي الصنع للأغراض السلمية، يحمله إلى الفضاء حامل الأقمار الصناعية

الإيراني الصنع أيضًا، القمر محمل بمعدات لاختبار السيطرة عليه، ومعدات اتصال وأنظمة لإمداد الطاقة، وهو يعود إلى الأرض بعدما يبقى في الفضاء ما بين شهر وثلاثة أشهر حاملاً بيانات تساعد الخبراء في أبحاثهم عن الكرة الأرضية والفضاء.

وأجرت إيران تجارب على صاروخ قادر على حمل القمر الصناعي، وتزامن مع هذه الخطوة افتتاح مركز فضائي متطور يهدف إلى إطلاق الأقمار الصناعية، ويضم قمراً صناعيًّا، ومحطة تحت الأرض للمراقبة، ومنصة للإطلاق.

كان منطقيًّا أن تفعل إيران ذلك، لأنها لم ترهن إرادتها بإرادة أطراف إقليمية ودولية، ولأنها أقامت نظاماً سياسيًّا فعالاً له إرادة سياسية قوية وصلبة، ولديه برنامج وطني يريد تنفيذه، هذا النظام حارب الفساد ووجه موارد إيران لخدمة الأهداف الوطنية العليا.

ومن العجيب أن إيران فعلت كل ذلك، وهي على وشك تحقيق الإنجاز الأكبر، وهو امتلاك القنبلة النووية بخبرة إيرانية كاملة، على الرغم من العقوبات والحصار المفروضين عليها، لكن إرادتها السياسية القوية مكنتها من أن تجعل الحصار دافعاً لها نحو الاكتفاء الذاتي من التصنيع، وفي هذا درس قاسٍ للقادة العرب من أهل الاعتدال وأنصار السلام والاستسلام لو كانوا يعلمون.

هذه الفاعلية والحيوية والكفاءة في النظام السياسي والاقتصادي الإيراني، وفي التصنيع المدني والعسكري، وفي كل شيء، انعكست على الدور الإيراني في أحداث غزة في أواخر عام ٢٠٠٨م وأوائل عام ٢٠٠٩م، فكان البون شاسعًا بينه وبين الدور المصري، ومع إيماننا بعدم صدق نيات إيران في مساعدتها للمقاومة والجهاد في غزة، ومع إدراكنا للمكاسب الطائفية

والمذهبيــة الضيقة التــي تريد إيران أن تجنبها مــن دعمها لحركتي «حماس» و«الجهـاد» في فلسطين، فإن إيــران قدمت الدعم المــالي والأسلحة للمقاومة الفلسطينية، وأطلقت الأقمار الصناعيــة والصواريخ للفضاء، بينما انشغلت مصــر بتعقب الأنفاق التي تعد شريان الحياة لأهل غزة ضد الحصار الظالم الــذي تشــارك فيه مصــر، وانشغلت بتركيـب الكاميرات الدقيقــة على طول الحدود مع غزة حتى تستطيع ضبط التهريب والأنفاق.

العجيب أن صناع السياسة في مصر، إبان عهد مبارك البائد، كانوا يكذبون علــى الناس بقولهم: إن «حماسـ» تعمل وفق أجندة إيرانية، ونحن نرد عليهم ونقــول لهــم: لنفترض أن ذلك صحيــح، ولكن ما الذي دفعهــا إلى ذلك؟ ألم تذهــب إليهم مجبرة بعد أن حاصرتموها وتآمــرتم عليها؟ هل بذلتم الجهود لاحتوائهــا كي تعمل بأجندتكم، فأبت، وتوجهت نحو إيران؟ أليست إيران هي التي أعطت خالــد مشعل رواتب الموظفين بعد أن تآمرتم مع أمريكا وإسرائيل وسلطة عباس الفاسدة في منع الرواتب، حتى ينقلب الناس على «حماس»؟

يا قوم، إن إيران تستغل تناقضاتكم وفشلكم لكي تملأ الفراغ الذي تركتموه نتيجة انبطاحكم وخياركم المهزوم، فأنتم تلعبون لمصلحة إيران منذ سنوات، فأنتم الذين وقفتم مع العدوان الأمريكي على العراق، فكانت النتيجة احتلال بــلاد الرافدين، وكانت النتيجة الأكبر والمحصلــة النهائية أن أمريكا وأوروبا حاربــوا في العــراق وأنتم أيدتم ومولتم، ثم ذهب العــراق على طبق من ذهب لإيــران، فسقطت الثمرة الغالية في حجرها مجانًا بلا ثمن، نتيجة حماقاتكم وانعدام رؤيتكم وخوفكم من أمريكا وإسرائيل.

والآن قبــل أن تلوموا إيران لوموا أنفسكم، وقبل أن تتهموا «حماس» اتهموا أنفسكم، وكونوا صادقين مع أنفسكم ولو مرة واحدة، ساعتها ستدركون حجم

الجرم الذي ارتكبتموه في حق شعوبكم وأمتكم وفي حق مستقبل هذه البلاد، وفي حق التاريخ الذي سيفضحكم، ويسجلكم في أسود صفحاته.

والآن وبعد مرور عقود طويلة على ثورة إيران، اكتشفنا أننا كنا واهمين، أعجبتنا وجذبتنا القشرة الخارجية للثورة، وخاصة بعد احتكاكها بالولايات المتحدة، وأحداث السفارة الأمريكية في طهران، ثم المحاولة الأمريكية الفاشلة لتحرير رهائن السفارة.

كنا نؤيد رجلاً وجدناه يتصدى لـ«الشيطان الأكبر»، أما الآن، وبعد هذه السنوات الطويلة من الممارسات الإيرانية، اكتشفنا الحقيقة، وهي أن إيران - التي ترفع شعار الإسلام والدفاع عن المستضعفين - ما هي إلا دولة تطبق سياسات ضد الإسلام والمسلمين، ولا يهمها من قريب أو بعيد إلا مصلحة طائفتها الشيعية الضيقة.

ترفع إيران الشعارات الإسلامية، ومنها تحرير فلسطين، وتقدم بعض المساعدات للفلسطينيين، ليس إيماناً بعدالة القضية، وإنما لتستخدمها إعلاميًّا وسياسيًّا في خطابها مع العالم الإسلامي، كما سنرى في فصول هذا الكتاب، لتقول: ها أنا أدافع عن حقوق المسلمين وقضاياهم، وأقف ضد الغطرسة الأمريكية التي تريد الهيمنة على العالمين العربي والإسلامي.

مع مرور هذه العقود سقطت ورقة التوت، وانكشفت العورة الإيرانية تمامًا، كان يمكن للخبث والدهاء الفارسي ألا ينكشف، وأن يستمر في العمل، كما حدث في أفغانستان، وكما حدث ويحدث في لبنان، ولكن الساحة العراقية كانت الكاشفة والفاضحة، بعد أن أصبح العرب والمسلمون، ومعهم العالم أجمع، يدركون حجم التورط الإيراني في مساعدة الأحزاب والجماعات

العراقية الشيعية، والأخطر من ذلك تكوين المليشيات الشيعية وتدريبها وتزويدها بالسلاح، لقتل السنة وتهميشهم والانتقام منهم، أملاً في الوصول إلى حلم (الهلال الشيعي).

كان المخدوعون بالحجج الإيرانية يرون أن الثورة في إيران تحتاج إلي وقت لتثبيت أقدامها، ويعتقدون أنها محاطة بمكائد كثيرة، خصوصًا من جانب الولايات المتحدة وإسرائيل، وأن الشيعة لم تكن لهم دولة منذ نحو عشرة قرون، وهو ما يدعو لأن نفهم اندفاع بعضهم لإقامة دولتهم والإعلاء من شأن مذهبهم.

ولكن حينما بطل السحر، اكتشفنا أن الثورة الإيرانية طائفية حتى النخاع، وأنها تضطهد السنة في إيران أشد أنواع الاضطهاد. أهل السنة في إيران على الرغم من عددهم الكبير نسبيًّا (أكثر من ٢٠ مليوناً من بين ٧٢ مليوناً)، ليس بينهم وزير ولا سفير ولا حتى محافظ، ولم يسمح بإقامة مسجد لهم في طهران التي يعيش فيها أكثر من مليون من أهل السنة.

استشعرت إيران اطمئناناً إستراتيجيًّا بعد سقوط نظامي (طالبان) وصدام حسين، وسعت إلي تثبيت الوضع المستجد في العراق وإطلاق العنان لنفوذها من خلال التواصل مع كل الفئات، والجماعات الشيعية في المقدمة منها، وكانت الأجواء مواتية تماماً لأنشطة غلاة الشيعة، الذين اعتبروا أنهم بصدد فرصة تاريخية ينبغي أن تستثمر ليس فقط لمصلحة المذهب وأهله، وإنما أيضاً لتصفية حسابات تاريخية حملها الشيعة في عقولهم ونفوسهم عقوداً طويلة ضد أهل السنة.

وما يؤكد حجم المخطط الإيراني المذهبي، تزايد النفوذ الإيراني في العراق، كما هو مرصود في أجهزة الإعلام العالمية، إلى حد أن بعض

الجماعات في الجنوب أصبحت تعتمد اللغة الفارسية في معاملاتها، وإطلاق عبدالعزيز الحكيم دعوته إلي إقامة فيدرالية تضم تسع محافظات شيعية في الجنوب تتركز فيها الثروة النفطية، ونشاط حركة تهجير أهل السنة من تلك المحافظات، لتكون خالصة للشيعة دون غيرهم، كل ذلك فصول من مخطط الهلال الشيعي الذي تقوده إيران.

بل إن الممارسات الإيرانية الطائفية وصلت إلى أبعد من حدود العراق، حيث أصبحت الجهود الإيرانية المكثفة للتبشير بالمذهب الشيعي في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي، من جزر القمر إلي تونس والجزائر، إضافة إلي أقطار القارة الإفريقية ومختلف البلاد الآسيوية، أصبحت هذه الجهود واقعاً معلوماً للجميع ومرصوداً من المراقبين وأجهزة الإعلام.

كان توجه الثورة الإيرانية إسلاميًّا في المظهر، لكنه كان قوميًّا فارسيًّا في الجوهر، جعل أولويته الأولى، وهو لم يكد يتسلم السلطة بعد، إسقاط النهج القومي العربي تحت شعار خدع كثيرين مع الأسف، وهو (تصدير الثورة).

أول المواقف القومية الفارسية السلبية للثورة الإيرانية، التي أظهرت حقيقة توجهها، هو موقف هذه الثورة من السنة الإيرانيين، حيث استضعفتهم، فقمعتهم بقوة، وحرمت عليهم الانضمام للجيش والحرس الثوري والأجهزة الأمنية والمناصب العليا في الدولة، وحتى المناصب المتوسطة، واغتالت علماءهم.

ولأن منتظري نائب الخميني وشريكه في الثورة كان لديه بعض التسامح مع أهل السنة، وكان يدعو إلى نوع من التقارب معهم فقد اتهم بأنه متسنن، فحيكت مؤامرة للإطاحة به، ووجه له الخميني رسالة شديدة اللهجة، يوبخه فيها متهمًا إياه بالسذاجة والتآمر على الثورة واستغلاله من قبل أعدائها.

وعندما اندلعت في بداية التسعينيات الحرب بين أرمينيا النصرانية وأذربيجان المسلمة، فإن الإيرانيين دعموا الأرمن ضد المسلمين، ومازالوا يدعمونهم حتى اليوم، في فضيحة أخلاقية لا يمكن أن يقبلها أي عقل سليم وأي ضمير حي.

لو كانت الثورة حقًّا تريد الإسلام، وتسعى لتحقيق الأخوة الإسلامية، لما فرقت بين مواطنيها على أساس المذهب، لكن الذي حدث كان انحيازًا كاملاً للمذهب وطائفية مقيتة، فعقب الثورة اشتدت معاناة أهل السنة في إيران، وذلك من جراء سياسية التمييز الطائفي التي تمارس ضدهم على الأصعدة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد تركت هذه السياسة آثارها على أهل السنة، وجعلتهم محرومين من المشاركة في إدارة شؤونهم، وأبعدتهم عن المشاركة في أمور الدولة عامة.

وقد سعى كثير من العلماء والشخصيات الفكرية السنية البارزة منذ قيام الثورة وحتى الآن إلى إيصال مظالم أهل السنة إلى أعلى المسؤولين في النظام الإيراني، لكن كل تلك المواقف والمساعي المستمرة منذ قيام الثورة عام ١٩٧٩م باءت بالفشل، ولم تفلح في رفع سيف التمييز الطائفي من على رأس أهل السنة. وبقيت النخب السنية محرومة من حصتها في المناصب السياسية والإدارية العليا كمنصب نائب رئيس الجمهورية أو منصب وزير، أو معاون وزير، أو وكيل وزارة، أو محافظ، أو سفير. وحتى في المناطق ذات الأغلبية السنية لم تراعَ فيها العدالة في توزيع المناصب، فالغلبة فيها دائماً للشيعة.

سياسة التمييز الطائفي والعنصري ضد أهل السنة والقوميات غير الفارسية عامة لا تزال قائمة بقوة، وذلك خلافًا للشعارات والوعود التي كان قد رفعها قادة الثورة، وعلى رأسهم الخميني، ولا يزال مسؤولو الدولة والنظام

يتعمدون الإساءة لأهل السنة ويرفضون الاعتراف بحقوقهم المشروعة، ويعدونهم مواطنين من الدرجة الثانية والثالثة في الكثير من الأحيان.

لقد جرى تشكيل فصائل المعارضة العراقية الخائنة في لندن وواشنطن بالتنسيق مع طهران، وفي أثناء العدوان الأمريكي، أفتت المرجعيات الإيرانية، ودعت في أتون المعركة أعضاء هذه الفصائل بتقديم المعلومات والإحداثيات عن المواقع العسكرية العراقية للقوات الأمريكية، وأصبح الأمر محل افتخار من هذه المؤسسات والحركات الإيرانية التي شاركت بفعالية في احتلال العراق، وشاركت بفعالية أكبر في مشروع ما بعد الاحتلال.

لقد قامت إيران بفتح أجوائها للطيران الأمريكي وبالإيعاز لجميع المليشيات الشيعية لما يسمى بالمعارضة العراقية، التي ترعاها إيران تسليحاً وتدريباً وتمويلاً، بالقتال إلى جانب الأمريكان. ومن المعروف أن هذه المليشيات تتكون معظمها من أصول فارسية، وقياداتها ضباط في الحرس الثوري الإيراني والباسداران (قوات المتطوعين).

فقامت هذه المليشيات بنشر الخراب والدمار والهلاك في أنحاء العراق، وقامت، وتقوم بمساندة فرق من المخابرات الإيرانية بعمليات اغتيال وتصفيات بين أبناء السنة في مدن الجنوب، وخصوصاً مدينة البصرة التي يشكل السنة نسبة كبيرة من عدد سكانها، وذلك لإجبارهم على الرحيل من أجل إقامة دولة شيعية في جنوب العراق، وأعلن عبدالعزيز الحكيم، وها هم أيضاً يطاردون ضباط الجيش العراقي السابق والعلماء وأساتذة الجامعة من أهل السنة، ويقتلونهم، ويقتلون كل من يحمل اسم عمر.

وأول من اعترف باحتلال أمريكا للعراق كانت إيران، فوزير خارجيتها كان أول وزير خارجية في العالم وحتى قبل وزير الخارجية الأمريكي يذهب إلى بغداد ليبارك الاحتلال الأمريكي لعاصمة الرشيد.

لقد أثبتت الأيام أن الإيرانيين يدعمون حزب الله، اللبناني، ليس دعمًا للمقاومة ضد إسرائيل، فـ(حزب الله) ليس له علاقة بفلسطين وتحرير فلسطين، فهو حزب شيعي طائفي خالص صنعته إيران ليكون لها ذراعًا قوية في لبنان وليحول الطائفة الشيعية من أضعف طائفة إلى أقوى طائفة، من خلال الصدام مع الكيان اليهودي للتغطية على الهدف الحقيقي، ولكي يتمكن من خلال دوره هذا من فرض كلمته على الدولة في لبنان.

عملت إيران جاهدة على أن تسلح (حزب الله) لكي يكون أقوى من الجيش اللبناني ذاته، وكان منظراً شديد القسوة أن تحتل ميليشيا «حزب الله» أحياء السنة في العاصمة بيروت، مهددة الحكومة ورئيسها السني فؤاد السنيورة، ومستعرضة قوتها أمام الجميع ليخاف الجميع ولكي يسمع ويطيع كلام الحزب المدعوم، في الوقت الذي يقف فيه السنة في لبنان بلا أي غطاء سياسي أو عسكري من أي نوع.

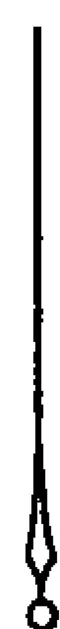
أثبتت الأيام أن إيران دعمت قتل الفلسطينيين، فعندما كانت حركة «أمل» الشيعية ترتكب المذابح ضد المخيمات الفلسطينية في لبنان بين أعوام (١٩٨٤م -١٩٨٧م) فيما عرف بحرب المخيمات، كانت إيران تغض الطرف عن ذلك، وكانت تقف موقف المتفرج الصامت، أي إنها كانت موافقة على ما يجري. والأدهى من ذلك أن سفاح مجازر صبرا وشاتيلا «إيلي حبيقه» كان يترشح على قائمة «حزب الله» في الانتخابات البرلمانية أكثر من دورة.

ثم إن موقف «حزب الله» من الاحتلال الأمريكي للعراق يوضح طبيعته المذهبية المتعصبة، حيث إنه لا يذكر المقاومة العراقية السنية بكلمة خير أو تأييد بل يهاجمها بحجة مهاجمة الإرهابيين، وهو أيضًا يحرم مواجهة من يتعاونون مع الأمريكيين من الجيش والشرطة.

وإذا كان الحديث قد كثر عن رغبة إيران في تأسيس ما يعرف بـ«الهلال الشيعي» الذي يمتد من إيران إلى داخل العمق الإيراني، مدعوماً بالنفوذ في سورية ولبنان، صانعًا «كماشة» عن طريق التكامل مع شيعة الخليج والسعودية، مكملاً فكي «الكماشة» بالوجود العسكري في اليمن من خلال «الحوثيون»، فإن السلوك الإيراني وتطورات الأحداث أثبتت أن هذا كله ليس توهمات أو اتهامات لإيران لا تقوم على دليل، وإنما كلها «رتوش» تكمل الصورة التي تؤكد أن إيران تعمل جاهدة على إعادة المجد الإمبراطوري الفارسي، عن طريق زرع خلايا مزعجة لها في الجسد العربي، ثم عن طريق نشر التشيع وتصدير أفكار ثورتها.

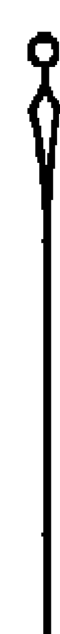
في فصول هذا الكتاب سوف يلمس القارئ الكريم إذا ما كنا نكيل الاتهامات من دون دليل إلى إيران، أم أن ما نتحدث عنه هو حقائق يصعب التشكيك فيها، وسيتأكد الكثيرون من حسني النية أن إيران لم تكن عند ظنهم، ولم تنطلق من رعاية الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية، وإنما كان المنطلق المذهبي الضيق هو رائدها وهاديها.

المؤلف



الباب الأول

حقـــائق لا أوهـــام



الفصل الأول

ليست اتهامات.. بل واقع يعلن عن نفسه

بـرزت مقولة (الهـلال الشيعي) لأول مـرة على الساحـة العربية على يد الملك عبدالله الثاني ملـك الأردن بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وبالتحديد في أثنـاء زيارته للولايات المتحـدة في أوائل شهر ديسمبر عام ٢٠٠٤م، عندما حذر في تصريح نشرته صحيفة (واشنطن بوست) في الثامن من ديسمبر من وصـول حكومة موالية لإيران إلى السلطـة في بغداد تعمل بالتعاون مع طهران ودمشق لإنشاء هلال يخضـع للنفوذ الشيعي، يمتد إلى لبنان، ويخل بالتوازن القائـم مع السنـة. وقال الملك عبدالله الثـاني: إن إيران تجـد مصلحتها في إقامـة جمهورية إسلاميـة في العراق، وهي تمول أنشطـة خيرية عدة في هذا البلـد لتحسين صورتها، وشجعـت أكثر من مليون عراقي علـى عبور الحدود للتصويـت في الانتخابـات العامة وفقًـا لرغبتها. وفي تصريحـات أخرى من القاهـرة أكد هـاني الملقي وزيـر الخارجية الأردني في الثـاني والعشرين من ديسمـبر ٢٠٠٤م أن لـدى بـلاده أدلة كافية تبـين أن هذا الخطـر قائم، وأن عروبة العراق في خطر.

وعلى الرغم من أن هذه التصريحات كانت صيحة تحذير مستغربة من ملك مثل عبدالله الثاني؛ لأنه يفهم من المقولة الرغبة في تقوية الصف السني لمقاومة المد الشيعي الإيراني، ولكن هذا ليس موجوداً على أرض الواقع، فالأردن يبذل الآن جهوداً مستميتة لمكافحة ما يسمى هناك وفي بلدان أخرى في المنطقة الإرهاب والتطرف السني، وإن صيحة التحذير جاءت في وقت لا تتسم فيه السياسة الأردنية (ولا سياسة دولة سنّية أخرى) بأي طابع ديني أو بما يمكن أن تشتم منه رائحة الانتماء الديني، بل على العكس تجرى مواجهة الدين الإسلامي أساساً.

والغريب أيضاً أن تأتي صيحة التحذير هذه في وقت يبدو فيه الغرب وبالذات أمريكا (صديقة الأردن) في حالة رضا كامل وتنسيق كبير مع الشيعة في العراق أدت إلى تسليم مقاليد الأمور في بلاد الرافدين إليهم، بعد أن أضفى تعاونهم الديني والسياسي مع الأمريكان شرعية على الاحتلال الأمريكي وثبت دعائمه.

فإذا كان الشيعة في العراق هم حتى الآن الورقة المهمة لأمريكا، فلماذا تصدر عن الأردن صديقة أمريكا هذه التحذيرات حول الهلال الشيعي الذي يعيد إلى الأذهان ما سبق أن سماه مستشار الأمن القومي الأمريكي في أواخر السبعينيات بهلال الأزمة أو ما أسمته وسائل الإعلام الأمريكية والغربية باسم الهلال الأخضر (نسبة إلى الإسلام)؟

التحذير يبدو غريباً، ويناقض الواقع، وإن كان يمكن بالطبع تفسيره سطحيًّا على أنه يأتي ضمن سلسلة التحركات الدعائية الأمريكية ضد إيران بسبب ما يشار حول سعيها لامتلاك الأسلحة الذرية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل. غير أنه يبدو هناك خلفيات أخرى لهذا التحذير[1].

فعلى المستوى الأول يتضح أن التحذير ينطوي على محاولة واضحة لدعم وترويج السياسة الأمريكية لشق العالم العربي على أسس طائفية، وبالذات على محور السنّة والشيعة. فبينما تشجع أمريكا الشيعة في العراق على انتهاز الفرصة السانحة للوصول إلى موقع السيطرة في ذلك البلد يهمها في الوقت نفسه ودعماً لمخطط الانقسامات أن تثير رد فعل مقابل يحفّز السنّة على القيام لمواجهة الشيعة والتصارع معهم. وبالطبع لن يصلح أن يأتي هذا التحميس للعرب السنة من جانب أمريكا، بل لا بد حسمًا للوضع أن يأتي من جانب دولة سنية حتى لو كانت تقوم مع غيرها من الدول السنية بشن حملة شعواء على الإسلام كله ولمصلحة أمريكا نفسها.

ومن ناحية أخرى، فإن التحذير المدفوع أو الموعز به أمريكيًّا من قيام كيان شيعي مسيطر في المنطقة له هدف آخر، بحيث يكون عاملاً من عوامل الكبح والاحتواء لأي تفكير استقلالي قد يطرأ على ذهن القيادات الشيعية العراقية يدفعها إلى خداع أمريكا والسير معها حتى الوصول إلى موقع قوة ثم الانقلاب عليها وتشكيل محور قوة مع إيران. وفي هذا الإطار يأتي التحذير نوعاً من التحزيم والتسوير لأي تفكير استقلالي شيعي قد يخرج بالتحرك الأمريكي في العراق عن أهدافه الأساسية في إضفاء شرعية على الاحتلال وتطوير أمره، وبث الفرقة في العالم العربي وفصل العراق عن العالم العربي من خلال تكريس التوجه الكردي من ناحية ثم التوجه الشيعي نحو إيران من ناحية أخرى.

ويأتي التحذير من قيام كيان شيعي كبير كذلك في إطار أو سياق آخر، وهو الرفض الأمريكي- الأوروبي الجذري لأي كيان أو دولة إسلامية كبرى تقوم

في المنطقة، وهو رفض أصيل يعلو على مجرد التحركات السياسية التكتيكية التي قد تسمح بتعاون مرحلي أو حتى تشجيع مؤقت لتلك الطائفة الإسلامية أو تلك. أما بالنسبة إلى الطوائف غير الإسلامية، فإن هذا الرفض لا يسري بطبيعة الحال كما تدل على ذلك التحركات الجارية بالنسبة إلى الأقليات المسيحية في السودان ومصر مثلاً.[٢]

عقب صيحة التحذير التي أطلقها الملك عبدالله الثاني برز استخدام تعبير (المثلث الشيعي) المقصود منه العراق وسورية ولبنان، حيث للشيعة وجود كبير في هذه المنطقة المتجاورة، وجاء المصطلح بعد الهيمنة الشيعة على الحياة السياسية في العراق، بعد عقود طويلة لم تكن لهم هذه الهيمنة والصدارة، وذلك أثار هواجس مختلفة لدى عدد من الدوائر الإقليمية والدولية، خشية تمدد الطموح الإيراني لما وراء العراق، أي إلى لبنان وسوريا، حيث تسكنهما جماعات شيعية تتمتع بعلاقات وثيقة مع طهران، فضلاً عن الحرارة المتصاعدة في صفوف شيعة دول الخليج.

ويؤكد الأمر تلك التهديدات التي أطلقها، ويطلقها كبار المسؤولين في الحكومة العراقية، ابتداءً من الحكومة الأولى المؤقتة (الرئيس غازي الياور ورئيس الوزراء إياد علاوي ووزير الدفاع حازم الشعلان والداخلية فلاح النقيب)، إلى آخر حكومة عراقية يسيطر عليها الشيعة وبرامجهم الطائفية قبل صدور هذا الكتاب.

وكان مروان المعشر وزير الخارجية الأردني السابق محقًّا في تصريحه لشبكة إن. بي. سي في ٢٧ إبريل عام ٢٠٠٣م الذي حض فيه الولايات المتحدة على ضرورة الحرص على عدم استبعاد أي فئة في المجتمع العراقي المدني؛

حتى لا تتولى الحكم سلطة دينية على غرار النموذج الإيراني المجاور. وتذكر هذه التحذيرات بوثيقة سبق أن وضعها حزب الدعوة الشيعي العراقي في بداية الثمانينيات، عندما انتصرت ثورة الخميني في إيران، أشار فيها إلى (الهلال الشيعي) الممتد من شمال أفغانستان حتى جبل عامل في جنوب لبنان.

وجاء صعود هذه الدعوة وهذا التحذير في أجواء خوف حقيقي على سنة العراق الذين تعرضوا لكل أنواع التهميش والإقصاء من الحكومات الشيعية المتعاقبة، والذين تعرضوا لأبشع أنواع التعذيب والقتل والسحل والطرد من ديارهم على يد ميليشيات الموت الشيعية المدعومة والممولة من إيران والمدربة في إيران، ويأتي أيضاً في ظل خوف السنة وانسحابهم من الانتخابات ومقاطعتها لعلمهم ما ستؤدي إليه هذه الانتخابات سلفاً[٢].

وعلى الرغم من تشكيكنا في توجه وصدق الملك عبدالله الثاني، لكن الواقع على الأرض يؤكد المخاوف من أن الهلال السياسي الشيعي يعني ما يمكن أن يؤدي إليه واقع يقوده ويخطط له الحرس الثوري والمخابرات الإيرانية الذي يعمل بكل ما أوتي من أجل تصدير الثورة الإيرانية، وتدعمه المرجعيات الشيعية الإيرانية والعراقية على أعلى مستوى، إضافة إلى التنظيمات والميلشيات العراقية التي تتعاون مع هذا المخطط وتدعمه، وتشكل له ولتطلعاته وخططه رأس جسر نحو دول عربية أخرى.

في ظل المد الشيعي بعد الانتصار النسبي لـ (حزب الله) في لبنان، وتولي الشيعة السلطة في العراق، واستمرار إيران في مشروعها النووي، وفي ظل الممارسات اليومية للسياسة الإيرانية في المنطقة، وفي ظل ممارسات وتصريحات طائفية متطرفة لقادة الشيعة في العراق، أصبح الكلام عن

(الهلال الشيعي) ليس ليًّا لأعناق الأمور وليس تجنياً على إيران وكراهية لها وليس ادعاءات لا أساس لها.

لقد حاول الباحث السعودي نواف عبيد، مدير وحدة بحث مستقلة تُدعى (المشروع السعودي لتقييم الأمن الوطني)، في دراسة تستند إلى حقائق وأرقام، تفنيد نظرية المد الشيعي في المنطقة، وأكد الباحث استحالة قيام هلال شيعي يمتد من إيران إلى البحر المتوسط، وبنى نظريته على الآتي:

بالنسبة إلى عدد السكان: عدد السنّة الإجمالي: ١,١٧ مليار نسمة (٨٤,٦٪ من مجموع المسلمين). ولدى ستّ دول إسلامية كبرى غالبيّة سنّية: أندونيسيا وباكستان والهند وبنجلادش وتركيا ومصر. السعودية، البلد الأغنى في العالم الإسلامي ومهد الإسلام، هي دولة سنّية محورية.

بينما عدد الشيعة الإجمالي: ٢١٣ مليون نسمة (١٥,٤٪ من مجموع المسلمين).

لدى أربع دول فقط غالبيّة شيعية: إيران وأذربيجان والعراق والبحرين. (الشيعة مجموعة كبيرة في لبنان، لكنّهم ليسوا غالبيّة مطلقة).

إيران هي القوّة الشيعية الأساسية.

تتقسم الطائفة الشيعية إلى ستّة مذاهب مختلفة: الطائفة الأساسية والأكثر تأثيراً هي الجعفرية (مدرسة الفكر الرسمية في إيران والعراق، والشيعة العرب في الخليج).

إضافة إلى ذلك، هناك مذاهب عدّة مرتبطة بالطائفة الشيعية، ولا سيّما الإسماعيليين والعلويين والزيديين.

بالنسبة إلى توزيع القوى الاقتصادية: السعودية (السنّة) وإيران (الشيعة) هما قوّتان إقليميّتان أساسيّتان، والمقارنة بينهما مفيدة.

إجمالي الناتج المحلي في السعودية أعلى من إجمالي الناتج المحلي في إيران بستّين في المئة. (والرقم الذي يعطيه المصرف المركزي عن إجمالي الناتج المحلّي الإيراني أقلّ بعشرين في المئة من الرقم الذي يعطيه صندوق النقد الدولي).

تفتقر إيران إلى القوّة الاقتصادية لتحقيق طموحاتها الإقليمية أو دعم بلدان أخرى ذات غالبيّة شيعية.

الدخل الفردي الإيراني هو من بين الأدنى في الشرق الأوسط (أقلّ بـ ٢٥٪ من الدخل الفردي السعودي).

الغالبية الساحقة من القوى الاقتصادية في العالم الإسلامي هي دول سنّية.

بالنسبة لتوزيع موارد الطاقة: السعودية هي أكبر منتج ومصدّر للنفط في العالم.

الإنتاج الإيراني هو أقلّ من نصف الإنتاج السعودي، والصادرات الإيرانية أقلّ بأربع مرّات من الصادرات السعودية.

على الرغم من كلّ ما يقال عن (سلاح النفط) الإيراني، فليست إيران سوى رابع مصدّرة بعد السعودية وروسيا والنروج.

بحلول منتصف ٢٠٠٧م، أصبحت الطاقة الاحتياطية السعودية موازية لكلّ الصادرات الإيرانية.

عائدات النفط السعودية أعلى بأربع مرّات من عائدات النفط الإيرانية التي هي قريبة من العائدات في بلدان الخليج الصغيرة مثل الإمارات العربية المتّحدة أو الكويت.

بالنسبة إلى القوة العسكرية: تملك إيران واحدًا من الجيوش الأقوى والأكثر قدرةً في المنطقة، لكنّه لا يزال متخلّفًا جدًا عن الجيش الإسرائيلي، القوّة العسكرية العظمى في المنطقة.

الأعتدة الحربية الإيرانية (ولا سيّما أعتدة قوّتها الجويّة) تشيخ، وبناءً عليه فاعليّتها في ساحة المعركة موضع شكّ.

من شأن حيازة إيران أسلحة نووية أن تدفع قوى إقليمية أخرى للسعي إلى امتلاك رادع نووي أيضاً. ويمكن أن تؤدّي إلى ردّ غربي قويّ.

الخلاصة: سيحصل الشيعة على مزيد من الحقوق، لكنّ "الانبعاث" الكامل غير ممكن بسبب التحدّيات الديموغرافية والاقتصادية والعسكرية.

عالميًّا، الشيعة أقلّ عدداً بمعدّل واحد على أكثر من خمسة، وفي الشرق الأوسط إنّهم أقلّية بكلّ وضوح.

اقتصاديًّا، تفتقر إيران إلى القوّة لتحقيق طموحاتها المعلَنة أو دعم الحركات الشيعية في الخارج.

في حين أنّ إيران قوّة عظمى، لا تتناسب قوّتها النفطية مع خطابها.

ستؤدّي أيّ مواجهة عسكرية بين إيران وجيرانها إلى تدخّل الولايات المتّحدة، وستدفع حيازة أسلحة نووية قوى إقليمية أخرى إلى القيام بالشيء نفسه.

لن تكون هناك قوّة مهيمنة في الشرق الأوسط إنّما ميزان قوى بين بلدَين أو ثلاثة بلدان قيادية في المنطقة[٤].

المتحمسون لتأكيد واقع ما يسمى (الهلال الشيعي) يتحدثون عن إمكانية مضافة لهذا المشروع السياسي الإيراني للتمدد في المنطقة العربية، وهي (المد الشيعي)، أو التحول نحو المذهب الشيعي، ويتحدثون عن تحول مليون سوري على سبيل المثال للمذهب الشيعي (الاثنا عشري) بفضل تشجيع حكومي وسماح واسع للنشاط الدعوي والإنساني للإيرانيين في سوريا، فضلاً عن انتشار التشيع في مناطق أخرى من العالم العربي. وسوف نتعرض لهذه القضية في فصل لاحق من هذا الكتاب، لكن يبقى هذا التحول محدوداً، فسورية على سبيل المثال بحر سُني في الأصل، وهي بلد العلماء من ابن تيمية وابن القيم إلى علمائنا المعاصرين ولا يمكن أن يتحول أهلها عن مذهبهم، فمن فضائل الصحوة الإسلامية المعاصرة أنها جددت للناس الإيمان والاهتمام بالدين، بعد غربة طارئة، وعلى الرغم من أنه من مساوئ هذه الصحوة التشنج والتعصب المذهبي، لكن هذا التعصب على ضرره يشكل ساتراً في وجه التحول من مذهب إلى آخر، والغالب أن الأرقام التي تسربت في هذا الخصوص إنما هي توظيف سياسي، وفي أسوأ الأحوال تحول مؤقت تفرضه ظروف اقتصادية أو نجاح مشروع سياسي.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذله نواف عبيد، وعلى الرغم من جاذبية ما في بحثه من أرقام، لكن هناك جوانب أخرى تجعل الأرقام صماء لا معنى

لها ولا قيمة، فالدراسات والأبحاث تتحدث عن استحالة أن تتحمل إيران عقوبات دولية إضافية لعدم تعاونها في الملف النووي، لكن الواقع يؤكد أن إيران تتحمل كل هذه العقوبات ولا تتأثر بها تأثراً قويًّا، بل إنها تحاول أن تطور أداءها لكي تحقق نجاحات سياسية واقتصادية نتيجة لهذه العقوبات، فإيران لديها هدف إستراتيجي تريد تحقيقه وهو ضرورة امتلاك السلاح النووي وفي سبيله تتحمل أي شيء؛ لأنها لحظة أن تمتلكه ستتغير معادلات كثيرة لمصلحتها.

وما لم يذكره نواف عبيد أن إيران تعمل في أجواء من التماسك القومي الفارسي وسط بيئة عربية فاشلة وضعيفة، ومن ثم فهي تحصد النجاحات في البيئة العراقية المأزومة وفي البيئة اللبنانية الضعيفة والمفككة وفي البيئة اليمنية الفقيرة التي تعاني الفقر والفساد والاستبداد، والأرقام التي ذكرها الباحث السعودي يكون لها معنى في بيئة عربية قوية ومتماسكة.

لقد تم رفض المشروع الإيراني لتصدير الثورة، حينما كانت واجهته شخصيات كالخميني ورفسنجاني وخامنئي، ولكن اليوم هناك وجه جديد و(بطل أسطوري) وطبعاً عربيًّا من الممكن أن يلقى القبول المطلوب، إنه بالطبع (حسن نصرالله). إن الشيعة بوصفهم طائفة موجودون منذ زمن بعيد في المنطقة، ولكن لم يكن لهم مشروع لتصدير الفكر وزيادة الشق والهوة الموجودة بينهم وبين السنة، لكن الآن، فإن دلائل تكثيف الحملة الترويجية لتصدير المشروع بدأت تأخذ أشكالاً مختلفة وملامح عدة.

هناك اختراق شيعي إيراني واضح لحركة الإخوان المسلمين والكثير من رموزهم، والحركات المحسوبة عليهم كحركة (حماس) في فلسطين، وأصبح

التشيع في فلسطين واقعًا ملموسًا، وحدث اختراق في مصر للصحف المستقلة، وبدأ بعضها ينشر موضوعات مليئة بالقذف والإهانة في حق الصحابة وزوجات رسول الله ﷺ، متأثرين بالخطاب الشيعي التقليدي في حق كبار الصحابة والسيدة عائشة رضوان الله عليهم جميعاً. ولم تسلم الأعمال الفنية من ملامح المشروع المذكور، ففي أحد أبرز المسلسلات التلفزيونية المنتجة بالاشتراك ما بين جهات سورية وأردنية، وهو بعنوان (أبناء الرشيد) قدم المسلسل في بعض حلقاته ترويجاً واضحاً للتشيع، وذلك بتقديم شخصية (الأمين)، بعد أن أبعد ودرس في خراسان، وهو يطلع بنهم على مؤلفات الشيعة، وهو يردد فقرات مثيرة للجدل، ويدعو إلى ترجمة الكتب إلى العربية[٥].

المشروع الإيراني السياسي يغطى بعباءة التشيع، فيخدم كلاًّ من السياسي والديني الآخر. فالهدف وإستراتيجية الهيمنة موجود منذ تأسيس الدولة الصفوية.. وهذا هو البعد السياسي، أما البعد الديني والفكري والثقافي والمذهبي فهو التشيع.

لم يكن خافياً على أحد أن إيران في عهد الشاه كانت لها تطلعات إمبراطورية وطموحات إقليمية – ولا سيما في دول الخليج – حتى إذا جاء العهد الجديد بالخميني والثورة الإسلامية، لم يلغِ المخطط، بل أخذ مجرى آخر أطلق عليه (تصدير الثورة)، وكشف النقاب عن (خطة سرية موجهة من مجلس الثورة الثقافية الإيرانية إلى المحافظين في الولايات الإيرانية) مدة هذه الخطة خمسون عاماً، على خمس مراحل، الغاية منها تشييع أهل السنة المتبقين في إيران والدول المجاورة، وتصدير الثورة الإيرانية (انظر مجلة البيان – المنتدى الإسلامي – لندن – العدد١٢٣).

وبالطبع سارعت الجهات الإيرانية المسؤولة إلى نفي وجود مثل هذه الخطة، لكنها لم تستطع أن تنفي وقائع على الأرض، مثل النص الصريح في المادة السابعة من الدستور على أن (المذهب الجعفري دين الدولة إلى الأبد) وما استتبع ذلك أو استأنف اضطهاد أهل السنة في إيران من بلوش وأكراد وفرس وعرب، وعدم السماح لهم بحق المواطنة كبقية المواطنين بما فيهم النصارى واليهود وعبدة الأوثان. وإلى اليوم لا يوجد مسجد واحد لأهل السنة في العاصمة طهران على الرغم من المطالبات الشعبية والدولية ووفرة أهل السنة في العاصمة نفسها، حتى أعلنوا أخيراً أنهم سوف يؤدون صلاة الجمعة في الحدائق أو الساحات العامة، فاستنفرت لمواجهتهم الشرطة وقوى القمع والحرس الثوري. أما مشكلة (عربستان: الأحواز) فأخبارها تتداول على مدار الساعة، وتنقل القمع الإيراني.

هذه السياسات الإيرانية الملتوية لم تكن خافية على الحركات الإسلامية داخل إيران ولا خارجها، ونخص بالذكر الجماعة الإسلامية في باكستان (القاضي حسين والمودودي) وحزب السلامة في تركيا (أربكان وأردوغان) وتنظيمات الإخوان المسلمين في العالم العربي، لكن شعار هذه الحركات المعلن: (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه)، وعدم اليأس من إعادة اللحمة لجناحي الأمة المسلمة في عصر كثرت فيه الأعداء والمخططات الأجنبية، والحاجة الماسة شرعًا وعقلاً وسياسة إلى توحيد الصفوف ونبذ الخلافات والمعارك البينية.

لكن السنوات التي شهدت احتلال أفغانستان وإسقاط حكومتها بالقوة، ثم التعريج على العراق بغزو عسكري آخر لم يكتفِ بإسقاط الحكومة، بل ألغى

الجيش العراقي ومؤسسات الدولة كلها وهدم البنية التحتية، وأخيرًا الفتنة الطائفية (شيعة - سنة) في لبنان، هذه التطورات الفاقعة أعادت ما يعتمل تحت الأرض وبين طبقات المداراة إلى العلن، فالافتضاح فالتلويح بالمواجهات الساخنة من طنجة إلى جاكارتا.

في شهر يوليو / تموز عام ٢٠٠٦م، الذي شهد العدوان الإسرائيلي على لبنان الشقيق بعد خطف جنديين إسرائيليين، وانزلاق (حزب الله) من خط المواجهة مع الكيان الصهيوني جنوبًا إلى الانخراط في إشكالات الداخل اللبناني شمالاً، وتبني الإملاءات الإيرانية التي تأخذ فيما تأخذ منحى طائفيًا، تزامن ذلك مع سياسات الحكومة العراقية الطائفية في استئصال أهل السنة والعرب بصرف النظر عن اشتراكهم في العمل المسلح، وسكوت أمين عام (حزب الله) عن ممارسات الشيعة ضد أهل السنة في العراق على الرغم من المطالبات والنداءات التي وجهتها الحركات الإسلامية العربية وغيرها التي ساندت الحزب بصفته (مقاوماً للعدو).. إلى أمين عام الحزب، وذلك من أجل التدخل أو التوسط أو إبداء الرأي على الأقل، ولكن الأمين العام سكت وكأنه لم يسمع شيئاً؛ لأنه مجرد إحدى واجهات مشروع الهلال الشيعي.

في هذه اللحظة التاريخية التي توجه فيها أمين عام (حزب الله) بخطابه يوم احتلاله وحزبه وسط العاصمة بيروت، وتغليبه المنطق الطائفي على ما سواه، بلغ السيل الزبى، وبدأ الخط البياني في انكشاف المخفي من المخطط الإيراني للنفوذ والهيمنة، لا لأنه لم يكن موجودًا من قبل، بل لأنه بات يشكل خطراً حقيقيًا لم يعد بالوسع السكوت عنه[٦].

الهوامش:

(١) د. محمد يحيي، الهلال الشيعي، وكالة الأخبار الإسلامية، دون تاريخ.

(٢) المرجع السابق.

(٣) محمد أبو الفضل، الهلال الشيعي بين الحقيقة والوهم، دورية مختارات إيرانية، العدد ٥٤ يناير ٢٠٠٥م.

(٤) جريدة النهار اللبنانية، ٢٠٠٦/١٢/٤م.

(٥) حسين شبكشي، المشروع الإيراني المريب، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، ٢٠٠٦/١٠/٢٤م.

(٦) محمد الحسناوي، المخطط الإيراني للنفوذ والهيمنة، موقع إخوان سوريا، دون تاريخ.

الفصل الثاني

مشروع توسع قومي فارسي

الحلم الإمبراطوري الفارسي موجود دائمًا في عقول الإيرانيين، قبل الإسلام وبعده، وكانت النزعة القومية الفارسية هي المسيطرة دائماً، وتوارت بجوارها الهوية الإسلامية ورباط الأمة الإسلامية وفلسفة الأخوة الإسلامية.

وإذا كنا لا نعترض على التاريخ الفارسي قبل الإسلام، فإن القرون التي كانت فيها إيران دولة سنية داخل الأمة المسلمة لم يحدث فيها شيء، لكن الأمور تغيرت بالكامل منذ بداية القرن العاشر الهجري ولغاية اليوم.

ففي بداية ذلك التاريخ (٩٠٧هـ - ١٥٠١م) نشأت في إيران دولة قائمة على أُسُس عقديّة تُضمِر العداوة لكل مَن هو عربي ومسلم سُنِّي، وتطمح لإعادة الإمبراطورية الفارسية الكسروية البائدة. وقد بقي حلم إعادة تلك الإمبراطورية المندثرة هدفاً إستراتيجيًّا ثابتًا لدى جميع الأنظمة التي أعقبت العهد الصفوي. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، خاضت إيران حروبًا وصراعات عدة ضد الدولة العثمانية التي كانت تُمثِّل آنذاك دولة الخلافة الإسلامية السُّنِّية، وقد خاضت حروبها تلك مدعومة من قِبَل الصليبيين الذين وجدوا

في الدولة الصفوية ضالتهم المنشودة؛ لإضعاف الدولة العثمانية ووَقْفِ زحفها نحو أوروبا التي كانت على وشك الانهيار والدخول في الإسلام.

ولهذه الغاية فقط أوكلت الحكومة البريطانية مهمة بناء جيش نظامي وإنشاء مصنع للسلاح في مدينة أصفهان عاصمة الدولة الصفوية في عهد الشاه عباس الأول (حكم من ٩٨٩ هـ - ١٠٣٨هـ) إلى الأخوين (أنتوني ورابرت شرلي) ووضعت تحت إمرتهما ٢٥ ضابطًا من الجيش البريطاني؛ لتنظيم العلاقات والتعاون بين الدولة الصفوية والدول الأوروبية؛ لمحاربة الدولة العثمانية. وقد انتقل هذا التعاون بين الغرب والدولة الصفوية إلى الحكومات الإيرانية المتعاقبة، وهي: الأفشارية، القاجارية، والبهلوية، وقد بلغ هذا التعاون أَوْجَهُ في زمن الحكم البهلوي (١٩٢٦م - ١٩٧٩م) حيث تحولت فيه إيران إلى قاعدة غربية في المنطقة، وأصبحت مصدر حروب وتهديد لجيرانها والمنطقة عامة قبل قيام الكيان الصهيوني.

ومكافأة لدورها المساند للغرب، فقد دفعت الدول الاستعمارية إيران لضم إمارة الأحواز العربية، وسمحت لها أيضًا باحتلال الجزر الإماراتية الثلاثة (طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى) وذلك بهدف تقويتها للقيام بحفظ المصالح الغربية على أحسن وجه. وعند قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، كانت إيران من أوائل الدول التي اعترفت بهذا الكيان وَمدَّته بالنفط والغاز، وسمحت لليهود الإيرانيين بالهجرة إلى الكيان؛ لتقديم الخبرات والتطوع في جيش الاحتلال[١].

وشكَّل قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م حدثاً كبيراً ومهمًّا في المنطقة؛ حيث تزامنت تلك الثورة مع حدوث تطورات إقليمية ودولية عدة كان من

أبرزها اشتعال الحرب الأهلية في لبنان، والغزو السوفييتي لأفغانستان، وتنامي المد الإسلامي في المنطقة، وأحداث كثيرة أخرى إلى جانب القضية الفلسطينية التي تُشكِّل الحدث المحوري لجميع القضايا في المنطقة.

وقد وفَّرت تلك الأحداث الفرصة لقيادة الثورة الإيرانية للاستفادة منها واتخاذ بعضها وسيلة لترويج أفكارها. وكانت بداية التحرك الإيراني في العراق الذي رأى فيه الإيرانيون البوابة التي يمكن الولوج منها لتحقيق هدف نشر أفكار الثورة؛ وذلك بحكم الجوار الجغرافي مع العراق وتركيبته الطائفية التي تضم نسبة كبيرة من المقلِّدين والتابعين للمرجعيات الدينية الإيرانية في كل من النجف وقُم، إضافة إلى عوامل عدة أخرى، جميعها كانت سببًا في اختيار العراق منطلقًا لتصدير الثورة الإيرانية نحو المنطقة العربية لتحقيق غايتها في التمدد والهيمنة. وكانت باكورة مشروعات الثورة الإيرانية في العراق تحريض المرجعيات الدينية في النجف وكربلاء ضد السلطة العراقية وإنشاء تنظيمات طائفية موالية لها لإسقاط نظام الحكم العراقي، التي بات أغلبها اليوم أداة طيِّعة في يد قوات الاحتلال ومطية لتثبيت المشروع الأمريكي في المنطقة.

إن إستراتيجية الثورة الإيرانية قامت على اعتبار أن قلب منطقة الشرق الأوسط هو العراق ودول الخليج العربي، وأن الهيمنة على هذا الإقليم سوف تساعد على سقوط الأطراف بسهولة في القبضة الإيرانية؛ ولهذا أرادت طهران تطويق دول الخليج والعراق بمحور (سوري، لبناني، فلسطيني) ولهذا عمدت إلى التحرك في لبنان الذي كان يعيش حربًا طائفية كان الشيعة فيها الأضعف سياسيًّا وعسكريًّا، وقد وفَّر هذا الأمر الفرصة لإيران للقيام بتشكيل

(حزب الله) ليكون ذراعاً إيرانية، ليس في لبنان وحسب، بل في عموم المنطقة، وهذا ما حصل بالفعل؛ حيث استُخدم الحزب وما زال يُستخدَم عصا إيرانية غليظة في المنطقة. وقد حاولت إيران استنساخ «حزب الله» في كثير من هذه البُلدان ومنها الخليجية تحديدًا، ولكن تلك الأحزاب المستنسَخة لم تستطع أن تحقق لإيران ما حققه لها (حزب الله) في لبنان؛ فقد وُئد ما سُمِّي (حزب الله الحجاز) على الرغم من قيامه بعمليات إرهابية عدة في المملكة العربية السعودية، ووُئد نظيره الكويتي بعد قيامه بعمليات إرهابية مماثلة في الكويت والسعودية. ووحده (حزب الله) البحريني الذي بقي يتنفس حتى الآن وإن كان بشكل بطيء؛ حيث يقوم بين مدة وأخرى، وكلما طلبت منه إيران ارتكاب بعض الجرائم؛ لإحداث القلاقل؛ وذلك للضغط على الحكومة البحرينية وبعض الدول الخليجية[٢].

لم يكن الحلم الفارسي الإمبراطوري موجودًا في عقل الشاه فقط، ولكنه موجود أيضًا الآن ومستمر في عقول الإيرانيين بعد الثورة، لكن الفرق أن الحلم الشاهنشاهي اصطدم على حدوده بدولة كبرى هي الاتحاد السوفييتي، وكانت المنطقة العربية متماسكة إلى حد ما، إضافة إلى وجود ثلاث دول قوية يحسب لها حساب في المنطقة، وهي تركيا ومصر وإسرائيل.. وكان الحلم الفارسي يصطدم بهذه الدول، أما الآن فقد تغير كل ذلك ما فتح شهية إيران لإحياء الحلم القديم.

التوجه الإيراني إسلامي في المظهر، لكنه قومي فارسي في الجوهر، وهو الأمر الذي ظهر بجلاء في سلوك الحكومات الإيرانية المتعاقبة تجاه سنة إيران، وهو سلوك قمعي عدواني عنصري، إضافة إلى جملة السلوك الإيراني

في العراق، ابتداءً من التعاون مع المحتل الأمريكي وإصدار المرجعيات للفتاوى التي تحرم المقاومة، إلى الدعم الكامل للشيعة وأحزابهم وميليشياتهم في جرائمهم الطائفية ضد السنة، كما تأكد هذا التوجه قبل ذلك في أفغانستان، من خلال التحالف مع الأمريكان ضد (طالبان) السنية.

لقد تبين للجميع أن الثورة الإيرانية نجحت في تأجيج مشاعر العداء بين السنة والشيعة على مستوى العالم الإسلامي، وما أعلن عنه العلامة يوسف القرضاوي خير كاشف لهذا الوجه الطائفي، كما سنتعرض له لاحقًا.

المشروع الإيراني الحالي يتكامل، وينسجم مع المشروع الصفوي إبان عهد الشاه إسماعيل الصفوي، فقد كان لهذا المشروع آنذاك محاولات للسيطرة على المنطقة الخليجية والعراق أيضًا، لكن الدولة العثمانية حافظت على الهوية السنية لدول المنطقة في تلك الحقبة، فيما تعاونت الدولة الصفوية مع كل من كان يهدد أمن المنطقة كالبرتغاليين والإنجليز.

إيران الآن توثق علاقاتها الدولية مع كل الدول الكبرى في سبيل تحقيق أهدافها في المنطقة، من خلال الادعاء أن إيران تسعى إلى الوقوف أمام مشروع غربي ساعٍ إلى السيطرة على المنطقة والإضرار بهويتها الإسلامية، مع الأسف تم خداع الكثيرين من السُّنّة بذلك، فالحقيقة أن إيران تسعى إلى حشد الدعم الشعبي الإيراني والإسلامي عبر خطابات دينية، وعقد تحالفات مع جماعات شيعية، وكذلك سنية في دول المنطقة، خصوصًا في لبنان والعراق وأفغانستان والأراضي الفلسطينية المحتلة، وبعض دول الخليج، من أجل دعم مشروع الهلال السياسي الشيعي الإيراني.

وإذا كانت السياسة الإيرانية تعمل على إظهار عجز الموقف العربي في مواجهة الأزمات الإقليمية، ولا تتردد في دعم الجماعات المناوئة لبعض الحكومات العربية، واستغلالها لتحقيق مكاسب تتعلق بمصالحها، فإن ما سهل لها ذلك هو انهزامية الأنظمة العربية وانبطاحها أمام الصهاينة والأمريكان(٢).

هناك صفحات مطوية عن معاملة إيران للعرب، وعن نظرتها إليهم حتى إن كانوا شيعة (اثنا عشرية) وهناك حقائق تاريخية يجهلها أبناء الأمة الإسلامية عن هذه القضية، ونحن ننقل كلام الشيعة العراقيين العرب أنفسهم:

دعاهم الإعلام الإيراني إلى الالتحاق بالجمهورية الإسلامية والقتال في صفها ضد أبناء وطنهم وأهلهم وعشيرتهم لبوا النداء، وخرجوا للفداء وقتل منهم من قتل، وعندما توقفت الحرب عام ١٩٨٨م قيل لهم: اخرجوا من بلادنا، فقد انتهى دوركم يا أغبياء! لم يصدقوا في البداية وظنوها مزحة سخيفة أو كذبة سمجة. فهل يعقل أن تطلب منهم الجمهورية التي تسمي نفسها بالإسلامية ذلك؟ هل يعقل، وهم قدموا أرواحهم فداءً لها؟ هل يعقل وهم تركوا أوطانهم من أجلها؟ هل يعقل وهي الجمهورية الإسلامية التي ينص دستورها على المذهب (الاثنا عشري) وهم (اثنا عشرية)؟! وماذا يقولون لأهلهم في العراق؟ بل أكبر مشكلة هي أين يذهبون، وقد تركوا وطنهم الأصلي العراق من أجل عيون إيران وشعارات إيران؟!

ويا شماتة النظام العراقي فيهم وفرحته الكبيرة وسعادته الغامرة حين يسمع بما جرى لهم، وكانوا كلما تذكروا مقدار سعادة نظام صدام حسين حين يسمع بما يجري لهم في إيران كانوا أحرص على الصبر والكتمان.

وظلوا يتحملون ويكتمون أكثر من عشر سنوات حتى بلغ السيل الزبى وبرح الخفاء وظهر كل شيء على الملأ عام ١٩٩٩م.

(العراقيون في إيران: إلى أين المفر؟) .. تحت هذا العنوان نشرت مجلة «الوسط» في عددها رقم «٤٠٤» بتاريخ ٢٥/١٠/١٩٩٩م تقريرًا مهمًا ومفصلاً ننقل بعض ما جاء فيه دون زيادة أو نقصان وبلا تعليق.

إن العراقيين المهاجرين إلى الجمهورية الإسلامية نحو نصف مليون نسمة ليس لهم حديث سوى المضايقات التي تطالهم باعتبارهم (غرباء وأجانب وطفيليين) لحملهم على المغادرة قبل الشروع مخطط نقلهم إلى معسكرات ومخيمات.

والواقع أن الحكومة الإيرانية لم تطبق معهم القانون، لا المحلي الذي شدد عليه خاتمي، ولا الدولي الداعي إلى رعاية حقوق اللاجئين الأجانب، ومنها حق توفير فرص الحياة المناسبة وحق العمل وامتلاك جواز السفر ومنح الجنسية الإيرانية بعد مضي خمس سنوات على الإقامة في هذا البلد.

ولحل مشكلة الإقامة ابتدعت وزارة الداخلية الإيرانية فكرة (الكارت الأخضر) وهو بالطبع ليس مثل الـ (Green Card) الأمريكي المعروف، ويلزم حامله بالسكن في المدينة التي صدر منها، وعندما ينتقل إلى قم يساق إلى معسكر قرب الحدود إذا لم يسلم للعراق. وإن (الكارت) لا يسمح لصاحبه بفتح حساب في البنوك، ولا تسجل لحامله أي عقود زواج وغيرها.

وإذا كان الرئيس الإيراني أطلق شعاره التاريخي الداعي إلى حوار الحضارات، واعتبرت الأمم المتحدة عام ٢٠٠١م عاماً لهذا الحوار القائم على

التعايش وقبول الآخر، فإن صحيفة (بدر) - لسان حال قوات بدر المعارضة والقريبة من الولاء العقديّ لإيران - دعت خاتمي وحكومته إلى تجربة (حوار الحضارات) بين الشيعة العراقيين والإيرانيين قبل الولوج في حوار أممي بين شعوب وديانات وحضارات مختلفة.

وقد تكررت الرسائل من علماء الحوزة الدينية العراقية للمرشد علي خامنئي، فيما اختار المثقفون الرئيس خاتمي؛ لأنهم يرونه المسؤول المباشر عما يشهده إخوانهم من مضايقات. وبعث خمسون من الكتاب العراقيين رسالة إلى خاتمي في شأن السياسة الجديدة التي تنتهجها إيران إزاء المهاجرين العراقيين، وذكروه بما يختزنه الشعب العراقي من رصيد حضاري عريق، وما يكتنزه من مقدسات، وبما يتحلى به من قيم، وما يتوافر عليه في الأصل من ثروات وعناصر قادرة على أن تؤدي دورًا حضاريًّا مميزًا في المنطقة وفي العالم.

ويردد اللاجئون العراقيون أن إيران لم تمنح اللاجئ العراقي شيئًا من حقوق اللجوء التي أقرها القانون الدولي الذي وقعت على معاهداته، وعلى الرغم من ذلك، فإن العراقي بقي على مدى عقدين يمنح هذه الدولة العذر بعد العذر، مع أنه يرى أن إخوانه اللاجئين إلى دول أوروبا وأمريكا وأستراليا ينالون حقوقهم كاملة.

ويذكر هؤلاء في بياناتهم التي صارت تنتقد الحكومة علنًا، خاتمي بأنهم قدموا فلذات أكبادهم من أجل إيران شهداء ومعوقين ومفقودين، وقاتلوا أبناء وطنهم وفيهم الإخوة والأقارب والجيران.

ظنوا أن رسائلهم إلى خامنئي وخاتمي ستعيد هذه الجمهورية إلى الصواب، وتجعلها تقلع عن هذه المعاملة التي تتناقض مع أبسط حقوق الحيوان فضلاً عن الإنسان، وما هي إلا شهور قليلة حتى جاءهم ما لم يكن لهم في الحسبان ولا خطر لهم على بال!

حيث قام مجلس الشورى الإيراني (البرلمان) بإلزام الحكومة بالتخلص منهم حتى ربيع ٢٠٠١م وخرج الخبر، وانتشر وتطورت القضية، وعندها اكتشفت المعارضة الشيعية العراقية أن إيران ليست جمهورية إسلامية، بل ولا جمهورية شيعية (اثنا عشرية) بل هي جمهورية فارسية عنصرية مدعومة بشعارات وطنية ومعززة بآفاق ضيقة.

وبدأت الصحف العراقية التي تصدر عن المعارضة العراقية الشيعية تنتقد الممارسات الإيرانية علناً وتذكرها بما قدمت لها من تضحيات على حساب شعبها وأهلها وعشيرتها!، بل قد تم تأسيس منظمة باسم (منظمة الدفاع عن حقوق العراقيين في المهجر!)[٤].

وفي ٦/١٢/١٩٩٩م وفي العدد رقم (٤١٠) نشرت صحيفة (الوسط) تقريرًا آخر يحكي ما تعرض له العراقيون الشيعة داخل الجمهورية التي تسمي نفسها إسلامية، قالت فيه:

ألزم البرلمان الحكومة حتى ربيع عام ٢٠٠١م بطرد العمالة الأجنبية بذريعة محاولة القضاء على البطالة.

وأثار قرار البرلمان وقرار آخر يقضي بتشكيل مجلس تنفيذي لإنهاء الوجود الأجنبي في إيران، حفيظة المعارضة العراقية الشيعية التي قاتلت ضد بلادها إلى جانب إيران في الحرب العراقية الإيرانية.

واعتبرت أسبوعية (الجهاد) الناطقة باسم حزب (الدعوة الإسلامية) (أكبر فصيل شيعي معارض) أن (ما يجري من مضايقات قانونية) لا يأتي استجابة وحلاً لمشكلة اقتصادية أو أمنية كما يعبر بعض المسؤولين، بل هو نتاج لتجانس الاختراق الأمني مع الخلفيات السيكولوجية مدعومة بشعارات وطنية ومعززة بآفاق ضيقة.

واعتبرت أسبوعية (الجهاد) الناطقة باسم حزب الدعوة، وهي تنتقد برامج الحكومة والبرلمان تجاه اللاجئين (أن وصول محاربة اللاجئين والتضييق عليهم إلى تشريع القوانين ليس مؤامرة اختراقية للجمهورية الإسلامية فحسب، بل هو ترشح طبيعي لمجموعة من الثقافات والسلوكيات القديمة المتأصلة التي لم تستطع الثورة الإسلامية التي أطلقها الإمام الخميني في إيران اجتثاثها من الجذور. .).

وللرد على هذه الإجراءات في محاولة تبدو يائسة لوقفها أعلن عدد من الشخصيات والمفكرين والمثقفين العراقيين في إيران وخارجها عن تأسيس منظمة باسم (منظمة الدفاع عن حقوق العراقيين في المهجر).

وفي البيان التأسيسي للمنظمة التي شددت على أنها (منظمة غير سياسية تدافع عن حقوق العراقيين في إطار شرعة الإسلام وشرعة الأمم المتحدة وحقوق الإنسان والقانون الدولي وقوانين البلدان التي يقطنها العراقيون: (إن العراقيين اختاروا الجمهورية الإسلامية للانطلاق لتأسيس هذه المنظمة، على ضوء الظروف غير الطبيعية التي يعيشونها والإجراءات القاسية التي يتعرضون لها، وترمي إلى إيجاد فجوة بينهم وبين الشعب الإيراني المسلم).

وقاتل معظم العراقيين الذين هاجروا إلى إيران تلبية لنداء الخميني ضد بلادهم إلى جانب إيران في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، خصوصًا (فيلق

بدر) الذي يضم آلافًا عدة من الأسرى السابقين، لكنهم يسمون اليوم (الغرباء والضيوف الطفيليين)، كما قال حسن حبيبي النائب الأول للرئيس الإيراني.

قاتلوا معها وبعد نهاية الحرب اعتبرتهم (غرباء وأجانب وطفيليين)!! منحوها مدة عقدين من الزمان العذر بعد العذر، لكن بلغ السيل الزبى، فخرجت الشكاوى تترى!! بعثوا بالرسائل إلى المسؤولين وذكروهم بما قدموه لهذه الدولة من شهداء ومعوقين ومفقودين، وذكروها بأنهم قاتلوا أبناء وطنهم من أجلها، فجاءهم الجواب من البرلمان بإلزام الحكومة بالتخلص منهم حتى ربيع ٢٠٠١م. عاشوا ظروفًا غير طبيعية، وتعرضوا لإجراءات قاسية في الجمهورية التي صدقوا يومًا أنها إسلامية لا فرق عندها بين عراقي وإيراني!! ثم كانت الصدمة القاسية عندما اكتشفوا أنها فارسية.

ونستمع إلى أربعة من الشيعة العراقيين الذين أجرت معهم صحيفة الحياة في عددها رقم ١٤٠٥٥ الصادر بتاريخ ٢٠٠١/٩/٨م مقابلة كشفوا فيها كل شيء.

الشهادة الأولى يرويها القيادي البارز في حزب الدعوة (موفق الربيعي) الذي كان هاربًا ومعارضًا ومقيمًا في إيران وبريطانيا، ثم تولى منصب مستشار الأمن القومي العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق - تحدث عن أحوال الشيعة العراقيين العرب في إيران، وذكر ما شاهده بعينه وهو شيعي (اثنا عشري) يقول:

زرت إيران والتقيت المسؤولين الإيرانيين، وناقشتهم في أحوال العراقيين والإجراءات التعسفية اللا إنسانية المتخذة ضدهم .. فظروف هؤلاء العراقيين محزنة جدًا، وتبعث على الأسف، خصوصًا أننا نعول على أصدقائنا الإيرانيين أن يحتضنوا هؤلاء الضحايا، ولكنهم بدلاً من ذلك زادوا في مأساتهم، بل تعاملوا معهم بوصفهم أعداء.

لقد تحدثت مع مجموعات منهم حينما زرت مخيماتهم أخيرًا، وحكوا لي صورة مؤلمة جدًا لتعامل السلطات الإيرانية معهم، حيث جردوا من الحقوق الإنسانية كافة، لمجرد أنهم عراقيون، وهذه في حقيقة الأمر نزعة غريبة لمستها شخصيًا في إيران.

ممنوع عليهم العمل؛ لأن الحكومة الإيرانية أصدرت قرارات نقلتها وسائل الإعلام، تتوجه لأصحاب الأعمال بعدم تشغيل العراقيين بعقد عمل، ومن يخالف ذلك تتخذ ضده إجراءات قانونية، لذلك امتنع أرباب العمل عن استقبال العراقيين، وكذلك الحال بالنسبة إلى السكن، فقد أحيط الجميع علمًا بأن من يُسكن عراقيًا في بيته يُعرض نفسه لأشد العقوبات. بيد أن أقسى هذه الإجراءات هي منع العراقيين من الزواج بالإيرانيات، ومن سبق له أن تزوج بإيرانية فسوف يعرض نفسه إلى المساءلة القانونية. إن هذه القضية تتعارض أيضاً مع الشريعة الإسلامية.

البطاقة التي كانت تمنح للشيعة العراقيين من قبل السلطات الإيرانية من دون تاريخ ومكتوب عليها (هذه الوثيقة ليس لها أي اعتبار قانوني) وبالإيرانية (اعتبار نادري)، وذلك حتى تتجنب مساءلة أي منظمة إنسانية دولية، فالمنظمات الدولية متعارفة على أن من حصل على بطاقة، وأمضى أربع سنوات متواصلة في البلد الذي يلجأ إليه يحق له الحصول على الوضع القانوني.

بدأت وسائل الإعلام، وبخاصة وزير الثقافة والإرشاد مهاجراني يطرح التوجهات بشكل جديد وغريب عن المنهج الذي يفترض أن يطبع سياسة الجمهورية الإسلامية تجاه اللاجئين العراقيين، ففي مقال نشره مهاجراني في إحدى الصحف الإيرانية قال: «نحن نمنع زواج العراقي بالإيرانية؛ لأننا

لا نريد أن يختلط الدم الإيراني، بدماء أخرى، ولا نريد أن تختلط الثقافة الفارسية بثقافات أخرى». هذه النزعة الغريبة ربما تجعلنا ندرك تركيز السيد محمد خاتمي في خطاباته وأحاديثه ومؤتمراته على البعد القومي الفارسي.

حتى أولئك الذين يشتغلون في مؤسسات الدولة الإيرانية من أصحاب الخبرات مثل الأطباء والمهندسين والموظفين الحكوميين والإذاعيين ومقدمي البرامج العربية في التلفزيون والإذاعات والصحف أصبحوا الآن بلا عمل بعد أن صدر قانون صرف العراقيين من العمل، ووضعوا جائزة لمن يخبر السلطات الإيرانية عن أي عراقي يعمل في أي وظيفة حكومية أو مدنية.

اشتدت معاناة العراقيين الشيعة في إيران، فقررت الذهاب للسفير الإيراني في بريطانيا لعله يخاطب حكومته، فتخفف الوطأة، وتزيل الغمة عن العراقيين، ولا سيما والكل شيعة، أخبرت السفير أن وضع العراقيين في إيران سيء للغاية، وقلت له أيضاً: نحن شيعة مسلمون، وأنتم شيعة مسلمون، وليس بيننا مشكلة أو عداء، بل كلانا لديه مشكلة مع النظام العراقي، وقد وقفنا معكم، فلماذا تعاملوننا وتعاملون اللاجئين في إيران بهذه الصورة الغريبة، فإن لم تحلوا المشكلة فإننا سوف نتحرك، وكتبنا رسائل إلى السيد خاتمي ورفسنجاني، ولكننا لم نتسلم أي رد منهما، لذلك سنلجأ إلى طرق أخرى ونعلن اعتصاماً ضد الحكومة الإيرانية. أجابني السفير الإيراني قائلاً: (لدينا «مجاهدي خلق» أيضًا، وهؤلاء اعتصموا أكثر من عشرين مرة هنا أمام السفارة وكنا نمر عليهم ونبصق في وجوههم) .. بهذه العبارة فهمت أنه سوف يبصق على من يتجرأ أن يعتصم من العراقيين لمساعدة أشقائهم في إيران، وكان الأجدر به أن يتذكر أن هؤلاء كانوا أول من ساند الثورة الإيرانية.. فأي منطق دبلوماسي أو إنساني يتحدث به سفير إيران في بريطانيا؟

الشهادة الثانية يرويها السيد حسين الصدر أحد علماء الدين الشيعة البارزين يقول فيها:

لقد طرحت موضوع اللاجئين العراقيين في إيران على المسؤولين الإيرانيين أكثر من مرة في زيارتي إلى إيران، وقد التقيت الكثير من هؤلاء اللاجئين، واستوعبت مشكلاتهم، وعند لقائي مع السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية في ولايته الأولى طرحت عليه معاناة العراقيين والإجراءات التي تتخذ في إيران للتضييق عليهم، وقد نقلت إليه صورة الواقع المؤلم لهؤلاء اللاجئين، وطلبت أن ترفع القيود عنهم وأن يحصلوا على حقوقهم، وبعد ذلك قال لي خاتمي: هل هذا رأيك؟ قلت: نعم، قال: الأفضل أن يكون هناك رأي جماعي لعلماء الدين العراقيين الشيعة وأن يرفع إلينا بصورة رسمية، نحن لا نستطيع أن نتجاهل ذلك. وفعلاً ما إن عدت إلى لندن حتى قدمنا مذكرة وقعها علماء الدين يطالبون فيها بإعطاء الحقوق للاجئين العراقيين. مضت السنوات وها نحن نعود من جديد لنواجه المشكلة نفسها التي لم تحل، ومن جديد نقدم مذكرة أخرى باسم العلماء والشخصيات العراقية المعروفة، والآن نحن في انتظار ما سيقوم به الجانب الإيراني.

الشهادة الثالثة يرويها قارئ شيعي عادي يقول فيها لصحيفة الحياة:

عشت نحو عشر سنوات في إيران، وغادرت إلى لندن مضطرًا بعد أن تركت هناك زوجتي الإيرانية وأطفالي، إن حياة العراقيين هناك مأساوية، كل شيء ممنوع عليهم. تزوجت بصورة سرية؛ لأن المحاكم الإيرانية لا تسمح بزواج الإيرانية من العراقي. وأتممت عقد الزواج عند عالم دين، وبقيت

مشــرداً، فأنا مدرســ، زاولت مهنــة التدريس في العراق سنــوات، ولكنني في إيران التي هربت إليها بعد إطلاق سراحي من السجن حاولت أن أعمل لأعيل عائلتــي بالحد الأدنى من المعيشــة، وأينما أذهب كنت أواجــه بالرد المباشر، ممنوع، وأخـيراً قررت أن أبدأ طريقة أخرى، فتحولــت إلى بائع متجول أدور في الطرقــات والأزقة، ومع ذلك، فإن رجال الأمــن يطاردونني، ولم يتركوا لي أي فرصــة للمعيشة، وحين لململمــت نفسي للسفر مع عائلتــي احتجزوا أطفالي وزوجتــي وتركوني وحدي أغادر ودمغوا جــواز سفري بألا أعود إلى إيران مرة أخــرى، وها أنذا في انتظار عائلتي على مدى عشر سنوات مضت منذ وصولي إلى بريطانيــا، ابنــي أصبح عمــره الآن عشرين عاماً ولم أَرَه منذ ذلك الحين، كل مــن يحاول أن يمارس حياته الطبيعية يواجه بإجــراءات أقل ما فيها أنها تتعارضــ، وما ينقله الخطــاب السياسي الإيراني لتوجهــات إنسانية جديدة، هــذا هــراء، الناس هنــاك يعانون واقعــاً مــرًّا وقاسياً، نحــن العراقيين أكثر الخاسريــن من هذه الإجراءات، وعليه أطالب المنظمات الدولية بالتحقيق في هذه المشكلة وإنقاذ الضحايا من الوضع الحالي.

الشهادة الرابعة يرويها الصحفي الشيعي العراقي مهدي السعيد، فيقول:

عــدد المخيمــات التي يعيشــ فيها العراقيــون في الوقت الراهــن تبلغ أكثر مــن ١٥ مخيمًا، تفتقــر إلى المستلزمات الصحية، أكثرهــا قريب من المناطق الحدوديــة، ويبلغ عدد العراقيين في إيران حاليًــا أكثر من ٢١٣ ألف شخص، بحســب الإحصــاءات الإيرانية، في حين كان عددهــم يصل إلى نصف مليون قبل سنوات مضت، ولكن هذا العدد تقلص بعد صدور قرار البرلمان الإيراني

العـام الماضي القاضي بالسماح للحكومة بطرد اللاجئين الذين ليست لديهم إجـازة عمـل، وهبـط عـدد العراقيين آنـذاك مـن ٥٠٠ ألف، وهكـذا نتيجة الإجـراءات الإيرانيـة المتواصلة ضـد العراقيين، وصل العـدد أخيرًا إلى نحو ٢٠٠ ألـف، وهؤلاء لولا صعوبة خروجهم لعدم توافر الجوازات لديهم، ولأنهم معدمون لا يملكون حتى أجرة السفر، فضلاً عن عدم وجود مجال لاستقبالهم من أي دولة أخرى، لكانوا غادروا إيران منذ زمن بعيد(٥).

الهوامش:

(١) صبـاح الموسوي، التمـدد الإيراني في الوطن العربـي وأخطاره المحدقة بنـا، موقع إيلاف، ١٣أغسطس ٢٠٠٩م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ممدوح عثمان، الأبعاد التوسعية والطائفية في المشروع الإيراني، موقع لواء الشريعة، ٦ – ٥ – ٢٠٠٩م.

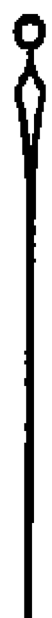
(٤) أبـو زيد بن عبـد القوي، إيران تكره العـرب وتطردهم حتى لو كانوا شيعـة جعفرية، موقع صحيفة أخبار اليوم اليمنية، ٣و ٥ و ٧ مارس – آذار ٢٠٠٩م.

(٥) المرجع السابق



الباب الثاني

البعد التاريخي لمشروع الهلال الشيعي



الفصل الثالث

الدولة الفاطمية

انحرافات عقائدية وتفريط في بلاد المسلمين

يعود أصل الدعوة السرية الفاطمية إلى جماعة من الثوريين الملاحدة بزعامة أبي شاكر ميمون بن ديصان البوني المعروف بالقداح. وكان ميمون القداح هذا داعية ملحدًا تفقه في الأساطير الدينية، والبحوث الكلامية والجدل الفلسفي، وكان متآمرًا وافر الإقدام والجرأة، وكان فارسيًّا مجوسيًّا من سبي الأحواز، ثم تظاهر بالإسلام والتشيع.

وقد بدأ ميمون حياته مولى لجعفر بن محمد الصادق، وسُجن في عهد المنصور، وفي السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم، ولمّا خرج من السجن، انضم إليه كثير من غلاة الرافضة والحلولية، وادّعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وانتشرت دعوته في جنوب فارس وفي جنوب العراق والبحرين، وانبث دعاته في كل مكان يتسترون ظاهرًا بالتشيع، ويعملون في الخفاء لبث مبادئهم الإلحادية، وكانوا يتوسلون للتأثير في الناس بأعمال التنجيم والسيمياء، وبعض التجارب الكيميائية التي كانوا يتقنونها.

وحمل الدعوة بعد ميمون ولده عبدالله، وكان مثل أبيه براعة وتبحّرًا في المباحث الفقهية والكلامية والنظريات الفلسفية، وكان يدعو لإمامة آل البيت الذين كان يزعم الانتساب إليهم، وكان يدّعي العلم بالغيب والأسرار الروحيّة والعلوم الخفيّة.

وكانت هذه الدعوة الإلحادية ترمي إلى نشر المجوسية بالتأويلات التي يتأول بها دعاتهم على القرآن والسنة، ويستدلون بذلك على أن إمامهم وزعيمهم الأول، ميمون بن ديصان كان مجوسيًّا، ويستدلون أيضًا بما قاله البرذهي، وهو من زعمائهم في بعض رسائله: (إن المبدع الأول أبدع النفس، ثم إن الأول والثاني دبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع، وهذا ما يطابق قول المجوس أن اليزدان خلق أهرمن، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم، غير أن اليزدان فاعل الخيرات، وأهرمن فاعل الشرور).

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلّص، ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وعقيدته، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية.

وهكذا حمل عبدالله دعوة أبيه، ونظمها ببراعة مدهشة، واتخذ بلدة ساباط، جنوب الفرات، مركزًا لدعوته، ولمّا شعرت السلطات العباسية بخطورة هذه الحركة، نشطت إلى إخمادها، وفرّ عبدالله أولاً إلى البصرة، ومعه الحسين الأحوازي من أقطاب شيعته، فلما جدّت السلطات في المطاردة فرّ الحسين إلى الشام، ونزل ببلدة (سلمية) من أعمال حمص، واتخذها مركزًا للدعوة.

وحمل الدعوة من بعده ولده أحمد، وسيّر الحسين إلى العراق، وهناك استطاع أن يمهد لإضرام الشرارة الأولى في تلك الثورة الملحدة، ونعني ثورة القرامطة التي ابتدأت في جنوب العراق سنة ٢٨٠هـ، على يد الفرج بن عثمان الفاشاني المعروف بذكرويه، وحمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، وهو الذي تنسب إليه القرامطة، وكانت الدعوة قد اجتاحت جنوب فارس كله، وانسابت إلى البحرين والأحساء، وعاش القرامطة حيناً في جنوب العراق. وغزوا الشام غير مرّة، واستقرت دولتهم بعد ذلك في البحرين في أواخر القرن الثالث الهجري، وعصفت مبادئهم الإلحادية الإباحية بالعالم الإسلامي.

وخلف أحمد بن عبدالله بن ميمون في حمل الدعوة الباطنية ابنه الحسين، ثم أخوه محمد المعروف بأبي الشلعلع، وكانت الدعوة قد ثبتت واستقرت، وقويت شوكة أئمتها ودعاتها، وكثرت أموالهم ورسلهم، وبعث محمد بدعاته إلى المغرب وعلى رأسهم أبو عبدالله الحسين بن أحمد المعروف بالشيعي، فنشر الدعوة هناك، وأخذ يبشر بظهور المهدي المنتظر، ثم قام بالدعوة سعيد بن الحسين، ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين: إن سعيدًا هذا ليس ولد الحسين، وإنما هو ولد زوجته اليهودية، ربّاه ولقنه أسرار الدعوة، واختاره للزعامة والإمامة من بعده.

وسعيد هذا هو الذي فرّ إلى المغرب، حينما همّت السلطات بالقبض عليه وإخماد دعوته، ففرّ إلى مصر ومنها إلى إفريقيا، وهناك زعم أنه من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، أو بالأحرى من ولد علي وفاطمة، وتسمى عبيدالله المهدي أبي محمد، وزعم أنه المهدي المنتظر، وكان أبو عبدالله الشيعي قد مهّد له سبيل الدعوة، واجتذب إليه عددًا من القبائل البربرية

القويّة، فاستطاع عبيدالله بعد خطوب وأحداث جمّة أن يجتني لنفسه ملك الأغالبة، وأن يؤسس دولة العبيديين أو الدولة الفاطمية بإفريقيا (٢٩٦هـ - ٩٠٩م)، وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة، ولم تلبث أن غلبت على المغرب كله، ثم فتحت مصر، واتخذتها مستقرًا ومنزلاً (٣٥٩هـ - ٣٦٢هـ)[1].

هكذا نشأت الدعوة الباطنية وتطورت، وظهر وجود صلة قوية بين الدعوة الباطنية والدعوة السرية الفاطمية، بل يمكن القول: إن الدعوة الفاطمية السرية إنما هي الدعوة الباطنية بذاتها.

وفي المصادر الإسماعيلية ما يدل على أن الدعوة السرية الفاطمية، تمت بصلة وثيقة إلى الدعوة التي يعتنقها القرامطة في البداية، فلقد نشأ القرامطة في أكناف الدعوة الشيعية، وتحت ظل أئمة سلمية المستورين. وقد استظل القرامطة في بدء أمرهم بلواء الخلافة الفاطمية، ودعوا لها مذ قامت بإفريقيا، واستمد زعماؤهم منها العهد.

وتعدّ الدعوة السرية الفاطمية من أخطر نواحي العصر الفاطمي كله، فقد قامت الدولة الفاطمية على أسس الدعوة الشيعية في ظروف غامضة، واتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الإمامة الدينية، وردّوا بنسبتهم إلى علي بن أبي طالب، وفاطمة ابنة النبي ﷺ، وتعود إمامتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم كانت تسميتهم أيضاً بالإسماعيلية.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون كل الحرص على صفة الإمامة وعلى توطيدها ونشر لوائها بمختلف الوسائل، إذ هي شعارهم الأسمى، وعماد سلطانهم الروحي، ومعقد مطامعهم السياسية، وقد استطاع الفاطميون أن يجنوا ثمار كفاحهم، فبسطت الدولة ظلها بعد شمال إفريقيا على مصر

والشام والحرمين، وكان هذا الانضواء تحت لواء الخلافة الفاطمية يتخذ قبل كل شيء لون الظفر السياسي، بَيْد أنها كانت تحرص على أن تحقق ظفرها المعنوي إلى جانب ظفرها المادي، وأن تغزو عقائد المجتمعات التي يدفعها أو تحملها السياسة على الانضواء تحت لوائها، ومن ثم كان نشاط الفاطميين في بث دعوتهم المذهبية، وفي العمل على توطيد دعائمها.

ولما استقر الفاطميون بمصر، شعروا بالحاجة إلى مضاعفة جهودهم لنشر مذهبهم الإسماعيلي الباطني، وذلك أنها لم تجد في مصر مهدًا خصبًا لدعوتها، فكان عليها أن تتوسل لغزوها بجميع السبل، واعتمدت على الدعاية السرية وغزو الأذهان بطريقة منظمة، وكان لهم دعاة في سائر الأقطار.

وليس أدل على ما كانت ترتبه الفاطمية من عظيم الأهمية على بث دعوتها المذهبية، واتخاذها وسيلة نافذة لحشد المؤمنين والكافة تحت لوائها ما ورد في كتاب المعز الفاطمي إلى الحسن الأعصم أو الأعظم زعيم القرامطة من تلك العبارة القوية التي يشير فيها المعز إلى عناية الدولة الفاطمية ببث دعوتها في مختلف الأقطار: (فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا لنا فيه حجيج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا).

كان للدولة الفاطمية دعوة مذهبية خاصة، وقد أولتها الدولة عناية فائقة، ومن الطبيعي أن تكون مادتها الأولى ما تقوم عليه الدعوة الشيعية الفاطمية من الأصول والمبادئ، وكانت الدعوة تجري على نسق الجمعيات السرية، في مراتب متدرجة من الأهمية والخطورة، ومراتبها تسع، يعرضها الدعاة بالتعاقب، طبقًا لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها، فلا يصل إلى مراتبها

العليا إلا من كان موضع الثقة والإفضاء، حريصًا على السر، وفيما يأتي ملخص لهذه الدعوات التسع:

الأولى: يسأل الداعي المدعو عن بعض المسائل الدينية والشرعية، فإذا كان عارفًا بما سُئل أقرّه الداعي، وإلا فإنه يعرضها عليه للبحث والتأمل، ثم يلقنه أن الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافة، وأن انصراف الناس عن أئمتهم هو أصل الشر والخلاف.

الثانية: إذا وثق الداعي بالمدعو، وأنس فيه قبولاً، ووثق بحرصه وكتمانه، عندئذ يلقنه أن الله لا يقبل أن يأخذ الناس الدين والشريعة إلا عن طريق أئمة نصبهم الناس.

الثالثة: يلقنه أن الأئمة سبعة، رتبهم الله كما رتب السماوات والأراضين، وأن السابع هو القائم صاحب الزمان وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ويلقي إليه أن عند الإمام علم المستور وبواطن الأمور.

الرابعة: يلقن الداعي المدعو أن الأنبياء المعتبرين الناسخين للشرائع سبعة كعدد الأئمة، وكل منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته، ويحفظها على أمته، ويكون له ظهيرًا في حياته، ثم يخلفه بعد وفاته.

الخامسة: أنه لا بد مع كل إمام في كل عصر حجج متفرقون في الأرض، وعددهم اثنا عشر رجلاً في كل زمان.

السادسة: يحدثه عن شرائع الإسلام وفرائضه كالصلاة والصيام والزكاة، وأن لها معاني باطنة غير ظاهرة، وأنها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة عامة. وينتقل به إلى ميدان الفلسفة ونظريات الفلاسفة مثل أفلاطون

وأرسطو، ويعلمه أن منطق العقل هو المعوّل عليه في الأمور، لا الأخبار والأشياء المنقولة.

السابعة: أن صاحب الشريعة لا يستغني بنفسه، وأنه لا بد من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل، والآخر يصدر عنه، وهذا إنما هو إشارة العالم السفلي لما يحويه العالم العلوي.

الثامنة: أن مدبر الوجود والصادر عنه، إنما هو تقدم السابق على اللاحق، والسابق عندهم (الله عز وجل) لا اسم له ولا صفة، ولا يعبر عنه ولا يحدد، فلا يقال هو موجود ولا معدوم، ولا عالم ولا جاهل.

التاسعة: الانتقال إلى ميدان العلوم الفلسفية والطبيعية، وما بعد الطبيعة، وأن ما ذكر من الحدوث والأصول، إنما هي رموز إلى معاني المبادئ وتقلب الجواهر، وأن الوحي إنما هو صفاء النفس، فيجد النبي في فهمه ما يلقى إليه ويتنزل عليه، فيبرزه إلى الناس، ويعبر عنه بكلام الله، الذي ينظم به النبي شريعته حسبما يرى من المصلحة في سياسة الكافة، ولا يجب العمل بهذه الشريعة إلا بحسب الحاجة في رعاية مصالح الدهماء، وليس على العارف المستنير أن يعمل بها.

ومن نظريات وأفكار وإلحاد الفاطميين ودعوتهم السرية ما كتبه كبير دعاتهم وزعيمهم حمزة بن علي، يستعرض فيه كثيرًا من أصول دعوته، ويؤيدها بمختلف الشروح والمقارنات، ما يأتي:

- التناسخ، والاعتقاد أن مذهبهم أو دينهم ينسخ جميع الأديان والشرائع السابقة، ويقول: إن الحاكم بأمر الله هو (ناطق النطقاء) جاء بعد

النطقاء الستة الذين تقدموه، وكان آخرهم محمد، وهو قائم الزمان جاء بعد السبعة الصامتين الذين جاؤوا بعد محمد ﷺ.

- الحلول أو حلول الروح، فروح آدم أصل البشر قد انتقلت إلى علي بن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم بأمر الله.
- ألوهية الحاكم بأمر الله، فالحاكم ليس إنسانًا كباقي البشر، ولكن الروح الإلهية حلت به واتخذت صورته، وهذا هو في الواقع أساس المذهب وعماده الجوهري.

وهكذا نجد أنفسنا أمام دعوة فلسفية حرة، ترمي إلى هدم العقيدة الدينية العادية، وإقامة مبادئ فلسفية إلحادية على أنقاضها [٢].

وقد كان الفاطميون الذين يدّعون نسبتهم إلى فاطمة الزهراء يختصون إمامتهم بالصفة الشرعية، ويعدّون الدولة العباسية على هذا النحو غاصبة للإمامة والخلافة، ويتخذون من هذه الدعوى دعامة لإمامتهم الدينية وملكهم السياسي، فهم طبقًا لدعواهم أبناء فاطمة، وهم ورثة علي وبنيه، وهم الشرعيون في إمامة المسلمين ورياسة العالم الإسلامي.

وحيث إن الفاطميين هم من الشيعة الإسماعيليين، فقد كان عليهم أن ينسبوا أنفسهم إلى آل البيت طبقًا لنظرية الإمامة المعتمدة لدى الشيعة، التي تقول: لا يجوز أن يحكم من ليس من آل بيت النبي ﷺ.

وقد حاول فقهاء الشيعة ودعاتها منذ عصر مبكر أن يوجدوا جوًا قدسيًا حول الإمامة، وللشيعة على اختلاف فرقهم كتب عدة في مسألة الإمامة،

واعتبارها أساسًا من أسس العقيدة الدينية، وانحصارها في علي وبنيه من آل البيت، ويبدو منها جميعًا أن الإمامة هي دعامة الدعوة الشيعية كلها ودعامة دعاواهم في الرياسة الدينية والزمنية.

وقد قامت الدولة الفاطمية متسمة بسمة الإمامة قبل كل شيء، وكان المعز لما قدم مصر سنة ٣٦٢هـ يحرص أشد ما يحرص عليه الإمامة، وكان الحكام الفاطميون يوسمون في الدعاء على المنابر بما يقرب من النبوة، بل إن الإمامة لتقرن في بعض المصادر الإسماعيلية بمرتبة النبوة ذاتها.

ودأب فقهاء الفاطمية على أن ينسبوا إلى خلفائهم المعجزات والكرامات، ومن ذلك ما رواه الداعي عماد الدين إدريس في كتابه (زهر المعاني) واصفًا المهدي: (إنه ولي الأمر صاحب المعجزات ومبين الآيات، المهدي بالله صلوات الله عليه الذي طلع من الغرب، وقام قيام النبي ﷺ مهلكاً لمن ناصبه الحرب...) وما رواه في (عيون الأخبار) عن الحاكم: (وظهرت لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله عليه السلام فضائل لم يسمع بمثلها، ودلائل ظاهر بيان فضلها ومعجزات بهرت الألباب، وآيات لا يشك فيها إلا أهل الزيغ والارتياب).

والمؤكد أن الفاطميين كانوا لا ينتسبون لآل البيت فهم – وفقاً لمبادئهم- غاصبون غير جديرين بالحكم. هناك فريق من المؤرخين يؤيد الفاطميين في دعواهم وفي شرعية إمامهم، ويرجع نسبة إمامهم، ومؤسس دولتهم عبيدالله المهدي إلى الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهذا الفريق هو القلة، ولكن الفريق الأكبر بين العلماء ينكر عليهم هذه الدعوى، ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بصلة إلى علي، وهذا الفريق هو الأغلبية، وهو ينسبهم إلى عبيدالله ابن ميمون القدّاح بن ديصان البوني، كما أسلفنا.

وممن قال بهذا الرأي، وهو أن هؤلاء الفاطميين يرجعون إلى عبيد الله ابن ميمون القداح، القاضي أبو بكر الباقلاني، وأبو حامد الإسفرايني وأبوالحسين القدوري، والأبيوردي، وعبد القاهر البغدادي وابن شداد وابن خلكان والنويري وابن حجر العسقلاني وابن حزم الأندلسي(٣).

عندما بدأ الفاطميون دعوتهم في بلاد المغرب، وجدوا أن التشيع كان منتشراً هناك؛ لأن دولة الأدارسة التي أقامها إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٧٢هـ هي في الأصل دولة علوية شيعية، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب صالحة للدعوة الإسماعيلية، فانتشر التشيع، واعتنقه كثير من البربر، حتى إن أكثر وزراء الأغالبة (في تونس) كانوا على المذهب الشيعي، وكان من أبرز الدعاة للفاطميين في تلك البلاد رجل يقال له أبو عبد الله الشيعي من بلاد اليمن، له من ضروب الحيل ما لا يحصى(٤).

وكان الفاطميون لا يقتصرون في تهييج أهل السنة على إقامة الشعائر الشيعية بل كانوا يرغمون أهل السنة، ويعتدون عليهم ليشاركوهم طقوسهم.

قال المقريزي: (وفي العاشر من المحرم سنة ٣٦٣هـ سار جماعة من المصريين الشيعيين والمغاربة في موكبهم ينوحون، ويبكون على الحسين، وصاروا يعتدون على كل من لم يشاركهم في مظاهر الأسى والحزن ما أدى إلى تعطيل حركة الأسواق وقيام القلاقل)(٥).

ولما آلت الخلافة إلى العزيز سنة ٣٦٥هـ عني كأبيه المعز بنشر المذهب الشيعي، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق المذهب الشيعي كما قصر المناصب المهمة على الشيعيين، وأصبح لزاماً على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي،

وإذا ما ثبت على أحدهم التقصير في مراعاتها عزل عن وظيفته، وكان ذلك ما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلى اعتناق المذهب الفاطمي[٦].

ومن المهم التوقف عند عصر الحاكم بأمر الله، الذي جاء بعد المعز والعزيز؛ لأنه أغرب مراحل هذه الدولة؛ لما عرفه من الأحداث العجيبة، والنوادر الشائقة؛ وما يمازجها من الخفاء والغموض، وما تمتاز به شخصية الحاكم من الأطوار والخواص المدهشة، والنزعات والأهواء المروّعة.

ولي الحاكم بأمر الله (ابن العزيز) الخلافة حدثًا دون الثانية عشرة، وكانت أمه جارية روميّة نصرانية، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير في الدولة، وكان لهذا النفوذ أثره - بلا ريب - في سياسة التسامح الواضح التي اتبعها العزيز تجاه النصارى، وفي تقوية جانبهم ونفوذهم.

وتنقل المصادر التاريخية لنا أن الحاكم كان سيئ الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال، وكان مؤاخِذاً بيسير الذنب، حاداً، لا يملك نفسه عن الغضب، فأفنى أمماً وأجيالاً، وأقام هيبة عظيمة وناموساً. وكان رديء السيرة، فاسد العقيدة مضطرباً في جميع أموره، يأمر بالشيء، ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه، فيبالغ في نقضه.

وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء[٧].

افتتح عهد حكمه بقتل وصيّه ومدبر دولته برجوان، ثم أمين الدولة السابق الحسن بن عمار، وكان يسرف في القتل، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعًا، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائي.

وشغف الحاكم بالطواف بمدينة القاهرة وضواحيها، طوال حياته، وكان يصدر الأوامر المدهشة، ففي محرم سنة ٣٩٥هـ، أصدر سجلاً يمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير، وحرّم ذبح الأبقار السليمة إلا في يوم النحر، وحرّم صيد السمك الذي لا قشر له، وكذلك بيعه، وحرّم دخول الحمام بلا مئزر، وحرّم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات من الغروب إلى الفجر، وحرّم بيع الزبيب، وأمر ألا يجتمع الناس في الصحراء، ومنع الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج، وركوب النساء مع الرجال، وحرّم لعب الشطرنج.

وأصدر الحاكم أوامره بهدم كنائس النصارى، وطارد أتباعها، ثم أعطاهم الأمان، وأعطاهم الحرية في إقامة شعائرهم وإعادة بناء كنائسهم.

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضًا بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة، وقد كان الفاطميون يحكمون في مصر شعبًا لا يتبعهم من الوجهة المذهبية، فأهل مصر هم على مذهب أهل السنة، بينما الفاطميون شيعة إسماعيلية، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية، وقد حذا الحاكم حذو أبيه العزيز وجده المعز، وعمل لبثّ الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة، فسنة ٣٩٥هـ، أمر بسبّ السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية، وغيرهم من الصحابة) وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد، ولا سيما جامع عمرو، وعلى أبواب الحوانيت والمقابر والدور، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن، وكان يصدر الأوامر الغريبة، ففي رجب سنة ٣٩٤هـ، منع الناس من صلاة

الضحى والتراويح، وقبض بالفعل على أناس، وضربوا وشهروا، وفي المحرم سنة ٣٩٥هـ، قرئ سجل بأن يؤذن لصلاة الظهر في الساعة السابعة، ويؤذن لصلاة العصر في الساعة التاسعة، لكنه عاد وأباح صلاة الضحى وصلاة التراويح في رمضان سنة ٣٩٨هـ أو سنة ٣٩٩هـ، لكن في أواسط سنة ٤٠١هـ، صدر سجل جديد بترك (الصلاة خير من النوم) من أذان الفجر، وأن يؤذن بـ(حي على خير العمل) وأن تمنع صلاة الضحى والتراويح.

وجاء في بعض الروايات أن الحاكم حاول أن يعدّل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج، ولقد كان الحاكم في أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الغلو والانحراف، فيؤيد الدعوة السرية إلى فسخ أحكام الإسلام، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه[٨].

ولم يؤثر أن الخلافة الفاطمية قامت بغزو أو عمليات عسكرية ضد الفرنجة لتوطيد أركان الإسلام، بل الثابت تاريخيًّا أنهم كانوا حرباً على أهل الإسلام، سلماً على أعدائه، فهم يضيقون الخناق على أهل السنة، ويجيشون الجيوش لإرغامهم على التشيع، بينما هم مع الفرنجة سلم لهم، بل يستنجدون بهم على أهل السنة.

ومن خيانات الفاطميين وتواطئهم مع الفرنجة ما ذكره المقريزي في الخطط والآثار من أن صلاح الدين الأيوبي لما تولى وزارة العاضد الفاطمي – وكان قد ولاه لصغر سنه وضعفه كما ظن به – قوى نفوذه في مصر، وأخذت سلطة العاضد في الضعف، حتى ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمي، وتجلى استبداده بأمر الدولة وإضعاف الخلافة الفاطمية، حنق عليه رجال القصر ودبروا له المكايد، وقد اتفق رأيهم على مكاتبة الفرنجة ودعوتهم إلى

مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة، وانضموا إلى الفرنجة في محاربتهم والقضاء عليه(٩).

وفعلاً جاء الفرنجة إلى مصر، وحاصروا دمياط سنة ٥٦٥هـ، وضيقوا على أهلها وقتلوا أمماً كثيرة، جاؤوا إليها من البر والبحر؛ رجاء أن يملكوا الديار المصرية وخوفًا من استيلاء المسلمين على القدس، فكتب صلاح الدين إلى نور الدين محمود بدمشق، يستنجده فأمده، وبعث صلاح الدين جيشًا بقيادة ابن أخيه وخاله شهاب الدين، وأمدهما بالسلاح والذخائر، واضطروهم إلى البقاء في القاهرة خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمي وجند السودان الناقمين بتدبير المؤامرات ضده(١٠).

وكان من فضل الله أن رد كيد الفرنجة والشيعة الفاطميين الذين كاتبوهم ففشلت هذه الحملة، وانصرف الفرنجة عن دمياط، وذلك لما تسرب إليهم من قلق من جراء ما عانوه في سبيل تموين قواتهم، ووقوع الخلاف بين قوادهم على الخطة التي يتبعونها في مهاجمة المدينة، فضلاً عن ذلك بلغهم أن نور الدين محمود قد غزا بلادهم، وهاجم حصن الكرك وغيره من نواحيهم وقتل خلقًا من رجالهم، وسبي كثيراً من نسائهم وأطفالهم وغنم من أموالهم(١١).

وهكذا دائماً في كل خيانة يحدثونها يجعلون الأمة الإسلامية بين شقي الرحى، بين عدو خارجي وعدو داخلي، فاللهم، انتقم من الخونة.

ومن خيانات الفاطميين أيضًا أنه لما ضعفت دولتهم في أيام العاضد، وصارت الأمور إلى الوزراء، وتنافس شاور وضرغام، فكر شاور في أن يثبّت ملكه ويقوي نفوذه، فاستعان بنور الدين محمود؛ فأعانه ولما خلا له الجو لم

يفِ له بما وعد، بل أرسل إلى أملريك ملك الفرنجة في بيت المقدس يستمده، ويخوفه من نور الدين محمود إن ملك الديار المصرية، فسارع إلى إجابة طلبه، وأرسل له حملة أرغمت نور الدين على العودة بجيشه إلى الشام، ولكن سرعان ما عاود نور الدين المحاولة عام ٥٦٢ هـ، فاستنجد شاور بالفرنجة مرة ثانية وكاتبهم، وجاءت جيوشهم خشية أن يستولي نور الدين على مصر ويضمها إلى بلاد الشام، فيهدد مركزهم في بيت المقدس.

ولما وصلت عساكر الفرنجة إلى مصر انضمت جيوش شاور والمصريون إليها والتقت جيوش نور الدين بمكان يعرف بالبابين (قرب المنيا) فكان النصر حليف عسكر نور الدين محمود، ثم سار بعدها إلى الإسكندرية، وكانت الجيوش الصليبية تحاصرها من البحر وجيوش شارو وفرنجة بيت المقدس من البر، ولم يكن لدى صلاح الدين - القائد من قبل نور الدين - من الجند ما يمكنه من رفع الحصار عنها، فاستنجد بأسد الدين شيركوه فسارع إلى نجدته، ولم يلبث الفرنجة وشيعة شاور أن طلبوا الصلح من صلاح الدين فأجابهم إليه شريطة ألا يقيم الفرنجة في البلاد المصرية.

غير أن الفرنجة لم تغادر مصر عملاً بهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها كما يقول ابن واصل: (أن يكون لهم بالقاهرة شحنة صليبية - أي حامية - وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين محمود عن إنفاذ عسكره إليهم. واتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويًّا من دخل مصر)[١٢].

وما إن ذهب الفرنجة في هذا العام حتى عادوا مرة أخرى عام ٥٦٤هـ. قال ابن كثير فيها: (طغت الفرنج بالديار المصرية، وذلك أنهم جعلوا شاور شحنة لهم بها، وتحكموا في أموالها ومساكنها أفواجاً أفواجاً، ولم يبقَ شيء

من أن يستحوذوا عليها ويخرجوا منها أهلها من المسلمين وقد سكنها أكثر شجعانهم، فلما سمع الفرنج بذلك أتوا من كل فج وناحية في صحبة ملك عسقلان في جحافل هائلة، فأول ما أخذوا مدينة بلبيس، وقتلوا من أهلها خلقاً، وأسروا آخرين ونزلوا بها وتركوا أثقالهم موئلاً لهم، ثم تحركوا نحو القاهرة.. فأمر الوزير شاور رجاله بإشعال النار فيها على أن يخرج منها أهلها؛ فهلكت للناس أموال كثيرة، وأنفس، وشاعت الفوضى، واستمرت النيران أربعة وخمسين يوماً، عندئذ بعث العاضد الفاطمي إلى نور الدين بشعور نسائه يقول: أدركني واستنقذ نسائي من الفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش لتسييرها إلى مصر، فلما أحس شاور بوصول جيوش نور الدين، أرسل إلى ملك الفرنج يقول: قد عرفت محبتي ومودتي لكم، ولكن العاضد لا يوافقني على تسليم البلد، فاعتذر لهم وصالحهم على ألف ألف دينار، وعجل لهم من ذلك ثماني مئة ألف ليرجعوا؛ فانتشروا راجعين خوفاً من عساكر نور الدين وطمعاً في العودة إليها مرة أخرى، وشرع شاور في مطالبة الناس بالذهب الذي صالح به الفرنج وتحصيله، وضيق على الناس...)(١٣).

كل هذه المحن التي جلبتها خيانات الفاطميين، تشبه إلى حد كبير خياناتهم الحديثة في العراق، فقد كاتبوا الأمريكيين، وكانوا جواسيس لهم، قاتلوا في صفوفهم، أقاموا قواعدهم، قووا مراكزهم، ونهبوا خيرات البلاد.

ومن خيانات الفاطميين أيضاً ما حدث سنة ٥٦٢هـ لما أقبلت جحافل الفرنج إلى الديار المصرية، وبلغ ذلك أسد الدين شيركوه، فاستأذن الملك نور الدين محمود في الذهاب إليها -وكان كثير الحنق على الوزير شاور الفاطمي- فأذن له فسار ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ولما بلغ الوزير شاور قدوم أسد الدين والجيش معه بعث إلى الفرنج، فجاؤوا من كل فج إليه، وبلغ أسد الدين ذلك من شأنهم وأن معهم ألف فارس، فاستشار من معه من الأمراء، فكلهم أشار عليه بالرجوع إلى نور الدين إلا أميراً واحداً يقال له شرف الدين برغش، فإنه قال: من خاف القتل والأسر فليقعد في بيته عند زوجته، ومن أكل أموال الناس فلا يسلم بلادهم على العدو، وقال مثل ذلك ابن أخيه صلاح الدين، فعزم الله لهم، فساروا نحو الفرنج فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فقتلوا من الفرنج مقتلة عظيمة وهزموهم.. ولله الحمد(١٤).

وكان تعاون الفاطميين واضحاً مع الفرنجة لانتزاع الإسكندرية من يد صلاح الدين، فأسد الدين شيركوه لما كان قد أظفره الله بالفرنجة في الوقعة السابقة بمصر على الرغم من خيانة الخونة، رأى أن يفتح الإسكندرية، ففتحها واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين، ثم توجه إلى الصعيد فملكه، وعندئذ اتفق الفاطميون مع الفرنجة على حصار الإسكندرية لانتزاعها من يد صلاح الدين في أثناء غياب أسد الدين شيركوه، فامتنع فيها صلاح الدين أشد الامتناع، ولكن ضاقت عليهم الأقوات والحال جدًّا، فسار إليهم أسد الدين شيركوه، فصالحه الوزير شاور عن الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجابه إلى ذلك وخرج منها وسلمها للمصريين، ثم عاد إلى الشام، وقرر شاور للفرنجة على مصر في كل سنة مئة ألف دينار وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة(١٥).

ومن المهم أيضاً ذكر خيانة الطواشي مؤتمن الخلافة الفاطمية بمصر. فإنه لما كانت الفرنجة قد طغت بالديار المصرية عندما جعل لهم الوزير

الفاطمي شاور شحنة بالقاهرة، وتحكموا في البلاد والعباد، حتى استنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود أن ينقذه ونساءه من أيدي الفرنجة - وكان الفاطميون هم الذين مكنوا لهم، وكاتب شاور الفرنجة وصالحهم على مال جزيل، ثم جاءت جيوش نور الدين بقيادة أسدالدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين واستقر لهم ملك الديار المصرية.

وهنا قام الطواشي مؤتمن الخلافة الفاطمية بالكتابة من دار الخلافة بمصر إلى الفرنجة ليقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا منها الجيوش الإسلامية الشامية، ولكن حامل الكتاب لقيه في الطريق من أنكر حاله، فحمله إلى صلاح الدين فقرره، فأخرج الكتاب وانكشفت المؤامرة، فأمر بقتل الطواشي، فثار له خدم القصر من السودان، فكانوا نحو خمسين ألفاً، وقاتلوا جيش صلاح الدين بين القصرين، فهزمهم صلاح الدين، وأخرجهم من القاهرة وقتل منهم خلقًا(١٦).

استمرت علاقة الفاطميين العبيديين بالصليبيين بعد وفاة وزير الفاطميين، الأفضل بن بدر الجمالي، الذي ذهب بعيدًا في علاقته مع الصليبيين، وسعى للتحالف معهم ضد دولة السلاجقة السنيّة، التي كانت منهمكة في قتال الصليبيين منذ حملتهم الأولى على المشرق الإسلامي.

اغتيل الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) بعد حياة مليئة بموالاة الصليبيين، وخذلان المسلمين، وصحوة متأخرة لاسترداد أملاك الدولة العبيدية الفاطمية، وكان الوزير الأفضل الرجل القوي في الدولة، فهو الوزير صاحب السلطة وأمير الجيوش والمشرف على شؤون القضاء والدعوة، والذي في عهده بدأت بواكير الحركة الصليبية وحملاتها المدمرة على المنطقة.

وعلى الرغم من تعاطف الدكتور أيمن فؤاد سيد مع الدولة العبيدية الفاطمية، لكنه لا يجد مفرًا من القول: (ولاشك أن الأفضل يتحمّل وحده وِزر سقوط مدن الشام الساحلية التي كانت للفاطميين في أيدي الفرنج، فقد اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية، وأدى هذا التهاون إلى استيلاء الفرنج على عكا وطرابلس وجبيل وعِرّقة وبانياس، وبيروت، وصيدا، وتِبْنين وأخيراً صور... بل بلغ الأمر إلى أن وصل بُلْدوين، ملك بيت المقدس، على رأس حملة على الأراضي المصرية حتى الفَرَما، واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته)[١٧].

تولى الوزارة في مصر بعد مقتل الأفضل، المأمون البطائحي، الذي كان له دور في قتل سلفه، وعلى الرغم مما كان من ودٍّ بين الآمر العبيدي ووزيره البطائحي، لكن العلاقة ساءت بينهما فيما بعد، لينتهي الأمر بعزل البطائحي وقتله، فاستقل الآمر بالحكم، وقد اشتهر بانغماسه في لهوه وملذّاته، وعشقه للجواري البدويات اللائي أقام لواحدة منهن بناءً بجزيرة الروضة يعرف بـ (الهودج) كان يزورها فيه[١٨].

يقول د. محمد سهيل طقوش: (ويلمس المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية بعد الأفضل فتورًا ملحوظًا في مواجهة الصليبيين، حيث برز اتجاه قوي في الدوائر الفاطمية، وبخاصة بين متطرفي الشيعة، لمهادنة الصليبيين، وعدم طردهم من جنوب بلاد الشام، حيث يشكل بقاؤهم ضمانًا لحماية الدولة الفاطمية المتداعية من أطماع السلاجقة. لكن الإمام الآمر الفاطمي لم يستطع أن يكشف عن سياسته المتراخية تجاه الصليبيين حرصًا على مكانته في العالم الإسلامي)[١٩].

رأى الآمر، خليفة العبيديين الفاطميين، أن يسترضي الرأي العام، فأنفذ حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا، وتمكنت هذه الحملة من إحكام الحصار على يافا من البر والبحر، ولكن وصول النجدات الصليبية إلى يافا جعل الفاطميين يفكرون في الانسحاب إلى يبنا (بين يافا وعسقلان). وفي يبنا دارت بين الفاطميين والصليبيين معركة انهزم فيها الفاطميون، فولّوا الأدبار، واقتفى الصليبيون أثرهم، يقتلون ويأسرون، وينهبون ما تصل إليه أيديهم[٢٠].

بعد ذلك لم تلبث أن انكشفت سياسة الخليفة الآمر الفاطمي في مسألة الصليبيين، فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنيّة التي كانت تشترك معهم في الدفاع عن صُور[٢١].

كانت مدينة صور، وهي إحدى المدن الساحلية المهمة في بلاد الشام، قد استعصت على الصليبيين، علر الرغم من غاراتهم المتكررة، وعندما رأى أهل صور عجز الدولة العبيدية الفاطمية عن حمايتهم من الصليبيين في كثير من الأحيان، توجهوا نحو طغتكين، حاكم دمشق من قبل السلاجقة، طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم.

استجاب طغتكين إلى طلب أهالي صُور، وأرسل إليهم جنودًا، وجعل عندهم واليًا من قبله اسمه مسعود، وبعث معه المؤن والأموال، فوزعها على أهل صور حتى طابت نفوسهم، وخلال تلك المدة ظلت الخطبة للآمر العبيدي، ولم يغير طغتكين العملة، إذ كان الهدف هو المساعدة على حماية صور من الصليبيين، لا منازعة الفاطميين فيها، وكتب طغتكين إلى الأفضل، وزير الفاطميين آنذاك، يعرّفه صورة الحال، ويقول له: متى وصل إليها من مصر مَنْ يتولاها، ويذبّ عنها، سلّمَها إليه، فشكره الأفضل على ذلك.

أما أهل صور، فقد أوضح لهم طغتكين سبب قدومه إليهم قائلاً: أنا ما فعلت ما فعلت إلاّ لله تعالى، لا رغبة في حصن ومال، ومتى دهمكم عدوّ جئتكم بنفسي ورجالي(٢٢).

وبدلاً من أن يساعد الفاطميون السلاجقة في الدفاع عن صور وأهلها، ارتكبوا مؤامرة جديدة، تعيد إلى الأذهان مؤامرتهم على بيت المقدس سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) عندما هاجموا القدس وأخذوها من السلاجقة، ثم فرّطوا فيها، واحتلها الصليبيون وارتكبوا مجزرة مروعة ضد أهلها المسلمين، وهكذا استعمل الفاطميون قوتهم ضد المسلمين السنة لا ضد الصليبيين.

قام الفاطميون في عهد خليفتهم الآمر ووزيرهم البطائحي في صور، بما قام به الأفضل سابقًا في بيت المقدس، فسنة ٥١٦هـ (١٠٢٢م) قَرّر العبيديون الفاطميون استرداد صُور من قوات دمشق السنّية، بدلاً من مساعدتهم في حمايتها ضد الصليبيين، وأرسل الفاطميون أسطولاً إلى صور، قام بإلقاء القبض على واليها سيف الدولة مسعود، وتعيين وحشي بن طلائع والياً عليها من قبل الفاطميين(٢٣).

اعتبر المؤرخون خطوة الفاطميين هذه تعاونًا صريحًا مع الفرنج الصليبيين ضد المسلمين، ونذير شؤم على صور وأهلها؛ لأنه أتاح للصليبيين مهاجمتها مرّة أخرى، فقد كان الصليبيون يرهبون مسعود لشهامته وشجاعته ومعرفته بالحرب ومكايدها(٢٤).

وينقل الباحث يوسف إبراهيم عن ابن تغري بردي استنكاره لما قام به الفاطميون من اعتقال سيف الدولة مسعود، فيقول: (وهذه زيادة في النكاية

للمسلمين من صاحب مصر، فإن سيف الدولة المذكور (مسعود) كان قائمًا بمصالح المسلمين، وفعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم، وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة، فأخذوه منها غصبًا، وخلّوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج، فكان حال المصريين في أول الأمر أنهم تقاعسوا عن نصرة المسلمين، والآن بأخذهم سيف الدولة من صور صاروا نجدة للفرنج)[٢٥].

لمّا علم الصليبيون بالأمر، وجدوا الفرصة سانحة لحصار صور ومهاجمتها، فأيقن واليهم المعيّن من قبل الفاطميين، أنه لا قبل له بالدفاع عنها؛ لقلة الجند والمؤن، وأرسل إلى خليفة الفاطميين، الآمر، يقترح عليه إعادة صور إلى طغتكين، فوافق، فعادت إلى طغتكين، الذي رتب بها العدد اللازم من الجند والسلاح[٢٦].

اشتد حصار الصليبيين لصور، فحث أهلها حكام القاهرة (العبيديين) ودمشق (طغتكين) على النهوض لنجدتهم قبل فوات الأوان، فأرسل طغتكين إلى الآمر، خليفة العبيديين الفاطميين، وقادته يحثهم على التحرك السريع لنجدتهم، ولكن رسائله لم تجد حماساً كما كان يأمل[٢٧].

سقطت صور في نهاية الأمر (وارتفع من مصر صوت خافت يتهم الخليفة الآمر الفاطمي بأنه فرّط في صور، ويطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة إيجابية في الجهاد ضد الصليبيين بالشام)[٢٨].

وأبدى المؤرخ ابن تغري بردي استياءه من تفريط الفاطميين، وموقفهم المائع وغير المسؤول، فقال: (وما أبقى أهل صور، رحمهم الله تعالى، ممكناً في قتالهم مع الفرنج في هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر)[٢٩].

وسنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) اغتيل الآمر بأحكام الله، خليفة العبيديين الفاطميين، وتولى الحكم بدلاً منه، الحافظ لدين الله، وكان الحافظ هذا من أشد المتحمسين لمسالمة الصليبيين.. وظلت الدولة الفاطمية على هذه الحال، لا تستجيب لأي نداء بضرورة الوحدة الإسلامية، والجهاد ضد الصليبيين، وكانت تقف عقبة في طريق ذلك، وكان الخلفاء الفاطميون يتخلصون من الوزراء الذين ينادون بفكرة الجهاد على وجه السرعة[٣٠].

وفي عهد الحافظ الفاطمي هذا، تولى رضوان بن ولخشي الوزارة (٥٣١هـ/١١٣٧م)، ليكون أول وزير سني في الدولة الفاطمية، وكان الحافظ - قبل تولي رضوان الوزارة - قد ولّى أرمنيًا نصرانيًا الوزارة، هو بهرام، الذي مكّن لأهل طائفته في مصر.

كان من الطبيعي أن يؤدي اتخاذ الحافظ العبيدي وزيراً نصرانيًا إلى مسالمة الصليبيين وإعاقة الجهاد، لكن الأمور بدأت تتبدل مع تولي السني رضوان الوزارة، بعد تغلّبه على بهرام وفرض الأمر الواقع على الحافظ، وكان رضوان من أشد المتحمسين للجهاد ضد الصليبيين، وأنشأ ديوانًا جديدًا أطلق عليه اسم (ديوان الجهاد) وفي الوقت نفسه أخذ يطارد الأرمن النصارى، ويقصيهم عن مناصب الدولة، وبسبب ذلك تعرّض الوزير رضوان لمضايقات ومؤامرات الحافظ الفاطمي، ففرّ نحو الشمال ليستعين بعماد الدين زنكي، أحد أبطال الجهاد ضد الصليبيين[٣١].

ولم تجد محاولات رضوان صداها، إذ قُتل على يد الحافظ، وأخمدت إحدى المحاولات القليلة في عهد الدولة الفاطمية لجهاد الصليبيين.

تكرر الأمر مع تولي سني آخر منصب الوزارة، هو العادل بن السلار، سنة ٥٤٤هـ (١١٥٠م) إذ سعى ابن السلار إلى معاودة الجهاد ضد الصليبيين، وعمل على تقوية عسقلان لتكون قادرة على الصمود أمام هجمات الصليبيين، حتى مقتله سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م).

وحاول ابن السلار خلال توليه الوزارة الاتصال بنور الدين محمود، أحد أبطال الجهاد ضد الصليبيين آنذاك، وابن عماد الدين زنكي.

أما في عهد الوزراء الشيعة، فيكاد الوزير طلائع بن رُزِّيك (٥٤٩-٥٥٦هـ/ ١١٥٤-١١٦١م) أن يكون استثناءً من هؤلاء الوزراء، فعلى الرغم من كونه شيعيًّا، لكنه سعى لمحاربة الصليبيين، وحصلت بينه وبين نور الدين اتصالات لعمل مشترك ضدهم[٣٢].

ويشير د. علي الصلاّبي إلى سبب آخر جعل العبيديين الفاطميين يسعون للتقارب مع نور الدين زنكي ودولته السنيّة يتمثل في أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان، وهي آخر معاقلهم في الشام، سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) أدركوا أكثر من ذي قبل خطورة الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري[٣٣].

وعلى الرغم من اهتمام ابن رزيك بقيام تحالف بينه وبين نور الدين، لكنه لم يأتِ بالغرض المنشود، إمّا لأن نور الدين لم يكن يثق بالفاطميين وعروضهم، أو لأن ابن رزيك سرعان ما تم اغتياله بمؤامرة من البيت الفاطمي، ويذكر المؤرخون أنه تأسف في آخر عمره لعدم قيامه بتحرير القدس واستئصال شأفة الصليبيين[٣٤].

ويذكر المؤرخون أيضاً أنه الرغم من اهتمام ابن رزيك بمحاربة الصليبين، لكنه سنة ٥٥٥هـ (١١٦١م) هدّد الصليبيون بغزو مصر، منتهزين فرصة الفوضى التي أعقبت مقتل خليفة الفاطميين، الفائز، فتعهد ابن رزيك بدفع جزية سنوية قدرها مئة وستون ألف دينار لثيهم عن محاولتهم هذه[٢٥].

ولعلّ هذه الجزية التي تعهد ابن رزيك بدفعها للصليبين تختلف عن جزية أخرى ذكرها د. أيمن فؤاد سيد بعد إيراده لجهود ابن رزيك في محاربة الصليبيين، فقال: (ولسبب مجهول، فقد التزم الملك الصالح (ابن رزيك) بأن يدفع للفرنج جزية سنوية مقدارها ٣٣ ألف دينار، امتنع شاور السعدي بعد أن تولى الوزارة عن أدائها لهم)[٣٦].

سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) تمكن الصليبيون من تأسيس أول إمارة لهم في الشرق الأدنى الإسلامي، وهي إمارة الرها (بين الموصل والشام)، ثم استطاعوا في العام نفسه، تأسيس إمارتهم الثانية، وهي إمارة أنطاكية (شمال غرب سورية)، على الرغم من المقاومة التي أبداها السلاجقة، الذين كانوا يحكمون آنذاك شمال بلاد الشام.

كانت الدولة العبيدية الفاطمية، تراقب الوضع عن كثب، لا لنصرة المسلمين، أو تقديم العون للسلاجقة للتصدي للصليبيين، إنما كانت المراقبة لأمر آخر.

يقول د. محمد طقوش: (في الوقت الذي وصلت فيه طلائع الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان الفاطميون منهمكين بسوء أوضاعهم الداخلية السياسية والاقتصادية، وتحكّمت فيهم روح العداء للسلاجقة في

بلاد الشام، لذلك لم يتحمسوا آنذاك لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وربما رأى بعض أركان الدولة في هؤلاء درعاً يحميهم من خطر السلاجقة)(٢٧).

كان على رأس الدولة الفاطمية آنذاك، المستعلي بالله، وكان الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي، هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة، إذ إن الدولة الفاطمية عاشت سنوات طويلة في ظل تسلط الوزراء وسيطرتهم على مقاليد الأمور.

أثار موقف (الأفضل) من حصار الصليبيين لأنطاكيا، وتخاذله عن نجدة المسلمين فيها استياء المسلمين، بمن فيهم المؤرخون الذين يميلون في العادة إلى تسجيل الوقائع والأحداث بشكل مجرد دون التعليق أو إبداء الرأي، لكن التقاعس والتخاذل بلغ حدًّا جعل المؤرخ المصري ابن تغري بردي يقول: (ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال)(٢٨).

ويشرح ابن تغري بردي كيف خرجت عساكر المسلمين في العراق وبلاد الشام لصد زحف الصليبيين: (كل ذلك وعساكر مصر لم تُهيّأ للخروج)(٢٩).

و(لم يكتفِ الأفضل بهذا ولم يقف عند هذا الحد، وبدلاً من أن يجيّش الجيوش لصد المعتدين، أرسل سفارة إلى الصليبيين، بينما كانوا يحاصرون أنطاكية، وتفيد بعض المصادر الصليبية بأن الأفضل عندما رأى حصارهم لأنطاكية قد طال، خاف من أن يتسرب الضعف والملل إلى نفوس الصليبيين، لذا أرسل إليهم سفارة ترجو قادتهم مواصلة الحصار، وأكد لهم أنه سيساعدهم بالإمدادات العسكرية والمواد الغذائية، وكلّف سفراء مخصوصين بالعمل على كسب قلوب قادة الصليبيين)(٤٠).

وبشيء من الأسى، يقول الأستاذ جمال بدوي: (لم يجد الفاطميون في الانتصارات التي أحرزها الصليبيون في آسيا الصغرى وإنطاكية كارثة عامة حلّت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هي تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين)[٤١].

لم يكتفِ الفاطميون، ووزيرهم الأفضل الجمالي، بموقف المتفرج، ولا عرض التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة والمسلمين السنة، إنما وجهوا طعناتهم إلى السلاجقة باحتلال عدد من المدن التي بحوزتهم وعلى رأسها: صور والقدس. أي إن الأفضل بدلاً من أن يوجه جنوده وقواته إلى محاربة الصليبيين، وجّهها إلى قتال السلاجقة الذين كانوا منهمكين في قتال الصليبيين والدفاع عن المدن الإسلامية.

ويقول د. طقوش: (إضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة بالتصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوب بلاد الشام، ظنًا منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة)[٤٢].

استطاع الأفضل احتلال صور سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) ولم يحاول أن يهاجم بيت المقدس، وترك ذلك لفرصة أخرى، (وحانت هذه الفرصة في شهر رمضان ٤٩١هـ (١٠٩٨م) والصليبيون لا يزالون في أنطاكية، فخرج من مصر على رأس جيش كثيف، ونزل على بيت المقدس، وحاصره، وفيه الأميران سكمان وإيلغازي، ابنا أرتق بن أكسب، فرَاسَلهما يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه دون قتال، فامتنعا في بادئ الأمر عن إجابة طلبه، وتحصّنا وراء أسوار المدينة، إذ علما أن دقاقًا (حاكم دمشق) ليس بوسعه أن يبادر بالنهوض إلى

مساعدتهما... ومع أن جيش الأفضل تجهّز بأحدث آلات الحصار، من بينها أربعون منجنيقًا، فإن الأراتقة ظلوا يقاومون الحصار مدة أربعين يومًا، ولم يرغمهم على الاستسلام إلاّ ما حدث من تدمير الأسوار، ودخل الأفضل إلى بيت المقدس، واستولى عليه...)(٤٣).

في هذا الوقت كانت الجيوش الصليبية في طريقها إلى القدس، فلم ينتظر الأفضل وصولها أو حتى التصدي لها، بل عاد لتوّه إلى القاهرة(٤٤).

ويؤكد الباحث الأستاذ يوسف إبراهيم أن الدولة الفاطمية كانت على علمٍ بأهداف الصليبيين وخطّ سيرهم حتى قبل وصولهم إلى أراضي الدولة البيزنطية، فقد بلغ الصليبيون أهدافهم، وأمير جيوش الدولة الفاطمية خامل متردد حائر، فرماه بعض المؤرخين بالخيانة. وينقل الباحث عن ابن الأثير (الكامل في التاريخ) قوله: إن أصحاب مصر من العلويين (الفاطميين) لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزّة، ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول الأقسيس إلى مصر وحصرها، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه(٤٥).

بدأ الصليبيون يزحفون تجاه بيت المقدس مدفوعين بنشوة انتصاراتهم غير آبهين بما اتفقوا عليه مع الأفضل، ويستولون على المدن والقرى التي في طريقهم، (عندئذ أفاق الأفضل من سكرته، ووجد أنه سيكون وجهًا لوجه أمام أصدقاء الأمس، وأعداء الغد، ولا مناص من الصدام بينهما، ولكن الأفضل اكتشف الحقيقة المرة بعد فوات الأوان، وبينما الصليبيون في طرابلس - في طريقهم إلى القدس - بعث إليهم بسفارة ثانية محمّلة بهدايا

وأموال هائلة تفوق ما حملته السفارة الأولى، وإن العرض الجديد يختلف عن العرض السابق، وفحواه أن يمتنع الصليبيون عن دخول القدس على أن يتعهد الفاطميون بالسماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى الأماكن المقدسة في شكل مجموعات صغيرة تتراوح ما بين مائتين وثلاث مئة حاج، بشرط أن يكونوا منزوعي السلاح، ولكنّ الصليبيين ردّوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بمعونة الله، ومن دون وصاية من أحد)(٤٦).

توجّه الصليبيون إلى القدس، وحاصروها مدة أربعين يومًا، لم تصل خلالها إمدادات من الأفضل للحامية الفاطمية في المدينة، وتؤكد المصادر التاريخية أن الصليبيين خلال حصارهم للقدس واجهتهم مشكلات كثيرة، منها: الاستعدادات التي اتخذها حاكم المدينة الفاطمي، إفتخار الدولة، وصعوبة تأمين المياه، وارتفاع الحرارة، وحدوث خلاف بين الصليبيين حول مصير بيت المقدس، وعلى الرغم من هذه الصعوبات لكن الصليبيين استطاعوا اقتحام القدس في ٢٣ شعبان، سنة ٤٩٢هـ (١٥/٧/١٠٩٩م) وارتكبوا مذبحة مروّعة قتلوا فيها سبعين ألفاً من المسلمين، (واحتمى إفتخار الدولة مع طائفة من الجند بمحراب داود، حيث اعتصموا به، وقاتلوا ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان، ثم أطلقوا سراحهم، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين)(٤٧).

يقول ابن تغري بردي: (والعجيب أن الفرنج لمّا خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت

عساكر الإسلام -أي قوات الفاطميين- في غاية القوة، والكثرة، فكسروا -الصليبيون- المسلمين ومزقوا جموعهم).

ويصف الأستاذ جمال بدوي رد فعل الأفضل الجمالي، ودولته الفاطمية، على كارثة احتلال القدس، فيقول: (أما الدولة الفاطمية، فقد تلقت أخبار النكبة في برود، وظلت تغط في سباتها العميق، وحاول الوزير الأفضل أن يفعل شيئًا يمحو به عار التواطؤ الذي أدّى إلى الكارثة، فلمّا بلغه سير الصليبيين نحو القدس، جمع رجاله وخرج إلى فلسطين على أمل أن يحول بين الصليبيين وبين دخولهم القدس، ولكنه وصل إلى عسقلان يوم ٤ أغسطس، أي بعد عشرين يومًا من استيلاء الصليبيين على القدس، وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن اعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون باحتلال شمال سوريا، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفاءهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة.

ولم يَسَع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان إلا أن يرسل رسولاً إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوا، على حد تعبير المؤرخ ابن ميسر، ولم يكن أحق بالتوبيخ من الأفضل نفسه، الذي جمع بين سوء النيّة، وضعف التدبير[٤٨].

وهكذا ظلّت القدس بيد الصليبيين، نتيجة تواطؤ الفاطميين العبيديين، إلى أن قيّض الله لهذه المدينة بطلاً من أبطال المسلمين، هو صلاح الدين الأيوبي، تمكّن سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) من تحريرها في معركة حطين، وإصلاح ما قام به العبيديون من خيانة وتخاذل.

وتبوأ اليهود والنصارى مركزاً مرموقاً في مصر خلال حكم الدولة العبيدية الفاطمية الشيعية الإسماعيلية، واعتلى بعضهم أعلى المناصب، وقد

كان لهذا النفوذ اليهودي والنصراني الأثر البالغ في أهل مصر خلال تلك الحقبة، وفي أهل السنة بشكل خاص، وهم الذين يشكلون أغلبية أهل مصر، وهم أصل المسلمين قبل أن يفد إليها العبيديون.

وعند الحديث عن اليهود الذين كان لهم شأن كبير في الدولة العبيدية، فإنه يقفز إلى الذهن فورًا اسم الوزير (يعقوب بن كلّس)، وهو يهودي عراقي، تولى الوزارة في عهد العزيز بالله الفاطمي، ويُعدّ ابن كلس من مؤسسي الدولة الفاطمية بمصر، وكان صاحب أثر بارز فيها، وقد وضع لها كثيرًا من الأسس التي سارت عليها في سياستها الداخلية خصوصًا في النواحي الاقتصادية والسياسية، التي كان خبيراً بها منذ أن دخل في خدمة كافور الإخشيدي.

وقبل ذلك كان المعز العبيدي قد عهد لابن كلس بالخراج، وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والأحباس والمواريث وجميع ما يضاف إلى ذلك، وما يطرأ في مصر من أعمال.

وعلى الرغم من تعرض ابن كلس لبعض الصعوبات في عهد العزيز بالله، والقبض عليه، لكن العزيز العبيدي سرعان ما أطلقه وأعاده لمركزه مكرّمًا، وزاد نفوذه حتى استولى على حكومة العزيز وشؤونه، وعظمت منزلته عنده.

ويصف الإمام ابن عساكر - رحمه الله - في (تاريخ دمشق) ابن كلس بقوله: (كان يهوديًّا من أهل بغداد، خبيثًا ذا مكر، وله حيل ودهاء، وفيه فطنة وذكاء)، إلى أن ذكر كيف أسلم طمعًا في الوزارة.

لقد أدت هذه السياسة إلى أن اليهود في مصر يعدّون عصر العبيديين عصرهم الذهبي، بل توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد. ولم يكن أهل

السنة في مصر آنذاك ينعمون بما ينعم به أولئك اليهود. وحتى منتصف القرن الخامس الهجري كان يقوم بخدمة حكام بني عبيد سلسلة من الأطباء اليهود بدأت بطبيب المعز موسى بن العازار.

وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده، نصرانيًّا يدعى أبوالفتح منصور بن مقشر المصري، وكانت له منزلة سامية في الدولة.

وكانت السياسة الفاطمية تذهب إلى أبعد حد من الموالاة لليهود والنصارى، وفي بعض الروايات أن الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون إقامة الكنائس والبيع والأديار، بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم أحياناً[٤٩].

وإضافة إلى ابن كلس، فإن يهودياً آخر تولى الوزارة بالشام، وهو إبراهيم القزاز (منشا).

أما النصارى، فكان لهم نفوذ أيضًا في ظل الدولة العبيدية، وخاصة في عهد العزيز الذي غص بلاطه بهم، وبالغ في إكرامهم؛ لما كان بينه وبينهم من صلة النسب، إذ تزوج العزيز بالله من مسيحية، وكان لها ولابنتها (سيدة الملك) نفوذ واسع في شؤون الدولة.. وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أرقى المناصب في الكنيسة، فعين أحدهما بطريركًا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الآخر مطرانًا للقاهرة، ثم رقي في عهد الحاكم بأمر الله بطريركًا للملكانيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ.

لقد كانت سياسة إعلاء شأن النصارى واضحة قبل عهد العزيز، فبعد وصول المعز إلى مصر قادمًا من إفريقية طلب إليه البطريرك أفرهام السرياني أن يمكنه من بناء كنيسة أبي مرقورة بالفسطاط، وكذلك الكنيسة

المعلّقة بقصر الشمع، فكتب له سجلًا يمكنه من ذلك، وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذا البناء، فتصدى الناس للأقباط الذين يريدون بناء الكنائس، ومنعوهم من البدء ﱢ في عملية البناء، فجاء المعز، وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة.

وعيّن النصراني عيسى بن نسطورس وزيرًا بعد وفاة ابن كلس، فضبط الأمور، وجمع الأموال، وأثقل أهل مصر بالضرائب، وتفشى الغلاء في عهده، واضطرب الأمن حتى إن المؤرخين يذكرون أنه لم يحج أحد في هذه الحقبة من مصر، وبلغ بالناس الجوع مبلغه حتى بلغ عدد الموتى مئة وسبعين ألفاً.

لقد أدت سياسة العبيديين في إعلاء شأن اليهود والنصارى، وإكرامهم وتوليهم الوزارة إلى آثار سلبية على المسلمين، فقد عمّت مظالمهم جماهير المسلمين، وظهر تحيزهم لأبناء دينهما، ويكفي للتدليل على ذلك ذكر قصة العابد المشهور أبي بكر النابلسي - رحمه الله - المتوفى سنة ٣٦٣هـ، حيث سلمه المعز ليهودي ليسلخه فسلخه، وهو يتلو القرآن، كما في (تاريخ ابن كثير). وجاء في (العِبَر) للذهبي أن النابلسي كان قد قال: (لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم سهماً ورميت بني عبيد تسعة)، فبلغت هذه العبارة جوهر الصقلي، فلما قرّره اعترف وأغلظ لهم، فقتلوه.

وكان المسلمون في مصر يمقتون ما يقوم به الوزراء اليهود والنصارى، ويحاولون ما استطاعوا مقاومة هذا النفوذ، وتنبيه حكام بني عبيد إلى ذلك، وقد ذكر المؤرخ المقريزي شيئاً من ذلك، فيقول عن الوزيرين: النصراني عيسى بن نسطورس، واليهودي منشا: (فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين. فعمد أهل مصر، وكتبوا قصة جعلوها في يد صورة (تمثال)،

عملوها من قراطيس (ورق) فيها:

بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلين بك (العزيز بالله) ألا كشفت ظلامتي؟! وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز.

وقد اضطر العزيز أمام تذمّر أهل مصر من هذا الوضع إلى القبض عليهما، وأخذ من ابن نسطورس ثلاث مئة ألف دينار. ولكنه عاد، فأفرج عنه بتأثير من ابنته سيدة الملك.

أما الظاهر بن الحاكم، الذي يضرب به المثل في المجون وشرب الخمر، فلم يكن بعيداً عن سيرة أبيه وأجداده، إذ يروي المقريزي المؤرخ، - على الرغم من أنه من المتعاطفين مع العبيديين - بعضاً من مجون الظاهر، ومودته للنصارى فيقول: (ولخمس بقين من محرم، وكان ثالث فصح النصارى، فاجتمع بقنطرة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير طول نهارهم في لهو وتهتك قبيح، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر، حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر، فكان المنكر شديداً في هذا اليوم.

وركب الظاهر في موكب إلى المقس بعمامة شرب مفوطة بسواد، وثوب دبيقي مدير بسواد، فدار هناك طويلاً وعاد)(٥٠).

وقد كان الشعراء يدلون بدلوهم لما وصلت إليه الأمور من تسلط اليهود والنصارى في عهد العبيديين على المسلمين، فيصورون الدولة، وكأنها تحكم بـ (الثالوث): ابن كلس، والعزيز بالله، والوزير الفضل، ويصوغ الشاعر

الدمشقي الحسن بن بشر ذلك شعراً، فيقول ساخراً:

تنصّر، فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا ... وعطّل ما سواهم فهو عطل

أما نقد سيطرة اليهود، فيعبر عنها الشاعر المصري الحسن بن خاقان، فيقول:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ... ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم ... تهوّدوا، فقد تهوّد الفلك

وفي نقد الترف والاستبداد، اللذين تمتع بهما هؤلاء النفر من النصارى واليهود، يقول الشاعر ابن الخلال:

إذا حكم النصارى في الفروج ... وغالوا في البغال وفي السروج
وذلت دولة الإسلام طرًّا ... وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج

وفي عهد الآمر بأحكام الله (ت ٥٢٤هـ)، اتخذ راهباً يعرف بأبي نجاح بن قنا، ووكّله شيئًا من الأمور المالية، فأخذ يصادر من أموال المسلمين الشيء الكثير... فزاد قربه من الأمر حتى لقبّه بـ (الأب القديس الرّوحاني النفيس، أبي الآباء سيد الرؤساء، مُقَدّم دين النصرانية وسيد البطريركية، ثالث عشر الحواريين)، الأمر الذي جعله يتمادى في سطوته، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس(٥١).

واستمر هذا الحال في تقريب اليهود والنصارى وإعلاء شأنهم حتى آخر عمر هذه الدولة، فقد كان الأفضل بن بدر الجمالي، وزير الآمر، يستخدم الموظفين النصارى بكثرة، فعيّن أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني في ديوان التحقيق، وبقي فيه حتى عام ٥٢٨هـ (١١٣٤م)، كما كان أبو الفضل المعروف بابن الأسقف، كاتب الأفضل الجمالي، والموقّع عنه في الأموال والرجال ومتولي ديوان المجلس، والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة.

وتولى أبو اليمن وزير عبدالمسيح، الديوان بأسفل الأرض. وأحاط الأفضل نفسه بجنود من الأرمن، وشجع على هجرتهم التي بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر[٥٢].

وعندما تولى الحافظ لدين الله الحكم بعد الآمر، استمر في هذا النهج، وولّى الوزارة سنة (٥٢٩هـ ١١٣٥م) بهرام الأرمني، ونعته بـ (السيد الأجلّ، أمير الجيوش سيف الإسلام، تاج الخلافة، ناصر الإمام، غيّاث الأنام).

وبعد أن استقر بهرام في السلطة لم يتردد في تبني سياسة شخصية أرمنية مسيحية... فقد سأل الخليفة الحافظ في السماح له بإحضار إخوته وأهله من بلاد الأرمن، فأذن له في ذلك، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين، وأصابهم منهم جور عظيم. كذلك بُني في أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأرمن يبني له كنيسة... وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الإسلام[٥٣].

وفي إطار هذه السياسة، أضحى معظم ولاة الدواوين من النصارى. وولّى بهرام أخاه "فاساك" ولاية قوص في الصعيد، فاستقوى بأخيه، وتمادى في ظلم المسلمين ومصادرة أموالهم[٥٤].

لقد نبه بعض الغيورين إلى مسألة إعلاء شأن الأقليات، ومنها اليهود والنصارى، محذرين من آثارها السلبية، وفي ذلك يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ١٠/٩٨: (ومن المثلات والعبر في هذا أن المسلمين أباحوا في حال عزتهم وسلطانهم لأهل الملل الأخرى حرية واسعة في دينهم ومعاملاتهم في بلاد المسلمين، عادت على المسلمين ودولهم بأشد المضار والمصائب في طور ضعفهم، كامتيازات الكنائس ورؤساء الأديان، التي جعلت كل طائفة منهم ذات حكومة مستقلة في داخل الحكومة الإسلامية، ومن ذلك ما يسمونه في هذا العصر بالامتيازات الأجنبية التي كانت فضلاً وإحساناً من ملوك المسلمين، فصارت امتيازات عليهم، مذلة لهم، مفضلة للأجنبي عليهم في عقر دارهم، حتى إن الصعلوك من أولئك الأجانب صار أعز من أكابر أمرائهم وعلمائهم).

عندما جاء الغرب الصليبي ليختطف الشرق من التحرير الإسلامي إبان الحروب الصليبية (٦٩٠ - ٤٨٩هـ، ١٠٩٦-١٢٩٠م)، رأيناه يغتصب القدس وفلسطين والشام من الدولة الفاطمية الشيعية التي كانت عقيدتها الباطنية السبب والبداية للانحطاط في التاريخ الإسلامي كما يقول جمال الدين الأفغاني (١٣١٤ - ١٢٥٤هـ، ١٨٣٨-١٨٩٧م).

ووجدنا علي العكس من ذلك دول الفروسية الإسلامية السنية، وخاصة الدولة الأيوبية ٥٦٧ - ٦٤٨هـ، ١١٧١-١٢٥٠م) والدولة المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٢هـ، ١٢٥٠ - ١٥١٧م) هي التي جاهدت وحاربت حتى استعادت الشرق، وحررت مقدسات الإسلام من الصليبيين.

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧-١١٩٣م) قد أصبح علماً على الجهاد الإسلامي عبر تاريخ الإسلام، وهو القائل للملك الصليبي

ريتشارد قلب الأسد (١١٥٧ - ١١٩٩م): إنه لن يقوم لكم حجر في هذه البلاد طالما استمر الجهاد.. فإن صلاح الدين هذا هو القائد السني الذي خلص البلاد الإسلامية من انحرافات الشيعة الإسماعيلية الباطنية.. وخلص هذه البلاد من أشرس حملات الصليبيين.. وهو المرفوض عند الشيعة؛ لأنه أزال انحرافاتهم العقائدية، وحرر الأمة من الاحتلال الصليبي الذي جاء على أيديهم.

فمن هم الأغنياء بالبطولات والأمجاد في تاريخ الإسلام؟ ومن هم المقاومون الذين حرروا ديار الإسلام من أخطر الغزوات في تاريخنا الوسيط؟!

وإذا كان الشيعة بزعامة ابن العلقمي (١١٩٧ - ١٢٥٨م) ونصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤م) هم الذين فتحوا أبواب بغداد لهولاكو ١٢١٧ - ١٢٦٥م) القديم.. فإن أحفاد ابن العلقمي هم الذين فتحوا أبواب بغداد لهولاكو القرن الواحد والعشرين بوش الصغير، بينما الجهاد السني هو الذي استعاد بغداد من التتار القدماء بل أدخل هؤلاء التتار في الإسلام.

فمن هم الأغنياء في المقاومة وفي الجهاد وفي الأمجاد؟.. ومن هم الفقراء بل البؤساء في هذه الأمجاد على امتداد تاريخ الإسلام؟!

إننا نسأل هؤلاء السذج الذين يزيفون التاريخ: من الذين جاهدوا في أفغانستان فهزموا الإمبراطورية السوفيتية.. السنة؟.. أم الشيعة؟ ومن الذي جاء على الدبابات الأمريكية إلى أرض العراق، وأقام فرق الموت لقتل المقاومين والمجاهدين في العراق؟!

إن رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر الشرق من القهر الاستعماري القديم، ففتح أبواب هذا الشرق أمام الإسلام إنما يصب في تاريخ أهل السنة والجماعة الذي هو تاريخ جمهور الأمة... وكذلك كان الحال مع رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر ديار الإسلام من الصليبيين والتتار في تاريخنا الوسيط[٥٥].

الهوامش:

(١) محمد عبدالله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ص٧٥- ٧٧.

(٥) المقريزي، الخطط والآثار، ١/٣٨٩.

(٦) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ص١٩٨.

(٧) محمد عبدالله عنان، مرجع سابق.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المقريزي، الخطط والآثار، ٢/٢.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢: ٢٦٠.

(١١) المرجع السابق، ١٢/٢٦٠، حسن الحبشي: نور الدين والصليبيون، ص١٤٧ وما بعدها.

(١٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ص١٥٢.

(١٣) ابن كثير، مرجع سابق، ١٢/٢٥٥.

(١٤) المرجع السابق، ١٢/٢٥٢.

(١٥) المرجع السابق، ١٢/٢٥٢، ٢٥٣.

(١٦) المرجع السابق، ١٢/٢٥٧، ٢٥٨.

(١٧) د. أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(١٨) المصدر السابق، ص٢٤١ ـ ٢٤٢.

(١٩) د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، ص ٤٦٦.

(٢٠) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ص ١٥٢.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢٢) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٢٣) المصدر السابق ص ١٥٣، وتاريخ الفاطميين، ص ٤٦٧.

(٢٤) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٦٧، نقلاً عن (الكامل في التاريخ) لابن الأثير.

(٢٥) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، ص ١٥٣، نقلاً عن (النجوم الزاهرة).

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢٧) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

(٢٨) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٢٩) د. محمد سهيل طقوش، ص ٤٧١، نقلاً عن النجوم الزاهرة.

(٣٠) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٣١) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٣٢) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٣٣) د. علي الصلاّبي، صلاح الدين الأيوبي، صلاح الدين الأيوبي، ص ١٦٧.

(٣٤) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٣٥) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٧٦.

(٣٦) د. أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(٣٧) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٢٧.

(٣٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/١٤٧ـ١٤٨.

(٣٩) المصدر السابق ٥/١٤٧ـ١٤٨.

(٤٠) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٤١) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٤٢) تاريخ الفاطميين، ص ٤٢٩.

(٤٣) المصدر السابق، ص٤٣٠.

(٤٤) يوسف إبراهيم الشيخ عيد، مرجع سابق، ص ١٤٢-١٤٣.

(٤٥) جمال بدوي، الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، ص ١٤٣-١٤٤.

(٤٦) الفاطمية، ص ١٤٥.

(٤٧) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٤٣٧ نقلاً عن الكامل لابن الأثير.

(٤٨) جمال بدوي، المرجع السابق.

(٤٩) الحاكم بأمر الله، محمد عبدالله عنان، ص٨٠ نقلاً عن تاريخ أبي صالح الأرمني.

(٥٠) الإسماعيلية، للشيخ ظهير، نقلاً عن الاتعاظ للمقريزي.

(٥١) د. أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص٢٤٠.

(٥٢) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

(٥٣) د. أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٦١.

(٥٤) د. محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص٤٠٨.

(٥٥) د. محمد عمارة، صلاح الدين الأيوبي أزال الانحرافات العقائدية وحرر الأمة من الاحتلال، الراية القطرية، ٣٠-٤-٢٠٠٧م.

الفصل الرابع

الدولة الصفوية

محاربة الأمة والتحالف مع أعدائها

أُسِّست الدولة الصفوية سنة ٩٠٧هـ الموافق ١٥٠٢م، على يد الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي، الذي أقام كيانها، وأرسى قواعدها وبنيانها، وفرض فيها المذهب الشيعي بالقوة. وينسب الصفويون إلى الجد الخامس للشاه إسماعيل، وهو صفي الدين الأردبيلي وهو أحد أقطاب التصوف المولود سنة ٦٥٠هـ.

وسنة ٩٠٧هـ توج الشاه إسماعيل نفسه ملكًا على إيران بعد انتصاره على القبائل التركمانية الحاكمة، وما إن تم له ذلك حتى أعلن فرض المذهب الشيعي مذهباً رسميًّا في مختلف أنحاء إيران دون مقدمات، وقد كان أكثر من ثلاثة أرباع إيران من السنة، وكل من عارض هذا الأمر لقي حتفه، فانقاد الناس له.

وبعد استتباب الأمر للصفويين، كان من المنطقي أن تتوجه بعدائها إلى دولة الخلافة العثمانية السنية بسبب العقائد الشيعية المعادية لكل المسلمين، وخاصة أهل السنة، وكانت الدولة العثمانية قد قامت في القرن السابع الهجري في وقت كان المسلمون فيه متفرقين متناحرين، وكان قيام دولة العثمانيين قوة للإسلام وحماية للدول الإسلامية من الاستعمار الصليبي.

لم يرق للصفويين الشيعة أن يروا المسلمين متوحدين تحت خلافة واحدة وخليفة واحد، وأن تعود راية الجهاد إلى المسلمين بعد أن خمدت في النفوس أمدًا طويلاً، فبادر هؤلاء الصفويون إلى توجيه أحقادهم وسهامهم إلى دولة الخلافة التي كانت منهمكة في فتوحاتها وفي الذود عن الإسلام والمسلمين.

كانت الخلافة العثمانية الممثلة لدولة الإسلام تقاتل أعداءها من الصليبيين على محاور عدة، فالروس من الشمال والنمسا من الغرب والإمارات الإيطالية وفرنسا وانجلترا والبرتغاليين في البحار والمحيطات، والكل يحقد على هذه الدولة التي قضت على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية، وتوغلت في أوروبا، وحالت دون انتشار النصرانية ودون امتداد النفوذ الاستعماري الصليبي وطلائعه من البرتغاليين، ومنعت وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها.

وفي الوقت الذي كان العثمانيون فيه ينطلقون شمالاً وغربًا في فتوحاتهم ودفاعهم عن الإسلام، بدأ الصفويون، منذ عهد المؤسس الشاه إسماعيل بعمل اضطرابات على الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وباغتوهم من الخلف، وذلك جعل السلطان العثماني سليم الأول يخرج لملاقاة الصفويين بعد أن شعر بخطرهم، واستمرت الحروب بين الخلافة العثمانية والصفويين زمنًا طويلاً، وعلى الرغم من انتصار العثمانيين في معظمها، لكن هذه المعارك استنزفتهم وأنهكتهم وأعاقت فتوحاتهم ونشرهم الإسلام في أوروبا.

لقد بدأ تراجع المسلمين عن البلقان حين اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة قارلوفجه عام ١١١٠هـ، إذ بمقتضاها خرجت دولة المجر من قبضتها ثم توالت الهزائم وتوالت التنازلات، فإذا تابعنا تاريخ الحروب العثمانية الإيرانية قبل هذا التوقيع لأدركنا تزامن هذه الحروب مع محاولات

الدولة العثمانية الوقوف على قدميها أمام الصليبيين من ناحية، وطول أمد هذه الحروب من ناحية أخرى، فقد امتدت إحداها لتصل إلى أربعة وستين عامًا.

وبدلاً من أن يضع الصفويون يدهم في يد العثمانيين لحماية الحرمين الشريفين من التهديد البرتغالي ولتطهير البحار الإسلامية منهم وضعوا أنفسهم في خدمة الأسطول البرتغالي، لطعن الدولة العثمانية من الخلف، وعلى الرغم من انتصار العثمانيين عليهم، فإن الحروب معهم كانت استنزافًا لجهود العثمانيين على الساحة الأوروبية وعرقلة للفتوح الإسلامية.

لقد كان التحرك الصفوي في المشرق والمؤامرات التي كانوا يُديرونها مع أعداء الإسلام ضد الدولة العثمانية والدأب على نشر مذهبهم الشيعي في المنطقة، ومحاولتهم التوسعية على حساب أهل السنة، والفظائع الوحشية التي كانوا يرتكبونها ضد أهل المنطقة، كانت هذه العوامل كلها مجتمعة هي المحرك للعثمانيين للتوجه لقتال الصفويين وتأديبهم والحد من نشاطهم المشبوه. وقامت بين الطرفين معارك متعددة وكبيرة من أشهرها معركة (جالديران) التي انتصر فيها العثمانيون نصراً كبيراً.

في بداية نشأة الدولة الصفوية كانت علاقتها بالدولة العثمانية علاقة ترقب وحذر، وكان بينهما حسن جوار وخاصة عندما كان الحاكم للدولة العثمانية السلطان بايزيد الثاني، حيث كان سلس الطبع يحب الأدب والفلسفة، ولم يكن يفكر في الفتوحات ولا في المعارك، وكانت الرسائل الودية سارية بين الطرفين على الرغم من التجاوزات الكثيرة التي قام بها الصفويون على المناطق المجاورة لهم التي تخضع للسلطة العثمانية.

ثم قام الصفويون بعمل اضطرابات في ولاية «تكه إيلي» في الحدود الشرقية من الدولة العثمانية، وبدأت العلاقات تسوء بين الطرفين، ولكن دون نشوب قتال، حتى جاء السلطان العثماني سليم الأول، والمعروف بقوته وصلابته، حيث شعر السلطان سليم بخطر الدولة الصفوية الناشئة على المنطقة وعلى أهل السنة فيها، وقد كان من المحتم على السلطان سليم القضاء على الصفويين، وذلك حتى يؤمِّن ظهره ليتقدم بعد ذلك في شرق أوروبا ووسطها، فجمع رجال الحرب والأدباء والوزراء وعلماء الدين في مدينة (أدرنه) في التاسع عشر من شهر المحرم عام ٩٢٠هـ وذكر في هذا الاجتماع أن إسماعيل وحكومته الشيعية في إيران بمنزلة خطر كبير على العالم الإسلامي، وأن الجهاد ضد الزنادقة القزلباش واجب ديني على جميع المسلمين.

وبهذا يكون السلطان سليم قد بدأ بالإعداد لمعركة فاصلة وقوية ضد الدولة الصفوية، ثم تقدم السلطان سليم لقتال الدولة الصفوية في الثاني والعشرين من الشهر المحرم عام ٩٢٠هـ التاسع عشر من مارس عام ١٥١٤م وكان يسعى إلى المواجهة العسكرية مع الشاه إسماعيل، ولكن الأخير كان يتهرب من ذلك، ويحاول قطع الطريق وتخريبه ليحول دون وصول القوات العثمانية إلى داخل إيران حتى يأتي الشتاء، فيهلك الجنود العثمانيون من البرد والجوع.

وعندما علم السلطان سليم بنيات الشاه إسماعيل أرسل له وفدًا بهدايا فيها ثياب نساء حتى يعلمه أن فعله من أفعال النساء، فاستحثه للمواجهة حتى التقى الجمعان في صحراء جالديران، وهزم الجيش العثماني الجيش الصفوي هزيمة نكراء، وكان الجيش العثماني يتفوق بالعدد والعدة، وكان يملك أحدث وسائل القتال التي لا يملكها الجيش الصفوي.

وقد تمكن الشاه إسماعيل من الفرار إلى أذربيجان بعد هذه الهزيمة، ودخلت الجيوش العثمانية تبريز عاصمة الدولة الصفوية، ومهدت الطريق لدخول السلطان سليم، ودخلها فاتحاً منتصراً وأحسن إلى أهلها من الشيعة على الرغم مما فعله الشاه إسماعيل بالسنة عند دخول تبريز.

وقد حدثت مؤامرة لاغتياله عند دخوله دبرها الشاه إسماعيل، ولكنها لم تنجح، وحاول إسماعيل إرسال وفد لإقرار صلح مع السلطان سليم ومعاهدة للسلام، ولكنه رفض، وأودع الوفد السجن.

وعلى الرغم من أن جالديران معركة قوية وهُزم فيها الصفويون هزيمة نكراء، لكنها لم تكن حاسمة، ولم تضع حدًّا للصراع بين الطرفين، فقد ظل الطرفان يتربصان العداء ببعضهما، فبعد هزيمة إسماعيل نهض رؤساء كردستان وكانوا من السنة لمساندة السلطان سليم، وطردوا الحاكم الإيراني من أراضيهم وطلبوا ضمها للعثمانيين، بحيث إنه لم يمضِ وقت طويل حتى انضمت للعثمانيين خمس وعشرون مدينة، وكانت هناك محاولات لإسماعيل لأخذ الثأر، فحرك بعض قادة القزلباش بالإغارة على نواحي أرزنجان، ولكن هزمهم العثمانيون، واحتل العثمانيون ديار بكر وماردين وسائر مدن كردستان، وأصبح الجزء الأكبر من أرض الأكراد في يد العثمانيين، وتحدد الخط الفاصل بين الدولتين، وبهذا أصبح من الصعب على إيران أن تتوسع في النواحي الغربية منها.

وعلى الرغم من مرض السلطان سليم في ٩٢٦هـ/١٥٢٠م لكنه فكر في الخروج من عاصمته على رأس جيش لغزو إيران مرة أخرى، ولكنه مات في الطريق في الثامن من شوال من العام نفسه، وقد شجعت وفاة السلطان سليم

الأول إسماعيل على أن يبدأ شغبه من جديد، وتملكته الرغبة في الانتقام لهزيمته من العثمانيين في السنوات الأربع اللاحقة لوفاة السلطان سليم غير أن المنية عاجلته، فمات متأثراً بمرض السل.

وبعد وفاة الشاه إسماعيل جاء عهد ابنه (طهماسب) من بعده، وقد كان عصره امتداداً لعصر أبيه من حيث الصراع مع المعسكر السُّني بجناحيه العثماني والأوزبكي.

وكان الحاكم العثماني – في تلك الحقبة – هو السلطان سليمان القانوني، وكان شعوره بالخطر الشيعي على البلاد وشكايات أهل السُّنة من ظُلم الشيعة واستبدادهم، وواجبه في حماية أهل السنة بصفته خليفتهم، كان ذلك هو المحرك للسلطان لقتال الصفويين، فأعد العدة، واستعد لغزو الدولة الصفوية، وعند سماع الصفويين بذلك اتصلوا بملك المجر ليعاونهم على العدو المشترك، فرد عليهم السلطان سليمان بإعدام الأسرى الفرس الذين كانوا معتقلين لديه، وقرر توجيه حملة قوية إلى إيران، لكنه حوَّل قواته ضد المجر بدلاً من ذلك، نظرًا لحيوية تلك الجبهة وأهميتها للدولة التي كانت الهدف الرئيس لها في مواجهة الصليبيين.

كان العراق قد دان للدولة العثمانية، وذلك بعد أن استرجعوه من أيدي الصفويين، ولكن طهماسب دارت الأطماع في رأسه، فغزا بغداد، واحتلها، وكان حاكمها قد دافع عنها دفاعاً مستميتاً.

ثم كانت هناك المحاولات من الشيعة لفرض مذهبهم على أهل العراق الأوسط والجنوبي بما في ذلك بغداد والبصرة، فانطلقت الصرخات من أهل السُّنة في العراق مستغيثة بالسلطان سليمان القانوني، فترك السلطان

سليمان إستانبول في ذي الحجة سنة ٩٤١هـ وعبر الحدود متجهًا إلى تبريز، وعين إبراهيم باشا قائدًا للجيش الذي دخل تبريز دون صعوبة ولا سفك دماء، ثم وصل السلطان سليمان إلى تبريز بعد ذلك، وبذل العطايا بسخاء لأهلها، وأكرمهم على عكس فعل الحكام الصفويين الذين كانوا إذا دخلوا بلداً للسُنة أعملوا فيها السيف، وذبحوا أهلها، واستباحوها.

وتحرك الجيش العثماني إلى بغداد في الشتاء، ودخلها السلطان سليمان في ٢٧جمادى الأولى ٩٤١هـ، دون مقاومة، بعد أن قاد كبار علماء السُّنة الشعب في جهاد قضى على زعماء الشيعة والجنود الإيرانيين الذين كانوا يضطهدون أهل السُّنة، وبقي السلطان سليمان في بغداد حتى الربيع لتنظيم الإدارة في الولايات الجديدة وتقوية وسائل الدفاع، وأعلن إلحاق العراق الدائم بالدولة العثمانية، وفي ذلك الوقت انتهز طهماسب انشغال السلطان سليمان في العراق، وعاد إلى تبريز، واستولى عليها، وأعمل القتل في كل من ساعد السلطان سليمان، فأرسل السلطان سليمان فرقة من جيشه لاسترجاع تبريز، ولكنها هُزمت من الجيش الصفوي.

وقد كان السلطان سليمان رجلاً لا يقبل الهزيمة، فتقدم إلى إيران بجيش كبير مزود بالعدة والعتاد، ولما علم طهماسب بذلك فر إلى الجبال بجيشه كي ينقذه من الهلاك، وكانت تلك عادته في كل مرة، ودخل السلطان سليمان تبريز مرة أخرى، وسيطر على كثير من المناطق حولها، ثم استولت القوات العثمانية بعد ذلك على البصرة، وامتد الحكم العثماني بعد ذلك إلى الأحساء وتم إنقاذ المذهب السُّني من الخطر الشيعي، وتأكدت زعامة الدولة العثمانية على العالم الإسلامي، واستمر الوضع على ذلك كرّ وفرّ من الطرفين.

بعد ذلك قام السلطان سليمان بعقد اتفاقية صلح مع الشاه طهماسب في ٨ رجب عام ٩٦٣هـ واعترف طهماسب بموجب تلك الاتفاقية بالحدود العثمانية مثل ما كانت عليه في السابق شاملة آخر الفتوحات، وتعهد بالكف عن دعوته للتشيع، وعدم غارته على الحدود العثمانية. ولعل ما دفع العثمانيين لفعل ذلك هو محاولتهم إيجاد استقرار عند حدودهم الشرقية لكي يتفرغوا للجبهة الغربية، حيث القوات النصرانية ولمواصلة فتوحاتهم في أوروبا. وقد أسعد طهماسب أن تستقر العلاقات بينه وبين العثمانيين، فذلك مكسب له، فقد كانت الدولة العثمانية دولة قوية ذات بأس وجيشها من أقوى الجيوش.

ثم خلف الشاه طهماسب ابنه إسماعيل الثاني الذي يُذكر عنه أنه كانت لديه ميول سُنية، فقد تلقى العلم على يد مُعلم سُني، وكان يرغب في إعادة المذهب السُني إلى إيران، ولكن كانت نهايته القتل مسمومًا على يد رجال القزلباش، وفي مدة حكمه لم تحدث حروب مع الدولة العثمانية.

ثم خلفه أخوه الشاه محمد خُدابنده، وفي عصره حدثت معارك عنيفة مع الدولة العثمانية، وذلك عندما وجد السلطان العثماني مراد الثالث الأوضاع متردية في إيران، فلاحت له فرصة للسيطرة على إيران والقضاء على الدولة الصفوية.

هذا، وقد كانت بينهم معاهدة للصلح، ولكنه يعلم أن الصفويين ينتظرون الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية، فأمر بالهجوم على إيران بقيادة مصطفى باشا، وتحرك الجيش في الأراضي الإيرانية، وكان النصر حليفه في المعارك التي خاضها، حتى احتل قلعة تفليس.

وبعد وفاة الشاه محمد خلفه ابنه عباس الكبير الذي يُعد من القادة الأقوياء والذي تطورت في زمنه إيران تطوراً كبيراً، وحقق في زمنه الكثير من

الانتصارات على الدولة العثمانية التي كان قد بدأ يدب فيها الضعف، فهاجم القوات العثمانية في تبريز وأخرجهم منها وبدأ بالزحف إلى المناطق الأخرى التي تليها، وحدثت معاهدات صلح عدة بين الطرفين على أن يبقى كل طرف في المناطق التي يسيطر عليها، ولكن الجانب الصفوي كان دائم النقض لهذه المعاهدات؛ لأنه كان يشعر بضعف الدولة العثمانية في ذلك الحين.

وقد ساهمت تلك الحروب التي قادها الشاه عباس ضد الدولة العثمانية في إضعافها وتشتيت جهدها عن المواجهة في أوروبا.

وبموت الشاه عباس حدث الضعف والانهيار للدولة الصفوية، وتولى الحكم بعد الشاه عباس حفيده سام ميرزا الذي سمى نفسه (صفي) باسم أبيه الذي قتله جده الشاه عباس، وكان عمر سام ميرزا سبعة عشر عامًا، وتولى الحكم عام ١٠٣٨هـ.

وقد كان للشاه عباس أربعة أبناء قتلهم كلهم وسَمل أعينهم خوفًا على منصبه من أن يزيلوه عنه، فلم يجد أمامه عند احتضاره إلا حفيده المذكور سابقاً.

وفي عهد صفي حدثت اشتباكات عدة بين الصفويين والعثمانيين، فقد حاول العثمانيون استرداد بغداد مرتين خسروا في الأولى ونجحوا في الثانية عندما حاصروها عام ١٠٤٨هـ بقيادة محمد باشا في عهد السلطان مراد، واستسلمت بغداد بعد حصار دام خمسين يوماً.

وبعد وفاة الشاه صفي تولى ابنه عباس الثاني الملك في الخامس عشر من صفر عام ١٠٥٢هـ وعمره تسع سنوات، وكانت الوصاية عليه بيد ميرزا تقي أحد الأمراء الذين كانوا حول أبيه، وكان هذا الشاه مسالمًا ولم تحدث في عهده اشتباكات مع الدول المحيطة بإيران.

وبعد وفاته تولى الحكم بعده ابنه صفي عام ١٠٧٧هـ وهو ابن عشرين عامًا، ثم أطلقوا عليه اسم الشاه سليمان ويعد من أشد السلاطين الصفويين فسادًا، قضى حياته بين الخمر والنساء، ولم تحدث في عصره اشتباكات مع الدولة العثمانية.

وبعد وفاته تولى الحكم ابنه حسين ميرزا سنة ١١٠٦هـ وفي عصره دار القتال بينه وبين الأفغان بعدما مارس ضدهم الظلم والاضطهاد، وكذلك هاجم الروس إيران لضعف الدولة في ذلك الوقت، فحملوا عليها مخترقين القفقاس، واستولوا على سواحل بحر الخزر بدءًا من دربند حتى حدود إستراباد فاضطر الشاه إلى عقد اتفاقية مع الروس تنازل فيها رسميًّا عن كثير من المناطق والمدن الإيرانية، وانتهى الأمر إلى قتله.

بعد ذلك تولى الحكم ابنه الشاه حسين طهماسب الثاني عام ١١٣٤هـ، وفي عصره كان الامتداد للنفوذ الأفغاني وحصارهم للمدن الإيرانية، وكانت الفرصة سانحة للعثمانيين للتقدم، فهاجمت الجيوش العثمانية شمال إيران وغربها، وسيطروا على أذربيجان وكرمانشاهان وهمدان، ولصد هذه الهجمات ولإنقاذ إيران عقد طهماسب حلفاً مع قائد الإفشاريين ناد شاه، وكان هذا الحلف الضربة القاضية لملك الصفويين، فقد استبسل ناد شاه في القتال، وكان محبوباً لدى القبائل وخاض معارك كثيرة على جميع الجبهات كان النصر حليفه فيها، وعندما تمكن من الأمر وكان الجميع يعترف له بالفضل في إنقاذ إيران من الهجمات الخارجية طالب بعزل الشاه طهماسب وأقام ابنه الرضيع الشاه عباس الثالث مكانه على الحكم، وأعلن نفسه وصيًّا عليه ولم يمضِ عام على هذا الأمر حتى جمع القادة والأعيان في موقف واحد وقال لهم: من

تختارون للحكم؟ فأجمعوا على اختياره هو وعزل الشاه عباس الثالث الرضيع، وكانوا يعلمون أنه يريد هذا الاختيار، وكانت هذه هي نهاية الدولة الصفوية.

وفي الوقت الذي كان فيه ملوك الصفويين غلاظاً جبارين على أهل السنة كانوا رفقاء لينين مع النصارى، كما يعترف بذلك ويُقره الكاتب المؤرخ الشيعي عباس إقبال، حيث يقول: (ولم يكن الشاه عباس فظًا على غير أهل السنة من دون أتباع سائر المذاهب، لذا فقد جلب في أثناء غزواته لأرمينية والكرج نحو ثلاثين ألف أسرة من مسيحيي هذه الولايات إلى مازنداران، وأسكنهم بها كما رحّل إلى أصفهان خمسين ألف أسرة من أرامنة جلفا وإيران وبنى لهم مدينة جلفا على شاطئ نهر زاينده رود، وأنشأ لهم فيها الكنائس وشجعهم على التجارة مع الهند والبلاد الخارجية بأن أعطاهم الحرية الكاملة).

وقد أثر القتال الذي دار بين الدولة العثمانية والصفويين تأثيرًا مباشرًا على الدولة العثمانية، سواء في المجال العسكري وتقدمها في الفتوحات في أرض أوروبا الصليبية أو في اقتصاد الدولة. فقد أثر القتال في إيرادات الدولة العثمانية من الجمارك التي كانت تحصلها من الطرق القديمة في الأناضول، إذ أُقفلت معظم الطرق التجارية القديمة التي سادها الخطر، وصار التبادل التجاري بين الأقاليم الإيرانية والعثمانية محدوداً؛ إذ انخفض إيراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي في حين تحولت سيطرة البرتغال على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب - عبر الشرق العربي - التي كانت حينئذ تحت سيطرة الدولة العثمانية.

ولقد استفادت أوروبا اقتصاديًا استفادة كبيرة، حيث كان الاقتصاد الأوروبي متأثرًا كثيرًا بسبب الحصار العثماني لقوافله ولمناطق النفوذ

التجاري، فكسدت التجارة الأوروبية في البر، وهذا ما شجع البرتغاليين على سلوك جانب البحر لاكتشاف الطرق البحرية، فكانت رحلة فاسكوديجاما.

حتى البحر كان الأوروبيون يجدون في سلوكه مشقة، وكانت تجارتهم فيه تتعرض للحصار، وكان العثمانيون قد استطاعوا قطع طريق التجارة القديم الذي يربط أوروبا بالشرق، ولم يعد الأوروبيون قادرين على حمل بضاعتهم إلى الموانئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وكسد حال تجار أوروبا الذين كانوا يتاجرون مع آسيا.

ويكفي قول بوسيك سفير فرديناند في بلاط السلطان محمد الفاتح: (إن ظهور الصفويين قد حال بيننا -يقصد الأوروبيين- وبين التهلكة على أيدي العثمانيين).

وبشهادة أغلب المؤرخين، كان عهد الدولة الصفوية هو عهد إدخال قوى الاستعمار في المنطقة، حيث مهدت له الطريق.

ولقد شهد التاريخ كثيراً من تلك المؤامرات، وخاصة التي كانت في عهد الشاه إسماعيل الصفوي، فبعد الهزيمة المرة التي لحقت به في موقعة جالديران أمام السلطان سليم تحرك للتحالف مع البرتغاليين، لتغطية الهزيمة التي لحقت به في هذه الموقعة، فأقام العلاقات معهم وهم أنفسهم كانوا يبحثون عنها، فقد كانوا جزءًا من أوروبا التي فرحت بظهور الدولة الصفوية حين لاحت لهم بظهورها فرصة انفراج الضغط العثماني عليهم وعلى تجارتهم، ولذلك فقد سعت الدول الأوروبية إلى إسماعيل تعرض عليه تثبيت عُرى الصداقة والمودة؛ لحضّه على إيجاد علاقات سياسية واقتصادية.

وأما البرتغاليون فقد وقعت بينهم وبين الشاه إسماعيل والبوكرك، الحاكم البرتغالي في الهند، اتفاقية نصت على أربع نقاط، هي:

(١) تصاحب قوة بحرية برتغالية حملة إيران على البحرين والقطيف.

(٢) تتعاون البرتغال مع إيران في إخماد حركات التمرد في بلوجستان ومكران.

(٣) تتحد الدولتان في مواجهة الدولة العثمانية.

(٤) تصرف حكومة إيران النظر عن جزيرة هرمز، وتوافق على أن يبقى حاكمها تابعاً للبرتغال، وألا تتدخل في أمورها الداخلية.

وأما اتفاقهم مع جمهورية فينيسيا (البندقية) فكان مخزياً كذلك، فقد كانت فينيسيا من الدول المتأثرة تجاريًّا بسبب قضاء العثمانيين على الدولة البيزنطية وإغلاقها الطريق الرئيس للتجارة بين أوروبا وآسيا، فأرسل الشاه إسماعيل السفراء إلى بلاط فينيسيا طالبًا الهجوم على العثمانيين عن طريق البحر، وأن يقوم هو بالهجوم من ناحية البر، بشرط أن تسترد فينيسيا قواعدها التي فقدتها في البحر الأبيض المتوسط.

ومن الدول التي كانت إيران تسعى لإيجاد علاقات معها للتخلص من الدولة العثمانية إسبانيا والمجر، حيث بعث الشاه إسماعيل برسالتين إلى أسبانيا والمجر، طلب فيها عقد معاهدة صداقة وتعاون بينهم وعرض فكرة اتحاد بغرض سحق الأتراك، حسب تعبيره.

وكانت للشاه عباس كذلك اتصالات ومؤامرات مع الجانب الصليبي؛ فقد قدم الشاه عروضاً للأسبان عن طريق البنادقة لكي يتقاسما أراضي الدولة

العثمانية، فتحصل الأولى على الجزء الأوروبي، وتستأثر الثانية بالآسيوي، ولم يكن هذا العرض سوى واحد من عروض كثيرة حملها سفراء إيرانيون كانوا يقطعون المسافة بين أوروبا وإيران جيئة وذهاباً.

وقد كانت الاتفاقيات والتحالفات التي عقدتها الدولة الصفوية الشيعية مع الدول الأوربية، وفي مقدمتها البرتغال وهولندا وإسبانيا والمجر وبريطانيا، ضد الدولة العثمانية السنيّة، اتفاقات خيانة وخزي.

كان من نتائج هذه التحالفات: إعاقة الفتح العثماني لأوروبا، ففي الوقت الذي كان العثمانيون يحاصرون المدن والدول الأوروبية تمهيداً لفتحها، يباغتهم الصفويون من الخلف، فيضطر العثمانيون إلى إنهاء حصارهم لأوروبا، والعودة لحماية حدودهم مع الدولة الصفوية، واسترداد البلدان التي وقعت في قبضة الصفويين خلال انشغال العثمانيين بحروبهم الأوروبية، وفي مقدمة تلك البلدان: العراق، التي سقطت في قبضة الصفويين مرات عدة.

وكان من نتائج هذه التحالفات أيضًا: إدخال الاستعمار إلى منطقة الخليج العربي، فقد مهّد الصفويون من خلال معاهداتهم وتحالفاتهم مع الأوروبيين الطريق للدول الأوروبية للوجود في المنطقة واحتلالها، بل التعاون في ذلك، وهو الأمر الذي لا بد من التفصيل فيه بعض الشيء، والتذكير بأن الشيعة الذين يتظاهرون اليوم بلعن أمريكا، ورفع شعارات (الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل)، فإن أجدادهم الصفويين هم من أدخلوا الاستعمار إلى المنطقة، وسهّلوا له احتلاله، وسهّلت إيران في الوقت الحاضر لأمريكا احتلالها لأفغانستان والعراق.

ارتبط الصفويون باتفاقيات مع البرتغال منذ وقت مبكر، منذ عهد أول حكام الدولة الصفوية، الشاه إسماعيل (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، وفي ذلك

الوقت كانت البرتغال قوة استعمارية كبيرة، ففي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، كان البرتغاليون قد وصلوا إلى مناطق كثيرة في آسيا وإفريقيا، ولم يكد ذلك القرن يشرف على الانتهاء، حتى كان البرتغاليون قد اكتشفوا رأس الرجاء الصالح، واحتلوا الهند.

وبعد سيطرتهم على مناطق في آسيا، ومنها الهند، تطلع البرتغاليون صوب منطقة الخليج العربي والمشرق الإسلامي، إذ كانوا بصدد إنشاء امبراطورية مسيحية كبيرة في الشرق، إضافة إلى عدم اكتفائهم بالسيطرة على الطرق الرئيسة للتجارة العالمية، إنما العمل على إحكام سيطرتهم على الطرق البحرية الفرعية الأخرى حتى تصبح جميع منافذ التجارة في أيديهم، بحكم أن الخليج العربي هو شريان التجارة المهم إلى نهر الفرات وسواحل الشام.

وبعبارة أخرى اجتمعت لدى البرتغاليين أسباب دينية واقتصادية لاحتلال الخليج، أولها سيطرة الروح الصليبية على الجنود البرتغاليين الذين نشؤوا في وقت احتدام الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس، فأشربوا في قلوبهم الرغبة الجارفة في الانتقام من المسلمين.

وكان للدافع الصليبي كما يتضح أثره في رسائل البرتغال للملك البرتغالي في لشبونة، حيث ذكر أنه إذا سيطر على البحرين والقطيف يصبح الطريق للأراضي المقدسة من ناحية الشرق ممهدًا للسيطرة البرتغالية على مكة والمدينة، وانتزاع اسم محمد ﷺ من الجزيرة العربية كلها.

أما الأهداف الاقتصادية، فإضافة إلى ما ذكرناه من رغبة البرتغاليين في السيطرة على طرق التجارة الفرعية بعد سيطرتهم على طرق التجارة

الرئيسة، فقد كانت بعض مدن الخليج ودوله تعيش نهضة واضحة وازدهاراً وبها ثروات وخيرات كبيرة، خاصة البحرين والقطيف.

قدم الصفويون الخليج للبرتغاليين على طبق من ذهب، ولم يكونوا يأبهون لأغراض البرتغاليين الدينية والاقتصادية، مادامت تحالفاتهم معهم ستؤدي إلى إضعاف الدولة العثمانية، العدو اللدود للصفويين، وإذلال الإمارات السنيّة.

ويذكر المؤرخون أن البرتغاليين كانوا يفكرون في تأجيل احتلالهم للخليج لانشغالهم بالهند، لكن عرض الصفويين للبرتغاليين عجل بغزوهم واحتلالهم للخليج العربي.

دخل البرتغاليون إلى الخليج سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م، أي بعد سنوات قليلة من تأسيس الدولة الصفوية (أُسست سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م) وكانوا قبل ذلك احتلوا جزيرة سوقطرة قبالة اليمن، لكنهم شعروا بعدم جدوى احتلالها، لفقرها من الموارد الطبيعية، ثم حاولوا احتلال عدن، لكنه لم يستطيعوا ذلك فرأوا أن يتجهوا شطر منافذ الخليج العربي، ومنها القطيف.

وخشي القائد البرتغالي البوكرك أن يثير تحركه هذا حفيظة الشاه إسماعيل الصفوي، فأراد أن يكسب ودّه، ويأمن جانبه، وليخيف بهذا التقرب، عرب الخليج، فأرسل البوكرك إلى إسماعيل رسالة فيها:

«إني أقدّر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة؛ لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة ستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدّة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي، وسأنفذ له كل ما يريد».

لم يقتصر تحالف الصفويين مع البرتغاليين، بل تعدّاه إلى الجمهوريات الإيطالية، وإسبانيا والمجر وهولندا وبريطانيا، وذلك أوجد لهذه القوى أيضًا موطئ قدم في منطقة الخليج.

وفي مقابل تآمر الصفويين مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية وإمارات الخليج العربي، استبسل أمراء الخليج السنّة (أو بعضهم على الأقل) في الدفاع عن بلادهم ضد الهجمة الصليبية البرتغالية، وبرز هنا اسم السلطان مقرن بن زامل، سلطان البحرين (والبحرين آنذاك كانت تطلق على الجزيرة المعروفة إضافة إلى الساحل الشرقي للخليج)، فعندما بدأت البرتغال استعداداتها لغزو البحرين، ذهب السلطان مقرن إلى الحج لطلب المساعدة من أمراء البلاد الإسلامية وملوكها، وعندما اندلع القتال، قاتل حتى أسر وقتل.

وكان السلطان مقرن أميرًا جليل القدر، معظمًا مبجلاً، في سعة من المال، مالكي المذهب، فلما حجّ ورجع لبلاده لاقته الفرنج في الطريق، وتحاربت معه، فانكسر وقبضوا عليه.... واستولوا على أمواله وبلاده، وكان ذلك من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها، وقد تزايد شر الفرنج على شواطئ البحر وسواحل المحيط الهندي.

وهكذا لم يجد الصفويون الشيعة مانعاً من مساندة البرتغاليين في محاولتهم الاعتداء على مكة المكرمة والمدينة المنورة، ما دام تحالفهم معهم سيؤدي إلى إضعاف الدول السنيّة.

وتجلت إحدى سياسات الصفويين المنتقصة لمكة المكرمة، في محاولة الشاه عباس (٩٩٦-١٠٢٨هـ/ ١٥٨٧-١٦٤٨م) صرف أنظار الإيرانيين إلى مدينة مشهد الإيرانية التي تضم مقام الرضا، ثامن الأئمة الاثني عشر لدى الشيعة،

بدلاً من التوجه إلى مكة المكرمة. ومن أجل أن يكون الشاه عباس قدوة للشيعة في ذلك، سار من أصفهان التي كانت عاصمة الصفويين آنذاك، إلى مشهد، ماشيًا، وقطع في الرحلة التي دامت ٢٨ يوماً، أكثر من ١٢٠٠ كيلومتر، ثم بقي هناك مدة ثلاثة أشهر، يعمل فيها مع الخدم في التنظيف، وخدمة زوار مقام الرضا، ومساندة عمال البناء.

وقد جاءت فعلة الشاه عباس الصفوي هذه منسجمة غاية الانسجام مع الفكر الشيعي الذي يفضل مقامات أئمة الشيعة على الحرمين الشريفين، إضافة إلى الخلاف المحتدم آنذاك بين الصفويين والعثمانيين، فاعتبر عباس أن الواجب القومي يحتم عدم السفر عبر الأراضي العثمانية، ودفع رسم العبور لها.

وكان عباس يشجع بعض القبائل الموالية له من التركمان وغيرهم على قطع الطريق، وسلب أموال الحجاج القادمين من آسيا عبر إيران والعراق، والاعتداء على أرواحهم وأعراضهم.

الهوامش:

(١) الصفويون والدولة العثمانية، أبو الحسن علوي عطرجي.

(٢) حركات فارسية مدمرة، د. أحمد شلبي.

(٣) الاعتداءات الباطنية على المقدسات الإسلامية، د. كامل الدقس.

(٤) تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب.

(٥) تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف، علي الدرورة.

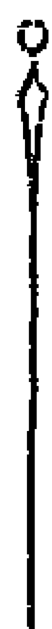
(٦) تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية، د. محمد محمود خليل.

(٧) عودة الصفويين، عبدالعزيز المحمود.



الباب الثالث

مخالب المشروع الإيراني



الفصل الخامس

شيعة العراق .. الغنيمة الكبرى

شكلت الهيمنة على العراق أحد أطماع النخب الإيرانية منذ طرد العثمانيين لفارس من العراق عام ١٧٩٧م، في أعقاب وفاة كريم خان زاند.

بعد الحرب العالمية الأولى، وتفكك الإمبراطورية العثمانية، حاول علماء الدين الشيعة إقناع قاجار شاه في طهران لضم المدن (المقدسة) في العراق. لكن القاجاريين، الذين كانوا في طريقهم إلى مقبرة التاريخ، لم يكونوا في موقف يمكنهم من الحلم بغزو جديد.

وبمجرد أن بدا واضحاً أن العراق سيصبح دولة مستقلة بدعم بريطاني، قرر علماء الدين مقاطعة العملية برمتها، وأبقوا على الشيعة العراقيين على الهامش.

بحلول أربعينيات القرن الماضي، وجدت النخبة الإيرانية نفسها مضطرة بتقبل حقيقة استقلال العراق. وفي الخمسينيات، فشلت محاولة للربط بين الدولتين عبر زواج ملكي، عندما أخفقت الأميرة شاهيناز، ابنة الشاه، والملك العراقي فيصل، في تنمية ود كافٍ بينهما للمضي قدماً في تنفيذ الخطة.

وفي الستينيات ومنتصف السبعينيات، حاولت الأنظمة العراقية اجتثاث جذور النفوذ الإيراني عبر التأكيد على عروبة العراق. فبين عامي ١٩٦٨م و١٩٧٥م، تعرض ما يقرب من مليون عراقي للطرد من بلادهم بسبب روابطهم الإيرانية. وحاول البعثيون أن يستبدلوا بهم مهاجرين من عرب خالصين من مصر وفلسطين.

في أعقاب إبرام اتفاقيات عام ١٩٧٥م التي أدت إلى استعادة العلاقات بين الجانبين بعد سنوات من العداء، حاول الشاه إحياء الوجود الإيراني في العراق عبر التجارة والحج والتواصل الثقافي.

وانتهى هذا المخطط عام ١٩٧٩م بسيطرة علماء الدين على السلطة في إيران، ولم يرغب حاكم إيران الجديد، آية الله روح الله الخميني، في التمتع بنفوذ داخل العراق فحسب، وإنما رغب في السيطرة عليه[1].

فأهداف إيران الإستراتيجية في العراق كثيرة ومتعددة، ولا تقف عند حد، ويمكن الحديث بسهولة عن الأهداف الآتية:

(١) احتواء شيعة العراق من خلال الأحزاب الموالية لإيران واستخدامهم ورقة مقايضة في أي استحقاق إقليمي ودولي لتهدئة الوضع أو إثارته في العراق.

(٢) دعم المرجعية الشيعية والحوزة في النجف تمهيدًا للسيطرة على قراراتها ومحاولة تحجيم دورها كي تبقى مرجعية قم هي المرجعية الأولى لشيعة العالم.

(٣) إيـران لديها مشروع نـووي طموح ولديهـا حلم بإعـادة الإمبراطورية الفارسيـة والصفوية، ولن تتخلى عنهما بسهولة، لذلك فهي تسعى إلى أن تتخذ من العراق ورقة ضغط سياسية تساوم بها في الساحة الدولية.

(٤) منـع شيعة العراق من توحيد كلمتهـم داخل العراق أو بسط سيطرتهم على أبناء الطائفة الشيعية بشكل يهدد السيطرة الإيرانية عليهم.

(٥) إمـلاء التوجهات الإيرانية علـى الأحزاب الموالية لهـا بصورة تؤثر في مجريات الأحداث في الساحة العراقية.

(٦) إيجاد تغيـيرات ديموجرافية على الأرض العراقيـة بُغية تحويل جنوب العراق (خاصة بعد الانسحاب الأمريكي) إلى مقاطعة إيرانية أو إقليم عراقي تحـت الوصاية الإيرانية من خلال تشكيـل تجمعات إيرانية في تلك المناطق وتطهيرها من أهل السنة بالاعتقال أو الاغتيال أو التهجير.

(٧) محاولة اقتراب النظام الإيراني من الإدارة الأمريكية وطمأنتها لإكمال المشروع النووي الإيراني، ولن يتم ذلك إلا على أرض العراق كالتقارب الأمريكي السوري على أرض لبنان عام ١٩٨٣م.

(٨) السيطـرة على المـزارات والعتبـات للاستفادة منهـا سياسيًّـا ودينيًا وماديًا.

(٩) إيجـاد سيطرة إيرانيــة كافية على أرض العراق تحـت مظلة الاحتلال الأمريكـي والبريطاني بـأدوات دينية المظهر وعلى النمـوذج الإيراني ما يضمن لإيران الحيلولة دون قيام عراق يهدد إيران.

(١٠) بسط النفوذ الاقتصادي الإيراني في العراق من خلال ما يأتي:

- تنشيط طبقة قوية من التجار الإيرانيين العائدين إلى العراق، وخاصة بمدينتي كربلاء والنجف ومحاولة السيطرة على السوق العراقي.
- فتح فروع لبنوك إيرانية تحت عباءة عراقية في مدن عدة، مثل الكوت، والبصرة، والديوانية.
- خلال السنوات الأخيرة وبسبب المقاطعة الدولية للعراق أصبحت حقول النفط العراقية غزيرة بالنفط، لذلك تسعى إيران إلى السيطرة على النفط العراقي، وذلك من خلال مد ثلاثة أنابيب لنقل النفط. وقد ذكر وزير النفط الإيراني (بيجان زنكنة): أن العراق سيصدر النفط الخام إلى إيران، وأن إيران ستمد أنبوبين لنقل الخام من البصرة إلى المصفاة الإيرانية.

(١١) إنشاء وسائل إعلام موالية للتهيئة الفكرية للمشروع الإيراني.

(١٢) اغتيال العناصر والرموز الشيعية التي تشكل خطرًا على المشروع الإيراني في العراق كما حدث لـ(عبد المجيد الخوئي).

إن المساعدات التي قدمها الإيرانيون لقوات الاحتلال في العراق كثيرة، حيث إن أهم ما حصلوا عليه في العراق هو موافقة السيستاني الإيراني بإصدار فتواه للشيعة العرب العراقيين بعدم مقاومة الاحتلال، إضافة إلى تعاونهم الوثيق مع الأمريكان بإصدار تعليماتهم للسيستاني من أجل تخدير الشارع الشيعي العربي ودفعه للمشاركة في مهزلة الانتخابات.

أما المثال المعلن على التعاون العسكري الإيراني مع قوات الاحتلال فهو مساعدة الإيرانيين للقوات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة في احتلال العراق، الذي نشرته صحيفة (الأسترالي) الأسترالية، وذلك في أثناء الأيام الأولى للعدوان على العراق.

فقد نشرت الصحيفة تصريحاً لقائد القوات البحرية الأسترالية المشاركة في العدوان على العراق، الأدميرال ريتشي، مفاده أن القطع البحرية الأسترالية وجميع السفن الأخرى في الخليج العربي قرب المياه الإقليمية العراقية قد وضعت في حالة إنذار شديد حين تم (اكتشاف) أربعة قوارب انتحارية عراقية محملة بالمتفجرات للقيام بأعمال قتالية ضد القطع البحرية المشاركة في العدوان على العراق. وما لا يعرفه القارئ أن هذا التحذير قد جاء بناء على معلومات من الإيرانيين عندما اكتشفت قوات خفر السواحل التابعة لهم تلك القوارب العراقية في مدخل شط العرب، واعترضت طريقها، وأن واحداً من تلك القوارب قد تمت السيطرة عليه، حيث كان محملاً بما مقداره ٥٠٠ كيلوجرام من المتفجرات.

فهل يعني هذا الخبر الأكيد أن الإيرانيين لم يكونوا يساعدون قوات الاحتلال في تنفيذ مهمتهم باحتلال العراق؟

لو أن أحد هذه القوارب قد ضرب، مثلاً، سفينة المواصلات الأسترالية (كانيمبلا) التي كانت موجودة قرب المياه الإقليمية العراقية على مقربة من مدخل شط العرب، وقتل على أثر هذا الهجوم الانتحاري المئات من الجنود الأستراليين الذين كانوا على ظهر السفينة، ألم تكن تلك ضربة قاصمة للأمريكان، ومن ساعدهم على شن العدوان على العراق، وخصوصًا في أيام العدوان الأولى؟

المهم في الأمر أن (الاكتشاف) المنوه عنه أعلاه لم يتم من قبل الأستراليين أو غيرهم من القوات المعتدية على العراق، بل تم من قبل الإيرانيين الذين أخبروا قوات العدوان به. فالأستراليون وغيرهم من قوات الاحتلال لم يكونوا في حاجة إلي وضع قطعهم البحرية في حالة إنذار شديد لولا تحذير الإيرانيين لهم، الحالة التي من دونها ربما نكون قد شاهدنا قطعة أو قطعتين بحريتين من القطع المشاركة في العدوان على العراق، وقد انتهت إلى قاع الخليج العربي بمن فيها من جنود ومعدات عسكرية. إن ذلك يثبت بما لا شك فيه أن الأسطول الإيراني كان يشارك بشكل فعال في العدوان على العراق من خلال مراقبته للقطع البحرية العراقية ومنعها من الدفاع عن العراق، وبالأخص ما قام به من عمليات قرب الشواطئ العراقية التي كانت إحداها ما ذكر أعلاه.

الغريب في الأمر أن ذلك الحادث لم يأتِ ذكره في أي من وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية، بل حتى الصحف الأسترالية لم تنشر الخبر على صدر صفحاتها على الرغم من أن الفعل الإيراني قد جنب الأستراليين كارثة كبيرة، بل نشروا الخبر في الصفحات الداخلية وبالشكل الآتي: (البحرية الأسترالية أنقذت الأستراليين من هجوم قارب عراقي انتحاري). ولم تذكر وسائل الإعلام الأسترالية كيف أنقذت البحرية أرواح الأستراليين من ذلك الهجوم، إضافة إلى أنهم لم يذكروا أن الإيرانيين هم من حذرهم من ذلك الهجوم.

يجب ألا ننسى أيضًا التعاون بين إيران وقوات الاحتلال الأمريكية للعراق عندما ساعدت إيران قوات الاحتلال في القضاء على مجاميع أنصار الإسلام في شمال العراق. وعندما حاولت مجاميع من أنصار الإسلام العودة إلى داخل إيران، وبعد دخولها الأراضي الإيرانية بنحو كيلومتر واحد، ألقت السلطات

الإيرانية القبض عليهم، وأعادتهم إلى العراق، كما صرح بذلك محمد حاجي محمود، زعيم الحزب الديمقراطي الاشتراكي الكردستاني، وحسبما ذكرته صحيفة Australian Financial Review الأسترالية. والمعروف جدًّا أن إيران كانت تدعم أنصار الإسلام بشكل سري مدة عامين قبل احتلال العراق مباشرة، والأغرب من ذلك أن الناطق باسم وزارة الخارجية الإيرانية قد صرح بأن أنصار الإسلام هي مجموعة متطرفة وذات أهداف مشبوهة، وأن إيران ليست لها علاقة بهم. وعن هذا التعاون الذي أبدته إيران لقوات الاحتلال صرح وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد بقوله، (إن إيران لم تفعل أي شيء يجعل حياتنا صعبة في العراق).

ويجب ألا ننسى التسليح الأمريكي والإسرائيلي لإيران في أثناء الحرب العراقية الإيرانية. فمن دون السلاح والعتاد الأمريكي لم يكن لإيران المقدرة على خوض تلك الحرب الطويلة مع العراق، خصوصاً أنه عند بداية الحرب كانت جميع أسلحة إيران أمريكية الصنع، وبهذا كانت إيران حاجة ماسة إلى العتاد والأدوات الاحتياطية لأسلحتها التي كانت تزودها بها أمريكا وإسرائيل[٢].

كما تشكلت فصائل المعارضة العراقية في لندن وواشنطن بالتنسيق مع طهران قبل الحرب والاحتلال، وأفتت المرجعيات الإيرانية في أتون المعركة بأن تقدم فصائل المعارضة العميلة كل الدعم والمعلومات المعلومات المتاحة عن المواقع العسكرية العراقية للقوات الأمريكية، كما أفتت هذه المراجع بتحريم رفع السلاح في وجه قوات الاحتلال.

قبل الحرب وأثناءها كانت دبلوماسية الأبواب الخلفية بين أمريكا وإيران على أشدها، وتم هذا التنسيق في العواصم الأوروبية، وأدى هذا التنسيق إلى

موافقة إيران على تجنيب دخول قوات بدر إلى العراق وتم تحييدهم، وتم الزج بمجموعات من المخابرات الإيرانية ومن المعارضة العراقية في شمال العراق عبر إيران وبالتفاهم مع واشنطن.

وبعد الاحتلال الأمريكي للعراق أضحت بلاد الرافدين ملعبًا لأجهزة الاستخبارات الإيرانية. فقد قالت صحيفة الشرق الأوسط الصادرة بتاريخ ٢٠٠٥/٨/٢٤م تحت عنوان: (عناصر المخابرات الإيرانية في العراق): إن إيران أرسلت وفقًا لبعض الوثائق إلى جانب إفادات العقيد إسماعيل من قادة فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني والرائد ياسر من استخبارات الحرس ومسؤول كبير في مكتب المرشد خامنئي، ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف من رجال الحرس الثوري وفيلق القدس ووزارة الاستخبارات الإيرانية إلى العراق منذ سقوط النظام العراقي. إضافة إلى حضور إيران في كردستان العراق عبر مكاتب استخبارات الحرس الثوري الإيراني الرسمية في السليمانية وأربيل.

وأضافت الصحيفة أن الاستخبارات الإيرانية اشترت ما يزيد على خمسة آلاف بيت وشقة ودكان ومستودع ومكتبة ومسجد ومطعم ومحطة بترول...إلخ، في البصرة والديوانية والعمارة والكوفة والنجف وكربلاء والكاظمية وبغداد ليقيم فيها عناصر الاستخبارات الإيرانية ويعملون فيها.

ونوهت الصحيفة إلى أن خامنئي عيّن ممثلين ووكلاء له في المدن الشيعية، حيث يتولى هؤلاء دفع الراتب الشهري إلى ما يزيد على ٧ آلاف شخص.

وورد في تصريح للأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي في أثناء كلمة ألقاها يوم ٢١ سبتمبر ٢٠٠٥م أمام معهد بيكر للسياسات بمدينة

هيوستن أن: (إيران سيطرت على جنوب العراق ويا للسخرية تحت حماية القوات الأمريكية).

وصرح مدير شرطة واسط يوم ٢٠٠٣/١١/٢١م لجريدة الزمان: (إن عناصر من الاستخبارات الإيرانية تسربت إلى داخل الحدود العراقية، وإنه تم ضبط سيارات تحمل أسلحة قادمة من إيران إلى داخل الأراضي العراقية تعود لعناصر تريد إحداث البلبلة والتخريب داخل العراق، وتم إلقاء القبض على عناصر متسللة من إيران بتهمة ارتكاب جرائم قتل داخل العراق).

وقال وزير الخارجية العراقية هوشيار زيباري لوسائل الإعلام في ٢٠٠٥/٩/١٤م: (هناك معلومات مؤكدة أن أسلحة تُهرب من إيران إلى العراق).

وأعلن وكيل وزارة الداخلية العراقي اللواء حكمت موسى سلمان لوسائل الإعلام بتاريخ ٢٠٠٤/٦/٢م أنه: (تم إلقاء القبض على اثنين من عناصر المخابرات الإيرانية بدعوى التخطيط لعملية تفجير سيارة مفخخة داخل العاصمة بغداد).

وكشفت التقارير الصحفية المتواترة عن التغلغل الإيراني في العراق أن كثيراً من المنظمات والمليشيات الموجودة في مدينة البصرة تدار بشكل مباشر من قبل المخابرات الإيرانية. وأكدت هذه التقارير أن لكل من المنظمات والمليشيات الوارد ذكرها ثلاثة مستشارين إيرانيين يشرفون على الجوانب السياسية والعسكرية والاستخبارية، وتعهد إليهم مهمات التدريب والتسليح والتمويل ووضع الخطط ومتابعة تنفيذها. وأكدت كذلك أن إيران سلمت

تلك الأحزاب أسلحة وذخائر متنوعة أبرزها صواريخ مضادة لطائرات الهيلوكبتر، وصواريخ فجر ٣، وأن إيران أنشأت فرقًا للموت من أعضاء المنظمات والميليشيات مهمتهم تنفيذ عمليات التصفية الجسدية في شتى أنحاء العراق.

أهم هذه الحركات والمنظمات: المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، حزب الدعوة، حزب الدعوة تنظيم العراق، منظمة ثأر الله، العشار، الكزارة، حركة حزب الله، منظمة العمل الإسلامي، حركة مجاهدي الثورة الإسلامية، حركة سيد الشهداء، حركة ١٥ شعبان، منظمة الطليعة الإسلامية، حركة بقيت الله، حزب الفضيلة، حزب الوفاق الإسلامي، التيار الصدري.

وأصبح معروفًا على نطاق واسع بين المراقبين أن ضباط الحرس الثوري الإيراني وضباط المخابرات الإيرانية يتولون الإشراف على جميع أنشطة الأحزاب والحركات المذكورة، وأنه منذ احتلال العراق، أدخلت إيران كميات كبيرة من الأسلحة المختلفة بما فيها الأسلحة الثقيلة والصواريخ إلى الأحزاب والحركات المذكورة، ليجري إخفاؤها وتخزينها في الأماكن المخصصة. وقامت إيران منذ احتلال العراق بإقامة عشرات الدورات للتدريب العسكري وحرب العصابات والشوارع والتدريب الاستخباري داخل إيران وبإشراف الحرس الثوري والإطلاعات الإيرانية لقيادات وعناصر الأحزاب والحركات المذكورة، ثم أعادتهم إلى العراق.

لقد قام الحرس الإيراني والمخابرات الإيرانية بتشكيل (فرق الموت) وهي مجموعات للاغتيالات والتصفية من عناصر الأحزاب والحركات السابقة ويداخلها عدد من العناصر الإيرانية، وجرى تدريبها داخل إيران على عمليات

الاغتيال والخطف وتسليحها وتمويلها والإشراف على عملها. وهي تعمل بغطاء تشكيلات وزارتي الداخلية والدفاع الإيرانيتين، وقوائم الأسماء المطلوب قتلها وخطفها وعناوينهم تصل من إيران إلى العراق، وبعض تلك الشخصيات تم خطفها وإرسالها إلى إيران، وتشمل عمليات الاغتيال والخطف كبار الضباط في الجيش، الطيارين، ضباط الأجهزة الأمنية، الأطباء، أساتذة الجامعات، العبثيين، علماء الدين البارزين والمؤثرين، شيوخ العشائر الرافضين للاحتلال... إلخ.

وتعمل المخابرات الإيرانية في العراق من الجنوب إلى الوسط إلى الشمال وبكل قوتها وبحرية عالية، وتقوم بممارسة نشاطها من خلال الواجهات الاستخبارية المنتشرة في العراق من مؤسسات العمل الخيري، المستشفيات، شركات السياحة، المكاتب التجارية .....إلخ. وعملت إيران على الدفع بالكثير من العناصر ذات التبعية الإيرانية والأشخاص من ذوي الأصول الإيرانية داخل مؤسسات وزارتي الداخلية والدفاع ووزارات الدولة لاستخدامهم لاحقًا في تحقيق أهدافها داخل العراق، وعملت على زيادة كادر السفارة الإيرانية ليصل إلى أكثر من خمسين دبلوماسيًّا خدمة لأهدافها، إضافة إلى القنصليات بالمحافظات الجنوبية والفرات الأوسط[٢].

ونتيجة لكل الجهود السابقة، فقد أصبح الوجود الإيراني في العراق كبيراً وظاهراً، ففي الأسواق العراقية تتصدر واجهة المحالّ البضاعة الإيرانية التي تحمل علامات مكتوبة باللغة الفارسية، مواد غذائية وأدوية وصناعات الكترونية متوسطة. فعندما تتجه إلى أي صيدلية في بغداد لشراء دواء معين سوف يسألك الصيدلي، إن كنت تفضل الصناعة الإيرانية أو الأردنية أو

الغربيـة لهذا الدواء، وغالبـاً ما يختار العراقيون الصناعـة الإيرانية، كونها الأرخص ثمناً. وهذه الفكرة تنسحب كذلك على بعض الصناعات الكهربائية والميكانيكية غير المعقدة. يزدحم سوق الشورجة التاريخي والشهير منذ مئات السنـين بتجهيـز العراق بالمـواد الغذائيـة والاستهلاكية بالجملـة بالبضاعة الإيرانيـة، التي لم تجد من ينافسها مـن حيث الأسعار. والأكثر من هذا صار المستهلـك العراقـي لا يستغـرب أن يجد في هذا السوق وغيره مـن أسواق بيع المواد الاستهلاكية بالجملة تجاراً إيرانيين يتحدثون الفارسية.

اللغة الفارسية ذاتها لم تعد مستغربة، وهي تتداول مثلما العملة الإيرانية (التومان والريال) في أسواق بغداد والنجف وكربلاء والبصرة، ولا يخفي طبيب عراقي من أهالي البصرة، رأيه عندما قال إنه (صار علينا أن نتعلم الفارسية، حتى نعرف نتفاهم مع الناس). ويتذكر العراقيون ذلك النائب البرلماني الذي طالب الجمعية الوطنية، بأن تعدّ القومية الفارسية القومية الرابعة في العراق، بعد العربية والكردية والتركمانية، وقد لاقى هذا المقترح استهجان غالبية النواب الذين كان بعضهم لا يتوانى عن تبادل الحديث مع زميل له باللغة الفارسية خلال اجتماعات المجلس.

الوجـود الإيراني شعبيًّـا يبدو واضحاً وجليًّا في مدينتـي كربلاء والنجف، وكذلـك في محافظـة البصـرة. وإذا كان لهذا الوجود ما يـبرره في المدينتين الشيعيتـين كربـلاء والنجف، حيـث تعد زيـارة الإمام علـي وولديه الحسين والعباس واجبـة على الشيعـة، فإن هذا الحضـور يعد مفروضـاً على أهالي البصـرة، كما يرى بعضهـم. في كربلاء تلاحظ الوجـود الإيراني، أكثر مما تلاحظـه في النجـف. ففـي المدينة التي تحتضـن مرقـدي الإمامين الحسين

والعباس (كربلاء) تلتقي المئات من الزوار الإيرانيين، في الأسواق والفنادق والشوارع العامة، وهذا الوجود يتقلص في مدينة النجف التي يتمسك أهلها بعدم السماح لتكريس الوجود الإيراني مع أنه يشكل عاملاً اقتصاديًا إيجابيًا لهم.

في مدينتي النجف وكربلاء توجد الكثير من المكتبات الحديثة التي تروج للكتب الإيرانية.

الأهم من هذا كله، هو تسلل الثقافة الإيرانية إلى الشباب العراقيين، خاصة في مدن البصرة وكربلاء والنجف، حيث يسعى جيل من الفتيان والشباب العراقي، ومن كلا الجنسين إلى تعلم اللغة الفارسية والتحدث بها، بوصفها بديلاً عن اللغة الثانية الإنجليزية، التي يجب أن يتعلمها هذا الجيل، وإن مفردات التفاهم والتحية بين هذا الجيل صارت فارسية، مثل استخدام مفردة (خوبي) الفارسية، بدلاً من (كيف حالك) العربية أو (شلونك) العراقية، يضاف إلى هذا الحرص على اقتناء الأغاني الفارسية ووضع أشرطة هذه الأغاني في مسجلات السيارات وبصوت عالٍ بوصفها صيغة من صيغ التمرد على الأغاني العربية السائدة. أما بالنسبة إلى الفتيات، فإن غالبية من بنات البصرة والنجف وكربلاء يرتدين اليوم الحجاب على الطريقة الإيرانية (التشادور).

ومن الناحية الثقافية، فإن الزائر للعراق لا يمكنه أن يمر في مدينة أو قرية عراقية من غير أن يجد فيها مراكز ثقافية ومكتبات ممولة من قبل إيران، وهذه المراكز والمكتبات وضعت ومولت إيرانيًا لأهداف إستراتيجية ولتحقيق أهداف سياسية محددة.

إيـران تمـول الأحـزاب السياسية الشيعية، سواء كانت هـذه الأحـزاب كبيرة ومشهورة أو صغيرة ومغمورة، وتنفق ملايين الـدولارات على إعلام هـذه الأحـزاب وتحركاتهم وتزويد ميليشياتهم بـالأموال والأسلحة، وهي تقوم أسبوعيًا بدعوة المئات من العراقيين لزيارة المراقد المقدسة في إيران، على شكل فرق سياحية مجاناً، وهناك يبقون لما يقرب من ٣ أسابيع ينظم الإيرانيون لهم محاضرات ولقاءات مع مسؤولين أمنيين وحكوميين ومهنيين.

بدأ الوجود الإيراني في العراق يدخل مراحل جديدة، فقد كان وجودًا مخابراتيًا وتزويد الميليشيات بالأسلحة والأموال فقط، أما الآن فقد تغلغل في عمق الحياة العراقية، من خلال سيطرته على الطاقة والاقتصاد والاتصالات.

يستـورد العراق من إيـران كل مصادر الطاقة كالوقـود والغاز والكهرباء، وبهـذا تستطيـع إيـران أن تتلاعب بمصائـر العراقيين من خـلال السيطرة علـى عصب الحيـاة، وهو الطاقـة. فهناك سعـي حثيث من قبل إيـران، لأن تسيطـر على مصادر الطاقة والحياة في العـرق، وأن تتحكم فيها، وأبرز هذه المصـادر الحياتية هي موضوع الاتصالات بواسطة الهاتف الجوال، حيث كان هنـاك شـرط في إبرام عقود الاتصـالات، يقضي بعدم منـح أي عقد لشركة غـير حكومية، ثم تنازلت الحكومة العراقيـة عن هذا الشرط لتهيئ للحكومة الإيرانيـة الفوز بعقـد يمكنها من احتكار الاتصالات الخلويـة، أي أن تسيطر الحكومـة الإيرانية علـى جميع شبـكات الاتصال عن طريق الجـوال، ونحن نعرف الخطورة الأمنية والحياتية لهذا الموضوع.

مظاهر خفية في التدخل الإيراني من أجل تخريب الاقتصاد العراقي، وذلك عن طريق تهريب النفط إلى إيران عبر منافذ البصرة، فالحكومة الإيرانية ومخابراتها متورطة في موضوع تشجيع تهريب النفط العراقي إلى

إيران، ولو أغلقت إيران حدودها وموانئها أمام عمليات تهريب النفط إليها، لتوقفت هذه العمليات تماماً، لكن الحكومة الإيرانية تريد إفلاس العراق ووضعه تحت سيطرتها تماماً(٤).

أصبحت كلمة (احتلال) وصفًا أقل من معبر عن الوجود الإيراني في العراق، فالاحتلال الأمريكي واضح وجلي ومعلوم، ويشاهده العالم كله عبر الأقمار الصناعية، أما الاحتلال الإيراني فخفي وغير ظاهر، ولكنه الأخطر؛ لأنه يمسك بتلابيب العراقيين السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية، ويتخل في كل كبيرة وصغيرة في حياتهم.

وإيران تدرك أهمية احتلالها للعراق، وأهمية سيطرتها على الشيعة والعتبات المقدسة عند الشيعة والمزارات، فللعراق أهمية كبيرة في مشروع الهيمنة الإيراني، ولذلك فإن الإيرانيين لن يتخلوا عن الوجود الدائم في العراق بأي شكل من الأشكال.

الهوامش:

(١) أمير طاهري، المخطط الإيراني الكبير للعراق، الملف نت، ١٨/١١/٢٠٠٩م.

(٢) د. محمد يحيى، التعاون الأمريكي - الإيراني في احتلال العراق ... حقائق دامغة، وكالة الأخبار الإسلامية (نبأ)، دون تاريخ.

(٣) التغلغل الإيراني في العراق، الملف نت، ٣٠/٧/٢٠٠٧م.

(٤) النفوذ الإيراني في العراق.. اللغة والمكتبات والعملة والتشادور والثقافة والحشيشة وزواج المتعة، صحيفة الشرق الأوسط، ١٨مايو/أيار ٢٠٠٧م.

الفصل السادس

(حزب الله) اللبناني .. رأس الحربة

عندما قامت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، كانت إيران تريد أن تنال إعجاب وتأييد الدول العربية، وقد رأت أن ذلك ممكن، مستفيدة بشكل خاص من الدعم الذي أعلنه شاه إيران لإسرائيل وعلاقته معها قبل انهيار نظامه. وعلى هذا، ومنذ اليوم الأول لانتصار الثورة، كانت إيران الثورة حريصة على مد أواصر علاقاتها مع البلاد الإسلامية، وعندما تعذر هذا في معظم الحالات للكثير من الأسباب المعقدة والمركبة بدأت إيران الثورة تبحث عن (تنظيمات) بدلاً من «نظم أو دول»، تواصل من خلالها دورها في القضايا الإسلامية، الذي حرصت على أن تظهره على أنه أحد أسس الثورة ومعتقداتها، فكانت التحولات الداخلية في إيران خلال الأشهر والسنوات الأولى من الثورة الإيرانية تنال الاهتمام الذي نالته قضايا فلسطين ولبنان ومقاومة (الصهيونية العالمية) و(قوى الاستكبار).

عملت الثورة الإيرانية على نيل إعجاب الدول العربية، ورأت أن ذلك الإعجاب يحررها من تهمة العنصرية الفارسية، التي دمغت بها.

نشبت الحرب العراقية – الإيرانية، وسعت إيران الثورة لتكوين تحالفات مع الدول العربية، لكنها لم تنل سوى دعم سورية وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية، في هذه الأجواء كان قد مر على اختفاء مؤسس حركة أمل السيد موسى الصدر خلال زيارته لليبيا أشهر عدة. وعلى الرغم من أن قادة أمل أوصلوا للإيرانيين رسائل مباشرة حول توقعاتهم بأن تؤدي طهران دورًا لفك أسر الصدر أو إنقاذه في ليبيا، لكن إيران الثورة لم تفعل هذا.

استراحت إيران الثورة لموقف ليبيا ومنظمة التحرير وسورية والجزائر. وبعد تغييب الصدر لم تستطع حركة أمل أن تتجرع هذا المر، ولكنها لم تعمل على قطع علاقتها بإيران والثورة، وزار وفد منها مع وفد المجلس الشيعي برئاسة الشيخ محمد مهدي شمس الدين إيران، وسجل اعتراضه على علاقة إيران بليبيا، حيث مال بعض الشيعة إلى اعتبار إيران راضية أو مشاركة فيما حصل للصدر، ومالت حركة أمل ومؤيدوها في إيران إلى التنديد بالحضور الليبي وبالمجموعة الإيرانية التي بنت علاقة مبكرة مع النظام الليبي قبل نجاح الثورة.

عاملان أساسيان صاغا العلاقة بين أمل وإيـران بعد انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، وهما: الإحباط الأول داخل أمل من طريقة تعامل إيران مع قضية اختفاء موسى الصدر، فقد توقعت أمل أن تعمل إيران على إنقاذ الصدر وإعادته من ليبيا إلى لبنان، وهو ما لم يحدث. أما الإحباط الثاني، فكان وقوف إيران إلى جانب التنظيمات الفلسطينية في لبنان على حساب أمل، التي كانت تحمل لواء مد السيادة اللبنانية على كامل الأراضي اللبنانية خلال المواجهات المسلحة بين الفصائل الفلسطينية وحركة أمل.

مع مرور الوقت بدأت الخلافات السياسية والثقافية تظهر بين حركة أمل والنظام الإسلامي الجديد في طهران، وهنا أدركت إيران أن أمل لن تكون أداة مناسبة في مشروعها.

ولذلك وقفت حركة أمل والطائفة الشيعية في وجه المشروع الإيراني، وهنا أدركت إيران أن حركة أمل لا يمكن أن تكون أداة لها في مشروع تصدير الثورة خارج إيران.

وبعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م والدور الذي قام به الحرس الثوري الإيراني مع عناصر لبنانية قام بتدريبها، بدأت ملامح أخرى لمشروع المقاومة المفترض تتشكل تدريجيًّا على أرض الواقع. لم تظهر ملامح مشروع المقاومة المفترض هذا فقط بفعل الدور الذي أدته إيران، بل أيضًا لأن حركة أمل لم تبلور مشروعاً سياسيًّا دينيًّا، وهنا بدأ التفكير في بديل تحت عنوان (حزب الله)، ودعم هذا أن قيادات من داخل حركة أمل مثل عباس الموسوي وصبحي الطفيلي وعلماء الدين داخل الحركة وناشطين آخرين مالوا مع المد الإيراني ورأوا ضرورة إنشاء مشروع حزبي ديني سياسي وحتى مسلح.

شاركت إيران مباشرة في صد العدوان الإسرائيلي من خلال الحرس الثوري وحركة التطوع الإيراني التي سجلت خلال أسبوع عددًا تجاوز مئات الآلاف، وبسبب عدم ارتياح الخميني لإرسال المزيد من قوات الحرس الثوري إلى لبنان، وشعوره أن تكلفة هذا قد تكون باهظة، خصوصًا بسبب انشغال إيران بالحرب مع العراق، ظهرت الحاجة لخيارات أخرى تتبعها إيران غير الاستمرار في إرسال قوات الحرس الثوري، أي البحث عن صيغة مشاركة أخرى.

وتوافق ذلك مع رغبة بعض اللبنانيين الموجودين في طهران في تأسيس حالة مقاومة ضد العدو الصهيوني بمساعدة إيرانية. في هذه الأجواء وفي شتاء عام ١٩٨٣م تأسس (حزب الله)[١].

يكشف السفير الإيراني السابق في دمشق والأب الميداني لـ «حزب الله» محمد حسن أختري، عن أن آية الله الخميني، أمر بإرسال عناصر من الحرس الثوري الإيراني إلى لبنان، لبناء (حزب الله) عسكريًّا لمواجهة إسرائيل، بعد الهجوم الإسرائيلي على لبنان، وأن قوات الحرس الثوري بقيت في لبنان سنوات، وكانت مهمتها الأساسية هي التدريب وإعطاء التعليمات الخاصة.

وأوضح أختري أن الدعم المالي الإيراني كان موجودًا، وكان الدعم المعنوي موجوداً أيضاً. ويضيف أختري: وبالنسبة إلى فضائية (المنار) فقد كانت هناك صعوبات على حسب النظام اللبناني في تأسيس مثل هذه القناة. وقال أختري: نحن تدخلنا في ذلك الوقت، ومع سورية، سورية لها اليد الطولي في هذا الموضوع، ثم أيد المرحوم رفيق الحريري هذه الفكرة، وساعد على إنشاء القناة. جميعنا ساعدهم، وتأسست القناة والحمد لله[٢].

الهدف الإستراتيجي لإيران من وراء إنشاء «حزب الله» ليس محاربة الكيان اليهودي ولا تحرير فلسطين ولا نصرة المحرومين والمستضعفين من المسلمين ولا الجهاد في سبيل الله، وإنما تحويل الطائفة الشيعية في لبنان من أضعف طائفة سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا إلى أقوى طائفة سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا. وهذا ما تؤكده كل القرائن والأدلة والمعطيات.

فمن أجل تحقيق هذا الهدف الإستراتيجي وتبرير الدعم المادي الإيراني الهائل لهذا الحزب كان لا بد من هدف تكتيكي مرحلي دعائي من أجل التغطية على هذا الهدف الإستراتيجي الأساسي، فكان الهدف التكتيكي هو مقاومة الكيان اليهودي وتحرير جنوب لبنان، فمن ذا الذي يجرؤ على التشكيك فيمن يعلن أن هدفه هو مقاومة العدو المحتل؟

خلف هذا الغطاء قدمت إيران لهذا المشروع الطائفي الدعم المالي الهائل الــذي كان يستخدم في إنشاء جيش مسلح ومدرب على أعلى مستوى (ويتفوق علــى تسليــح وتدريب الجيشــ اللبنــاني)، وفي إقامــة مشروعــات إجتماعية واقتصادية ودينية وإعلامية ضخمة ذات طابع شيعي واضح.

ومما عزز وسهل نشوء قوة هذا الحزب الشيعي بهذا الشكل هو سيطرة النظام السوري على لبنان، فمن أجل أن تفرض سورية سيطرتها على لبنان كان هناك قرار سوري - غير بعيد عن الدعم الأمريكي - بألا يكون هناك أي ميليشيا مسلحة تابعة لأي طائفة في لبنان، فتم نزع سلاح جميع ميليشيات الطوائف اللبنانية بموجب (اتفاق الطائف) الموقع بين الطوائف اللبنانية المختلفة والحكومة اللبنانية وبرعاية أمريكا والسعودية وسورية، أما الميليشيا الشيعية (حزب الله) فلم يطبق عليها هذا الاتفاق، وذلك تحت حجة أن هذا الحزب ليس بميليشيا، وإنما هو مقاومة يعمل على تحرير جنوب لبنان، وبالفعل استفرد هذا الحزب بالسلاح وبحرية الحركة، فنما وترعرع تحت الرعاية السورية وغض الطرف الأمريكي حتى استطاع بالفعل أن يجعل من الطائفة الشيعية في لبنان أقوى طائفة سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، فأصبح دولة داخل الدولة له علم خاص، ويرفع صور الزعيم الإيراني (الخميني) في

مقاره الرسمية وفي الشوارع وكذلك صور خليفة الخميني (خامنئي)، ما يؤكد أنه مشروع إيراني.

وما يؤكد أن أمريكا كانت تغض الطرف عن هذا الحزب أنه وقع مع الكيان اليهودي عام ١٩٩٦م ما عُرف بـ(تفاهمات نيسان) برعاية أمريكية وفرنسية وسورية وألمانية، وهذه التفاهمات تجاوزت الدولة اللبنانية واعتبرت (حزب الله) هو الذي يمثل الطرف اللبناني، واعترفت الأطراف الموقعة على هذه التفاهمات وفي مقدمتها الكيان اليهودي وأمريكا بأن (حزب الله) الشيعي حركة مقاومة للاحتلال في جنوب لبنان، وأن يكون نشاطه العسكري محصورًا في الجنوب، ولا يحق له أن يقوم بأي عمل عسكري ضد الصهاينة في فلسطين المغتصبة عام ١٩٤٨م أي فيما وراء الحدود اللبنانية.

وبالفعل التزم هذا الحزب بهذه التفاهمات، التي يُفهم منها أن هذا الحزب اعترف عمليًّا بأن فلسطين ليست أرضاً مغتصبة، وأقر أيضاً بأنه لا يسعى ولا يهدف وليس من إستراتيجيته تحرير فلسطين ولا مقاومة الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين، كما يدعي.

وكانت أمريكا لديها قرار - بغير رغبة بني صهيون - بربط المسارين اللبناني والسوري بمسار واحد، وأن يكون الانسحاب الصهيوني من جنوب لبنان بموجب اتفاقية سلام توقع من الحكومة اللبنانية والسورية، فربطت هذين المسارين بهذه التفاهمات، وبالفعل صار الوزراء والساسة اللبنانيون والسوريون يتحدثون عن وحدة المسارين، وهذا ما يوضح لماذا رفضت أمريكا اتفاق ١٧أيار عام ١٩٨٣م الشهير الموقع بين الكيان اليهودي والحكومة اللبنانية، وعملت على إسقاطه؛ لأنه تم دون علمها ومن وراء ظهرها، ولم

يحصل على موافقتها، ومن أجل أن يتهرب هذا الكيان من وحدة المسارين، وما قد يترتب عليه من استحقاقات سياسية وتنازلات قد تجبره أمريكا على دفعها، وهو لا يرغب في دفعها أو تقديمها، وفي مقدمتها ما يتعلق بحل قضية اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، التي تمنع التركيبة الطائفية في لبنان من توطينهم فيه.

فخشي هذا الكيان الغاصب من أن تضغط عليه أمريكا في يوم من الأيام، فتجبره على تنفيذ حق العودة، ومن أجل أن يتملص من هذا الذي فرض عليه قام عام ٢٠٠٠م وبتصرف أحادي الجانب بالانسحاب المفاجئ من جنوب لبنان، وقد احتجت سورية على هذا الانسحاب ورفضته؛ لأنه تم من طرف واحد، وصرح وزير الخارجية السوري فاروق الشرع في ذلك الوقت بأن هذا الانسحاب لا يجوز، وكذلك قال وزير خارجية لبنان، ورفضت الحكومتان السورية واللبنانية تلك الخطوة.

وأمريكا فوجئت بهذا الانسحاب، فطلبت من الحكومة اللبنانية ألا ترسل جيشها إلى الجنوب والتموضع على الحدود، وبالفعل لم ترسل الحكومة اللبنانية جيشها إلى الجنوب بحجة أن هذا الانسحاب يجب أن يتم بموجب اتفاقية تسوي جميع المسائل الحدودية والسياسية والقضايا المختلفة التي يجب حلها بموجب اتفاقية سلام، وبدلاً من الجيش اللبناني الرسمي سُمح لميليشيا الحزب بالدخول إلى الجنوب والسيطرة عليه والوجود على الحدود الدولية بين فلسطين المغتصبة ولبنان، ونتيجة لذلك نُسب هذا الانتصار لـ «حزب الله»، وأنه هو الذي حرر الجنوب، فصار هذا الحزب وقائده رمزاً للانتصار والتحرر حتى إن جميع السياسيين اللبنانيين من جميع الطوائف الخائفين

من الأجهزة الأمنية السورية القابضة على لبنان أخذوا ينافقون زعيم هذا الحزب المقرب من النظام السوري، ويتسابقون على حضور مناسباته وفي مقدمتها الاحتفال بمناسبة تحرير الجنوب[٢].

إن معظم العمليات النوعية قبل انسحاب الكيان الصهيوني من جنوب لبنان، قام بها شباب فلسطينيون من تنظيم الجبهة الشعبية القيادة العامة بزعامة أحمد جبريل، حيث قدم هذا التنظيم ٧٥٠ شهيداً من مجموع ١٥٠٠ أعلن عنهم الحزب، دون أن يذكر دور هؤلاء المقاتلين الفلسطينيين ولو بالإشارة في يوم من الأيام، فالحزب قد استغل تعطش هؤلاء الشباب لقتال عدوهم - والمغلقة في وجوههم الحدود العربية - حتى يبني أمجادًا على جماجمهم.

وما إن جاء عام ٢٠٠٠م حتى حصل انقلاب في السياسة الأمريكية تجاه المنطقة، حيث تغيرت مواقف أمريكا وسياستها وتعاملها مع كثير من الأنظمة والقضايا والملفات في منطقتنا، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية واللبنانية، وذلك نتيجة فوز ما عُرف بالمحافظين الجدد بالانتخابات الأمريكية بزعامة بوش الابن، الذي يحيط به مجموعة أو عصابة من المتعصبين دينيًّا، وسيطر هؤلاء على سياسة أمريكا الخارجية وعلى وزارة الدفاع، فكانت لديهم سياسة جديدة وهي تجديد وتغيير جميع عملاء أمريكا في المنطقة، وبدؤوا يُعلنون عن سياسة الإصلاحات السياسية في العالم العربي وتشجيع الديمقراطية، التي تستهدف تغيير أنظمة الحكم في المنطقة التي عفا عليها الزمن واستهلكت واعتلاها الصدأ، لتحل محلها أنظمة جديدة تتوافق ومزاج عصابة البنتاجون وسياستهم الجديدة.

فقامت هذه الإدارة الأمريكية الجديدة بسحب الملف اللبناني من يد النظام السوري الذي وكلته به، وأخذت تطالب النظام السوري بسحب قواته التي دخلت لبنان بطلب منها عام ١٩٧٦م، ولكن النظام السوري أخذ يُماطل ويتلكأ بالاستجابة لهذا الطلب لعل وعسى أن تغير الولايات المتحدة الأمريكية رأيها، فلم يقرأ هذا النظام جيداً التغيير الجذري الذي حصل في السياسة الأمريكية منذ مجيء المحافظين الجدد للسلطة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأمام هذه المماطلة والتلكؤ قامت الولايات المتحدة الأمريكية باستصدار قرار من مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ لعام ٢٠٠٤م ينص على سحب جميع القوات الأجنبية وغير اللبنانية من الأراضي اللبنانية وبنزع سلاح جميع الأحزاب والمليشيات والمنظمات اللبنانية وغير اللبنانية، وعلى الرغم من ذلك فإن النظام السوري لم يستجب فوراً لهذا القرار وكذلك الحزب، إلى أن جاء عام ٢٠٠٥م وفي ١٤ شباط حيث تم اغتيال رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان السني، الذي اتهم بأنه الذي كان وراء استصدار هذا القرار.

فكان اغتيال رفيق الحريري بمنزلة القشة التي قسمت ظهر البعير، حيث قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالطلب من النظام السوري بسحب قواته فوراً من لبنان وبحد أقصاه تاريخ ٢٠٠٥/٤/٨م، وإلا فإنها ستتخذ الإجراء المناسب لإجباره على ذلك، فقامت سورية بالاستجابة لهذا التهديد فوراً، وبذلك انتهى الدور السوري في لبنان الذي استمر تقريباً مدة ثلاثين عاماً.

وبانتهاء هذا الدور تم تنفيذ الشق الأول من قرار ١٥٥٩ وتبقّى الشق الثاني، وهو نزع سلاح الحزب، ولكن هذا الحزب رفض هذا القرار وأخذ يتحدى كل من يُحاول أن ينزع سلاحه، مبرراً أن هذا السلاح هو سلاح مقاومة، وأن

المقاومة مستمرة، وأن هناك جزءاً من الأراضي اللبنانية ما زال مُحتلاً، وهذا الجزء هو مزارع شبعا التي هي في الأساس أراضٍ سورية احتلت من سورية عام ١٩٦٧م، ولكن سورية بعد انسحابها من لبنان عام ٢٠٠٥م تنازلت عنها إلى لبنان.

وكان هذا الحزب: من حين إلى آخر يقوم بعملية عسكرية ضد جنود الكيان الصهيوني حتى يُقال: إنه لا يزال يُقاوم، فيبرر احتفاظه بسلاحه، وبعد كل عملية كان الصهاينة يقومون بعملية رد محدودة لا تتعدى القصف المدفعي لبعض قرى الجنوب اللبناني، ومن ثَم ينتهي الأمر إلى هذا الحد.

ولكن في العملية التي قام بها (حزب الله) في ٢٠٠٦/٧/١٢م فوجئ بحجم الرد وبأسلوبه، حيث قامت أمريكا بفك الكيان اليهودي من عقاله، فقام بشن هجوم جوي وبري وبحري وبجميع صنوف الأسلحة على مجمل مساحة لبنان، الذي حوله إلى ميدان للرماية، فقام باستهداف البنية التحتية للدولة اللبنانية وأخذ يقتل ويُدمر على مدى أكثر من ثلاثين يوماً، وكان ذلك بضوء واضح وعلني من الولايات المتحدة الأمريكية التي لا تقبل أن يكون هناك أي قوة لها أنياب حول الكيان الصهيوني مهما كانت هذه القوه موالية لها، وكان هناك أيضاً تأييد علني من بعض الأنظمة العربية، وأبدى (حزب الله) دفاعاً شرساً عن النفس؛ لأنه أصبح على قناعة بأن هذه معركته الأخيرة، وأن رأسه بات مطلوبًا، وأن دوره الذي أُقر في تفاهمات نيسان يجب أن ينتهي.

فأصدر مجلس الأمن قرار ١٧٠١ والذي يتضمن شروطاً معظمها في مصلحة الكيان الصهيوني، وهو أشبه ما يكون بوثيقة استسلام وقبلها الحزب مبدياً بعض التحفظ على بعض النقاط، وذلك من باب التغطية على

القبول بهذا القرار المُذل الذي ينص على وجوب تنفيذ قرار ١٥٥٩، والذي يتمحور حول تسليم الحزب لسلاحه وانسحابه من الجنوب اللبناني، وتسليم الجنديين الأسيرين دون قيد أو شرط، وإرسال قوات دولية لحماية الكيان الصهيوني، بل إن أمين عام الحزب فوض الحكومة اللبنانية بأن تأخذ الموقف المناسب، ولن يقف عائقاً في وجهها.

وما يؤكد موقف إيران المذهبي أنه عندما ارتكبت حركة أمل الشيعية أبشع المجازر ضد الشعب الفلسطيني في مخيمات بيروت في (صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة)، بتطويقها مخيمات بيروت الواقعة في الضاحية الجنوبية وقصفها بجميع أنواع الأسلحة مدة ثلاث سنوات من ١٩٨٤م إلى ١٩٨٧م، ومن شدة هذا الحصار الإجرامي اضطر الفلسطينيون إلى أن يأكلوا القطط والفئران والجيف وأن يشربوا أبوالها، وعلى الرغم من وجود قوات (حزب الله) بجوار هذه المخيمات في الضاحية الجنوبية لكنها لم تحرك ساكنًا أو تتدخل لوقف المجازر أو إرسال الطعام والشراب لهم، بل كانت متواطئة مع هذا الإجرام بالتزامها الصمت. عندئذ ذهب الشيخ أسعد بيوض التميمي يرافقه غازي الحسيني ابن الشهيد عبد القادر الحسيني إلى إيران (عام ١٩٨٦م) من أجل أن يطلُب من الخميني أن يتدخل لوقف المجازر التي يرتكبها الشيعة في لبنان ضد الشعب الفلسطيني وبإصدار فتوى تحرم قتل الفلسطينيين، ولكن الخميني رفض.

وما يؤكد أن (حزب الله) لا يهمه الشعب الفلسطيني ولا قضيته، أنه رشح على قائمة حزبه لثلاث دورات برلمانية متتالية (إيلي حبيقة) بطل مجازر صبرا وشاتيلا، الذي قاد قوات الكتائب المارونية الصليبية التي دخلت هذين

المخيمين بعد أن خرج المقاتلون الفلسطينيون منها عام ١٩٨٢م، فقتلت الأطفال والنساء والشيوخ بمنتهى الخسة والنذالة والجبن، مكافأة له على جريمته هذه ضد الشعب الفلسطيني التي تُعدّ من أبشع مجازر التاريخ.

وكان أمين عام الحزب حسن نصر الله من أول المؤيدين للاحتلال الأمريكي للعراق معتبراً إياه تحريراً للعراق من أهل السنة، وقد هاجم المجاهدين السنة في العراق في أكثر من خطاب، قائلاً عنهم: إنهم خونة وعملاء وتكفيريون وصداميون بحجة أنهم يقتلون أفراد الشرطة العراقية والجيش العراقي اللذين صنعتهما أمريكا ليكونا لها مخالب قط وأداة لذبح المجاهدين من أهل السنة والجماعة.

(حزب الله) يتحرك بحسب الرؤية المذهبية الشيعية الضيقة وبحسب الدور المحدد له من إيران، ولذلك فلم يكن غريباً أن يقوم هذا الحزب بتدريب الميليشيات الشيعية في العراق التي صنعتها إيران لتكون عوناً للأمريكان في فرض سيطرتهم على العراق وفي مقدمتها ميليشيا ما يُسمى (جيش المهدي) و(ميليشيا بدر) وغيرها من المليشيات التي تذبح عُلماء السنة، وتهدم مساجدهم، وتخطف أبناء الشعب الفلسطيني اللاجئين في العراق منذ عام ١٩٤٨م وتعذبهم قبل أن تقتلهم بأشد الأساليب إجراماً، وتعتدي على شرفهم وأعراضهم، وتُهددهم كل يوم بالقتل والذبح إذا لم يرحلوا من العراق، وقد أكدت هيئة علماء المسلمين في العراق أن الميليشيات العراقية الشيعية المدعومة من إيران قتلت أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ألف سني في العراق.

فهذا الحزب هو صناعة إيرانية ومشروع إيراني كالمشروعات الإيرانية في العراق التي تستهدف أهل السنة وإقامة دولة صفوية، فهو يحمل نفس

عقيدة هذه الدولة الصفوية الفارسية وميليشياتها التي تعيث في أرض العراق فساداً، والتي أصبح يُطلق عليها فرق الموت السوداء، والتي تقول: إن القرآن مُحرف والتي تلعن أبا بكر وعمر وعثمان(٤).

وعلى الرغم مما يؤكده قادة الحزب بأنه لبناني ونشأ لبنانيًا، لكن المعطيات تؤكد أن إيران أدت دوراً أساسيًا في ولادته ونشأته ونموه كما أوضحنا، وتصريحات قادة الحزب وميثاق الحزب تؤكد دوماً التبعية للثورة الإيرانية ومرشدها، وصور قادة إيران وعلمها تسيطر على مرافق الحزب وفعالياته.

وتتميز العلاقة بين (حزب الله) وإيران بتداخل البعدين السياسي والديني فيها، فاللبنانيون الشيعة الذين يمثلون كوادر (حزب الله) تربطهم بالمرجعيات الدينية الإيرانية روابط روحية عميقة، ويُعدّ مرشد الثورة الإيرانية أكبر مرجعية دينية بالنسبة إليهم، ويسمى أمين عام (حزب الله) حسن نصر الله الوكيل الشرعي لآية الله خامنئي.

يقول حسن نصر الله: (إننا نرى في إيران الدولة التي تحكم بالإسلام، والدولة التي تناصر المسلمين والعرب وعلاقتنا بالنظام علاقة تعاون، ولنا صداقات مع أركانه، ونتواصل معه، وإن المرجعية الدينية هناك تشكل الغطاء الديني والشرعي لكفاحنا ونضالنا)(٥).

ويقول إبراهيم الأمين الناطق باسم حزب الله: (نحن لا نقول: إننا جزء من إيران؛ نحن إيران في لبنان ولبنان في إيران)(٦).

ويقول حسن سرور أحد قادة الحزب: (نعلن للعالم أجمع أن إيران هي أمُّنا وديننا وكعبتنا وشراييننا)، ويزيد عباس موسوي: (كلنا إخوة ونقاتل

من أجل القضية نفسها، وكل من يحاول التفرقة بينا وبين إخوتنا الإيرانيين أو بين المسلمين عموماً فإنه يرتكب جريمة). وفي ذكرى أسبوع أحد موظفي السفارة الإيرانية ببيروت (مصطفى توراني) قال الشيخ حسن طراد إمام جمعية مسجد الإمام المهدي بالغبيري: (إن إيران ولبنان شعب واحد وبلد واحد، وكما قال أحد العلماء الأعلام: إننا سندعم لبنان كما ندعم مقاطعتنا الإيرانية سياسيًّا وعسكريًّا)(٧).

وقد جاء في بيان صادر عن الحزب في ١٦ فبراير ١٩٨٥م أن الحزب (ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه، وتتجسد في روح الله آية الله الموسوي الخميني مفجر ثورة المسلمين وباعث نهضتهم المجيدة). ويقول هاشمي رفسنجاني الرئيس الإيراني السابق، ورئيس مجمع تشخيص النظام، والرجل القوي في إيران: (تعتقد إيران أن مساعدتها لـ(حزب الله) في لبنان واجب مذهبي وثوري وأنها سوف تستمر في دعمه طالما ظلت أراضيه محتلة أو مهددة، وأنها مع تقديرها للمواقف الشجاعة لشعب لبنان وحكومته في دعم جبهة المقاومة أمام محاولات التوسع للنظام الصهيوني تؤكد استمرار دعم إيران للمقاومة الشعبية في لبنان)(٨).

الدعم المادي والعسكري والسياسي والإعلامي الإيراني لـ(حزب الله) واضح لا لبس فيه، وإن كان يصعب تحديد حجمه، وهناك جهات إيرانية عدة تعمل في (حزب الله): حراس الثورة، وزارة الخارجية، مؤسسة الشهيد، وزارة الإرشاد الإسلامي، وزارة الداخلية، الأجهزة الأمنية الاستخباراتية.

وبشكل عام نستطيع أن نلخص الدلائل على الدور الإيراني في نشأة (حزب الله) فيما يأتي:

(١) نشأ (حزب الله) في إيران بتأثير ولاية الخميني على الشيعة كافة، يقول نائب الأمين العام لـ(حزب الله) نعيم قاسم: (كان هناك مجموعة من المؤمنين... تفتحت أذهانهم على قاعدة عملية تركز على مسألة الولي الفقيه والانقياد له بوصفه قائداً للأمة الإسلامية جمعاء، لا يفصل بين مجموعاتها وبلدانها أي فاصل،... وذهبت هذه المجموعة المؤلفة من تسعة أشخاص إلى إيران ولقاء الإمام الخميني، وعرضت عليه وجهة نظرها في تأسيس وتكوين الحزب اللبناني، فأيد هذا الأمر وبارك هذه الخطوات)(٩).

(٢) ذكرت مجلة الشراع بتاريخ ١٤/٨/١٩٩٥م (د. غسان عزي، ص: ٣٤) نقلاً عن (حزب الله) وجود عضوين إيرانيين في قيادة الحزب.

(٣) حسن نصر الله يشغل منصب الوكيل الشرعي لمرشد إيران الأعلى علي خامنئي، وقد نشرت له صور عدة يقبل فيها يد خامنئي، وقد تساءل البعض: ماذا لو تنازعت لبنان مع إيران؟ فلمن سيكون ولاء نصر الله ومن ورائه الحزب والطائفة؟

(٤) سبق في تاريخ (أمل) و(حزب الله) التحاكم إلى القيادة الإيرانية عند الاختلاف فيما بينهما(١٠).

(٥) أعلنت حركة أمل في المؤتمر الرابع في آذار ١٩٨٢م أنها جزء لا يتجزأ من الثورة الإسلامية في إيران(١١).

(٦) بسبب تبعية (حزب الله) لولاية الفقيه، يقرر الباحث الإيراني د. مسعود أسد الله في كتابه (الإسلاميون في مجتمع تعددي، صفحة ٣٢١) ما يأتي: «بما أن حاكمية الخميني كولي فقيه لا تنحصر

بأرض أو حدود معينة فإن أي حدود مصطنعة وغير طبيعية تمنع عمل هذه الولاية، تعد غير شرعية، لذا فإن (حزب الله) في لبنان يعمل كفرع من فروع (حزب الله) الواسعة الانتشار... الآراء المذكورة آنفًا توضح أن (حزب الله) كان مستعداً لإنجاز أي مهمة يأمر بها الولي الفقيه».

وقد كلف (حزب الله) إيران الكثير من الجهد والمال، غير أن إيران استفادت منه كثيرًا، فهي من جهة تمكنت عبره من تحسين شعبيتها أمام المجتمع السني خاصة بعد أن ساءت صورتها كثيراً خلال حربها الطويلة مع العراق، كما ساءت صورة الشيعة بشكل عام بعدما اتضح للجميع الجرائم التي يقترفها الشيعة ضد أهل السنة في العراق، لذلك كان (حزب الله) هو المنقذ الذي عمل على إظهار إيران بمظهر البلد الذي يواجه إسرائيل والولايات المتحدة.

ومن جهة ثانية؛ يخدم الدعم الإيراني لـ (حزب الله) المشروع الشيعي في الأساس الذي يحلم باستعادة إمبراطورية فارس. وهو أمر يقر به أحد قادة (حزب الله) في لبنان، وهو إبراهيم الأمين حيث يقول: (إن تصدير الثورة لا يعني تسلط النظام الإيراني على شعوب منطقة الشرق الأوسط، وإنما المفروض أن تعيش هذه المنطقة الإسلام من جديد - والإسلام الذي يقصده هو الإسلام الشيعي - على هذا الأساس نحن نعمل في لبنان من خلال المسؤولية الشرعية ومن خلال القناعة السياسية أيضًا، حتى يصبح لبنان جزءًا من مشروع الأمة - الأمة الشيعية بالطبع - في منطقة الشرق الأوسط، ولا نعتقد أنه من الطبيعي أن يكون لبنان دولة إسلامية خارج مشروع الأمة.

ومن جهة ثالثة؛ يمثل (حزب الله) ورقة رابحة بيد إيران تستطيع أن تستخدمها وقتما تشاء في الضغط على أمريكا وإسرائيل لتحقيق مآربها[١٢].

الهوامش:

(١) منال لطفي، ولادة حزب الله.. على أنقاض أمل، صحيفة الشرق الأوسط، ١٧ مايو ٢٠٠٨م.

(٢) منال لطفي، محمد حسن أختري: ساعدنا على تصحيح صورة حزب الله.. وتعاونا مع سورية لإنشاء قناة المنار، صحيفة الشرق الأوسط، ١٥ مايو ٢٠٠٨م.

(٣) محمد أسعد بيوض التميمي، ماذا يجري في لبنان؟ هل هو مشروع إيراني شيعي مذهبي صفوي أم حزب الله؟ مفكرة الإسلام، ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٦م.

(٤) المرجع السابق.

(٥) مجلة المقاومة، العدد ٢٧، صفحة ١٥، ١٦.

(٦) صحيفة النهار، ٥-٣-١٩٨٧م.

(٧) جريدة النهار، ١١-١٢-١٩٨٦، صفحة ٥.

(٨) مجلة مختارات إيرانية، العدد ٧٣، صفحة ٣٧.

(٩) أمين مصطفى، دار الهادي، صفحة ٤٢٥.

(١٠) وضاح شرارة، دولة حزب الله، صفخة ١١٩.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام على الإنترنت.

الفصل السابع

(الحوثيون) في اليمن .. خنجر مسموم

لمعرفة حجم التغلغل الإيراني في اليمن تحت مظلة الحوثيين، يجب أن نتعرف أولاً على كيفية نشأة هذه الجماعة ومراحل تطورها.

تعود جذور حركة الحوثي إلى الثمانينيات من القرن الماضي، وبدأ أول تحرك عام ١٩٨٢م علي يد العلامة صلاح أحمد فليتة، الذي أنشأ عام ١٩٨٦م (اتحاد الشباب) وكان من ضمن ما يتم تدريسه مادة عن الثورة الإيرانية ومبادئها يقوم بتدريسها محمد بدر الدين الحوثي. وعام ١٩٨٨م تجدد النشاط عن طريق بعض الرموز الملكية التي نزحت إلى المملكة العربية السعودية عقب ثورة ١٩٦٢م وعادوا بعد ذلك، وكان من أبرزهم مجد الدين المؤيدي وبدر الدين الحوثي.

مع قيام الجمهورية اليمنية في ٢٢ مايو ١٩٩٠م تحولت هذه الأنشطة إلى مشروع سياسي، تزامناً مع المناخ السياسي الجديد الذي أقر التعددية، فقد أعلن قيام ما يزيد على ٦٠ حزباً في اليمن يمثلون جميع التوجهات القومية

واليسارية والإسلامية والليبرالية، فيما تمثلت الأحزاب الشيعية في حزب الثورة الإسلامية، حزب الله، حزب الحق، اتحاد القوى الشعبية اليمنية. وقد توارى الحزبان الأولان (حزب الثورة، وحزب الله)، فيما بقي في الساحة حزب الحق واتحاد القوى الشعبية.

أبدى حسين بدر الدين الحوثي اهتمامًا كبيرًا بتنظيم «الشباب المؤمن» وتفرغ له عازفًا عن الترشح في مجلس النواب، تاركًا المقعد الذي كان يشغله لأخيه يحيى بدر الدين الحوثي.

كان تنظيم الشباب المؤمن هو التنظيم الذي علق حسين بدر الدين الحوثي آماله وطموحاته عليه، وسعى لتوفير دعم كبير له سواء عن طريق الدعم الإيراني أو الدعم الذي كان يصرف من قصر الرئاسة حينها. وكان حسين الحوثي عضواً في البرلمان اليمني في المدة ما بين ١٩٩٣م إلى عام ١٩٩٧م ممثلاً للمؤتمر الشعبي العام (الحزب الحاكم)، بعدها أخذ في بناء قاعدة لتأييده خاصة في مديرية (حيدان) دون ترخيص قانوني، أطلق عليها اسم الحوزة، وهي المدرسة التي انطلق منها لتغذية الطلاب بأفكار الثورة الإيرانية السياسية والمذهبية.

عام ١٩٩١م نشأ تنظيم (الشباب المؤمن)، بإيعاز من بدر الدين الحوثي بهدف جمع علماء المذهب الزيدي في صعدة وغيرها من مناطق اليمن تحت لوائه، ومن ثم دعم حزب (الحق) بوصفه يمثل المذهب الزيدي.

وبدر الدين بن أمير الدين الحوثية، من كبار علماء الشيعة، جارودي المذهب، يرفض الترضية على الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويهاجم الصحيحين والسنن في كثير من مؤلفاته، ويتهم الإمام البخاري

ومسلم بالتقول والكذب على رسول الله ﷺ إرضاءً للسلاطين؛ ومنه ورث ابنه حسين هذا المذهب، وسار عليه أنصارهم وأتباعهم.

وبدأ حسين الحوثي توسيع نشاطه خارج منطقة صعدة، ليؤسس مراكز مماثلة لمركزه في محافظات عدة[1].

لم تتوقف أنشطة الحوثي و(الشباب المؤمن) على إقامة المراكز العلمية (المسماة بالحوزات)، والمخيمات الصيفية، والندوات والمحاضرات والدروس؛ ونشر كثير من (الملازم) والكتب التي تروج لفكره، بل تجاوزها إلى تحريض أتباع المذهب الزيدي على اقتناء الأسلحة والذخيرة؛ تحسباً لمواجهة الأعداء من (الأمريكيين واليهود)، واقتطاع نسبة من الزكاة لمصلحة المدافعين عن شرف الإسلام والمذهب، عامداً إلى الدفع بشبابه (الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٥-٢٥ عاماً) لإظهار ثقله الديني والسياسي بالتظاهر في معظم المساجد وعقب صلوات الجمعة وترديد شعاراتهم ضد إسرائيل وأمريكا، وقد بلغ الأمر في إحدى المظاهرات إلى سقوط قتلى في أثناء مسيرة نظمها التنظيم في اتجاه السفارة الأمريكية إبان الحرب على العراق، عام ٢٠٠٣م.

وهنا كان على الدولة أن تتدخل، فبدأ الصدام بينها وبين أتباع الحوثي يأخذ طابع الاعتقال، وإغلاق المحالّ من مكتبات وتسجيلات شيعية، في حين بدأ حسين الحوثي في التحصن في جبال مران، حيث مسقط رأسه ومعقد الولاء المذهبي له، فأقام تحصينات خرسانية، وزود أتباعه بالسلاح والذخيرة، وبدأ بالتعبئة ضد أي عدوان أمريكي أو إسرائيلي، وأحاط نفسه بإجراءات أمنية صارمة؛ وبدا الأمر وكأنه استعداد لخوض مواجهة عسكرية مؤكدة، وليست محتملة.

طبيعة الدور الذي مارسه حسين الحوثي، قبل تطور الأحداث إلى مستوى المواجهات مع الدولة، دل على نيات فعلية لإظهار الحركة بوصفها سياسية مستقلة، كما هو الحال مع (حزب الله) في لبنان؛ خاصة بعد فشل حزب (الحق) وحزب (اتحاد القوى الشعبية) في أداء دور سياسي أو حركي بالمستوى الذي يأمله حسين الحوثي.

وبالفعل خاض حسين الحوثي حربًا شرسة ضد الدولة استمرت ثلاثة أشهر تقريباً. ولم يشأ الحوثي الاستسلام للدولة إلا وفق شروط ومطالب خاصة، ليس من أبرزها سحب الدولة لقواتها من المنطقة والإفراج غير المشروط عن أعضاء التنظيم، إلى آخر ما هناك من المطالب، لكنه لم يستطع تحقيق آماله، حيث استطاعت الدولة القضاء عليه في ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤م، هو وعدد من أتباعه، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد أعاد والده الكرة مرة أخرى.

لقد كان الاستخدام المفرط للعنف والسلاح تجاه الدولة والدخول معها في صراع دموي دليلاً على أن وراء الشعار المعلن بعد آخر خفي، فصعدة ظلت بعيدة عن أعمال العنف التي تطول الأجانب والمصالح الأمريكية في اليمن، على خلاف محافظات أخرى مثل مأرب، والجوف، وصنعاء، وحضرموت، وعدن.

وقد شكلت الأرضية المذهبية (الهادوية) في اليمن محضنًا خصبًا لأفكار الثورة الإيرانية، فكان التغلغل الشيعي خاصة بعد حرب الخليج الثانية وتدمير العراق، وبذلت الدبلوماسية الإيرانية والسفارة الإيرانية في صنعاء جهدًا مكثفًا لاستقطاب أتباع المذهب الزيدي منذ عام ١٩٩٠م، حيث توجهت الأنظار إلى اليمن بوصفه لاعباً إقليميًا ناشئاً ومؤثراً[٢].

ومن بين الأفكار التي كان يعتنقها حسين الحوثي وأتباعه:

- على الأمة أن تكتفي بإمام يعلمها كل ما تحتاج إليه، فهي لا تحتاج إلى دراسة الكتاب والسنة.
- يكفي أن يكون للأمة إمام أو زعيم أو قائد أو قدوة، وقد كان يطلق على الحوثي (القدوة) إذ كان يركز في أدبياته على مسألة القدوة ووجوب اتباعها والأخذ برأيها.
- الحملة الشديدة على الصحابة الأبرار، لدرجة أن الحوثي حمل بعضهم فشل الأمة الإسلامية، لذا فإن السنة بحسب الحوثيين لا يعتمد عليها؛ لأنها جاءت من طرف صحابة رسول الله ﷺ.
- إيمانه بالمهدي في فكرته الشيعية، وإيمانه بضرورة التمهيد لعودة المهدي مع ما يصاحب ذلك من احتلال للحرمين الشريفين وتصفية أهل السنة والجماعة، والقضاء على الأنظمة السنية الحاكمة وعلى رأسها المملكة العربية السعودية.

من خلال هذه المبادئ والأفكار «الاثنا عشرية» التي يعتنقها تنظيم الحوثي وأتباعه وما يجري في اليمن من صراع بين هذا التنظيم والحكومة اليمنية أصبح من الواضح أن وراء هذه الأحداث جهات خارجية تريد تمرير مشروعها ليس في اليمن فحسب بل في المنطقة كلها.

لقد بدت ملامح السيناريو الإيراني تظهر للعلن مع بروز أفكار هذا التيار واشتداد المعارك بين الحكومة اليمنية وأتباع الحوثي. والمتتبع للأحداث لا

يجد كثير عناء في اكتشاف التواطؤ الإيراني ومحاولة زعزعة استقرار اليمن، خاصة بعد التضامن الذي أظهرته إيران اتجاه الحوثي وإتباعه، إذ صدر بيان من مجموعة من علماء الدين في إيران يحتجون فيه على ما أسموه المجازر التي ترتكب ضد الشيعة في اليمن، وطالب متظاهرون كانوا مجتمعين أمام السفارة اليمنية بطرد السفير اليمني من طهران وتغيير اسم الشارع الذي تقع فيه سفارة اليمن إلى اسم الحوثي.

إن التقسيمات العرقية داخل المجتمع اليمني وأهمها المجموعات الزيدية المبعثرة، مهدت الطريق لإيران لاختراقها، إذ أدخلت عليها مبادئ وأفكار «الاثنا عشرية» التي برز من خلالها تنظيم الشباب المؤمن بزعامة حسين الحوثي، واستغلت إيران هذا التنظيم وأعادت صياغته من خلال أفكارها وما يناسب توجهها التوسعي ومبادئها، الأمر الذي يفسر الزيارات المكوكية التي قام بها أفراد من الحوثيين إلى طهران عبر مراحل زمنية مختلفة بهدف التدريب والتنظيم، ناهيك عن الزيارات السرية لخبراء عسكريين إيرانيين بطرق سرية ليشرفوا بأنفسهم على عمليات التدريب في اليمن[٢].

صعدت إيران من حملاتها الهادفة إلى زعزعة المناطق المحيطة بالسعودية، حيث بدأت أجهزتها الإعلامية في بث رسائل تطالب بانفصال الجزء الجنوبي من اليمن، وبث موقع (العالم) الإيراني تقريرًا على لسان ما أسماه (هيئات الحراك الجنوبي والتجمع الديمقراطي الجنوبي)، طالب فيه (المواطنين الجنوبيين) في اليمن بالمشاركة بكثافة في التظاهرات التي نظمت في حضرموت، والتي تدعو إلى انفصال جنوب اليمن. وبثت قناة «العالم» الإخبارية التابعة للحكومة الإيرانية خطابات انفصالية لقيادات (الحراك

الجنوبي). ودعت طهران الشعب اليمني إلى الوقوف مع الحوثيين (والالتفاف حولهم ودعمهم بكل القوة) وقالت: (إنه يجب أن يتعامل المواطنون اليمنيون مع السعودية والرئيس على عبدالله صالح عكس ما يريدون تماماً).

وسبق الحملة الإعلامية الإيرانية، دعوات أصدرتها قيادات في تمرد الحوثي تزعم (أحقية أبناء صعدة في استعادة جبل العرو وإمارات جازان وعسير ونجران) من السعودية، مبررة ذلك بأنها (فروع يجب أن تعود إلى الأصل).

ووجهت صنعاء اتهامات مباشرة لإيران بدعم المتمردين الحوثيين في صعدة، وحاكمت عدداً من اليمنيين بتهمة التخابر مع طهران.

وبث التلفزيون السعودي اعترافات للقيادي في تنظيم (القاعدة) العوفي، كشف فيها عن علاقة الاستخبارات الإيرانية والمتمردين الحوثيين بالتنظيم واستعدادهم لمدِّهم بالمال والأسلحة اللازمة لتنفيذ عملياتهم.

والسؤال الذي ينبغي أن يشغلنا هو: كيف تمكّنت جماعة حديثة مثل هذه الجماعة أن تواجه الحكومة اليمنية طوال هذه المدة، خاصّة أنها تدعو إلى فكر شيعي «اثنا عشري»، وهو ليس فكراً سائداً في اليمن بشكل عام، ما يجعلنا نفترض أن أتباعه قلة؟

لذلك تبريرات كثيرة تنير لنا الطريق في فهم القضية، لعل من أبرزها ما يأتي:

أولاً: لا يمكن استيعاب أن جماعة قليلة في إحدى المحافظات اليمنية الصغيرة يمكن أن تصمد هذه المدة الطويلة دون مساعدة خارجية مستمرة،

وعند تحليل الوضع نجد أن الدولة الوحيدة التي تستفيد من ازدياد قوة التمرد الحوثي هي إيران، فهي دولة «اثنا عشرية» تجتهد بكل وسيلة لنشر مذهبها، وإذا استطاعت أن تدفع حركة الحوثيين إلى السيطرة على الحكم في اليمن، فإنّ هذا سيصبح نصرًا مجيدًا لها، خاصة أنها ستحاصر أحد أكبر المعاقل المناوئة لها وهي السعودية، فتصبح السعودية محاصَرة من شمالها في العراق، ومن شرقها في المنطقة الشرقية السعودية والكويت والبحرين، وكذلك من جنوبها في اليمن، وهذا سيعطي إيران أوراق ضغط هائلة، سواء في علاقتها مع العالم الإسلامي السُّني، أو في علاقتها مع أمريكا.

وليس هذا الفرض نظريًّا، إنما هو أمر واقعي له شواهد كثيرة، منها التحوُّل العجيب لبدر الدين الحوثي من الفكر الزيديّ المعتدل إلى الفكر «الاثنا عشري» المنحرف، مع أن البيئة اليمنية لم تشهد مثل هذا الفكر «الاثنا عشري» في كل مراحل تاريخها، وقد احتضنته إيران بقوّة، بل استضافته في طهران سنوات عدة، وقد وجد بدر الدين الحوثي فكرة «ولاية الفقيه» التي أتى بها الخوميني حلاً مناسباً للصعود إلى الحكم حتى لو لم يكن من نسل السيدة فاطمة رضي الله عنها، وهو ما ليس موجوداً في الفكر الزيدي.

ثانياً: من العوامل التي ساعدت على استمرار حركة الحوثيين في اليمن التعاطف الجماهيري النسبي من أهالي المنطقة مع حركة التمرد، حتى إن لم يميلوا إلى فكرهم المنحرف، وذلك للظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة جدًا التي تعيشها المنطقة؛ فاليمن بشكل عام يعاني ضعفاً شديداً في بنيته التحتية، وحالة فقر مزمن تشمل معظم سكانه، لكن يبدو أن هذه المناطق تعاني أكثر من غيرها، وليس هناك اهتمام بها يوازي الاهتمام بالمدن اليمنية

الكبرى، ويؤكد هذا أن اتفاقية السلام التي توسّطت لعقدها دولة قطر سنة ٢٠٠٨م بين الحكومة اليمنية والحوثيين، كانت تنص على أن الحكومة اليمنية ستقوم بخطة لإعادة إعمار منطقة صعدة، وأن قطر ستموِّل مشروعات الإعمار، لكن كل هذا توقف عند استمرار القتال، ولكن الشاهد من الموقف أن الشعوب التي تعيش حالة التهميش والإهمال قد تقوم للاعتراض والتمرد حتى مع أناسٍ لا يتفقون مع عقائدهم أو مبادئهم.

ثالثاً: ساعد على استمرار التمرد، الوضعُ القبلي الذي يهيمن على اليمن؛ فاليمن عبارة عن عشائر وقبائل، وهناك توازنات مهمّة بين القبائل المختلفة، وتشير مصادر عدة إلى أن المتمردين الحوثيين يتلقون دعمًا من قبائل كثيرة معارضة للنظام الحاكم؛ لوجود ثارات بينهم وبين هذا النظام، بصرف النظر عن الدين أو المذهب.

رابعاً: ومن العوامل المساعدة كذلك الطبيعة الجبلية لليمن، التي تجعل سيطرة الجيوش النظامية على الأوضاع أمرًا صعبًا؛ وذلك لتعذر حركة الجيوش، ولكثرة الخبايا والكهوف، ولعدم وجود دراسات علمية توضح الطرق في داخل هذه الجبال، ولا وجود للأدوات العلمية والأقمار الصناعية التي ترصد الحركة بشكل دقيق.

خامساً: ساهم في استمرار المشكلة انشغال الحكومة اليمنية في مسألة المناداة بانفصال اليمن الجنوبي عن اليمن الشمالي، وخروج مظاهرات تنادي بهذا الأمر، وظهور الرئيس اليمني الجنوبي الأسبق «علي سالم البيض» من مقره في ألمانيا، وهو ينادي بالأمر نفسه. هذا الوضع شتّت الحكومة اليمنية وجيشها ومخابراتها؛ ما أضعف قبضتها عن الحوثيين.

سادساً: هناك بعض التحليلات تفسِّر استمرار التمرد بأن الحكومة اليمنية نفسها تريد للموضوع أن يستمر، والسبب في ذلك أنها تعدّ وجود هذا التمرد ورقة ضغط قوية في يدها تحصِّل بها منافع دولية، وأهم هذه المنافع هي التعاون الأمريكي فيما يسمّى بالحرب ضد الإرهاب، حيث تشير أمريكا إلى وجود علاقة بين تنظيم القاعدة والحوثيين. وهذا احتمال بعيد جدًا؛ لكون المنهج الذي يتبعه تنظيم القاعدة مخالف كُلِّية للمناهج «الاثنا عشرية»، ومع ذلك فأمريكا تريد أن تدس أنفها في كل بقاع العالم الإسلامي، وتتحجج بحججٍ مختلفة لتحقيق ما تريد، واليمن يريد أن يستفيد من هذه العلاقة في دعمه سياسيًّا واقتصاديًّا، أو على الأقل التغاضي عن فتح ملفات حقوق الإنسان والدكتاتورية، وغير ذلك من ملفات يسعى الغرب إلى فتحها.

الهدف الإستراتيجي للحوثيين، إذاً، ومن يقف وراءهم هو إقلاق المملكة العربية السعودية وزعزعة أمنها واستقرارها، فإيران تريد من صعدة قاعدة عسكرية لمواجهة السعودية والخليج بشكل عام، والحوثيون يريدون أقلمة قضية صعدة من خلال دخولهم في مواجهات مع القوات السعودية.

الحرب في صعدة ليست حرباً مذهبية، فالحوثيون خرجوا عن المذهب الزيدي، وهم الآن «اثنا عشرية»، وهذا الكلام ليس كلامنا، وإنما هو كلام علماء ومرجعيات المذهب الزيدي المعروفين داخل صعدة وخارجها، حتى إن مجد الدين المؤيدي - رحمه الله - وهو من كبار مراجع الزيدية في صعدة وعلى مستوى اليمن، حذر منهم في منتصف التسعينيات وأعلن براءة المذهب الزيدي من هؤلاء وما أتوا به، ومن لا يزال يعتقد أو يقول: إن الحوثيين يدافعون عن المذهب الزيدي، فهو إما حوثي أو مناصر لهم.

قضية التمرد الحوثي ليست وليدة ٢٠٠٤م، فهؤلاء ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة ولا شك أنهم مطلع التسعينيات ومع قيام الوحدة استفادوا من المناخ الديمقراطي والتعددية في تجميع قواهم من مختلف النواحي، ولو عدنا إلى مطلع التسعينيات سنجد أنهم كانوا يتحالفون مع كل من يسعى إلى زعزعة الأمن والاستقرار، والكل يعرف موقف حسين الحوثي ووالده من حرب الانفصال صيف عام ١٩٩٤م[٤].

وقد كشفت مصادر الجيش اليمني أنه تم العثور على أسلحة إيرانية الصنع في ستة مخازن للحوثيين في منطقة (حرف سفيان) ومحافظة (صعدة) شمال اليمن. وجاء العثور على تلك المخازن بعد أن تمكنت قوات الجيش والأمن من إحكام سيطرتها على منطقة (حرف سفيان) بمحافظة (عمران)، وجيوب عناصر التمرد الحوثية في منطقة (المهاذر) و(الملاحيظ) وعدد من المناطق الأخرى بمحافظة (صعدة) التي كانت عناصر الحوثيين تتمركز فيها.

وكان عدد من المتمردين الحوثيين الذين خضعوا للمحاكمة قد اعترفوا أمام القضاء باستخدام الأسلحة الإيرانية في مواجهة الدولة، فيما كشف آخرون خلال تلك المحاكمات عن تقليدهم لأفلام عن الثورة الإيرانية خلال عمليات التخريب[٥].

في حوار صحفي نشرته صحيفة الجمهور الأهلية مع الشيخ عبدالله المحدون قائد التمرد الحوثي لخمس حروب في مديرية سحار قبل أن تعيده الحرب الخامسة إلى جادة الصواب كشف للصحيفة الآتي:

- أسلحة ثقيلة ومكائن تصنيع الألغام وإعادة تركيب الصواريخ وصلتنا من إيران، والمدربون عناصر في حزب الله.

- عبدالملك الحوثي مجرد واجهة وقيادات أخرى هي التي تدير التمرد.
- ٩٠٪ من عناصرنا قادمون من خارج «صعدة» ومن الحرب الخامسة بدأ التحالف مع الانفصاليين.
- اشترينا مساحات شاسعة في ميدي باسم أشخاص لإيجاد منفذ بحري.[٦]

ووجّه بشير عشق، المسؤول في التحالف الديمقراطي الإريتري، وأحد قادة المعارضة الإريترية اتهاماً لإيران باستخدام بلاده قاعدة لنقل السلاح إلى المتمردين الحوثيين في اليمن.

وقال عشق: (المتمردون الزيديون الحوثيون يتلقون أسلحتهم من إيران عبر إريتريا). وأضاف وفقاً لوكالة فرانس برس: (الأسلحة تصل إلى مدن ساحلية في إريتريا، ولا سيما مدينة (عصب)، ومن ثم يأتي المتمردون الحوثيون، وينقلون هذه الأسلحة ليلاً إلى اليمن)[٧].

ومن القرائن التي تؤكد وجود دعم إيراني للتمرد الحوثي أيضاً:

- العثور على وثائق في المستشفى الإيراني في العاصمة صنعاء تدل على تورطها في عمليات تجسس ودعم مالي وعسكري للحوثيين، ما أدى إلى إغلاقه من قبل الحكومة اليمنية.
- الدعم الإيراني لاضطرابات جنوب اليمن المتزامنة مع عدد من حروب الحوثيين من أجل إضعاف الحكومة اليمنية وتشتيتها.
- توسيع الحوثيين لمسرح العمليات؛ بغية الوصول إلى ساحل البحر الأحمر القريب من صعدة.

- طريقة الإيرانيين في التعامل مع الحوثيين هي نفس طريقة بناء منظمات (حزب الله) في لبنان وبناء التكوينات الشيعية في الكويت والبحرين، وغيرها من البلدان.

- تبني إيران ومنذ قيام الثورة مبدأ تصدير الثورة الشيعية إلى الوطن العربي والعالم الإسلامي، وبذل الدبلوماسية الإيرانية والسفارة الإيرانية في صنعاء جهدًا مكثفًا لاستقطاب أتباع المذهب الزيدي.

- وجود مقاتلين عراقيين في صفوف أتباع الحوثي، واكتشاف جثث لهم، واعتقال بعضهم.

- ما تم الكشف عنه من سماع مكالمات في صفوف الحوثيين باللغة الفارسية.

ملف التمرُّد الحوثي أرهق الدولة اليمنية، وكلَّفها الكثير ماديًّا وسياسيًّا وأمنيًّا، وقد بذلت الدولة في هذا الملف جهوداً كبيرة على مدى السنوات الأخيرة لتطبيع الأوضاع في صعدة، وخاضت الدولة إلى الآن ست حروب تسبب المتمردون في اندلاعها، وكانت الدولة تقبل في نهاية كل حرب وساطات من كثير من الجهات الداخلية والخارجية؛ أملاً في إنهاء هذه الأزمة، لكن الحوثيين كانوا يعيدون تجهيز أنفسهم وتسليحهم من جديد مع انتهاء كل حرب لمواجهة جديدة مع الدولة، وكانوا دائماً يختلقون المبررات لرفض كل هذه الجهود، وكانوا ينفِّذون عمليات اغتيال ضد المواطنين ورجالات الدولة وممثلي السلطة المحلية، وكانوا يتدخَّلون في إدارة شؤون البلاد في المناطق التي يسيطرون عليها، وقاموا بفرض الضرائب على المواطنين.

مرفوض مطلقاً أن تحمل أي مجموعة السلاح في وجه الدولة في بلد يسمح بالتعددية، وإن الدولة عرضت على الحوثيين العمل في إطار الدستور والقانون ولهم كامل الحق في إنشاء حزب يعبر عن أهدافهم ولهم إذا أرادوا تغيير نظام الحكم فأمامهم صناديق الاقتراع وإقناع الشعب اليمني به.

عدم حسم الحرب لمصلحة الدولة يؤكد تورط كثير من الجهات في تسليح الحوثيين وإمدادهم بالأسلحة الثقيلة التي لا يستخدمها إلا الجيوش النظامية، فإمكانيات الحوثيين القتالية ومعداتهم، وما يصرفونه من أموال يؤكد للجميع وبشكل لا يقبل التخمين أن هناك تدفقاً هائلاً للأسلحة والأموال عليهم، ومعنى ذلك أن هناك مصدراً لهذه الأموال والمساعدات والأسلحة.

هناك قناعة لدى أركان النظام اليمني بأن مطالب الحوثيين مرفوضة وغير منطقية، ومن ثم فإنها غير مقبولة، فالحوثيون يعدّون الدولة خارجة عن الشريعة وعن معايير الحق والعدل، ويرفضون النظام الجمهوري، ويريدون العودة إلى نظام الأئمة، ويدعون أنهم ممنوعون من ممارسة شعائر المذهب الزيدي، وهم يريدون أيضاً إنشاء جامعة لتدريس تعاليم الزيدية، ويطرحون قضية التنمية لمنطقتهم...إلخ، ونسوا أنهم هم الذين يعوِّقون هذه التنمية؛ لأن الحروب معهم - الممتدة على مدى سنوات طويلة- أعاقت التنمية وأعاقت إعادة الإعمار في صعدة، وأضرَّت بالمواطنين. ويتجاهل الحوثيون أنهم بإمكانهم تشكيل حزبٍ سياسيٍّ ينحو منحًى سلميًّا، وأن يضعوا هذا ضمن برنامج سياسي واضح ويطرحونه على الشعب اليمني والشعب هو الذي سوف يقرِّر إن كان سيؤيد برنامجهم أم لا(٨).

الحلم الإمبراطوري الإيراني التوسعي موجود دائماً في عقل النخبة الإيرانية، وقد كانت الإمبراطورية الفارسية ترى أن السيطرة على منطقة

الخليج بشكل خاص لن يتأتى لها إلا بالسيطرة وفرض النفوذ على اليمن السعيد، فالإمبراطور الفارسي (قباذ) سنة ٥٢٤ ميلادية هو الذي ساعد بمجموعة من جيشه الفارسي الحاكم اليهودي (ذي نواس) في حمير اليمن على حرق المسيحيين في الأخدود نكاية في الإمبراطورية الرومانية المسيحية بقيادة (جاستينيان) فخد (ذو نواس) اليهودي الأخدود وحرق آلاف المسيحيين، فيما عرف دينيًا وتاريخيًا باسم (أصحاب الأخدود)، مع أن الإمبراطور الفارسي (قباذ) لم يكن (يهوديًا) ولم يكن (مسيحيًا) بل كان (مزدكيًا) وهي عقيدة اخترعها الفيلسوف الفارسي (مزدك)، وكانت أقرب كثيراً للمبادئ الشيوعية قبل اختراع ماركس بما يزيد على ألف وثلاث مئة سنة.

بمساعدة إيران، اندلعت أولى المواجهات بين (الحوثيين) والدولة اليمنية في صيف ٢٠٠٤م، وأسفر هذا الصراع من مقتل القائد (القدوة) حسين الحوثي في ٢٠٠٤/٠٩/٨م[٩].

كانت معركة الدولة اليمنية مع الحوثيين محصورة داخل مناطق معينة بعيدة من حدود السعودية. وفجأة تسللت عناصر مسلحة من داخل اليمن إلى موقع (جبل دخان) داخل الأراضي السعودية في منطقة جازان، وبادرت بإطلاق النار على دوريات حرس الحدود، قبل أن يعلن المكتب الإعلامي للحوثيين في اليمن مسؤوليته عن الحادث.

وغير بعيد أن طهران هي التي شجعت عبد الملك الحوثي على القيام بالخطوة الاستفزازية بهدف إحراج السعودية ودفعها إلى مطاردة أنصاره. ويبدو أن هذا العمل كان مخططاً له منذ وقت طويل، بدليل أن القوات السعودية عثرت على كميات ضخمة من الأسلحة المخبأة داخل مواقع يمنية خلف تخوم

البلدين. ويبدو أن إيران توقعت أن تطول مدة المواجهة، بحيث تنشغل السعودية بحرب استنزاف طويلة، تمامًا مثلما انشغل جمال عبدالناصر بحرب اليمن عقب انقلاب ١٩٦٢م. وفي حساب طهران أن مشاغل الحرب على الحدود الجنوبية الغربية للمملكة ستقيد تحركاتها في البلدان الأخرى مثل فلسطين ولبنان والعراق، وذلك يعطي طهران دوراً أكبر في المنطقة[١٠].

لقد سار سجل الصدام والحروب بين الحوثيين والدولة اليمنية كالآتي:

(١) في ١٨ يونيو/حزيران ٢٠٠٤م اندلعت الجولة الأولى بعد أن تحدثت مصادر حكومية عن مقتل ثلاثة جنود في مواجهات محدودة بين سلطات الإدارة المحلية في محافظة صعدة وأنصار «منتدى الشباب المؤمن» الذي يترأسه حسين بدر الدين الحوثي، ما جعل محافظ المحافظة يصدر قرارًا بالقبض على حسين الحوثي.

وعندما تحركت القوات المكلفة بالقبض على الحوثي نحو جبال مرّان على بعد نحو ثلاثين كلم جنوب غرب مدينة صعدة، حيث تحصن الحوثي، وأحاطت بالمنطقة اندلع القتال بشكل رئيس فيها، وكانت القوات تحسب أن العملية لن تستغرق سوى ساعات أو أيام قليلة إلا إنها سارت ببطء وسط مقاومة صلبة وضعت القوات الحكومية في موضع حرج أمام الرأي العام في الداخل اليمني وخارجه.

استمر القتال الشرس بين الجانبين حتى العاشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤م عندما تمكنت القوات الحكومية من الوصول إلى موقع حسين الحوثي وقتلته مع عدد من أنصاره، ثم أعلنت الحكومة وقفًا أحادي

الجانب للقتال، أعقب ذلك بعشرة أيام تسليم العشرات من المقاتلين أنفسهم للسلطات نتيجة وساطات قبلية.

(٢) أما الجولة الثانية فقد اندلعت في مارس/آذار ٢٠٠٥م بسلسلة من الاتهامات والاتهامات المضادة بين الحكومة وبدر الدين الحوثي (والد حسين) وعبدالله الرزامي، عضو البرلمان السابق، وكلاهما ينتمي لـ «حزب الحق» حيث وجهت للمعارضة، وحزب اتحاد القوى الشعبية تهم «بالسعي لاستئناف التمرد»، بينما اتهم بدر الدين الرئيس علي عبدالله صالح بعدم الاستعداد لإنهاء النزاع.

نتج عن ذلك اندلاع الجولة الثانية من القتال بهجمات أشد ضراوة إلى الشمال والغرب من صعدة، وقد استمرت المعارك نحو شهرين، بعد ذلك أعلنت الحكومة النصر ونهاية العمليات القتالية في مايو/ أيار ٢٠٠٥م.

(٣) الجولة الثالثة نتجت عن استمرار المناوشات من الجولة الثانية، وقد امتدت تلك الجولة من أواخر عام ٢٠٠٥م حتى أوائل عام ٢٠٠٦م، وقد ظهر في تلك المواجهات متغير جديد هو العنصر القبلي، حيث بدأت المعارك على شكل مواجهات بين رجال قبائل موالية للحكومة ومقاتلين قبليين يدعمون المسلحين الحوثيين.

وقد ظهر في تلك المدة أخوا حسين الحوثي على المشهد الميداني زعيمين جديدين للمسلحين الحوثيين وهما عبدالملك ويحيى الحوثي، وشهدت محاولات حكومية لتهدئة الصراع، وذلك نتيجة قدوم موعد الانتخابات الرئاسية.

(٤) الجولة الرابعة انطلقت في الفترة من فبراير/شباط إلى يونيو/ حزيران ٢٠٠٧م ودخلها متغير جديد وهو تهديدات الحوثيين ليهود محافظة صعدة، وعلى الرغم من نفي الحوثيين ذلك، فإن الحرب كانت قد دارت، واشتدت حدة القتال لتمتد إلى مديريات متعددة بما في ذلك خارج صعدة.

انتهت الجولة الرابعة بفضل وساطة قطرية بعد زيارة الأمير الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني إلى اليمن في مايو/ أيار ٢٠٠٧م، حيث توصلت الحكومة والحوثيون إلى اتفاق لوقف إطلاق النار في ١٦ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧م ثم قاما بتوقيع اتفاق الدوحة بتاريخ ٢ فبراير/ شباط ٢٠٠٨م على الرغم من بعض الاشتباكات المتفرقة بين الجانبين.

(٥) في مارس/ آذار ٢٠٠٨م اندلعت الجولة الخامسة على إثر اتهامات السلطة للحوثيين بخرق اتفاق الدوحة، وأنهم قاموا بهجومين عنيفين وسط نفي من الحوثيين، وقد امتد القتال في تلك الجولة إلى منطقة بني حشيش شمال العاصمة صنعاء، كما استمر في مدينة صعدة والجزء الشمالي من محافظة عمران.

وبتاريخ ١٧ يوليو/ تموز ٢٠٠٨م أعلن الرئيس صالح وقفًا أحادي الجانب لإطلاق النار، وقد وافق ذلك الذكرى الثلاثين لتوليه الحكم، وقد تباينت تفسيرات المحللين لهذا الإعلان منها أنه لخشيته من خروج الوضع عن السيطرة أو لوجود وساطة محلية أو انتقادات أمريكية وأوروبية متزايدة للوضع الإنساني في محافظة صعدة.

(٦) أما الجولة السادسة في الصراع بينهما فقد اندلعت بتاريخ ١١ أغسطس/آب ٢٠٠٩م بعد اتهامات للحوثيين باختطاف أجانب،

وترافقت مع وضع السلطات ستة شروط لوقف العمليات، كان أبرزها نزول الحوثيين من الأماكن التي يتحصنون فيها وانسحابهم من جميع مديريات المحافظة وتسليم ما استولوا عليه من معدات مدنية وعسكرية، والكشف عن مصير المخطوفين، ووقف عمليات التخريب.

وقد اتسمت هذه الجولة بتكثيف عمليات القصف الجوي منذ اليوم الأول لاندلاعها على مناطق الحوثيين في مناطق ضحيان والخبجي والحيرة والطلح وآل الصيفي وقهر ومران وبني معاذ وسحار وحيدان ومطرة وغيرها من المناطق.

وقد كانت خارطة القصف الجوي والمعارك والاشتباكات البرية خلال الأيام الأولى من الحرب تؤكد أن الحوثيين كانوا يحكمون سيطرتهم على مساحة شاسعة من محافظة صعدة، وأنهم سيطروا على عدد من منافذ الإمدادات العسكرية للجيش التي تمر إلى المدينة.

وقد خلفت الجولة الأخيرة من الصراع المستمر مئات القتلى من الجانبين وتسببت بنزوح عشرات الآلاف، حيث يقدر عدد النازحين منذ بدء الصراع بنحو ١٥٠ ألف شخص(١١).

من يراجع هذا السجل يخرج بانطباع واحد هو أن الدولة اليمنية لا تحارب تنظيماً خارجاً عن الشرعية وسيطرة الدولة فقط بل إنها تحارب دولة بكل جيوشها وإمكاناتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية والإعلامية. فمن أين أتي كل هذا الدعم لهذه المجموعة لكي يجعلها تستمر طوال هذه السنوات في مناوأة الدولة، بل فتح جبهة جديدة ضد دولة جارة هي السعودية؟

الهوامش:

(١) أحمد عائض، الحوثيون في اليمن، موقع (مأرب برس)، ٣ يونيو ٢٠٠٨م.

(٢) أنور قاسم الخضري، الحوثي والورقة الطائفية الخاسرة!!، موقع مفكرة الإسلام، ٦ مايو ٢٠٠٦م.

(٣) مريم أم الخير دلومي، الحوثيين واللعبة الكبيرة، موقع مايو نيوز اليمني، ١٤أبريل ٢٠٠٧م.

(٤) الشيخ روكان عضو اللجنة القطرية: مواقف المشترك مخزية وهدف الحوثيين زعزعة السعودية، موقع المؤتمر نت، ١٦نوفمبر٢٠٠٩م.

(٥) موقع محيط، ٢٢ - ٨ - ٢٠٠٩م.

(٦) حوار عبده الناصر المملوح مع قائد التمرد الحوثي السابق الشيخ عبدالله المحدون، علاقة الحوثيين بإيران عسكريًا، صحيفة الجمهور اليمنية الإقليمية، ٢٥-٩-٢٠٠٩م.

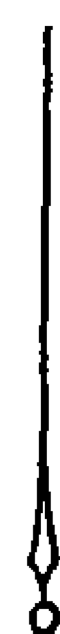
(٧) موقع مفكرة الإسلام، معارض إريتري: إيران تسلح الحوثيين عبر إريتريا، ٨ نوفمبر ٢٠٠٩م.

(٨) السيد أبوداود، الحرب في صعدة.. التشابك والتداعيات، موقع (الإسلام اليوم)، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٩م.٠

(٩) (الحوثيون) أسنان إيران لقضم التفاحة اليمنية، اليوم السابع، ٢-١٠-٢٠٠٩م.

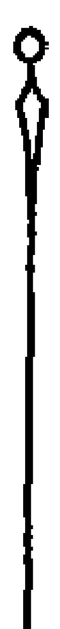
(١٠) سليم نصار، لماذا شجعت إيران الحوثيين على افتعال معركة الحدود اليمنية - السعودية؟ صحيفة الحياة اللندنية، ١٤ نوفمبر ٢٠٠٩م.

(١١) حروب الحوثيين الست.. رؤية تاريخية، الجزيرة نت، ٢١/١٠/٢٠٠٩م.



الباب الرابع

مراكز الانطلاق المستقبلي



الفصل الثامن

شيعة البحرين.. مطامع الضم والإلحاق

ما يحدث اليوم من نشاط شيعي مريب على أرض البحرين لم يأت من فراغ، بل من جذور تأصلت في العقل الشيعي، وإذا ما رجعنا إلى التاريخ سنجد أن العلاقات البحرينية ـ الإيرانية اتسمت بالتوتر والجمود في ظل مطالبات الحكام الإيرانيين بضم البحرين إلى إيران، فقد بادرت إيران في نوفمبر عام ١٩٢٧م بإثارة موضوع تبعية البحرين لها في عصبة الأمم، وأكدت في المذكرة التي قدمتها إلى المنظمة الدولية في ذلك الوقت أنها كانت المسيطرة على البحرين في معظم عصور التاريخ، حسبما أفادت صحيفة (نيروز إيران).

وفي ٢١ سبتمبر عام ١٩٤٥م أبرزت الصحيفة نفسها الحديث الذي أدلى به وزير الخارجية الإيراني في المجلس النيابي الذي طالب فيه الولايات المتحدة بالتريث في استخراج النفط من الحقول البحرينية؛ نظراً للحقوق الإيرانية في البحرين.

في ظل هذا المناخ شابت العلاقات بين البلدين حالة من سوء الفهم في ظل تجدد المطالبات الإيرانية بتبعية البحرين والاتهامات البحرينية لإيران

بمحاولة قلب نظام الحكم، ففي بداية الثمانينيات أعلنت الحكومة البحرينية أنها ألقت القبض على مجموعة من المخربين تلقوا تدريباتهم في إيران، في محاولة لقلب نظام الحكم في البحرين.

وفي بداية التسعينيات وجهت المنامة اتهاماً رسميًّا إلى طهران بالتورط في تمويل تنظيمات سرية تهدف إلى قلب نظام الحكم وإقامة الجمهورية الإسلامية على النمط الإيراني، وأقدمت البحرين في مطلع شهر فبراير عام ١٩٩٦م على إبعاد السكرتير الثالث في السفارة الإيرانية معتبرة أنه شخص غير مرغوب فيه، ويقوم بأعمال تتنافى ومهمته الدبلوماسية، وردت إيران بالمثل فطردت دبلوماسيًّا بحرينيًّا بعد يوم واحد من الإجراء البحريني.

في ٣ يونيو عام ١٩٩٦م أعلنت الحكومة البحرينية الكشف عن (حزب الله) البحريني، وهو حركة معارضة شيعية، ويعد أحد فروع (حزب الله) الإيراني، هذا إضافة إلى وجود الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين، وهي حركة معارضة شيعية أُسست عام ١٩٧٦م واتخذت طهران مقراً لها، وعقب الكشف عن (حزب الله) البحريني ومخططه لقلب نظام الحكم قررت البحرين سحب سفيرها في طهران وخفض مستوى العلاقات الدبلوماسية مع إيران إلى درجة قائم بالأعمال.

وتأكيداً لما سبق ومدى تغلغل النفوذ الإيراني في البحرين، فقد شهدت المنامة مظاهرات عدة ذات نفس شيعي إيراني، ففي ١٨-٦-٢٠٠٤م تظاهر الآلاف من شيعة البحرين من مختلف الأعمار رجالاً ونساءً رافعين أعلاماً داعين لوقف الانتهاكات الأمريكية، وحمل المتظاهرون صورًا لعلي السيستاني المرجع الشيعي الأعلى.

وشهدت البحرين في ٢٠٠٥/٣/٢٦م مظاهرات جديدة للمطالبة بإصلاحات سياسية، وذلك في منطقة سترة بالمنامة، وأغلق الأمن البحريني منطقة المظاهرات التي دعت إليها جهات بحرينية شيعية معارضة على رأسها جمعية (الوفاق الوطني) للمطالبة بإجراء تعديلات على الدستور.

في ٢٠٠٦/٢/١٨م تظاهر نحو ألف بحريني للمطالبة بالإفراج عن عدد من الأشخاص الذين حكم عليهم بالسجن بتهمة التجمهر احتجاجًا على توقيف عالم دين شيعي في المطار في كانون الثاني/ يناير[1].

أما ما حدث في البحرين في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠١١م، الذي يسميه الشيعة والمتعاطفون معهم (ثورة بحرينية)، فإنه يجب التوقف عنده قليلاً.

فقد انطلقت المظاهرات في الرابع عشر من شباط/ فبراير ٢٠١١م، في قرى شيعية عدة تطالب بتحسين الخدمات، وأسفرت المظاهرات في هذا اليوم عن مقتل متظاهرَين اثنين، ما أدى إلى أن يظهر العاهل البحريني الملك حمد بن عيسى آل خليفة على شاشة التلفزيون، ويعتذر عن مقتلهما.

وتتطور المظاهرات في السادس عشر من شباط/ فبراير، حيث يتجمع آلاف البحرينيين في ساحة اللؤلؤة في العاصمة البحرينية المنامة، ويتخذونها مركزاً لنشاطهم المعارض للحكومة، ويطالبون بملكية دستورية.

في السابع عشر من شباط/ فبراير يلقى أربعة متظاهرين حتفهم في مداهمة الشرطة للمتظاهرين في ساحة اللؤلؤة، وحركة الوفاق -أكبر حركات المعارضة البحرينية الشيعية- تنسحب من البرلمان.

وبعد مواجهات بين الشرطة والمتظاهرين تسفر عن جرح العشرات، يعد ولي العهد البحريني بحوار وطني بين الحكومة والمعارضة، ويأمر العاهل البحريني بإطلاق سراح سجناء شيعة، كانوا متهمين بتأسيس تنظيم غير شرعي والضلوع في الإرهاب وتمويله ونشر معلومات زائفة ومضللة، إضافة إلى السعي للإطاحة بالنظام الملكي في البلاد. وتؤدي هذه الإجراءات إلى عودة المعارض البحريني الشيعي حسن مشيمع، زعيم حركة (حق)، إلى البحرين مستفيداً من العفو الملكي، بعد أن كان في المملكة المتحدة؛ لتفادي محاكمته حضوريًّا بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم في مملكة البحرين. ويقدم الملك بعض التنازلات التي شملت إعفاء وزراء الإسكان والصحة والماء والكهرباء من مناصبهم، لكن المعارضة ترفض الإصلاحات وتصفها بأنها (غير كافية).[٢]

وعلى الرغم من ذلك استمرت المظاهرات التي شارك فيها عشرات الآلاف من المتظاهرين الشيعة، وشكّل مئات منهم سياجاً بشريًّا أغلقوا به بوابات مبنى البرلمان الثلاث؛ لمنع دخول أعضاء مجلس الشورى، بينما اعتصم عشرات المحتجين أمام بوابات وزارتي التربية والتعليم ومبنى هيئة الإذاعة والتلفزيون بمدينة عيسى؛ لمنع الدخول والخروج منها مطالبين بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين.

وفي الثاني من مارس/آذار، خرج آلاف البحرينيين السنة في المنامة في مظاهرة مناوئة للسلطة، شددوا فيها على الوحدة بين السنة والشيعة. ويعقب ذلك مظاهرات سنية مؤيدة للحكومة قدر عدد المشاركين فيها بثلاث مئة ألف شخص، جابت شوارع البحرين.

أعلنت المعارضة البحرينية الشيعية عن شروطها لقبول الحوار مع الحكومة، ومن أهم الشروط: التعهد بالحفاظ على حق المعتصمين الوجود بدوار اللؤلؤة والحفاظ على حياتهم طوال مدة الحوار والتفاوض، والإطلاق الفوري لجميع المعتقلين السياسيين وشطب قضاياهم في المحاكم، والتعهد بتحييد الإعلام الرسمي لتخفيف الاحتقان الطائفي، وإقالة الحكومة والشروع في التحقيق المحايد في أعمال القتل التي وقعت منذ اندلاع المظاهرات يوم ١٤ فبراير/شباط وإحالة المسؤولين للمحاكمة.

ومع استمرار المظاهرات، ظهر في التاسع من آذار/ مارس، ائتلاف سياسي جديد يضم ثلاث جماعات شيعية بحرينية معارضة يعلن سعيه لإلغاء النظام الملكي في البحرين وتحويل البلاد إلى جمهورية.

وفي الثاني عشر من آذار/ مارس، توجه عشرات الآلاف من المتظاهرين نحو القصر الملكي بعد ساعات من اشتباكات مع الشرطة خلفت عشرات الجرحى. وفي ثاني أيام هذا التصعيد، حاول جانب من المتظاهرين إغلاق الطريق الرئيس المؤدي إلى مرفأ البحرين المالي، وتسببوا في فوضى مرورية عارمة.

في الرابع عشر من آذار/ مارس، دخلت قوات من مجلس التعاون الخليجي البحرين؛ للمساعدة على حفظ النظام بعد تصاعد حدة الاحتجاجات في البلاد، في الوقت الذي رفضت فيه إيران هذه الخطوة بشدة، بينما أيدتها الولايات المتحدة. وفي أعقاب ذلك أعلنت السلطات البحرينية حالة الطوارئ في البلاد على نحو فوري ولمدة ثلاثة أشهر[٢].

ما جرى في البحرين ليس ثورة شعب.. بل ثورة طائفية، فما حدث كان استقواءً بالخارج، وليست مطالب شعب بأكمله، وإنما خروج فئة عن فئة لفرض مصالحها بالقوة، وتمادت إلى أن أصبحت ثورة طائفية. فثورة البحرين غير هذه الثورات، فهي غير ثورة تونس ومصر وليبيا واليمن، فهذه الثورات إنما هي ثورات شعب ضد حاكمه الظالم، فالشعب المصري خرج بكل فئاته وطوائفه، مسلمين ومسيحيين، شباباً وشيوخاً، رجالاً ونساء، تقدميين ورجعيين، أهل الدين وأهل الدنيا، يعني الشعب المصري كله، وكذلك الشعب التونسي، وكذلك الشعب الليبي، وكذلك الشعب اليمني، ولكن الثورة البحرينية ثورة طائفية.

ويعدّ العلامة يوسف القرضاوي أن: (مشكلة ما حدث في البحرين إنما هو ثورة من الشيعة ضد السنة، فالشيعة جميعاً ضد السنة جميعاً، الثورة قامت طائفية شيعية.. أهل السنة لما رأوا هذا أخرجوا ٤٥٠ ألفاً من جامع الفاتح، وقالوا: ونحن لنا مطالب أيضاً، إذا كنتم أيها الشيعة، لكم مطالب فنحن - أهل السنة - لنا مطالب أيضاً، وقالوا مطالبهم).

جانب آخر يؤكده العلامة القرضاوي، وهو أن: (الشيعة حينما كانوا في دوار اللؤلؤة لم يكونوا سلميين، بل اعتدوا على كثير من أهل السنة، واستولوا على مساجد ليست لهم، واستعملوا الأسلحة كما يفعل البلطجيون في اليمن وفي مصر وغيرها ضد كثير من المستضعفين من أهل السنة)(٤).

وقد دأب الشيعة على رفع نسبتهم في جميع البلدان التي يقيمون فيها لأسباب سياسية لا تخفى على أحد، ومن تلك الدول البحرين التي بالغ البعض بالقول: إن الشيعة العرب منهم ذوي الأصول الإيرانية يشكلون ٦٠ إلى ٦٥٪ من إجمالي السكان.

وقد جاء في تقرير مركز ابن خلدون حول الأقليات لسنة ١٩٩٣م أن سكان البحرين ينقسمون إلى ثلاث مجموعات:

العرب الشيعة، ونسبتهم ٤٥٪ من مجموع السكان، والعرب السنة ونسبتهم كذلك ٤٥٪ أما الإيرانيون فـ ٨ ٪، وثلثهم سنة والثلثان من الشيعة، وبذلك يصل الشيعة العرب والإيرانيون إلى نحو ٥٢٪، أما السنة العرب والإيرانيون البلوش فنسبتهم ٤٨٪.

وإن تقرير ابن خلدون ذاته الصادر سنة ١٩٩٩م قام برفع نسبة الشيعة في البحرين إلى ٧٠٪، وهي نسبة غير واقعية ومنافية للواقع السكاني في البحرين، ولم يذكر التقرير الأسس التي استند عليها لرفع نسبة الشيعة من ٥٢٪ إلى ٧٠٪ خلال ٦ سنوات، على الرغم من أنه لم يحدث ما يدعو إلى ارتفاع النسبة بهذا الشكل، وخلال هذه المدة القصيرة، سوى ما عزاه التقرير إلى أن الشيعة معظمهم ريفيون يكثر عندهم الإنجاب وتعدد الزوجات. والأمر يدعو للغرابة أيضاً إذا علمنا أن المركز قام بالشيء نفسه عند تناول قضية الشيعة في العراق.

يدق الدكتور هادف الشمري ناقوس الخطر الشيعي على البحرين، ويعرض للخطة الإيرانية السرّية لتصدير الثورة ونشر التشيع والسيطرة على منطقة الخليج، وما جاورها خلال مدة تصل إلى خمسين عامًا، ثم يبين انعكاس هذه الخطة على البحرين وتطبيقها على الواقع، في صفحات كتابه المهم (الخطة الخمسينية السرية لآيات قم وانعكاساتها على واقع مملكة البحرين).

ويؤكد المؤلف أن ثمة أسباباً عدة تجعل البحرين غير محصنة من المخطط الشيعي، فالبحرين دولة صغيرة في مساحتها وفي عدد سكانها، وجزء منهم

من الشيعة، وولاء معظمهم لإيران، فإذا كان الوضع الجغرافي والسكاني على هذا النحو، فإن البحرين لا تملك القدرة للدفاع عن نفسها في مواجهة إيران، التي احتلت البحرين فيما سبق، وما زالت إلى اليوم تحاول ضمّها كما يعلن ذلك المسؤولون الإيرانيون من حينٍ لآخر.

وما يجعل البحرين غير محصنة أيضًا: غفلة أهل السنة وتفرقهم وغياب الوعي لديهم - وخاصة قيادتهم - تجاه ما يخطط لهم، في مقابل مكر شيعي يصل اللّيل بالنهار، وطابور خامس من شيعة البحرين يسعون لتخريب بلدهم وتدميره.

والخطة الخمسينية المشار إليها هي خطة سريّة أعدّها مجلس شورى الثورة الثقافية الإيرانية، ووجّهها إلى المحافظين في الولايات الإيرانية، وقد استطاعت رابطة أهل السنة في إيران (مكتب لندن) الحصول على هذه الوثيقة المهمة، وترجمها الدكتور عبدالرحيم البلوشي إلى اللغة العربية.

وهذه الخطة موجهة إلى المناطق السنيّة في إيران، وإلى دول الجوار، وبشكل خاص: العراق، ودول الخليج العربي (السعودية والكويت والبحرين وقطر والإمارات وعُمان) إضافة إلى أفغانستان وباكستان وتركيا.

وتهدف الخطة، المشتملة على خمس مراحل، مدة كل منها عشر سنوات، إلى تصدير الثورة، لكن بأساليب أقل حدّة عمّا اتبعه الخميني، للوصول إلى الهدف ذاته، وهو السيطرة على المنطقة واحتلالها وتشييعها.

والذي جعل إيران تغيّر تكتيكها، وتتحول من تصدير الثورة بالقوة إلى أسلوب الثورة الثقافية، ما عزاه المؤلف إلى المقاطعة الغربية لإيران، فرأت أن

ذلك ليس في مصلحتها، وسياسات تصدير الثورة لم تعد ذات جدوى، بل ضررها عليها أكبر، فنشأ الاتجاه الأقل تطرفاً والداعي إلى الحوار والتهدئة الذي نشأ منه بروز تيار خاتمي، وخاصة بعد تولي إيران رئاسة المؤتمر الإسلامي.

وتعدّ الخطة أن خطر أهل السنة، والمتسننين على إيران أكبر من خطر الشرق والغرب، وتطالب الذين سيناط بهم تنفيذها أن يكون لهم نفس طويل: (لا تفكروا أن خمسين سنة تعدّ عمراً طويلاً، فقد احتاج نجاح ثورتنا خطة دامت عشرين سنة، وإن نفوذ مذهبنا الذي يتمتع به إلى حد ما في الكثير من تلك الدول ودوائرها لم يكن وليد خطة يوم واحد أو يومين).

يؤكد د. الشمري أن هناك شواهد عدة وكثيرة مطبقة على أرض الواقع في مملكة البحرين في أبعادها المختلفة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسكانية... إلخ) تؤكد أن البحرين أضحت انعكاسًا - ممتازًا - لهذه الخطة الشيطانية، وهو ينبه في الإطار ذاته إلى أن هذه الخطة الخمسينية، قد سبقها خطط كثيرة مارسها ونفذها الإيرانيون في البحرين، منذ عقد الستينيات من القرن الماضي، وإنما جاءت هذه الخطة الخمسينية مكملة لما سبقها من خطط تم تنفيذها على أرض الواقع في مملكة البحرين.

والمؤلف قبل الشروع ببيان تطبيقات الخطة على البحرين يبين أن الشيعة ليسوا سواءً، ففيهم المخلص لوطنه، والرافض للنَفَس الطائفي، وفي المقابل فمنهم (الطابور الخامس)، طابور الصفويين الجدد، الساعي إلى إشعال حرب أهلية، ويبين أن الخطورة، كل الخطورة في ولاء هذا الطابور الصفوي المتصاعد للمرجعيات الإيرانية في (قم)، والولاء المطلق (لولاية الفقيه)، ولزعماء إيران الجدد الذين يسعون لتصدير ثورتهم.

ونصّت الخطة على أن تصدير الثورة واجب خطير، وعلى رأس الأولويات، ولتحقيق هذا الهدف، أُسست أحزاب عدة في الخارج تابعة للنظام الإيراني.. وفي البحرين، تم التوجيه لهادي المدرسي بتكوين (الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين) ومقرها طهران.

وانسجاماً مع هذا الهدف، سعت الجبهة منذ بدايتها لإسقاط حكم آل خليفة (السني)، وإقامة نظام شيعي، موافق للنظام الإيراني، ثم سلخ هذا البلد عن محيطه الخليجي، وربطه بالجمهورية الإيرانية.

بدأت الدعوة الإيرانية لتصدير الثورة في وقت مبكر. وفي ١٧/ ٧/ ١٩٧٩م طالب صادق روحاني بضم البحرين إلى إيران، وهذه المطالبة من أحد قادة النظام الإيراني كانت بمنزلة الإعلان عن بداية المد الشيعي في البحرين، وقد تبعها حوادث شغب، عمّت العاصمة المنامة وغيرها. ومنذ ذلك الوقت تعددت في البحرين محاولات الانقلاب، وحوادث الشغب والتخريب التي تراق فيها الدماء، وتدمر فيها المرافق العامة، وتشل الحركة الاقتصادية.

ويبين المؤلف أنه في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي تم إنشاء (حزب الله ـ البحرين) ليكون الجناح العسكري للجبهة، وقد قام هذا الحزب بأعمال إرهابية خطيرة، ومن أبرز قادته في الماضي والحاضر: علي سلمان، أمين عام جمعية الوفاق، ومحمد علي محفوظ، وسعيد الشهابي، وحسن مشيمع، أمين عام حركة (حق) غير المرخصة، ومنصور الجمري، رئيس تحرير صحيفة الوسط، وعبدالوهاب حسين، ومجيد العلوي، وزير العمل، وعلي العريبي، القاضي بالمحكمة الجعفرية الكبرى.

ونصّت الخطة الإيرانية الخمسينية على أن حكومة إيران حكومة مذهبية، تأخذ على عاتقها نشر التشيع، وتشييع المنطقة، وقد عملت إيران على تحقيق هذا الهدف من خلال سفاراتها في الخارج، ومن خلال المراكز الثقافية التابعة لها، ومن خلال المكتبات الشيعية ومعارض الكتاب الإقليمية والدولية.

وفي البحرين، فإنه لا تخلو مدينة أو قرية، إلاّ يوجد بها عدد من المكتبات الشيعية مثل (فخراوي، الماحوزي، العرفان، الريف، أهل البيت) إضافة إلى المشاركة الشيعية النشطة في معارض الكتاب.

وإضافة إلى الكتب والمكتبات والمعارض، فقد بادر الشيعة في البحرين مستغلين تساهل الحكومة، إلى إقامة المآتم والحسينيات حتى بلغ عددها في سنة ٢٠٠٧م، بحسب ما هو مسجل رسميًّا: ١١٢٢ مأتماً وحسينية، في مقابل ٥٠٠ مسجد لأهل السنة. وسمحت الدولة لهم بإظهار شعائرهم الدينية في شهر محرم، وعرضها في التلفزيون، حتى أضحى تلفزيون البحرين الرسمي في التاسع والعاشر من محرم، تلفزيوناً شيعيًّا صرفاً.

وأنشأ شيعة البحرين فضائية (الزهراء) تبث من دبي، وتدعو إلى التشيع، وكل ذلك جاء منسجمًا مع الخطة التي تدعو إلى زيادة نفوذ الشيعة في المناطق السنيّة، وإلى تكثير عدد المساجد والحسينيات، وإقامة الاحتفالات المذهبية أكثر من قبل، وبجدية أكبر.

ومن جملة ما دعت إليه الخطة أن يمتلك الشيعة السلاح والقوة، على أساس أن القوة هي أحد الأسس التي تبنى عليها الدولة. وبحسب المؤلف، فإن شيعة البحرين يقيمون منذ سبعينيات القرن المنصرم المعسكرات التدريبية

في مزارعهم وحسينياتهم، على استخدام السلاح بأنواعه المختلفة، وإن إيران فتحت أراضيها ومعسكراتها لتدريبهم، وقد تدرّب منهم الآلاف.

وبين الحين والآخر، تكتشف المخابرات البحرينية مخابئ للأسلحة في مناطق الشيعة وقراها، تلك الأسلحة التي يتم إنزال بعضها في القرى الساحلية الشيعية من خلال البواخر والقوارب الإيرانية.

إن امتلاك شيعة البحرين للسلاح والتدرب عليه، جعل المجتمع الشيعي في البحرين مجتمعًا شبه عسكري ينتظر (يوم الحسم والمفاصلة) وما يزيد الأمر خطورة أن شيعة البحرين استعملوا السلاح ضد بلدهم مرات عدة.

ودعت الخطةُ العملاءَ إلى شراء الأراضي والبيوت والشقق، وإيجاد العمل ومتطلبات الحياة وإمكانياتها لأبناء مذهبهم؛ ليعيشوا في تلك البيوت ويزيدوا عدد السكان، وقد جاء في الخطة: (ويجب أن نهيئ الجو في المدن التي يسكنها ٩٠ إلى ١٠٠٪ من السُّنة حتى يتم ترحيل أعداد كبيرة من الشيعة من المدن والقرى الداخلية إليها، ويقيمون فيها إلى الأبد للسكني والعمل والتجارة).

وفي شهر سبتمبر/ أيلول سنة ٢٠٠٦م، اكتشفت الحكومة قضية سعي الشيعة من ذوي الأصول الإيرانية إلى شراء مناطق وأحياء بأكملها في مدينة المحرق، من خلال تمويل مالي بأقساط ميسرة قدم للشيعة من خلال أحد البنوك الإيرانية.

ويشير المؤلف إلى أن تحرك الدولة تجاه هذه القضية جاء متأخرًا، بعد أن سيطر الشيعة على أحياء كانت تعرف بأنها عربية سنيّة، مثل حي (البنعلي)، وحي (أبو ماهر) في المحرق، واشتروا الأراضي والمنازل بكثافة في بعض أحياء

المنامة مثل: الحورة والقضيبية والذواودة، إلى أن أصدرت الحكومة قرارًا بمنع بيع وشراء هذه المناطق إلاّ لأهلها، وذلك لم يعجب شيعة البحرين فشنوا هجومًا كاسحًا على الحكومة، واتهموها بالطائفية والعنصرية.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فالمؤلف يشير إلى مخطط آخر لشراء الأراضي تم الكشف عنه في السعودية، وتحديدًا في حفر الباطن، المحاذية للعراق، ذي الكثافة الشيعية، حتى يسهل تهريب السلاح وتخزينه، إضافة إلى مراقبة قوات درع الجزيرة، وإرسال تحركاتها إلى الأجهزة الأمنية الإيرانية.

ويحذر المؤلف من التغلغل الواضح للشيعة في أجهزة الدولة المدنية والعسكرية على حدٍّ سواء، وهو الذي جاء منسجمًا مع الخطة التي دعت الشيعة (أن يسعوا للحصول على جنسية البلاد التي يقيمون فيها باستغلال الأصدقاء وتقديم الهدايا الثمينة، وعليهم أن يرغّبوا الشباب في العمل في الوظائف الحكومية والانخراط خاصة في السلك العسكري).

وهذا التغلغل أو الاختراق، كما يؤكد المؤلف شمل جميع الأجهزة الحساسة، مثل وزارة الدفاع ومركز الإحصاء ورئاسة الوزراء وجامعة البحرين وغيرها، بحيث إن الشيعة صاروا مثلاً يعرفون مسبقاً بتحركات سيارات الشرطة، وكذلك أخبار المسؤولين السنة وتحركاتهم ومهماتهم.

ويعدّ المؤلف أن (الإنجاب السياسي) هو أكبر مؤامرة حاكها التيار الصفوي في البحرين، فالشيعة عملوا على زيادة الإنجاب عندهم؛ لتحقيق هدف سياسي طائفي بغيض، من خلال تعدد الزوجات، والتوسع في زواج المتعة، وإصدار الفتاوى لذلك.

وأدى تجنيس الشيعة خلال عقود مضت وسط غفلة المسؤولين دوراً في تكثير الشيعة، الذين لم تكن نسبتهم تتجاوز ٣٠٪ من إجمالي السكان في أوائل العشرينيات من القرن العشرين. يضاف إلى ذلك أنه في الوقت الذي كان الشيعة الإيرانيون يأتون إلى البحرين، ويحصلون على جنسيتها، كانت بعض القبائل العربية السنيّة تهاجر من البحرين في اتجاه قطر والإمارات، بسبب الضغوط الاستعمارية البريطانية على القبائل العربية.

واعتبرت الخطة أن الاقتصاد هو أحد ثلاثة أسس تبنى عليها الدولة، وطالبت الشيعة بإقامة علاقات مع أصحاب رؤوس الأموال وذوي النفوذ. واليوم يشكل الشيعة في البحرين قوة اقتصادية، ويسيطرون على أسواق عدة منها: الذهب، والدواء، والمواد الغذائية، والصناعات الخفيفة.

وأحد الأهداف التي أولتها الخطة أهمية خاصة: إيجاد التوتر بين الحكومات السنيّة والعلماء، من خلال استثارة العلماء ضد الفساد الموجود في البلاد السنية، ومنها البحرين، وتوزيع بيانات ومنشورات تحمل اسم هؤلاء العلماء، ليتولّد الحقد عليهم، ومن ثم يتم سجنهم أو إبعادهم، بل أكبر من ذلك أن يتم محاربة الدين ومنع بناء المساجد، وفي مقابل ذلك يتقدم الشيعة لملء الفراغ.

ويشير المؤلف إلى نجاح هذه الخطة في دول الخليج، لكنها في البحرين كانت أقل نجاحًا، إذ على الرغم من أنه قد يحدث نوع من التوتر بين الحكومة وبين أحد علماء السنة، إلاّ أنه لم يحدث إطلاقًا أي نوع من الصدام(٥).

الهوامش:

(١) عبدالرحمن العراقي، شيعة البحرين وتنفيذ المشروع الإيراني، موقع موسوعة الرشيد، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

(٢) انظر: الجزيرة نت، ٢٠١١/٣/١٨م.

(٣) المرجع السابق.

(٤) صحيفة الشرق الأوسط، ١٩ مارس ٢٠١١م.

(٥) د. هادف الشمري، الخطة الخمسينية السرية لآيات قم وانعكاساتها على واقع مملكة البحرين، طبعة ١٤٢٩هـ، دون ناشر.

الفصل التاسع

شيعة الكويت.. توظيف محسوب

تُعدّ الكويت امتداداً طبيعيًّا للساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية، وكانت المنطقة الممتدة من مسقط إلى البصرة ومن ضمنها الكويت يطلق عليها (البحرين) قديماً، ويرجع الوجود الشيعي في هذه المنطقة إلى دولة القرامطة، كما أوضحنا عند الحديث عن الشيعة في السعودية والبحرين.

وفي العصور الحديثة أدت الهجرة من إيران دوراً كبيراً في زيادة عدد الشيعة في الكويت، وكانت هذه الهجرة المنظمة والكثيفة تهدف إلى الاستفادة من الرخاء المأمول بسبب اكتشاف النفط، إضافة إلى رغبة إيران في تشكيل تجمعات شيعية كبيرة في دول الخليج، تسهّل على إيران المطالبة بهذه المناطق وادّعاء ملكيتها لها، كما حدث في جزر الإمارات الثلاث التي احتلتها إيران سنة ١٩٧١م وأعادت احتلالها سنة ١٩٩٢م، وكما حدث أيضًا في المطالبة الإيرانية المستمرة بدولة البحرين.

ويمثل الشيعة في الكويت أقلية، فوفقاً لتقرير (الحريات الدينية في العالم) لعام ٢٠٠٦م، الذي تصدره الخارجية الأمريكية، يشكل الشيعة نسبة ٣٠٪

من عدد السكان المواطنين، الذين يبلغ عددهم ٩٧٣ ألفاً، علماً بأن العدد الإجمالي لسكان الكويت، (مواطنين ووافدين)، يصل إلى مليونين و٩٠٠ ألف تقريباً. بينما يقدرهم الباحث الكويتي د. فلاح المديرس، في كتابه (الحركة الشيعية في الكويت) من ١٥ إلى ٢٥٪.

وينقسم شيعة الكويت على أساس عرقي إلى شيعة من أصل عربي، وشيعة من أصل إيراني. فالشيعة العرب ينحدرون من شرق الجزيرة العربية، الذين يطلق عليهم (الحساوية)، نسبة إلى منطقة الأحساء بالسعودية، أو (البحارنة) نسبة إلى البحرين، وفئة قليلة منهم جاءت من جنوب العراق، ويطلق عليهم (البصاروة) أو (الزبيرية)، نسبة إلى البصرة أو الزبير بالعراق.

أما الشيعة الذين جاؤوا من إيران فيطلق عليهم (العجم)، وهم يشكلون نسبة كبيرة من شيعة الكويت (نحو النصف)، وقد توالت هجرة هذه الجماعات منذ القرن التاسع عشر؛ وأبرزها عائلات معرفي وبهبهاني وقبازرد.

ويتركز أغلب الشيعة في العاصمة والمناطق المجاورة لها؛ مثل الرميثية والشرق والدسمة ودسمان وبنيد القار والقادسية والجابرية وحولي، وتوجد أقلية شيعية في محافظة الجهراء[1].

ويمارس الشيعة في الكويت شعائرهم بحرية، وعام ٢٠٠٦م سمحت الحكومة للشيعة، وللمرة الأولى، بإقامة موكب عزاء حسيني في الرميثية، بمناسبة الاحتفال بعاشوراء، ووفرت الحماية الأمنية لهم.

ويُسمح للشيعة بأن يحتكموا في قضايا الأحوال الشخصية أمام محكمة جعفرية، ابتدائية واستئنافية. وعام ٢٠٠٣م وافقت الحكومة على احتكامهم في مثل هذه القضايا أمام محكمة تمييز جعفرية.

وفي العام نفسه أيضاً أقرت الحكومة تأسيس هيئة تتولى إدارة الأوقاف الجعفرية والإشراف عليها، تابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية(٢).

يتوزع الشيعة في الكويت بين تيارات عدة علمانية ودينية، فالقوى العلمانية تميل غالبًا إلى جانب الحكومة، وتعارض سيطرة علماء الدين على العمل الشيعي، وظهر ذلك واضحاً في قضية الوقف الجعفري. وأما القوى الدينية فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة تيارات:

(١) **التيار الإيراني:** ويؤمن بولاية الفقيه والمرجعية الإيرانية، وقد برز هذا التيار بعد قيام الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م.

(٢) **التيار الشيرازي:** وهو الذي يتبع المرجع محمد الشيرازي الذي أقام في الكويت تسع سنوات (١٩٧١م-١٩٨٠م) قادمًا من العراق، وأسس دعوة له، وأقام المؤسسات والهيئات الشيعية، وكان نشيطاً في طبع الكتب، واستطاع أن يكسب شريحة لا بأس بها من الكويتيين لتقليده. واستطاع في تلك المدة أن يخترق الجماعة (الشيخية)، وأن يستصدر فتوى من زعيمها حسن الإحقاقي الأسكوئي بجواز تقليد العلماء غير الشيخيين، وأن يفتح الطريق بذلك لكسب عدد من شباب (الشيخية) لتقليده. وقد استطاع تيار الشيرازي أن يستحوذ على جزء كبير من العمل الشيعي، مثل الداعين إلى هيئة الأوقاف الجعفرية. وينتمي إلى هذا التيار محمد باقر المهري أمين عام تجمع علماء الشيعة في الكويت.

(٣) الشيخية: وهي فرقة انفصلت عن التيار العام للشيعة الأصولية، أي عن (الاثنا عشرية) في القرن التاسع عشر الميلادي على يد الشيخ أحمد الأحسائي، حيث أقام أحد شيوخها، وهو الميرزا علي بن موسى الإسكوئي الحائري في الكويت سنين، وكان مجموعة من شيعة الكويت يقلدون والده موسى بفعل تأثر الكويت وقربها من العراق، وكربلاء خاصة، حيث أحد مقرات هذه الطائفة وإقامة شيوخها[٢].

ويعدّ عام ١٩٢١م نقطة البداية للمشاركة السياسية في الكويت، حيث شهدت تلك الفترة تأسيس أول مجلس استشاري.

وعلى الرغم من أن ميثاق المجلس كان ينص على وجود ممثلين اثنين لذوي الأصول الإيرانية، لكنه لم يتم اختيار أحد منهم، بسبب عدم الرضا والسخط من الجانب السني على الموقف الذي اتخذه الكويتيون من أصول إيرانية والذي تمثل في امتناعهم عن المشاركة في معركة الجهراء عام ١٩٢٠م بين الكويت وابن سعود، حيث ذهبت مجموعة منهم إلى المقيم السياسي البريطاني، وعبروا له عن عدم استعدادهم للمشاركة في هذه الحرب على أساس أنهم ليسوا مواطنين كويتيين، بل إيرانيين.

وسنة ١٩٣٨م، رفع الشيعة صوتهم مطالبين بأن يكون لهم تمثيل في المجلس التشريعي، والمجلس البلدي، وفتح مدرسة ومحكمة خاصة بهم، لكن المجلس التشريعي رفض هذه المطالب. وعلى إثر ذلك تقدم عدد كبير من الشيعة المنحدرين من أصول إيرانية، إلى المقيم السياسي البريطاني في الكويت بطلب منحهم الجنسية الإنجليزية الذي اعتبره المجلس التشريعي تحديًا لهيبة المجلس، ما أدى إلى أن يصدر المجلس قرارًا بإبعاد كل كويتي

يتجنس بجنسية أجنبية، وأن يغادر الكويت خلال شهرين مع حرمانه من جميع حقوقه.

بعد ذلك اتجه الشيعة للتحالف مع الأسرة الحاكمة والإنجليز والمحافظين من كبار العائلات السنيّة للإطاحة بالمجلس التشريعي، بعدها تم افتتاح مدرسة إيرانية جلبت مناهجها الدراسية من إيران[٤].

وعام ١٩٧٣م، ظهر أول وجود علني للتنظيم الديني الشيعي في الكويت، مستفيداً من الانفراج الذي انتهجه حاكمها آنذاك الشيخ عبدالله السالم، وقد شهدت حقبة ما بعد الاستقلال سنة ١٩٦١م ظهور الجماعات الشيعية المنظمة، ومنها:

(١) جمعية الثقافة الاجتماعية، وهي هيئة شبه سياسية، اتخذها الشيعة واجهة اجتماعية ودينية، وقد بلغ عدد المنتسبين إليها ٩٠٠ عضو عامل حتى عام ١٩٨٥م. ومنذ تأسيس الجمعية في أوائل الستينيات اقتصر نشاطها على المطالبة بإنشاء مزيد من المساجد الشيعية والحسينيات، ولم يشارك أعضاء الجمعية بأي نشاط سياسي محلي، ولم يشاركوا في التوقيع على أي بيان سياسي يتعلق بالأوضاع المحلية والقومية، وكان موقفهم موقف المتفرج.

(٢) جماعة الشيرازي، التي تنتسب إلى المرجع الشيعي محمد الشيرازي الذي بدأ ينشط في السبعينيات بعد أن أبعد عن العراق إلى الكويت، ويُعدّ الشيرازي الأب الروحي لمنظمة العمل الإسلامي في العراق، وكثير من مقلديه كانوا من مؤسسي جمعية الثقافة الاجتماعية الذين خرجوا من الجمعية بعد الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م.

وقد استخدمت جماعة الشيرازي أسلوب الأنشطة الثقافية والدينية في جذب الشباب الشيعي إلى صفوفهم، لكن الجماعة لم تستطع السيطرة على الشيعة في الكويت بسبب الخلافات بينها وبين جمعية الثقافة، وتشتت الشيعة في مناطق مختلفة بسبب التوسع العمراني، والهجوم الذي ووجه به الشيرازي من قبل المرجع الأعلى للشيعة آنذاك.. الخوئي، واعتباره غير أهل للمرجعية ولا الاجتهاد، وتكللت الأسباب بإبعاد الشيرازي من الكويت في بداية الثمانينيات.

في ١٩٦١/١٢/٣٠م، تكوّن أول مجلس تأسيسي، وكانت مهمته الأساسية وضع دستور للبلاد، المعروف بدستور ١٩٦٢م، وقد كفل قانون الانتخاب حق التصويت والترشيح لجميع الكويتيين بغض النظر عن الانتماء الطائفي، وقد مثل الشيعة في هذا المجلس نائبان.

ولم تكن الكتلة البرلمانية الشيعية تمثل تكتلاً سياسيًا متميزاً، ولم تكن جزءاً من المعارضة السياسية داخل البرلمان، بل كانت جزءاً أساسيًا من المجموعة الموالية للسلطة السياسية.. ولم تتخذ الكتلة البرلمانية الشيعية موقفًا واضحًا من تزوير انتخابات مجلس الأمة الثاني عام ١٩٦٧م، حيث شاركت في أعمال هذا المجلس المزور.

وقد ساهمت مواقف وأفكار حركة القوميين العرب، التي كانت تتزعم المعارضة في الكويت آنذاك تجاه الهجرة الإيرانية المتزايدة والمقلقة، في اصطفاف الشيعة في صف السلطة، إضافة إلى أن بعض الشيعة في جمعية الثقافة نجحوا في تخويف الشيعة من هذه الأفكار، موهمين إياهم أنها تستهدف جميع الكويتيين الشيعة، وليس فقط المهاجرين غير القانونيين

الذين يأتون من إيران بتنظيم من حكومة الشاه، وشجعت جمعية الثقافة أنصارها من أصول عربية للسكن في مناطق يغلب عليها الطابع الطائفي، وكان للجمعية دور في الترويج بأن الشاه هو حامي الشيعة في الكويت.

ومع نجاح ثورة الخميني سنة ١٩٧٩م، بدأت تسود أوساط الشيعة في العالم العربي روح ثورية معادية للدول والأنظمة... ولم تكن الساحة الكويتية بعيدة عن هذه الموجة الثورية، وانقسم الشيعة إلى تيارين:

الأول: محافظ، تمثله الطبقة الأرستقراطية من التجار والمرتبطين مع السلطة من خلال المصالح، وهدف هذا التيار إلى تحسين وضع الشيعة الديني والاجتماعي.

الآخر: ثوري تشكل من الشباب، خاصة المنتمين إلى الطبقة الوسطى، وطمح هذا التيار إلى الإطاحة بالنظام الحاكم، وأن يُستبدل بنظام على غرار إيران. وحقق هذا التيار انتصاره الأول المتمثل في الإطاحة بالتيار المحافظ الذي سيطر على جمعية الثقافة الاجتماعية، وتوجه وفد منها إلى إيران بعد الثورة برئاسة عباس المهري لتهنئة الخميني والقيادة الإيرانية بانتصار الثورة، وضم الوفد الشيعي بعض الصحفيين المنتمين إلى أهل السنة.

ويعد (مسجد شعبان) الذي يقع داخل مدينة الكويت في حي الشرق، تاريخيًا موطن تركز الشيعة في الكويت، وقد اتصفت حركة مسجد شعبان في بدايتها بطابع طائفي سواء بالنسبة إلى الحضور الذين اقتصروا على بعض المجاميع الشيعية في الكويت أو بالنسبة إلى الموضوعات التي طرحت في هذه الاجتماعات، مثل المطالبة بفتح مزيد من المساجد والحسينيات وإعطاء حريات

أكثر... إلخ. لكن المثير للانتباه هو تحول هذا المسجد فيما بعد إلى منبر لليساريين والقوميين من أعضاء (حركة القوميين العرب - فرع الكويت)[٥].

وقفت الكويت إلى جانب العراق في حربه مع إيران في حرب الخليج الأولى، وذلك أدى إلى سخط الشيعة الكويتيين؛ لأنهم يعدّون إيران حامية الشيعة، وقد استغل النظام الإيراني مشاعر الشيعة في المنطقة، والكويت خصوصاً لتنفيذ مخطط تصدير الثورة، وعمل على تجنيد عدد من الشيعة الكويتيين في تنظيمات إرهابية كان هدفها الأساسي زعزعة الاستقرار السياسي في الكويت ردًّا على مساعدات الكويت للعراق.

وشهدت الساحة الكويتية من عام ١٩٨٠م حتى عام ١٩٨٨م موجات من أعمال العنف السياسي تمثلت في انتشار العمليات الإرهابية وتوزيع المنشورات التي تحرض على القضاء على النظام السياسي في الكويت، وإقامة جمهورية إسلامية على النمط الإيراني، ومحاولة اغتيال الأمير عام ١٩٨٥م، وارتبطت أسماء بعض الشيعة الكويتيين بالتفجيرات التي حدثت عام ١٩٨٦م، وتفجيرات يناير، ومايو، ويوليو عام ١٩٨٧م، والاضطرابات السياسية التي شهدتها منطقة مشرف في ١٩٨٧/١/٣٠م.

وكان وراء هذه العمليات الإرهابية منظمات شيعية عدة مؤيدة للنظام الإيراني، مثل (طلائع تغيير النظام للجمهورية الكويتية) و(صوت الشعب الكويتي الحر) و(منظمة الجهاد الإسلامي) و(قوات المنظمة الثورية للرسول محمد في الكويت). ويعتقد أن هذه المنظمات وهمية، وأن مجمل الحوادث كان وراءها (حزب الله - الكويت).

وأُسس (حزب الله - الكويت) بعد الثورة الإيرانية على يد مجموعة من الشيعة الكويتيين الذين تلقوا دراستهم في حوزة قم، والمرتبطين بالحرس الثوري الإيراني، وقد أنشأ الحزب (المركز الكويتي للإعلام الإسلامي) الذي كان يصدر مجلة النصر.

وقد تلقى الحزب ضربات موجعة على أيدي جهاز الأمن الكويتي الذي قام أيضاً بحل مجلس إدارة (جمعية الثقافة الاجتماعية).

بعد وفاة الخميني سنة ١٩٨٩م، وتسلم هاشمي رفسنجاني رئاسة الدولة، أخذ هذا الأخير يتقارب مع دول الخليج على حساب دعم الحزب، فقام بإبعاد أعضائه من إيران، وإغلاق مركزهم ومجلتهم التي صارت تصدر من بيروت، ثم لندن(٦).

وإضافة إلى التخريب الذي ارتكبه الشيعة في الكويت، كان لهم دور بارز في دعم التنظيمات الشيعية في الخليج، وخاصة في البحرين للعمل ضد بلدانهم، وقد كشفت مجلة الوطن العربي في عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٦/٦/٢٨م مخططاً إيرانيًّا، لتوتير الأوضاع في البحرين من خلال تقديم شيعة الكويت أو ما أطلق عليه (حزب الله - الكويتي) الدعم لشيعة البحرين (حزب الله- البحريني) بمساهمة من (حزب الله - اللبناني).

وإضافة إلى البحرين، كان للشيعة في الكويت دور ملحوظ في أعمال التخريب التي شهدتها مكة المكرمة في موسم حج سنة ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م)، وعند إلقاء القبض على المخربين، تبين أن بعضهم يحمل الجنسية الكويتية، ذلك أن شيعة الكويت كانوا في ذلك العام (١٩٨٩م) يؤدون الدور نيابة

عن الإيرانيين الذين كانوا قد قاطعوا موسم الحج بسبب رفض السلطات السعودية لأنشطتهم التخريبية في موسم الحج السابق.

وشكل غزو الكويت وحرب الخليج الثانية (١٩٩٠م-١٩٩١م) مناسبة ذهبية لشيعة الكويت للظهور والارتقاء، ذلك أن الذي قام بالاعتداء على بلادهم هذه المرة هو صدام حسين الذي كان يحارب إيران قبل سنوات قليلة، وقد استطاعت هذه الأزمة أن توحد المشاعر الكويتية تجاه العراق بوصفه عدوًّا لا مجال للوفاق معه، واتخذ السنة في الكويت والشيعة موقفًا متطابقًا تجاه العراق وصدام حسين، وإن النظرة الكويتية بدأت تتغير تجاه إيران، فإيران التي كانت بالأمس معتدية صارت اليوم إحدى ضحايا نظام صدام، خاصة أنها أعلنت أنها لن تقف إلى جانب صدام -عدوّها اللدود- في هذه الحرب.

وهذه التطورات تجاه إيران تزامنت مع وفاة الخميني، واستلام هاشمي رفسنجاني رئاسة الدولة، وذلك ما ظنه بعضهم انتهاجاً لسياسة إيرانية جديدة تقوم على الحوار والاعتدال بدلاً من سياسة تصدير الثورة الصدامية التي عمل بها الخميني.

وعلى الرغم من أن الأيام اللاحقة أثبتت أن سياسة تصدير الثورة ما زالت سارية وإن كانت بأساليب جديدة، لكن دول الخليج ودولاً عربية أخرى ومنها الكويت بدأت بتحسين علاقاتها مع إيران وتطوير التعاون الاقتصادي، وتوقيع اتفاقيات في جميع المجالات، وقد كان من شأن هذه العلاقات الودّية الجديدة بين الكويت وإيران أن تؤدي إلى توسيع نفوذ شيعة الكويت، خاصة أن إيران اتخذت موقفًا داعمًا للإطاحة بالنظام العراقي سنة ٢٠٠٣م، وإن

تطلب الأمر تقديم العون والمساعدات للقوات الأمريكية وحلفائها، وهو الأمر الذي كانت تتمناه الكويت منذ سنوات طويلة.

وجاءت بعض حوادث مهاجمة الأمريكيين من قبل جماعات سنيّة، وقبل ذلك أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م في الولايات المتحدة، واتهام تنظيم القاعدة بارتكابها لتعلي من أسهم الشيعة الذين استعانت بهم الحكومة الكويتية لتعذيب إسلاميين كويتيين، اعتقلتهم الحكومة الكويتية في أعقاب حوادث الاعتداءات على الأمريكان في الكويت(٧).

والواقع الاجتماعي والسياسي لشيعة الكويت يؤكد أنهم يتمتعون بكامل حريتهم، وأن شكاوى الاضطهاد ما هي إلا وهم لا أساس له.

فمساجد الشيعة بوصفهم أقلية كثيرة، والمسجد عند الشيعة نادٍ وملتقى، يعقدون فيه اجتماعاتهم، وهو مكتبة ودار نشر، وفيه لجان عدة تتولى تنظيم مختلف شؤون المسجد، وتنظيم الاحتفالات والندوات الدينية.

وغالباً ما تكون مساجد الشيعة خارج سيطرة وإشراف وزارة الأوقاف، ويقيمون المساجد في مناطق السنة على الرغم من قلة وجودهم في هذه المناطق. وعلى الرغم من كثرة مساجدهم، لكنهم دائمو السعي لإنشاء مساجد جديدة(٨).

ومع ذلك، فإن هذه المساجد لم تشبع طموحهم، فعمدوا إلى بناء الحسينيات على شكل قلاع وفيها سراديب، وهم أحياناً يشيدون البناء قبل أن يأخذوا الترخيص المطلوب.

وفي معظم مساجد الشيعة وحسينياتهم في الكويت مكتبات تنشر وتوزع كتيبات ورسائل مجانية، وفيها غرف يسكنها الشيعة الوافدون إلى الكويت(٩).

ويستغل الشيعة المساجد والحسينيات والديوانيات لإقامة ندواتهم ومحاضراتهم ومآتمهم وشعائرهم والتعبير عن آرائهم، التي غالبًا ما تأتي مخالفة لعقائد المسلمين، ولا يجد الشيعة حرجًا من المجاهرة بها.

وقد سعى الشيعة بكل جهدهم إلى إنشاء هيئة للأوقاف الجعفرية الشيعية، يثبتون من خلالها وجودهم ومذهبهم، وينمّون مواردهم المالية، وكانوا يحرصون على أن تكون هذه الهيئة مستقلة عن وزارة الأوقاف وعن الأجهزة الحكومية، بل طالبوا بأن تكون تحت إشراف مراجع وعلماء مذهبهم؛ كونهم ينوبون عن الإمام الغائب.

وقد كان مشروع هذا القانون ميداناً للخلافات بين التيارات الشيعية الدينية والعلمانية المختلفة، فمن قائل: إن الإشراف على الأوقاف وإدارتها هما من صلاحيات المرجع الديني، وإلى مجيز بأن تتولى لجنة من غير المراجع إدارة هذه الأوقاف.

وخلال عامي ٢٠٠١م و٢٠٠٢م كان الشيعة يعملون بكل جهد من أجل إنشاء هذه الهيئة، وبالرغم من قيام الحكومة الكويتية بإنشاء وحدة للأوقاف الجعفرية تتبع وزارة الأوقاف يكون أعضاؤها من الشيعة، إلا إن الشيعة وقادتهم أعربوا في تصريحاتهم المتكررة أن هذا القرار لا يلبي طموحاتهم، ذلك أنهم يريدون هيئة مستقلة عن الأوقاف والحكومة، وفي أحسن الأحوال تتبع الديوان الأميري.(١٠)

ويقوم شيعة الكويت بجهد كبير لنشر عقائدهم من خلال جميع الوسائل، كالكتب والأشرطة والمجلات والنشرات والرسائل، ومن خلال توفير هذه المواد في مساجدهم ومنتدياتهم وحسينياتهم، بل توزيع بعضها مجانًا على المنازل وهم يقومون بذلك غير آبهين بمخالفة محتويات هذه المواد لعقائد المسلمين في الكويت.

ويتبع الشيعة أسلوب (الخطوة خطوة)، ففيما سبق كانوا يكتفون بالمطالبة بإنشاء المساجد، ثم اتسعت الدائرة لتشمل الحسينيات والجمعيات الثقافية والاجتماعية والمبرات، وقد نجحوا في كثير من مساعيهم.

ومع مرور الزمن وازدياد نفوذهم، ووجودهم في المؤسسات المختلفة، اتسعت دائرة مطالبهم، فهي تشمل الآن المطالبة بأن يكون يوم عاشوراء عطلة رسمية، ونقل شعائرهم في وسائل الإعلام الكويتية على الهواء مباشرة، وقد نجحوا في المطلب الثاني، حيث أصبح التلفزيون الكويتي ينقل هذه الشعائر مباشرة، ويبدو أنهم على وشك تحقيق المطلب الأول، حيث أوصت اللجنة الاقتصادية في مجلس الأمة باعتبار يوم عاشوراء عطلة رسمية.

ومن مطالبهم الآخذة في التعاظم: السماح بطباعة كتبهم ومنشوراتهم، ومنع الكتب التي تتعرض لهم أو تبين عقائدهم، فقد كان لهم دور في منع كتاب (لله ثم للتاريخ) وهو من أهم الكتب الحديثة التي تبين عقائدهم، وأشادوا بقرار وزير الإعلام -آنذاك- أحمد فهد الأحمد بمنع تداوله.

ومن مطالباتهم: الوقوف ضد مشروع قانون العقوبات الشرعية الذي تقدم به بعض النواب الإسلاميين السنة، واعتبار علمائهم أنه غير قابل للتطبيق، بسبب خشيتهم من تطبيق القانون على المذهب السني.

ومنها اختراقهم لإذاعة القرآن الكريم، واستبعادهم برامج ومحاضرات العلماء السلفيين، وبخاصة من المملكة العربية السعودية.

ومنها تطاولهم العلني على صحابة رسول الله ﷺ، ومن أبرز من قاموا بذلك النائب صالح عاشور الذي تهجم على الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وطالب عاشور بتغيير اسم أحد شوارع الكويت يحمل اسم المغيرة، واعتبر ذلك حقاً للشيعة إضافة إلى مطالبته بإنشاء محكمة جعفرية، وإنشاء المزيد من المساجد الشيعية، وتعديل مناهج التربية الإسلامية لتتوافق مع عقائدهم.

وتبلغ هذه المطالب حدًّا غير معقول، إذ أفتى أمين عام تجمع علماء الشيعة في الكويت محمد باقر المهري بعدم جواز التعامل مع إحدى الجمعيات التعاونية (جمعية القرين) أو الشراء منها؛ لأنها قامت بطباعة كتاب يخالف عقائد الشيعة.

وقد اعترضوا على المطالبة بإغلاق الحسينيات غير المرخصة التي تملأ الكويت، ردًّا على الذين طالبوا بإغلاقها أسوة بفروع لجان الزكاة والجمعيات الخيرية التي تتبع الجمعيات السنية، مثل الإصلاح وإحياء التراث.

وأما الأنشطة الاقتصادية لشيعة الكويت فكثيرة ومتنوعة، حيث الكثير من الشيعة من التجار ورجال الأعمال الذين يدعمون أنشطة طائفتهم، وقد ساعدهم على تبوء هذه المكانة الاقتصادية المهمة مشاركتهم لبعض شيوخ آل الصباح في أعمالهم التجارية، وبرزت من الشيعة عائلات اقتصادية كبيرة منها: بهبهاني وقبازرد والكاظمي والهزيم وبهمن وبوشهري والوزان والمزيدي ومقامس ومكي ودشتي والصراف والنقي... الخ.

ومنذ مدة طويلة يسيطرون على قطاعات اقتصادية مهمة كثيرة منها: المواد الغذائية والسجاد والذهب والمخابز[11].

وعلى الصعيد السياسي، فللشيعة تمثيلهم في السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ففي انتخابات مجلس الأمة الكويتي (البرلمان) في يونيو/ حزيران ٢٠٠٦م، فاز الشيعة بأربعة مقاعد من أصل ٥٠ مقعدًا. أما في الحكومة التي تشكلت في يوليو/ تموز ٢٠٠٦م، فقد كانوا ممثلين بوزيرين. وللشيعة وجود أيضًا في السلك الدبلوماسي، وفي الشرطة والجيش، وتقلد واحد منهم منصب رئيس أركان الجيش، ولكن وجودهم في جهاز الأمن الوطني محدود.

وقد دعا المفكر الإسلامي الكويتي د. عبدالله فهد النفيسي إلى تحقيق الوحدة الخليجية عن طريق انضمام الكويت والبحرين وقطر والإمارات إلى السعودية، من خلال صيغة حدودية أو فيدرالية لدول مجلس التعاون الخليجي، بعدما أبدى مخاوفه من زوال أغلب الكيانات السياسية في الإقليم وبقاء ثلاث دول فقط هي: السعودية، وعُمان، واليمن.

النفيسي دعا إلى إنشاء تكتل خليجي تكون عاصمته المدينة المنورة؛ لكي تتمكن دول الخليج من مواجهة المخططات الرامية إلى إلغاء كياناتها قبل حلول عام ٢٠٢٥م، استناداً إلى ما قال: إنها وثائق أمريكية، قال: إنها تتحدث عن هذا المخطط.

لكن شيعة الكويت عارضوا الفكرة بشدة، وكان من أبرز المعترضين، المرجع الشيعي باقر المهري، الذي استهجن دعوة النفيسي لأن تتوحد وتندمج الكويت في دولة عربية معينة؛ لتحافظ على أمنها وتزيد من قوتها، معتبرًا أن

الحديث عن التوحّد الخليجي أمر غاية في الخطورة ومخالف للمادة الأولى من الدستور.

غير أن النفيسي سخر من اعتراض المهري على أطروحته؛ لارتباطه الروحي بإيران، وقال: (إن المهري جاء سباحة من إيران، ويخاف هو و(أشكاله) من وحدة دول مجلس التعاون الخليجي، وهو آخر من يتكلم عن الولاء)، وأضاف: (أنا عرقي في الكويت والقصيم والرياض)(١٢).

الهوامش:

(١) شيعة الكويت.. بين المشاركة والتمايز المذهبي، موقع سي إن إن العربية، ١٣-٤-٢٠٠٧م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) التجمعات الشيعية في الكويت، شبكة راصد السُّنية، دون تاريخ.

(٤) د. فلاح المديرس، الحركة الشيعية في الكويت، دار قرطاس للنشر بالكويت، سنة ١٩٩٩م.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

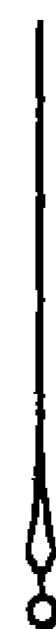
(٨) د. عبدالله الغريب، وجاء دور المجوس، ص٣٢٠-٣٢٢.

(٩) المصدر السابق ص٣٢٣-٣٢٧.

(١٠) التجمعات الشيعية في الكويت، شبكة راصد السُّنية، دون تاريخ.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) شيعة الكويت يرفضون الوحدة الخليجية، مفكرة الإسلام، ٢٨ يونيو ٢٠١٠م.



الباب الخامس

نشر التشيع وتصدير الثورة



الفصل العاشر

صـــرخة القرضـاوي

الدكتور يوسف القرضاوي معروف عبر تاريخه الطويل بوسطية منهجه واعتداله الفكري وانفتاحه الثقافي، ولم يعرف عنه أبداً أنه كان متعصباً مذهبيًّا، بل كان دائماً داعياً إلى وحدة الأمة، والرجل له لقاءات وحوارات طويلة وممتدة مع المراجع الشيعية، وقد ضم عددًا منهم إلى (اتحاد علماء المسلمين) الذي يرأسه. لكن حينما تجمعت لدى الشيخ معلومات لم تتح لغيره، بحكم علاقاته المتعددة وثقة الناس فيه، صدم الرجل من هول ما عرف من معلومات تفصيلية عن الجرائم التي ارتكبتها إيران في العراق ودعمها لفرق وميليشيات الموت الشيعية ورعايتها لإستراتيجية تهميش وإبعاد السنة، حينما تجمعت هذه المعلومات أمام الرجل استشعر مسؤوليته الدينية أمام الله بوصفه داعية كبيراً ومجتهداً مرموقاً، فجهر بالحقيقة وحذر من الخطر.

لقد كانت الحقيقة أكثر مرارة، فها هي خيوط الجريمة الأخرى تتجمع أمام الشيخ، فتأتيه المعلومات المؤكدة والموثقة من كل مكان في العالم العربي تؤكد أن (نشر التشيع) يتم على أوسع نطاق، وأن الأموال الإيرانية تتدفق

لدعم هذا المشروع، فلم يجد الشيخ بدًّا من أن يجهر بالأمر على الملأ ويحذر قومه وهو المؤتمن.

كانت أول مرة يتحدث فيها القرضاوي عن هذه القضية في ندوة أقامتها نقابة الصحفيين يوم ٣١-٨-٢٠٠٦م، حيث حذر من المد الشيعي في مصر، منبهاً إلى أن الشيعة يحاولون اختراق مصر على أساس أنها تحب آل البيت وبها مقام الحسين والسيدة زينب، ولكن هذا شيء، وذاك شيء آخر.

وأكد أنهم أخذوا من التصوف قنطرة للتشيع والآن اخترقوا مصر في السنوات الأخيرة.

وتابع: (أدعو إلي التقريب بين المذاهب، وأؤيد «حزب الله» في مقاومته، ولكن لا أقبل أن يخترقوا بلادنا)، محذرًا من (وقوع مذابح مثل التي تحدث في العراق بين السُّنة والشيعة، فإذا حدث اختراق شيعي لمصر فيجب أن نكون على يقظة).

وقال القرضاوي: (حسن نصر الله لا يختلف عن الشيعة المتعصبين، فهو متمسك بشيعته ومبادئه، ويقول: يا علي، ولا يمكن أن ننكر هذا، ولكنه أفضل من غيره من القاعدين والمتخاذلين).

وذكر القرضاوي لقاءه كبار المسؤولين في إيران، مشيراً إلى أنه طلب منهم ضرورة الكف عن الكلام بأن القرآن ناقص، فأغلبهم يؤمنون بأن القرآن كلام الله ولكن يقولون هذا ليس القرآن كله، وقالوا: إن مصحف فاطمة كان ضعف هذا المصحف. وقال: طالبتهم بالتوقف عن سب الصحابة، فهم يتقربون إلى الله بسبهم ولعنهم، وأنه لا ينبغي أن يبشر أحدنا بمذهبه في

البلاد الخالصة للمذهب الآخر، وأن التقارب ليس معناه أن يتحول السُّني إلي شيعي ولكن نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه[1].

ثم كانت المرة الثانية حينما وقف الرجل، أمام (مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية) الذي بدأ أعماله يوم العشرين من يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٧م، رافضًا بشدة محاولات «التشيع» الإيرانية في بلدان عربية سنية بالكامل، معتبرًا أنها تدفع إلى «الفتنة» بين السنة والشيعة، متوجهًا في كلامه إلى آية الله محمد علي تسخيري الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب في إيران: (لا يجوز أن يحاول مذهب نشر مذهبه في بلاد خالصة للمذهب الآخر .. ماذا ينفعكم أن تدخلوا بلدًا سنيًّا مثل مصر أو السودان أو المغرب أو الجزائر، وغيرها من بلاد خالصة للشافعية والمالكية، وأن تحاولوا أن تكسبوا أفرادًا للمذهب الشيعي؟ .. هل ستكسبون عشرة أو عشرين أو مئة أو مئتين؟ ولكن بعد ذلك تنجزون فتنة في البلد، وسيكرهكم الناس، ويلعنونكم بعد ذلك).

وطلب القرضاوي من المراجع الشيعية في العراق والمرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران (علي خامنئي) أن يقولوا كلمتهم؛ لأن إيران لها نفوذها في العراق، وتستطيع أن توقف هذه الفتنة، وتطفئ هذه النار التي ستأكل الأخضر واليابس.

وانتقد القرضاوي بشدة إيران، واتهمها بالوقوف وراء ما يحدث للسنة في العراق من قتل وتهجير طائفي، داعياً الشيعة إلى التوقف عما يستفز المسلمين مثل سب الصحابة رضي الله عنهم، إن كانوا حقًّا يريدون التقريب بين الطوائف والمذاهب الإسلامية.

وقال القرضاوي: (أهل السنة يهجرون من مناطقهم، والآن يحاولون أن يفرغوا بغداد من أهل السنة، لذلك لا ينبغي أن نسكت، مضيفًا: إن فرق الموت والميليشيات تدخل على الناس، وتقتلهم في بيوتهم، وهذا يدل على أن هناك حقداً أسود، داعياً الشيعة إلى التبرء ممن يقفون وراء هذه الأعمال)(٢).

القرضاوي وصف الشيعة في تصريحات أخرى بالمبتدعين، وحذر أهل السنة من خطرهم، رافضاً أولاً سبَّهم للصحابة، وثانيًا ما سماه غزو المجتمع السني بنشر المذهب الشيعي، عن طريق رصد أموال ضخمة وكوادر مدربة، معتبرًا أنه ليس لدى السنة أي حصانة ثقافية ضد هذا الغزو، وأن علماء السنة لم يسلحوهم بأي ثقافة واقية؛ لأننا نهرب عادة من الكلام في هذه القضايا مع وعينا بها؛ خوفاً من إثارة الفتنة وسعياً إلى وحدة الأمة.

وإن المرء ليعجب من الذين انتقدوا تصريحات الشيخ معتبرينها تصب في مصلحة الفرقة وضد وحدة الأمة، ونسى هؤلاء أن القرضاوي أفنى عمره داعيًا إلى الوحدة، ومحذرًا من المذهبية الضيقة والطائفية والتكفير، وهو من أوائل من التزم منهج التقريب بين السنة والشيعة، وما قاله الشيخ ليس تفريقا للأمة بقدر ما هو خط أحمر يحذر منه؛ حتى لا تحدث الفتنة الحقيقية عندما يصبح الشيعة قوة مؤثرة كما هو الحال في العراق.

والذين يتغنون بالوحدة الإسلامية يجب أن يعلموا أن معيار الوحدة هو التوافق على الثوابت، فإذا اختلف في الثوابت فلا قيمة لوحدة مع أناس يلعنون خير القرون، فأي وحدة هذه التي تقوم على سب الأخيار الكرام؟

وتاريخ القرضاوي حافل بالعطاء وجهود التوحيد ولمّ الشمل، وهو صاحب فلسفة في التأليف ورص الصفوف، وصاحب صولات وجولات لدعم كل ما يؤدي إلى بلورة مفهوم «الأمة» ويحافظ عليها حتى تكون حقيقةً لا وهماً.

إن القرضاوي يرصد جهود نشر التشيع في البلاد السنية منذ مدة، ولم ينطق بما نطق به إلا بعد أن طفح الكيل.

وقد كشفت الأزمة أن الشيعة يدعون أنهم دعاة وحدة ورعاة للتقريب بين المذاهب، ولكنهم على أرض الواقع يفعلون النقيض، فمخططاتهم وأموالهم تنطلق من أجل نشر التشيع في البلاد السنية.

فالشيعة يكثرون من الاستشهاد والاستقواء بفتوى الشيخ شلتوت بجواز التعبد بالمذهب الجعفري وعدّه مذهباً خامساً يضاف إلى مذاهب السنة الأربعة، لكن لم يفعل الشيعة شيئًا مماثلاً، بل إننا نجد في كتاب حسين فضل الله: (مسائل عقدية) ص١١٠ ما ينفي هذا؛ حيث أجاب عن سؤال يقول: هل يجوز التعبد في فروع الدين بالمذاهب السنية الأربعة، وكذلك بقية المذاهب غير الشيعية؟ فكان جوابه بالنص: (جواب: لا يجوز التعبد بأي مذهب إسلامي غير مذهب أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه المذهب الذي قامت عليه الحجة القاطعة).

ولم يُصدر أحد مراجع الشيعة بيانًا أو فتوى يلزم بها أتباعه بحرمة سب الصحابة ولعن أبي بكر وعمر وعائشة، ولم يصدروا فتوى بأن الذي يقول بتحريف القرآن أو بأن فيه زيادة أو نقصاً، فإن هذا قول قد يخرج صاحبه من الملة.

وقد أكدت الأزمة أن محاولات تصدير الثورة الإيرانية ونشر التشيع مستمرة منذ الثورة، فبعد الثورة مباشرة، احتدم جدل صاخب بين من كانوا يريدون أن تكون ثورتهم ثورة إسلامية وللمسلمين جميعهم وبين من اعتبروها استجابة للثأر التاريخي الذي طال أمده والذي لا بد من تحقيقه.

وحاول الذين أرادوا أن تكون هذه الثورة ثورة إسلامية شاملة، ألا يتضمن الدستور أي نص على المذهب الجعفري (الإثنا عشري) وجادلوا طويلاً وأصروا على ضرورة ألا تكون هذه الثورة للشيعة فقط، وجادلوا وأصروا على ألا تجري أي محاولة لتصديرها، لا إلى الدول الإسلامية القريبة ولا إلى الدول الإسلامية البعيدة، وهؤلاء رأوا أنه من الأفضل بناء دولة إسلامية نموذجية منفتحة على كل المسلمين، ولا تتدخل في شؤون الآخرين الداخلية، وتحافظ على حقوق الإنسان، وتسمح بالرأي المخالف وبالحريات العامة، وتكون دولة ديمقراطية تعيش فيها الأقليات القومية والمذهبية والدينية بأمان واستقرار بعيداً عن أي اضطهاد طائفي أو إثني.

وجهة النظر هذه لم يحالفها النجاح، فقد تدخل الخميني في اللحظة الحاسمة، وأكد أن الدستور يجب أن يتضمن نصًّا واضحاً وصريحاً على أن دين الدولة هو الإسلام على المذهب الجعفري (الإثنا عشري)، كما أكد ضرورة أن تكون هذه الثورة ثورة دائمة، وأن يجري تصديرها بالتبشير المبرمج والمدعوم وبالقوة.

إضافة إلى الجانب الديني العقديّ، فإن تصدير التشيع ومبادئ الثورة الإيرانية يتم في أوساط الشباب العربي على أساس أن الشيعة الآن، بقيادة إيران، هم الذين يقاومون إسرائيل، وما حرب صيف عام ٢٠٠٦م إلا خير دليل على ذلك، في وقت انبطحت فيه الدول العربية السنية وقادتها أمام إسرائيل في اتفاقيات صلح مخزية.

وإذا كان الإعلام الشيعي يقول: إن الشباب السني معجب بالمنهج السياسي الشيعي الثوري، فقد كانت أزمة تصريحات القرضاوي فرصة ليوضح العلماء

والمؤرخون الحقائق للشباب، ويؤكدوا لهم أن أهل السنة على مدار التاريخ هم من حموا هذه الأمة ومقدساتها وأراضيها.

وتاريخ الشيعة لم يعرف انخراطهم في الثورات ضد الحكام الظلمة وضد الاحتلال الأجنبي إلا في القرن العشرين! ولقد ظلوا طوال تاريخهم منذ الإمام جعفر الصادق (٨٠- ١٤٨ هـ ٦٩٩- ٧٦٥ م) يعلقون الاشتغال بالسياسة والقيام بالثورة وبناء الدولة وتأسيس الحكومة على ظهور الإمام الغائب (٢٥٦هـ - ٨٧٠م) .. وكان أهل السنة والجماعة - طوال ذلك التاريخ - هم الذين يقودون الثورات وحروب التحرر الوطني والقومي والجهاد الإسلامي.

أهل السنة والجماعة هم الذين رفعوا رايات الجهاد في الفتوحات الإسلامية الأولى التي أزالت طاغوت استعمار الروم والفرس وحررت الأرض والضمير وفتحت الأبواب لانتشار الإسلام، حتى في البقاع التي تشيع أهلها.

وإن أهل السنة هم الذين أعادوا تحرير الشرق وإنقاذ الإسلام وحضارته وأمته من الحملات الصليبية (٤٨٩-٦٩٠هـ - ١٠٩٦-١٢٩١م) ومن الغزوة التترية في تاريخنا الوسيط.

وأهل السنة أيضًا هم الذين تصدوا للغزوة الغربية الحديثة التي بدأت منذ إسقاط غرناطة (١٤٩٢م) وحتى الآن.

لقد فتح المسلمون الأوائل في ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، وأزالوا القوى العظمى التي استعمرت الشرق وقهرته دينيًا وثقافيًا ولغويًا وحضاريًا أكثر من عشرة قرون من الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٤ ق م) إلى هرقل (٦١٠-٦٤١م) في القرن السابع للميلاد، وبهذا الفتح

الإسلامي المبين، فتح هؤلاء الفاتحون الطريق أمام انتشار الإسلام في معظم بقاع العالم، وجميع هؤلاء الفاتحين - من الخلفاء والصحابة والمجاهدين - يتولاهم أهل السنة، ويصلون ويسلمون عليهم، ويعدّونهم الأئمة والقادة الذين أقاموا الدين ونشروه، وأسسوا، بينما الشيعة حكموا على جمهور هذا الجيل الفريد من الصحابة بالكفر والردة، بل أوجبوا لعنهم والبراءة منهم[٢].

التناقض في الخطاب الإيراني جعل كاتباً إسلاميًّا يوجه عشرة أسئلة لأولئك المؤيدين للخطاب الإيراني ولخطاب حزب الله:

(١) هل نحن – الإسلاميين - جزء من المشروع الإيراني الحالي؟ وهل هذا المشروع يخدم المشروع الإسلامي العام أم يتضاد ويتناقض معه؟

(٢) هل الموافقة والتعاون والتنسيق الإيراني مع الأمريكيين والغربيين في احتلال عاصمتين إسلاميتين، وهما كابول وبغداد يتسق مع المشروع الإسلامي الذي يرفعه ملالي طهران، وأمر حلال ومباح لا غبار عليه؟

(٣) هل التشهير بالمقاومة العراقية والأفغانية والصومالية يخدم المشروع الإسلامي الذي يرفعه، وينادي به ملالي طهران؟

(٤) هل الصمت المطبق على مجازر الميليشيات الصفوية بحق المسلمين العراقيين والفلسطينيين المهاجرين إلى العراق يخدم المشروع الإسلامي الكبير؟ وهل فلسطينيو شارع حيفا في بغداد الرشيد المحتلة يختلفون عن فلسطينيي غزة ونابلس والقدس وغيرها؟

(٥) الهجمة الشرسة على العلامة الدكتور يوسف القرضاوي من ملالي طهران ووكلاء طهران وأدواتها، هل تخدم المشروع الإسلامي الكبير؟

(٦) هل يحق لطهران أن تتفاوض مع الحاخامات، وتتفاوض مع الأمريكيين والغربيين، ويقوم رئيسها بزيارة لبغداد المحتلة، ويحق لها أن تدخل في الاتفاق على سلة التسهيلات الغربية والأمريكية، بينما تحذر في المقابل الغرب من التفاوض مع من تصفهم بالإرهابيين والظلاميين والقتلة والمجرمين من مقاتلي الطالبان الأفغان؟

(٧) هل يجوز التنازل عن المبادئ والأفكار والسياسات من أجل حفنة من التومانات والدولارات الإيرانية؟ وهل يجوز ذلك مقابل غض النظر عن مآسي المسلمين التي يسببها هذا التعاون بذريعة أن الدول العربية والإسلامية لا تدعمنا، ومن ثم هل الغاية تبرر الوسيلة؟

(٨) هل المقاومة والتحرير حكراً على طهران ووكلائها أو من يخدمون مشروعها؟ ومن ثم علينا جميعاً الوقوف سدًّا منيعاً ضد أي مقاومة لا تتسق مع المصالح الإيرانية، كما يجري عمليًّا في العراق وأفغانستان والصومال والشيشان؟

(٩) لماذا يعترض الشيعة وإيران على كلام الرئيس المصري - المخلوع - حسني مبارك بأن كل الشيعة في العالم تابعون لإيران، وأن ولاءهم لها وليس لدولهم؟ بينما نرى في النيويورك تايمز فتوى لأحد علماء شيعة العراق حين استفتي بما ينبغي على الشيعي إذا هوجمت طهران؟ فرد المسؤول طبعاً بضرب كل المصالح الأمريكية، أما أن يحتل بلده من قبل الأمريكيين والغربيين، فهذا لا غضاضة فيه ما دام يخلصهم من حكم سني شكلاً؟

(١٠) هل ما تفعله إيران من نشر التشيع إسلامي، ويخدم المشروع الإسلامي والوحدة الإسلامية، وعلينا دعمه؟[٤].

ولعله من المفيد هنا أن نستعرض ما تقوم عليه حجة الذين اعترضوا على صرخة القرضاوي التحذيرية.

ففور صدور تصريحات القرضاوي انبرى د. محمد سليم العوا الأمين العام لـ(الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين) بكتابة بيان باسم الاتحاد لتوضيح تصريحات القرضاوى الذي يشغل منصب رئيس الاتحاد، وهذا هو نص البيان:

تلقت الأمانة العامة للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين عددًا كبيرًا من الأسئلة والاستفسارات من مختلف بلدان العالم، حول تصريحات العلامة الدكتور يوسف القرضاوي.

- لم يكن في كلام فضيلته أي اتهام للسادة الصوفية أو لفكرة التصوف نفسها على النحو الذي فهمه بعض من حضر اللقاء أو قرأ ما نشر عنه، وإذا كان لفظ التعصب قد جرى على لسان فضيلته في هذا السياق فإن حقيقة المقصود به هو التمسك بالمذهب وبالآراء التي يعبر عنها أو يتبناها علماء الشيعة الإمامية، وهو أمر محمود لا عيب فيه ولا مأخذ عليه، ولم يكن ذكر التعصب إلا سبق لسان مقصودًا به معنى التمسك المحمود بالمبدأ جملة وتفصيلاً.

- ما ذكره فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي عن رفضه لمحاولات بعض الشيعة التأثير في أفراد من أهل السنة لتحويلهم إلى المذهب الشيعي كان المقصود به تلك المحاولات الفردية.

- إن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، الذي يضم العلماء من المذاهب جميعاً، ولرئيسه نواب ثلاثة من الشيعة والسنة والإباضية، يؤكد موقفه الثابت من ضرورة وأد أي فتنة بين المسلمين في مهدها، ومن

ضرورة التقريب بين أهل المذاهب الإسلامية وعلمائها وأتباعها، ومن ضرورة التعاون بين المسلمين كافة فيما اتفقوا عليه، وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه.

وبعد هذا البيان ألقى الدكتور العوا محاضرة في نقابة الصحفيين، حول السنة والشيعة، قرر فيها النقاط الآتية بحسب ما جاء في موقع (الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين):

(١) أكثر أهل السنة لا يعرفون عن الشيعة إلا أنهم طائفة تغالي في التشيع، مع أن الشيعة يعرفون عن السنة الكثير.

(٢) عندما ينسب إلى الناس أقوال أو نحاسبهم على آراء، فيجب أن نحاسبهم على ما قالوه فقط، دون التطرق إلى النتائج المترتبة على أقوالهم؛ لأن القاعدة المسلمة أن «ناسب المنهج ليس بمنهج» أي إنني لست المسؤول عن كلام قلته وفهمه الناس بأسلوب وشكل خاص بهم.

(٣) الشيعة هي مذهب فقهي.

(٤) على الرغم من أن هناك مقولات تزعم أن الشيعة يؤمنون بتحريف القرآن ونسب إلى أحد كتب الشيعة ذلك، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المقولة حادثة كما أنها منكرة.

(٥) منذ ١٠٧ أعوام تقريبًا، كتب المحدث النوري الطبرسي كتابًا بعنوان: (فصل الخطاب في تحريف الكتاب) جمع فيه روايات من كتب الشيعة، وأشار إلى أن تلك الروايات تدل على تحريف القرآن. وقبل النوري لم يقل أحد بتحريف القرآن على الإطلاق.

(٦) هذا الكتاب قوبل بانتقادات شديدة من قبل الحوزة العلمية، وضجرت بآرائه ولم يقبل الشيعة منذ ذلك الوقت أن يقال: إنه تم تحريف القرآن. وتم التشكيك في كتابه والإشارة إلى أن الروايات التي جمعها مجهولة وضعيفة الرواية، وهو ما أكده الخوميني الذي اتهم رواياته بالضعف وأنها محشوة بالكثير من الحكايات الهزلية الضعيفة.

(٧) الاتفاق بين السنة والشيعة يصل إلى نحو ٩٠٪ والاختلاف في ١٠٪ وذلك يُعدّ نسبة بسيطة، خاصة أنها في التفاصيل، وليست في الأصول.

(٨) نشأت فرقة سياسية أدت إلى توسيع الفجوة بين المسلمين والشيعة بسبب الأحداث السياسية بعد اندلاع الثورة الإيرانية.

أما أوجه الاختلاف بين السنة والشيعة فيوجزها الدكتور العوا في أمور عدة أهمها ما سمي بـ (عصمة الأئمة) وهو الاعتقاد الشائع لدى الشيعة الإمامية ونحن لا نقبل هذا الاعتقاد؛ لأنه لا عصمة بعد رسول الله، ويؤكد الدكتور العوا أنه وعلى الرغم من هذا الاختلاف إلا أن مسألة الإمامة هي من الفروع، ولا ينبغي أن نقحمها في الأصول[٥].

ولعل المتأمل لحجج الدكتور العوا يجدها ما هي إلا محاولات توفيقية ليس لها ما يسندها من الواقع، ففرق بين الرغبة العامة لوحدة المسلمين التي هي هدف لكل مسلم وبين واقع تحريضي مذهبي ينسف كل محاولة مخلصة للوحدة، ويعمل فقط لمصلحة المذهب ولغرض إقامة كيان سياسي كبير يبتلع دول الجيران دون النظر لأي روابط دين أو أخوة.

وهذه التصريحات التي تعمل على الموازنة والتي تراعي عدم إغضاب أي طرف، ليس لها قيمة في واقع يقوم فيه أحد الأطراف بالتواطؤ مع المحتل الأجنبي ضد الدول العربية والإسلامية.

فهل جرائم تأسيس المليشيات الشيعية المتطرفة وتسليحها وتدريبها وإطلاقها لكي تقتل، وتشرد السنة يناسبها البيانات التي تراعي الخواطر أم لا يناسبها إلا صرخة مزلزلة مثل التي جأر بها الدكتور القرضاوي؟ تدعو كل طرف لكي يقوم بمسؤولياته التي تتطلب عملاً حقيقيًّا، وليس كلامًا أو شعارات.

الهوامش:

(١) صحيفة المصري اليوم، ٢-٩-٢٠٠٦م.

(٢) القرضاوي يتهم إيران بنشر التشيع في الأوساط السنية، صحيفة أخبار اليوم اللبنانية، ٢١ يناير ٢٠٠٧م.

(٣) د. محمد عمارة، تاريخ أهل السنة النضالي، موقع المصريون، ١٦-٤-٢٠٠٧م.

(٤) أحمد موفق زيدان، عشرة أسئلة لإسلاميين يدافعون عن طهران، موقع المصريون، ٢٦ - ١١ - ٢٠٠٨م.

(٥) موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، دون تاريخ.

الفصل الحادي عشر

التشيع في سوريا.. الاختراق الأكبر

في منتصف يونيو ٢٠٠٦م تم توقيع معاهدة دفاع مشترك بين طهران ودمشق، إثر زيارة وفد عسكري سوري رفيع وكبير، يتقدمه وزير الدفاع حسن توركماني، بعد زيارات وأنشطة ومعاهدات مكثفة على خط دمشق - طهران في شكل لا سابق له منذ قيام التحالف الإستراتيجي بين البلدين في الثمانينيات من القرن الماضي، عندما اختار الرئيس حافظ الأسد الانحياز إلى إيران في حربها مع عراق عدوه اللدود صدام حسين.

وقد تم قراءة هذه المعاهدة من زاويتين مختلفتين: ففي حين ركز البعض على دورها في تفعيل وتوثيق التعاون الإستراتيجي والعسكري في محور طهران - دمشق والجبهة المشتركة التي تقرر إقامتها لمواجهة مخططات العزل والحصار الأمريكية والدولية، يصل أحد التقارير الغربية في قراءته لحجم الاختراق الإيراني الأخطبوطي لسورية إلى تشبيهه بالاختراق السوري للبنان خلال مرحلة الهيمنة السورية عليه، أي إن النظام السوري بات يشرب من الكأس نفسها التي كان يشرب منها النظام اللبناني.

ظاهرة التشيع في سورية وحالة السخط الشعبي تجاهها دليل على ضعف النظام وعلى وقوعه رهينة في أيدي الإيرانيين. فالنفوذ المتزايد الذي تؤديه إيران داخل سورية واسع وممتد وعلى كل المستويات، وليست (ظاهرة التشيع) والتغلغل الإيراني سوى الجزء الظاهر منها، والسفير الإيراني في دمشق يؤدي حاليًّا دوراً محوريًّا داخل سورية.

لقد قام النظام السوري في عهد حافظ الأسد، ثم في عهد ابنه بشار بتقديم تسهيلات غير محدودة لإيران في سورية، منها:

(١) السماح بدخول عشرات الألوف من الإيرانيين إلى سورية في شكل دوري (أكثر من مليون سائح سنويًّا) حيث يتوزع هؤلاء على المراكز السياحية الدينية الشيعية، مثل السيدة زينب والسيدة سكينة وسائر الأضرحة التي تُعدّ عتبات مقدسة شيعية يؤمها آلاف الإيرانيين.

(٢) التغاضي عن الأنشطة الإيرانية المثيرة للشبهات وعن الانتشار الكثيف للمظاهر الشيعية في السنوات الأخيرة الذي شمل كل المحافظات في بلد يُعدّ ذا أغلبية سنية ساحقة، ولا يمثل الشيعة فيه (إذا استثنينا العلويين) سوى واحد في المئة ونحو ١٥٠ ألف نسمة (٢٠٠٦م). ومن ذلك التغاضي عن التوسع في بناء الحوزات التي تفيد المعلومات أن عددها قد ازداد بشكل كبير بدعم إيراني واضح، حيث قامت حوزات متعددة تتوزع مرجعياتها الدينية بين آية الله على خامنئي المرشد الأعلى للجمهورية الإيرانية وآية الله علي السيستاني المرجع الشيعي العراقي والمرجع اللبناني محمد حسين فضل الله.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى التغاضي عن التوسع في أنشطة الدعاية والترويج للتشيع، حيث تفيد المعلومات أن دعاة شيعة يطوفون المدن والقرى

السورية لنشر المذهب الشيعي وفتح حسينيات ومراكز دينية وثقافية ومراكز تدريس ومكتبات في غالبية المناطق، ووصلت إلى حلب وضواحيها وحمص وحماة والحسكة والقاقشلي والرقة واللاذقية، ودير الزور وغيرها، ولم تعد هذه الأنشطة محصورة في ضاحية السيدة زينب، كما في السابق.

وفي موازاة ذلك السماح بإقامة المناسبات الدينية والموالد والمآتم والمؤتمرات الثقافية التي يحضرها مسؤولون رسميون، أي إن هناك تشجيعاً على ذلك من قبل النظام. وقد لوحظ أن إيران تؤدي دوراً في تمويل بناء مستشفيات ومستوصفات خيرية ومساجد وحسينيات انضمت إلى مسجدَي صفية ودرعا في دمشق ومسجد النقطة في حلب ومشفى الخميني في دمشق والمشفى الخيري في حلب.

(٣) التغاضي عن النشاط المتزايد للجمعيات الإيرانية: ويتردد في سورية أن أنشط الجمعيات الخيرية حاليًّا وأكثرها فعالية في دعم ومساعدة المحتاجين هي جمعيات ذات تمويل إيراني تتولى توفير مساعدات مالية شهرية للمسنين وتوزيع الأرز والسكر والطحين.

(٤) التغاضي عن ظاهرة الدعوة إلى التشيع والعمل على إقناع الشباب السوري باعتناق المذهب الشيعي، ودفع الأموال لمن يتشيع، وتقديم عروض الزواج لهؤلاء الشباب، وتحمل تكاليف ذلك، ومنح العطايا لرؤساء العشائر، مثل السيارات والأموال لهم ولعشيرتهم ممن يتشيع، ودعوتهم لدراسة العلوم الشرعية (الشيعية) داخل سورية وخارجها.

(٥) التعاون الجامعي والثقافي: ففي الآونة الأخيرة بدأ الإيرانيون بإعداد برامج تعاون ثقافي تشمل زيارات منظمة إلى سورية وتوزيع دعوات على فعاليات من مختلف القطاعات السورية وإلى أساتذة الجامعات

وتخصيص منح دراسية في الجامعات الإيرانية. وقد أدى هذا التعاون الجامعي أخيراً إلى إدخال تعليم اللغة الفارسية إلى عدد من الجامعات السورية، وهو ما يعني أن العملية لم تعد تقتصر على نشر التشيع، وإنما أضيف إليها عملية نشر التفريس أيضاً.

وكما سنوضح لاحقاً، فإن حالات اعتناق المذهب الشيعي شهدت أخيراً تزايداً لافتاً، بحيث يقدر عدد الشيعة السوريين الجدد بالآلاف.

ومن أهم وسائل إيران لنشر التشيع في سورية، المركز الثقافي الإيراني، الذي يعمل ليلاً ونهارًا ودون كلل أو ملل لنشر التشيع في سورية، وقد أصبح بمنزلة أخطبوط مد أذرعه في كل اتجاه. وتتنوع أنشطة المركز من تعليم اللغة الفارسية في دورات مستمرة ضمن المستشارية الإيرانية أو في مركز يتبع لها في اللاذقية، ويدعم المركز أقسام اللغة الفارسية الموجودة في ثلاث جامعات هي دمشق، وحلب، وحمص عبر أساتذة إيرانيين وحتى في الكتب، كذلك يدعم تعليم اللغة الفارسية في معاهد اللغات وفي جامعات تشرين ودمشق وحلب.

ويقيم المركز معارض الكتب، ولديه معرض خاص في ذكري الثورة، في شهر شباط (فبراير) من كل عام يستمر مدة عشرين يومًا داخل المستشارية. ولديه معرض آخر يستمر ثلاثة أشهر في مرقد السيدة زينب. وتقيم المستشارية الثقافية الإيرانية أسابيع ثقافية في كثير من المدن والمحافظات السورية، تضم إضافة إلى معرض الكتب، معرض الفنون البدوية الإيرانية، ومعرضاً لأعمال الفنانين الإيرانيين، وندوة علمية ثقافية عن العلاقات الأدبية بين الثقافتين الفارسية والعربية، يُشارك فيها مفكرون وأساتذة من إيران وسورية.

ويقيم المركز ندوة أسرية في كل شهر خاصة بموضوعات تربوية للأسرة، وندوة شهرية في مركز الدراسات الإسلامية الإيرانية العربية ضمن المستشارية حول موضوعات ثقافية وفكرية عامة كحوار الأديان والمذاهب، ويقيم المركز ندوات سنوية خاصة في ذكري انتصار الثورة.

وضمن الاتفاقيات بين الوزارات في إيران وسورية، هناك أكثر من ٢٠٠ طالب يتابعون دراستهم المتخصصة في حقل الطب في سورية، وهناك عشرة طلاب دكتوراه في الأدب العربي، وهناك طلاب في فروع أخري، في المقابل يوجد في إيران نحو ١٢ طالباً وطالبة سوريين يحضرون رسالة دكتوراه في الأدب الفارسي، وطلاب آخرون في اختصاصات مختلفة. أما منح الدراسة المقدمة من الحوزات العلمية في السيدة زينب فهذه ترتبط بالمكاتب التابعة لعلماء الدين سواء كانت من إيران أو العراق أو حتى لبنان[١].

تجلى التحالف الإستراتيجي بين النظام السوري برئاسة حافظ الأسد والنظام الإيراني بعد الثورة بصورة كبيرة في الحرب الإيرانية العراقية عام ١٩٨٠م حيث بادر نظام الأسد بالتحالف مع إيران ليطعن العراق من الخلف وعلى خلاف ما توقع الكثيرون، حيث كان من المفترض أن يتحالف النظام السوري مع العراقي، فكلاهما يستمد من معين واحد، وهو القومية العربية وأفكار حزب البعث.

وخلال سنوات الحرب وبعدها، قدّمت إيران لسورية مئات الملايين من الدولارات على هيئة نفط رخيص جداً، في حين سهّلت سورية لإيران رعاية (حزب الله) في لبنان. وحين انتهت الحرب عام ١٩٨٨م، استمرت شراكة إيران وسورية الإستراتيجية، حيث أدت معارضتهما لإسرائيل دور العامل الموحِّد الذي يجمع بينهما.

ونتيجة للنمو المطرد لظاهرة التشيع في سورية فقد ظهرت إلى الوجود في الآونة الأخيرة المئات من المقالات والدراسات والتقارير والكتب التي ترصد الظاهرة وتحذر منها، بعد أن كانت الظاهرة غير مطروحة على جدول أعمال اهتمامات الرأي العام، سواء داخل سورية أم خارجها، خاصة بعد أن أثارها المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية (علي صدر الدين البيانوني)، ونائب الرئيس -المنشق- عبدالحليم خدام، في تصريحات إعلامية مختلفة قبل أن تأخذ طريقها إلى بيانات رسمية صادرة عن (جبهة الخلاص الوطني).

وقد صدرت أخيراً أول دراسة من نوعها في هذا المجال، موّلتها حركة (العدالة والبناء) المعارضة، وأُعلنت نتائجها في لندن، وقام بها باحثون ميدانيون على مدى ستة أشهر بناء على طلب إحدى الجهات الأوروبية الرسمية، وبتمويل منها. وتتناول الدراسة عملية (التشيع) في سورية خلال (١٩٨٥- ٢٠٠٥م)، مع ملحق إضافي تناول النصف الأول من عام ٢٠٠٦م، وقد أعد الدراسة تسعة باحثين ميدانيين متخصصين في مجال علم الاجتماع وعلم الاجتماع السياسي والإحصاء، ويشتركون في أنهم جميعاً علمانيون ونشطاء في حركات (المجتمع المدني) السورية.

وقد جاءت الدراسة في ٣٢ صفحة وتحت عنوان: (عملية التشيع في سورية ١٩٨٥م- ٢٠٠٦م، دراسة اجتماعية- إحصائية)، وأجريت الدراسة بشكل سري وبعيداً عن الأضواء، وجرى إغفال أسماء الباحثين والاحتفاظ بها على وثيقة مستقلة لدى الجهة الممولة في بلجيكا. وقدم للدراسة الكاتب والصحفي السوري نزار نيوف. وهو متخصص أكاديمي في الاقتصاد والعلوم السياسية والتاريخ الاقتصادي - السياسي المقارن للديكتاتوريات في حوض المتوسط.

وتتناول الدراسة عملية التشيع في المحافظات السورية الرئيسة؛ لكونها تضم الغالبية الساحقة من سكان سورية، ولأن عملية التشيع تجري فيها حصريًّا، ولأنها المحافظات التي تضم أقليات إسلامية مذهبية غير سنية (علويون، وإسماعيليون، وشيعة... إلخ) بنسب مختلفة، طاغية في بعضها، وضئيلة في بعضها الآخر. وأشار البحث إلى أن محافظة القنيطرة قد استثنيت من البحث بسبب وضعها الخاص (معظم أراضيها تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ عام ١٩٦٧م).

يشير البحث إلى أن الباحثين لجؤا إلى طريقة (مبتكرة) وهي تفرغ كل منهم لمنطقة جغرافية ديمجرافية بعينها، وعدم الالتقاء ببعضهم أو مناقشة المعلومات والنتائج الخام التي توصل كل منهم إليها طوال المدة المكرسة لجمع المعلومات والبيانات، وهي خمسة أشهر. أما الشهر الأخير فخصص لعقد حلقات نقاشية مغلقة فيما بينهم لتداول هذه المعلومات ومناقشتها وغربلتها واستخلاص المعطيات النهائية والنتائج بعد طرحها من الحساب حين تكون نسبة الارتياب أكبر من ٥٠٪، ومن ثم تحرير النص النهائي. أما مصادر المعلومات الخام فقد حددها البحث بأربعة:

- سجلات المحاكم الشرعية (المذهبية) وبيانات الزواج والطلاق.
- معطيات مستخلصة من سجلات مديريات وزارة الأوقاف في المحافظات.
- مقابلات شخصية ميدانية مع علماء دين ووجهاء ومواطنين عاديين ينتمون إلى مختلف المذاهب الإسلامية المعنية.
- معطيات مستخلصة من سجلات المراكز الثقافية الإيرانية والحوزات والمدارس الشيعية التي تشرف عليها وتدعمها، جزئيًّا أو كليًّا، السفارة الإيرانية في دمشق.

خلص البحث إلى نتائج تشير إلى أن إجمالي المسلمين المتشيعين في سورية خلال (١٩٨٥م - ٢٠٠٦م) لا يتجاوز (٦٢) ألفًا، أغلبيتهم الساحقة من أبناء الطائفة العلوية، ولا تتجاوز نسبة المسلمين السنة فيهم (١٥٠٠) مواطن! ويشير البحث إلى أن عدد الأسر «العلوية» التي تشيعت خلال المدة المذكورة بلغ (٨٧٨٣) أسرة. وبافتراض أن متوسط عدد أفراد الأسرة السورية هو ستة أشخاص، وأن جميع أفراد الأسرة تبعوا رب الأسرة المتشيع، فإن العدد الإجمالي للعلويين الذين تشيعوا يبلغ نحو (٥٢٧٠٠) شخص. هذا، بينما بلغ عدد الأسر الإسماعيلية المتشيعة نحو (١٢٠٠) أسرة، أي نحو (٧٤٠٠) شخص. واستناداً إلى هذه الأعداد تكون نسبة المتشيعين في كل طائفة/ مذهب خلال المدة المذكورة ٨٥٪ في الوسط العلوي؛ ١٣٪ في الوسط الإسماعيلي؛ و٢٪ فقط في الوسط السني.

ذكرت الدراسة ملاحظتين في هذا السياق: أولاهما أنه لم تسجل أي حالة تشيع في وسط الشيعة الموحدين المعروفين باسم (الدروز) أو في الوسط المسيحي بمختلف مذاهبه (الكاثوليكية، والأرثوذوكسية، والبروتستانتية... إلخ)، وثانيتهما أن ٧٪ على الأقل من المسلمين السنة الذين تشيعوا في دمشق وريفها جرت في أوساط العائلات الشيعية في الأصل، التي (تسننت) مع الزمن لأسباب مختلفة. وسجلت ملاحظة مشابهة لجهة المسلمين السنة في حلب، حيث أشارت إلى أن ١١٪ منهم ينحدرون من أصول شيعية في الأساس، وهو ما أسمته الدراسة بـ (تجديد التشيع).

خلصت الدراسة إلى أنه من الصعب ربط حالات التشيع بوضع اجتماعي (معياري) يمكن الركون إليه علميًا في تحديد سبب أساسي أو طاغٍ وقف وراء

تشيع هؤلاء، سواء في الوسط السني أو في الوسطين الإسماعيلي والعلوي، ولا سيما الجانب الاقتصادي منه، أو ما أشير إليه في بعض وسائل الإعلام بـ(الفقر والحاجة إلى الأموال الإيرانية)، فالقسم الأكبر من المتشيعين السنة في دمشق (٦٤,٤٪) ينتمون لعائلات تجارية أو مهنية وضعها الاقتصادي جيد أو ممتاز.

وإن القسم الأكبر منهم (نحو ٦٩٪) من حملة الشهادات الثانوية أو المعاهد المتوسطة وما فوق. واقتربت النسب في حلب من هذا الإطار. حيث سجل البحث أن ٦١٪ من متشيعي حلب ذوو وضع اجتماعي- اقتصادي متوسط أو جيد. فيما كان معظم الفقراء المتشيعين منهم (٣٩٪) ذوي أصول شيعية بعيدة (جددوا تشيعهم). أي إن دافعهم إلى ذلك (ديني). ولم تتجاوز نسب المتشيعين لأسباب (مالية) في الوسط السني إجمالاً (في جميع المحافظات التي جرى مسحها) الـ٣٪.

سجلت الدراسة (مفارقة طريفة) في هذا المجال، وهي أن بعض السنة المتشيعين - وخصوصاً طلاب الجامعات منهم - غير ملتزمين دينيًّا، وكان تشيعهم، حسب ما أفادوا للباحثين، (لأنهم أرادوا الحصول على مبلغ مالي لتسديد نفقات الدراسة أو الزواج على الرغم من أن الالتزام الديني، سواء أكان سنيًّا أو شيعيًّا، إسلاميًّا أو مسيحيًّا، لا يعني لهم شيئاً). وهو ما يمكن أن يصنف تحت عنوان (الانتهازية).

مفارقة أخرى سجلتها الدراسة في الملحق الإضافي لجهة المتشيعين السنة، ولا سيما من تشيع منهم بعد الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف عام ٢٠٠٦م، وهي أنهم تشيعوا حبًّا في (حزب الله) وحسن نصر الله!

في إطار التشيع في الوسط العلوي، أشارت الدراسة إلى أن الأغلبية الساحقة من المتشيعين (نحو ٧٦٪) هم من الطلاب أو العاطلين عن العمل. ولاحظت الدراسة أن قسماً من المتشيعين العلويين هم من العسكريين. وهذه الملاحظة منقولة من إفادة أحد علماء الدين العلويين في طرطوس؛ لأنه من الصعب معرفة النسبة الحقيقية من المتشيعين العسكريين لأسباب (لوجستية) مفهومة. أما المتشيعون في الوسط الإسماعيلي فجلهم (نحو ٨٤٪) من الفئات الوسطى وما فوق، منهم ٦٨٪ من حملة الشهادات الثانوية وما فوق.

واستخلصت الدراسات خمسة مؤشرات أساسية من عملية التشيع في سوريا، هي:

- معظم حالات التشيع جرت وتجري في الوسط الإسلامي المعتبر تاريخيًّا وفقهيًّا من العائلة الفقهية الشيعية (إسماعيليون، وعلويون...).
- نسبة التشيع المتواضعة جداً (٢٪) في الوسط السني لا تسمح بالحديث أبداً عن (عملية تبشير شيعي) في هذا الوسط، خصوصًا إذا أخذنا في الحسبان أن قسماً من هؤلاء ينحدرون أصلاً من عائلات شيعية (تسننت) مع الزمن لاعتبارات مختلفة.
- نسبة المتشيعين لأسباب اقتصادية - مالية (الوضع الاقتصادي-الاجتماعي) لا تسمح بالحديث عن (ظاهرة تشيع مأجور) أو (ظاهرة ارتزاق مذهبي).
- الغالبية الساحقة من حالات التشيع الإسماعيلي تندرج في (الإطار الرمزي) إذا جاز التعبير، كالالتزام بالصلوات الخمس في مساجد ينفصل فيها النساء عن الرجال بدلاً من الصلوات (شبه المختلطة)

عنـد الإسماعيليـين، حيـث النسـاء الملتزمـات دينيًا منهـم لا يعنين كثـيراً بوضع الحجاب وإزالة المكياج في أثنـاء الصلاة. وبالنسبة إلى المتشيعـين العلويين، يلاحظ على الدراسـة أنها اقتصرت في غالبيتها الساحقـة على الرجال (٩٣٪). أما النساء المتشيعات فلم يلتزمن بما يعرف بـ(الشادور)-(الحجاب)، واكتفين بغطاء عادي للرأس. ويعود هـذا أساسًـا إلى أن الفقه الجعفـري (على الطريقـة العلوية) يعفي النساء من واجباتهن الدينية (المرأة غير مكلفة شرعيًا).

- استمـرار وتـيرة التشيـع على هـذا النحـو في الوسطـين الإسماعيلي والعلـوي، سيـؤدي إلى (انقراض) الطائفـة الأولى نظريًا خلال عقد من الزمن، وإلى (انقراض) الثانية خلال ربع قرن[٢].

لكن هناك دراسة أخرى تقدم معلومات مختلفة عن الظاهرة، وهي الدراسة التي قام بها المعهد الدولي للدراسات السورية عام ٢٠٠٩م، تحت عنوان (البعث الشيعي في سورية.. مقدمات منهجية)، وهذه الدراسة تؤكد أن عدد المتشيعين الإجمالي في سورية في الوسط الاجتماعي السني وحده ضمن المجال الزمني من ١٩٩٩م إلى ٢٠٠٧م هو (١٥٩٣٠).

هـذه النتيجـة تشكل أكثر مـن عشرة أضعـاف الرقم الـذي توصلت إليه الدراسـة السابقة التي قالـت: إن إجمالي عدد المتشيعـين السُنَّة في سورية لا يتجاوز ١٥٠٠ شخص.

وأثبتت الدراسة أن الجزيرة السورية بمحافظاتها الثلاثة (الرقة، دير الزور، الحسكة) كانت فيها أكبر نسبة تشيع في الوسط الاجتماعي السني

على الإطلاق في المجال الزمني ١٩٩٩م-٢٠٠٧م، فعدد المتشيعين في هذه المنطقة وضمن هذا المجال الزمني يصل إلى ٦٠٨٠ شخصاً، مما يعني أن نسبة المتشيعين من هذه المنطقة وحدها هو ٧٦٪ من نسبة المتشيعين السُّنة الإجمالية في عهد بشار الأسد، و ٣٨٪ من إجمالي عدد المتشيعين في المجال الزمني ١٩١٩م- ٢٠٠٧م.

وهذه النتيجة التي توصلت إليها هذه الدراسة تناقض تمامًا مع ما وصلت إليه الدراسة السابقة التي وصفت العدد الإجمالي الذي وصلت إليه بأنه لا يشكل إلا أجزاء عشرية متناهية الصغر (بضع عائلات تعد على أصابع يد واحدة)!

وحسب ما توصلت إليه هذه الدراسة فإن أكبر نسبة تشيُّع في الوسط السني هي في محافظة دير الزور، تليها محافظة إدلب، وتحتل الدرجة الثالثة مدينة حلب، في حين أصغر نسب التشيع في الوسط السني كانت في محافظة حماه أقل من ١٪.

وهي نتيجة تختلف جذريًّا عما ورد في الدراسة السابقة(٣)، بل هي معاكسة لها، فقد زعمت تلك الدراسة بأن أعلى نسبة التشيع في الوسط السني كانت في محافظة حلب (٤٦٪) وأن محافظة إدلب كانت أدنى النسب (٤٪) في المحافظات، في حين أن دير الزور ومحافظات الجزيرة شكلت جميعها أجزاء عشرية متناهية في الصغر، أي أقل من ١٪.(٣)

وبدا النفوذ الإيراني أكثر وضوحاً في سوريا، سواء على صعيد المواقف السياسية الرسمية، أو على صعيد المظاهر الاجتماعية والدينية داخل المجتمع

السوري، فلأول مرة باتت الوفود الإيرانية والعراقية تقيم جلسات الشتم للصحابة والأمويين في عاصمة الأمويين دمشق، في حين أن عقد حلقة لتدارس القرآن الكريم ممنوعة في سورية إلا بإذن أجهزة الأمن، ولأول مرة بات يتحدث ما يعرف باسم (ممثل قائد الثورة الإسلامية في سورية)، في حين أن الأحرار في سورية، من إسلاميين وغير إسلاميين، ممنوع عليهم مجرد انتقاد النظام، تحت طائلة السجن أو الموت. ولأول مرة باتت المظاهر الاحتفالية بأفكار الخميني علنية إلى درجة تنظيم (تظاهرات ثقافية).

وللتأكيد على ذلك، فقد نقلت وكالة الأنباء الإيرانية (إرنا) في ١٥/٤/٢٠٠٨م، عن مجتبى الحسيني، ممثل قائد الثورة الإسلامية في سورية، أن مراسم ذكرى رحيل الإمام الخميني لهذا العام تقام على أفضل وجه في مقامي السيدة زينب والسيدة رقية بدمشق، وأن العالم اليوم يحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى الآراء والأفكار المتقدمة للإمام الخميني، وأن شعبي سورية ولبنان يبحثان عن هذه الآراء والأفكار أكثر من بقية شعوب العالم. وكانت مراسم رحيل الخميني قد أقيمت أيضاً في عدد من الحسينيات والمراكز الثقافية في سورية بإشراف (المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية).

وفي إطار مد النفوذ الإيراني إلى داخل سورية، ظهرت في عهد بشار كثير من الشركات الإيرانية الضخمة، التي تعمل في مجالات الصناعة والنفط والبناء، ووفّر النظام السوري التغطية الكاملة لعمل الموفدين من جماعة عبد العزيز الحكيم، سواء بين العراقيين المهجرين، أو السوريين المقيمين، ولا سيما في محافظة درعا، حيث تنشط الدعوة، والغطاء نفسه موفر لتوزيع الكتب

والمنشورات التي تدعو إلى التشيّع في مختلف المحافظات السورية، على الرغم من التدقيق الشديد الذي يمارسه النظام السوري على المواد الدينية المختلفة.

التشيّع السياسي، بمعنى التشيّع المرتبط بإيران، هو أحد أساليب النظام السوري لدعم أسباب بقائه، على الرغم من أن مشروعاً كهذا يعرّض المجتمع السوري للخطر، ويفاقم مشكلاته الداخلية، وهو مشروع، الله وحده يعلم، إلى أي مشكلة طائفية ومذهبية سيقود سورية، لكن يبدو أن البقاء في السلطة وضرورات التحالفات الإستراتيجية أهم وأبقى لدى آل الأسد(٤).

إيران والثورة السورية

أطلق المرشد العام لإيران آية الله علي خامنئي فتواه واتهامه للثورة الشعبية السورية التي اندلعت في ١٥ مارس ٢٠١١م، بأنها عمل من تدبير الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والعالم الغربي ضد النظام السوري الممانع وصاحب الصمود والتصدي.

هذه الفتوى تهجم سافر وظالم للشهداء السوريين الأطهار الذين سقطوا، وهم عزل إلا من حناجرهم وهديرها بأصوات الحرية والكرامة، وهي فتوى سياسية خاصة ذات أغراض دنيوية متحيزة لا علاقة لها أبداً بالقيم الإسلامية ولا بالمعايير الدينية ولا بالمبادئ الأخلاقية التي تصنف الظالم ظالمًا و المجرم مجرمًا والدموي دمويًّا بصرف النظر عن أصله و فصله.

ولا ندري وفق أي معايير صنف خامنئي ثورة الشعب السوري بكونها ثورة مدعومة أمريكيًّا؟ وما هي الأدلة الشرعية والثبوتية التي تدعم رأيه؟ وهل يمتلك وثائق رسمية تؤيد رأيه و تساند طروحاته؟ كيف يبرر خامنئي استشهاد

آلاف الشهداء السوريين في ساحة المواجهة مع نظام القتلة والبرابرة في الشام ومع استمرار مهرجان القتل وسفك الدماء؟ وهل يرضى خامنئي عن قتل الأطفال بالجملة وعن حملات القمع التي تقوم بها المخابرات السورية وعناصر (الشبيحة) المجرمين الذين يرفعون شعارات تؤله قائد البرابرة بشار الأسد، وتجعله إلهاً فوق الآلهة؟

هل يرضى الولي الفقيه، وهو ولي أمر المؤمنين كما يدعي وكما هو مفترض وضمن واجباته الشرعية المعلنة، عن كل هذا القدر الهائل من سفك الدماء لمسلمين وموحدين كل ذنبهم هو رفضهم للظلم و للمطالبة بحريتهم وكرامتهم وأرزاقهم ومستقبل أبنائهم؟

كيف يتهم خامنئي كل هذا القدر الهائل من الشهداء والجرحى والمعتقلين والمهجرين من ديارهم قسراً بالعمالة للولايات المتحدة وإسرائيل؟ وهل الولايات المتحدة مصنع للشهداء و المقاومين؟ هل يعلم خامنئي شيئاً، أي نزر ولو بسيطاً من تاريخ الشعب السوري المقاوم ضد الاستعمار والصهيونية وكل أشكال الهيمنة والاستغلال؟[٥].

ليس التحالف القائم بين نظامي الحكم في إيران وسورية حديثاً، ولم ينطلق أصلاً من منطلق من يتساءلون عن مصيره الآن، أي لم ينطلق ممّا يمكن صنعه لقضية فلسطين تحديداً، ولا ما ينبغي صنعه معاً لمواجهة الهيمنة الأجنبية.. بل لم يكن هذا التحالف - كما يتردّد أحياناً - نتيجة منبثقة عن انفراد الحكم القائم في سورية عربيًّا بالانحياز لإيران في الحرب بين العراق وإيران، في حقبة الصراع بين جناحي البعث الحاكمين في سورية والعراق آنذاك.

لقد بدأ التحالف الرسمي الثنائي على خلفية أخرى، وكانت بدايته (فور) قيام الثورة الإيرانية، وتزامنت مع الأحداث التي شهدتها سورية (١٩٧٩-١٩٨٢م) ومع عملية القمع غير المسبوقة للتيار الإسلامي بذريعة حمل أحد أجنحته السلاح في مواجهة الاستبداد والفساد.. مع ملاحظة أنّ استخدام السلاح آنذاك جاء ردًّا على ما مارسه الاستبداد والفساد في سورية، وعلى وجه التخصيص ما كانت (سرايا الدفاع) تمارسه، وهي ترتكب آنذاك شبيه ما ترتكبه اليوم (الفرقة الرابعة) الوريثة لها.

كانت أخبار القمع الدموي في سورية آنذاك تنتشر في كل مكان، وتستثير على وجه التخصيص التيار الإسلامي، وكان يُفترض أن إيران التي بدأت تتحدّث عمّا سمّي (تصدير الثورة ضد الاستبداد) أوّل من يبادر إلى تأييد الثائرين على الاستبداد في سورية. آنذاك كانت إيران تؤكّد ما سبق أن رفعته من شعارات إسلامية من خلال ثورتها، ولكنّها في احتفالات مرور العام الأول عليها، ودعوتها لممثلي الحركات والجماعات الإسلامية في كل مكان من العالم، اختارت (سورية) بالذات، وفي تلك الظروف الداخلية الدامية تحديدا، لتكون (ضيف الشرف) في تلك الاحتفالات.. وهذا من قبل أن تبدأ الحرب مع العراق، ومن قبل أن تتحوّل المخاوف في كثير من الدول الخليجية من (تصدير الثورة) إلى مستوى عداء مفتوح.

آنذاك بدأ التحالف الثنائي.. بين حكم (إسلامي) في دولة أسقطت ثورتها الاستبداد الفاسد.. وبين حكمٍ إن لم يوصف بالمعادي للإسلام فلا ريب في صحّة وصفه بأنه استبدادي غير إسلامي، ويوجّه ضرباته لكلّ ما هو إسلامي بذريعة البطش بمن أعلن (ثورة مسلّحة) تحت عنوان إسلامي[٦].

بينما كان يُنتظر من الثورة الإيرانية التي أسقطت آنذاك الاستبداد والفساد في عهد (الشاه) وتمرّدت على الهيمنة الأجنبية، أن تقف موقف رفض الاستبداد وفساده وممارساته القمعية في سورية.. كسواها، ولم تصنع ذلك.. بل تحالفت مع الحكم القائم.

إن الاعتراض المعروف على السياسات والممارسات الصادرة عن قوى الهيمنة الدولية، بما يشمل رفض (كيلها بمكيالين) لقضايا الإنسان وحقوقه وحرياته والقضايا العادلة كقضية فلسطين، يفقد مصداقيته ما لم يقترن برفض الكيل بمكيالين عبر سياسات وممارسات صادرة عن أي دولة عربية أو إسلامية، وهذا ما يسري على إيران وسواها، ولا سيما على صعيد التعامل مع الأنظمة الاستبدادية، كالنظام الحاكم في سورية، أي في الميدان الذي كان هو بالذات مسوّغ مشروعية قيام الثورة الإيرانية، ولا شكّ أنّها مشروعية تضمحلّ، عندما يتحوّل الحكم بعد الثورة إلى ممارسة ألوان من الاستبداد، الذي قامت الثورة بسببه، وهو مرفوض في كل مكان، وتحت أيّ عنوان، في مختلف الظروف وبمختلف الذرائع.. بل إنّ ممارسة الاستبداد تعطي المشروعية للثورة على نظام حكم مستبد.. وإن بدأت نشأته الأولى بثورة على الاستبداد أيضاً.

كان التحالف مع النظام الحاكم في سورية في أثناء أحداث الثمانينيات الميلادية سبباً في خسارة ثورة إيران قسطاً كبيراً من التعاطف (الشعبي) في أوساط المسلمين؛ لأنّها أسقطت الاستبداد والهيمنة، ويتكرّر ذلك الآن، وهي تتعاطف.. أو تدعم.. نظام الحكم القمعي القائم الآن في سورية، سيان كم يتوافر من التعاطف (الشعبي) مع السياسات التي تحمل عنوان (مواجهة الهيمنة ودعم المقاومة).

إنّ دعم القضايا العادلة، لا يعطي أحداً (صكًّا مفتوحاً) لدعم الاستبداد والفساد –ناهيك عن ممارستهما– وإنّ جريمة دعم الاستبداد والمستبدين محليًّا لا يهوّن من شأنها إطلاقًا رفضُ الاستبداد والمستبدين دوليًّا.

إن السلطة الحاكمة في إيران باسم الثورة، ابتعدت عن تمكين شعب إيران من صناعة قراره وفق إرادته المتحررة عبر الثورة، إلى درجة تكاد تعطي مسوّغ الثورة عليها، مثلما سبق أن كان الاستبداد هو مسوّغ الثورة على شاه إيران. وبغض النظر عن تأييد جوانب عدة من سياسات إيران الرسمية تجاه قوى الهيمنة الدولية ابتعدت إيران أيضاً عن ممارسة سياسات إقليمية تعبّر عن الشعارات التي قامت الثورة عليها[٧].

الهوامش:

(١) أحمد الظرافي، أخطبوط التشيع في سورية .. أبعاد التحالف الإيراني السوري، موقع البينة، ٢١-٧-٢٠٠٩م.

(٢) عملية التشيع في سورية ١٩٨٥م-٢٠٠٦م، دراسة اجتماعية- إحصائية.

(٣) البعث الشيعي في سورية .. مقدمات منهجية.

(٤) أحمد حرب علي، التشيّع في سوريا: مشروع ديني بأجندة سياسية، مدونته على الإنترنت، ٣١ مارس ٢٠١٠م.

(٥) ناصر المنصور الدرعاوي، صحيفة السوسنة الأردنية، ١٩-٧-٢٠٠١م.

(٦) نبيل شبيب، إيران .. والتحالف مع الاستبداد في سورية، ٢٠١١/١٢/١٧م.

(٧) المرجع السابق.

الفصل الثاني عشر

التشيع في الأردن .. مواجهة نشطة

على الرغم من أن الأردن من الدول العربية التي للقبائل فيها شأن، وعلى الرغم مـن أنها دولة تعتز بسنيتهـا، إلا أن التقاريـر والتصريحات الرسمية المتعددة تؤكد وجود ظاهرة محدودة من التشيع في الأردن في السنوات الأخيرة في مناطـق مختلفـة، من خلال وجود عشـرات الآلاف من الشيعـة العراقيين المقيمـين في الأردن، ويتحدث بعض المسؤولين الأردنيين عـن (خلايا شيعية نائمـة) في عمـان، يتوازى ذلـك مع إعجاب شرائـح اجتماعيـة واسعة بأداء (حـزب الله) في حرب عـام ٢٠٠٦م، وكفـاءة حسن نصـر الله أمينه العام، الذي أصبح بمنزلة بطل شعبي في الشارع العربي، والأردني بالتحديد.

لكن قبل دراسة ظاهرة (التشيع) في الأردن، ينبغي الوقوف عند وجود عشائر أردنية شيعية، في الأصل منذ بدايات تأسيس المملكة، بل تعود جذور بعضها إلى عـام ١٨٩٠م، وأصـل هـذه العشائر من جنوب لبنان، وتحمل الجنسية الأردنية أباً عن جد، مثلها مثل باقي العشائر الأخرى[1].

وتتحدث مصادر من شيعة الأردن عن تعداد الشيعة الأردنيين، فتقول: إن تعدداهم يبلغ قرابة ثلاثة آلاف شخص، وهو الرقم الذي لا توجد إحصائية دقيقة تنفيه أو تثبته. وتقطن العشائر الشيعية الأردنية في مناطق رئيسة عدة: الرمثا، ودير أبو سعيد، وإربد، وعمان، وأبرزها عائلات بيضون، سعد، ديباجة، فردوس، جمعة، الشرارة، حرب، برجاوي، البزة. ولا تحتفظ هذه العشائر بأي عادات أو تقاليد خاصة، مخالفة للتقاليد الأردنية، وتندمج في المجتمع الأردني بشكل كامل، وتشاركه في مختلف المناسبات، وإن كان بعضها يحتفل رمزيًا بالمناسبات الدينية الشيعية.

في منتصف التسعينيات برزت علاقة بين شخصيات من هذه العشائر وبين مؤسسة الخوئي في لندن، بمباركة من الأمير الحسن، وقد كان حريصًا على حوار المذاهب والطوائف المختلفة، وكان ثمة تفكير في تأسيس مؤسسة خاصة بهم تحت اسم (أبو ذر الغفاري) إلا أن الدولة عادت وتراجعت عن دعم الفكرة فيما بعد.

مصادر رسمية تقر بوجود عشائر أردنية شيعية، وتؤكد حقوق أفرادها في المواطنة الكاملة، وعلاقتها الجيدة بالدولة، ومع ذلك لا تخفي وجود علامة استفهام حول ولاء الشيعة الأردنيين وارتباطهم بالمؤسسات الدينية الشيعية، خارج الأردن، وعلاقة بعض الأفراد بـ(حزب الله).

وعلى الرغم من أن هناك اتفاقاً بين مختلف الأطراف الرسمية والقريبة من الشيعة على أنّ ظاهرة التشيع محدودة، لكنّها فاعلة في السنوات الأخيرة، واعتنق المذهب الشيعي مئات الأشخاص، سواء رجال أو نساء أو عائلات.

معلومات رسمية، يؤكدها بعض المتشيعين، أنّ هناك قرابة الثلاثين عائلة في مخيم البقعة تشيّعت في الآونة الأخيرة، وأن هناك ظاهرة محدودة للتشيع في مدينة السلط، إضافة إلى عائلة أو أكثر في مخيم مادبا وحالات في إربد والزرقاء وجرش والكرك، والانتشار الأبرز للظاهرة في عمان في ضواحٍ مختلفة منها.

وقد ازدهرت ظاهرة التشيع بعد احتلال بغداد، ونزوح مئات الآلاف من العراقيين إلى الأردن.

ينشط الشيعة العراقيون بإقامة احتفالاتهم الدينية وإحياء المناسبات الشيعية، وقد حوّل عدد منهم منازلهم إلى حسينيات، يجتمعون فيها ويحضرها متشيعون أردنيون ويقرؤون فيها سيرة الحسين وينشدون الأناشيد الدينية، إحدى هذه الحسينيات المعروفة كانت في جبل الجوفة، قبل أن تعتقل الأجهزة الرسمية إمام هذه الحسينية، وتقوم باستجوابه ثم ترحيله.

تذكر تقارير أخرى وجود مكتبة وسط عمان، تبيع كتب الشيعة، ككتاب (المراجعات)، وهو من أكثر الكتب التي تدعو إلى التشيع، رواجاً. في حين تذكر تقارير إعلامية أن عراقيين شيعة يسكنون الأحياء الفقيرة في عمان (المحطة، الهاشمي الشمالي) يحيون المناسبات الدينية الشيعية في منازلهم، ويتأثر بهم أصدقاؤهم من الأردنيين.

وتحولت بعض المطاعم الشعبية العراقية في وسط العاصمة عمان إلى ملتقيات للشيعة العراقيين، وأصبحت تحفل، بصيغة غير مباشرة، بكثير من مظاهر التشيع.

وقد ارتفعت وتيرة الجدل حول تشيع السيد حسن السقاف، وهو أحد أبرز شيوخ (الأشاعرة)، وأصبح يشغل موقعاً أكاديميًّا مرموقاً، وكررت مصادر متعددة دعوى تأثره بالمذهب الجعفري الشيعي، وتبنيه شيئاً من عقيدة الشيعة، بخاصة الموقف من آل البيت ومن الصحابة الكرام، وتبني أقوال في قضية جدلية خلافية بين الفرق الإسلامية متعلقة بـ (تنزيه الله عز وجل)، ومسألة النظر إليه يوم القيامة، مخالفاً الأشاعرة. ولم يمضِ تحول السقاف، ودعوته وتصوراته دون جدل عنيف في أوساط الأشاعرة، وقد تولى الرد عليه أبرز الناشطين الأشاعرة، وهو سعيد فودة، في كتب ومساجلات فكرية ومعرفية عدة على موقع كل منهما على شبكة الإنترنت.

يرد السقاف بالنفي القاطع على مزاعم تشيعه، على الرغم من أنه يؤكد أنه يعطي نفسه حق الاجتهاد والنظر في قضايا العقيدة والفقه، قائلاً: (أنا عالم حرّ لست مقلّداً متمسكاً بالمذهب الشافعي، وأعتقد أنني وصلت إلى مرحلة يحق لي فيها الاجتهاد بالنظر في أدلة الكتاب والسنة).

وعن السبب في ازدياد الحديث عن تشيعه واعتناقه العقيدة الإمامية الجعفرية يُرجِع ذلك إلى دعاية السلفيين الذين دخل معهم في عراك فكري ومعرفي كبير، وقام بنقد ابن تيمية والألباني، فهم يحاولون إلصاق هذه التهمة به سعياً لتوريطه في كثير من المشكلات والأزمات الأمنية والفكرية، ولا يتوانى السلفيون، كما يذكر السقاف، عن تأليب المؤسسة الرسمية عليه والحشد ضده.

في المدة الأخيرة نشطت الأجهزة الرسمية في متابعة الشيعة العراقيين ورصد ظاهرة التشيع، وقامت بعدة مداهمات واعتقالات واستجوابات في صفوف الشيعة العراقيين والمتشيعين الأردنيين، ووضعت الظاهرة تحت المجهر، ما دفع الشيعة والمتشيعين إلى حالة من الحذر الشديد في أنشطتهم،

والاعتماد على مبدأ (التقية) - عدم الإعلان عن عقيدتهم والتنكر لتشيعهم- في كثير من الأحيان، ما صعّب من مهمة هذا التحقيق.

ويرى بعض المسؤولين أن ظاهرة التشيع، وإن كانت محدودة، إلا أنها مقلقة بحد ذاتها، فمن المعروف أن الأردن دولة سنية، لا يوجد فيها مشكلة طائفية أو مذهبية في الأصل، والتشيع الحالي وافد وجديد، ويدفع إلى التساؤل عن أهدافه وأبعاده ومراميه، فمن واجب المؤسسة الأمنية أن تقلق، وأن تدرس الظاهرة، بخاصة أنها في انتشار، ربما تشكل حاليًا بضع مئات، لكن إذا أصبحت مستقبلاً بالآلاف سيصعب التعامل معها، والحد منها، فالأولى متابعتها ومحاصرتها من الآن.

لا تزال الإستراتيجية الأمنية في التعامل مع الشيعة والمتشيعين تنطلق من المنظور الأمني المحض، بعيداً عن الأضواء، وإن كانت الجهود الأمنية شهدت طفرة حقيقية في المدة الأخيرة. وينفي بعض المسؤولين الأمنيين أن تفكر المؤسسة الرسمية في اللجوء إلى الحركة السلفية لمواجهة التشيع والحد منه، على الرغم من أن جماعات وحركات دينية عدة عرضت القيام بهذا الدور، إلا إن المؤسسة الرسمية تفضل التعامل مع الظاهرة من خلال بناء قاعدة معلومات صلبة حول الشيعة العراقيين الناشطين في عمان، خاصة أن هناك تقارير أمنية مؤكدة تشير إلى انتماءات خطيرة لعدد منهم وارتباط وثيق بإيران، وأجهزتها الأمنية والعسكرية. وتؤكد مصادر أمنية أن من تثبت له علاقة بنشاط تبشيري شيعي يرحّل على الفور، وهو ما حدث بالفعل مع عدد من العراقيين، أما المتشيعون الأردنيون فيخضعون للتحقيق وتتم مراقبتهم للتأكد من عدم قيامهم بأنشطة تدعو للمذهب الشيعي. وذكر بعض أصحاب

المكتبات وسط عمان أنّ الأجهزة الأمنية قامت بتفتيش المكتبات في الآونة الأخيرة بحثًا عن الكتب التي تناصر التشيع أو تدعو له.

وتذكر معلومات أمنية أن عددًا من العلماء والمراجع الشيعة موجودون في الأردن، وأن لهم دوراً في نمو حركة التشيع في أوساط أردنية، أحد هؤلاء يقطن في حي الهاشمي الشمالي، وكان يقيم الدروس في بيته. يذكر مسؤول أن أحد الشيعة العراقيين كان قد قدم من دمشق، وقد حاول أن يؤسس قاعدة له من الشيعة، وكانت هناك معلومات مؤكدة حوله وعلى الفور تمّ إبعاده.

أحد مصادر التشيع في الأردن هي القنوات الفضائية الشيعية، التي انطلقت بعد احتلال العراق، وقاربت العشرين فضائية، تبث المواعظ والروايات الشيعية، وتؤثر في الرأي العام. ومن أبرز هذه الفضائيات الفيحاء والأنوار. ومن القنوات التي أثرت في الرأي العام الأردني، في السنوات الأخيرة، قناة المنار التابعة لـ(حزب الله)، وعلى الرغم من أن كثيرًا من الناس يتابعونها حرصاً على التواصل مع رواية (حزب الله) للمواجهات والصراع مع إسرائيل، إلا أن القناة لا تخلو من توجهات مبنية على الرؤى الشيعية.

ومن مصادر التشيع في الأردن الطلاب الشيعة الوافدون من الخليج العربي، من السعودية والبحرين والإمارات وعُمان، وعلى الرغم من أن علماءهم يحذرونهم من الجهر بعقائدهم، إلا أنهم في كثير من الأحيان يمارسون أسلوب الدعوة الفردية، ويؤثرون في أصدقائهم والمقربين منهم.

الهوامش:

(١) مادة هذا الفصل مستقاة من مقال: محمد أبو رمان، التشيع في الأردن، صحيفة الغد الأردنية، ٤-٥/١٠/٢٠٠٦م.

الفصل الثالث عشر

التشيع في مصر.. الحلم القديم المتجدد

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن مخططات لنشر التشيع في مصر بشكل واسع؛ وذلك إثر الغزو الأمريكي للعراق وهجرة عدد كبير من العراقيين إلى الخارج وتوجه بعضهم إلى مصر، حيث تركز غالبيتهم في مدينة ٦ أكتوبر حتى قيل: إنها أصبحت مستعمرة للشيعة العراقيين، وإنهم بصدد بناء حسينيات فيها، وتواردت أنباء حول أنشطة شيعية لهم وسط المواطنين المصريين السنة.

وهناك أيضاً زحف لعدد من قيادات الشيعة في عدد من المحافظات بالوجه البحري تم الكشف عنها أخيراً ومنها مدينة أبو حماد في الشرقية.

ورفضت مشيخة الأزهر المصرية طلب شركات السياحة الإيرانية استقدام آلاف من السياح الإيرانيين لزيارة المساجد والقبور وبعض الأماكن ذات القداسة لدى الشيعة مثل الأزهر الذي بني في عهد الحكم الفاطمي لمصر منذ أكثر من ١٠٠٠ عام. وأكد رجال الأزهر في رفضهم للطلب الإيراني أن

الشيعة يمارسون طقوساً وشعائر بدعية تضر بالجو الديني للمساجد، وأن وجود الشيعة المتشددين في المساجد والأماكن التي يعتقدون قدسيتها سينتج عنه أضرار لا تحمد عقباها، خاصة في حالة احتكاك بعض الشيعة في أثناء زيارتهم بالمصريين المعروفين بحبهم للسنة، ويعتقد قادة الأزهر أيضًا أن زيارة الشيعة الإيرانيين تضر بمصر أمنيًّا؛ نظراً لأن بعض الشيعة المتشددين قد أضروا في السابق بأمن بعض البلدان التي زاروها.

يعود الوجود الشيعي في مصر لأول مرة إلى الدولة الفاطمية العبيدية، التي حكمت مصر منذ سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) إلى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وقد استطاع صلاح الدين رحمه الله أن يقضي على العبيديين، وأن يعيد مصر كما كانت إلى مذهب أهل السنة والجماعة، لكن الشيعة بقيت أنظارهم متجهة نحو مصر؛ لما لها من ثقل وأهمية، ساعين إلى إعادة بناء دولتهم فيها.

وعلى الرغم من أنّ مصر ظلت متمسكة بمذهب أهل السنة، إلا أن الشيعة استفادوا خلال القرن المنصرم من مجموعة من العوامل ساعدتهم على نشر مذهبهم وأفكارهم، واستقطاب بعض المواطنين المصريين واختراق بعض الهيئات الرسمية والشعبية، وأهم هذه العوامل:

(١) وجود بعض المقامات والأضرحة المنسوبة لآل البيت في مصر، كالحسين والسيدة زينب ونفيسة ورقية، وهو الأمر الذي استغله الشيعة بسبب توجه المصريين نحوها، وإحيائهم للمناسبات، واستغل الشيعة حبّ المصريين لآل بيت النبي ﷺ حيث أظهروا أنفسهم بمظهر المدافع عن آل البيت، المتبع لطريقتهم[1].

(٢) تساهل الأزهر في موضوع الشيعة الذي نتج عنه دار التقريب بين المذاهب الإسلامية التي أسست سنة ١٩٤٧م في حي الزمالك في القاهرة، وقد ساهم في تأسيسها عدد من شيوخ الأزهر مثل محمود شلتوت وعبدالمجيد سليم ومصطفى عبدالرازق، وغيرهم، وعدد من علماء الشيعة مثل محمد تقي القمي -الذي كان أميناً عامًّا للدار- وعبدالحسين شرف الدين ومحمد حسن بروجردي.

وبداعي التقريب، وفي ظل غفلة أهل السنة الذين أنشؤوا الدار ودعموها، تحولت هذه الدار إلى مركز لنشر الفكر الشيعي. ومع هذا فدار التقريب بالقاهرة وليست في موطن من مواطن الشيعة ومجلة رسالة الإسلام التي تصدر عن الدار، وما تتناول من موضوعات تهدف إلى إقناع أهل السنة ببعض ما يعتنقه الشيعة أشبه بمحاولة لتشييع السنة[٢].

(٣) الطلاب الشيعة العرب في مصر، حيث كان يؤم مصر أعداد كبيرة من الطلاب العرب، ومن بينهم الشيعة، وخاصة من دول الخليج، وكانوا يعملون على نشر فكرهم في صفوف المصريين، وقد أشار الكاتب المصري المتشيع صالح الورداني إلى ذلك بقوله: (بعد خروجي من المعتقل في منتصف الثمانينيات احتككت بكمّ من الشباب العراقي المقيم في مصر من المعارضة وغيرهم، وكذلك الشباب البحريني الذين كانوا يدرسون في مصر، فبدأت التعرف على فكر الشيعة وأطروحة التشيع من خلال مراجع وكتب هم وفّروها لي، ومن خلال الإجابة عن كثير من تساؤلاتي وقد دارت بيننا نقاشات كثيرة)[٢].

وفي المرات الكثيرة التي كان يتم إلقاء القبض على تنظيمات شيعية، كان يلقى القبض أيضاً على طلاب شيعة من الخليجيين.

(٤) علاقات النسب التي كانت تربط الأسرتين المالكتين في إيران ومصر، فشاه إيران محمد رضا بهلوي كان متزوجًا من إحدى أميرات مصر. وكما إن الرئيس المصري أنور السادات كان مرتبطًا بعلاقة سياسية وشخصية مع شاه إيران، واستقبله في مصر بعد فقدانه عرش بلاده، وحال دون تسليمه إلى إيران الثورة. وفي ظل هذه الأجواء، نشأت بعض الجمعيات والهيئات الشيعية، ومارست نشاطها دون مضايقات تذكر، مثل جمعية آل البيت التي أسست سنة ١٩٧٣م في أثناء عهد السادات، إضافة إلى السماح لطوائف أخرى بالعمل كالبهرة التي كان السادات يحرص على استقبال زعيمها سنويًا[٤].

(٥) معرض القاهرة للكتاب، وقد شكل المعرض منفذاً شيعيًا مهمًا، إذ تم ويتم من خلاله نشر الكثير من الكتب الشيعية، خاصة تلك التي تحضرها دور النشر اللبنانية، ومن أهم الكتب التي كان يتم تداولها: المراجعات لعبدالحسين شرف الدين، والشيعة وأصولها لمحمد حسين كاشف الغطاء، والبيان في تفسير القرآن للخوئي، والميزان في تفسير القرآن للطبطبائي[٥].

(٦) صدور عدد من الصحف باللغة الفارسية في القاهرة والإسكندرية في أواخر القرن التاسع عشر، بلغ عددها خمس صحف هي حكمت، ثريا، برورش، جهره نما، كمال. وكانت إحدى هذه الصحف وهي ثريا تصدر بمؤازرة أحد دعاة فرقة البهائية، وهو ميرزا أبو الفضل الكلبايكاني، ثم ما لبثت هذه الصحف أن توقفت بسبب مشكلاتها الداخلية وقيامها على جهود فردية، وقلة عدد الإيرانيين المقيمين في مصر[٦].

وللشيعة في مصر وجود من خلال عدد من المجالس والهيئات الآتية:

(١) المجلس الأعلى لرعاية آل البيت: يرأسه المتشيع محمد الدريني، ويصدر صحيفة (صوت آل البيت)، ويطالب بتحويل الأزهر إلى جامعة شيعية، ويكثر من إصدار البيانات، وهو الصوت الأعلى من بين الهيئات الشيعية.

(٢) المجلس العالمي لرعاية آل البيت.

(٣) جمعية آل البيت: أُسست سنة ١٩٧٣م، وكانت تُعدّ مركز الشيعة في مصر، واستند عملها إلى فتوى الشيخ شلتوت بجواز التعبد على المذهب الشيعي، وكان للجمعية مقر في شارع الجلاء في القاهرة، وكانت تمول من إيران، ومن شيعة مصر من أموال الخمس، وكان يتبع الجمعية فروع في أنحاء كثيرة من قرى مصر تسمى حسينيات، كان هدفها نشر الفكر الشيعي، وتنظيم التعازي والمناسبات الشيعية.

وقد اتسمت علاقة الحكومة المصرية بالمتشيعين بكثير من التوتر لأسباب كثيرة منها:

(١) أن الشيعة يعملون ضمن تنظيم سري، ويرتبطون بأحزاب وجهات خارجية تعمل على تمويل أنشطتهم وتدريب بعض أنصارهم.

(٢) علاقات الريبة والتوتر التي تميز علاقات مصر بإيران عمومًا، حيث تنظر الحكومة إلى هؤلاء المتشيعين بأنهم أتباع لإيران.

(٣) اصطدام أفكار الشيعة ومطالباتهم بعقائد الأغلبية السنيّة في المجتمع المصري، خاصة مع الجهر بها، كالمطالبة بتحويل الأزهر إلى جامعة شيعية.

وقد وجّهت السلطات المصرية إلى الشيعة في مصر ضربات متعددة:

الأولى: بعد قيام الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م، في زمن الرئيس السادات الذي أخذ منها موقفاً عدائيًّا، حيث تم حل جمعية أهل البيت ومصادرة ممتلكاتها، وإصدار شيخ الأزهر عبدالرحمن بيصار فتوى تبطل الفتوى التي أصدرها شيخ الأزهر الأسبق محمود شلتوت بجواز التعبد بالمذهب الجعفري(٧).

الثانية: أعوام ١٩٨٧م، ١٩٨٨م، ١٩٨٩م: رُصِد عام ١٩٨٧م تنظيم يضم العشرات من المتشيعين، ومحاولات لاختراق أسر وعائلات كاملة في وسط الدلتا، وبصفة خاصة محافظة الشرقية، وقد تبين للسلطات الأمنية أن الشيعة، وخاصة الحركيين منهم كانوا على علاقة بالمؤسسة الدينية في طهران وقم، وحصلوا على تمويل لإدارة أنشطتهم في مصر، ورصدت السلطات وجود التمويل، حيث عثرت على ما يفيد حصول أعضاء التنظيم على مئة ألف جنيه.

وسنة ١٩٨٨م، تم القبض على ٤ عراقيين من المقيمين في مصر واثنين من الكويتيين، وثلاثة طلاب من البحرين، ولبنانيين، وفلسطيني، وباكستاني، وتم إغلاق دار النشر المصرية الشيعية (البداية)، ووجهت إليها تهمة تلقي تمويل من إيران، وكذلك دار النشر الشيعية اللبنانية (البلاغة).

وفي العام نفسه تم ترحيل القائم بالأعمال الإيراني محمود مهدي بتهمة التجسس والاتصال مع شخصيات شيعية مصرية والترويج للفكر الشيعي.

وسنة ١٩٨٩م، قبض على تنظيم من ٥٢ فرداً، بينهم ٤ خليجيين وإيراني.

الثالثة: سنة ١٩٩٦م، وتزامنت مع تردي العلاقات المصرية الإيرانية، حيث تم الكشف عن تنظيم يضم ٥٥ عضواً في ٥ محافظات، وضم أغلب المتهمين في القضايا السابقة، إضافة إلى حسن شحاتة.

وقد تزامنت هذه الحملة مع محاولات إيرانية لتأسيس مؤسسة إعلامية في أوربا برأسمال مليار دولار كان مرشحاً لإدارتها صحفي مصري معروف بميول ماركسية سابقة، قبل أن يتحول إلى أحد رموز المعارضة الدينية.

وقد أكدت المعلومات المتاحة عن هذا التنظيم أن المؤسسات الدينية الإيرانية التي يقف وراءها المرشد الإيراني علي خامنئي هي التي رسمت خطة لاختراق مصر من خلال الحسينيات الشيعية، وأن محمد تقي المدرسي، الموجود في قم، هو الذي أشرف على تطبيق هذه الخطة من خلال الاتصال ببعض المصريين المتشيعين، وإذا علمنا أن تقي المدرسي هو نفسه الذي أدى دوراً مهماً في تأليب المعارضة الشيعية في البحرين، نكتشف أن مخطط الاختراق بدأ في الخليج، ووصل إلى مصر، لكن مع اختلاف أسلوب الاختراق.

وقد تمت بعض عمليات تجنيد المتشيعين، خارج مصر، كإيران والبحرين والكويت وأوروبا...، ويتم التجنيد عادة في أثناء زيارات يقوم بها البعض إلى إيران، أو خلال الندوات والمؤتمرات الدينية التي يحرص شيعة إيران على الوجود فيها واصطياد المصريين الذين لديهم استعدادات فكرية أو نفسية للارتباط بالمذهب الشيعي وإيران، وإن أحد هؤلاء وهو صالح الورداني كان أحد المتطرفين في تنظيم الجهاد (السني) قبل أن يسافر إلى الكويت، ويقضي فيها خمسة أعوام، عاد بعدها ليروج للفكر الشيعي عبر سلسلة كتب، صادرتها السلطات الأمنية.

وفيما يتعلق بأعضاء هذا التنظيم الـ ٥٥، فقد سعوا إلى مد نشاطهم في خمس محافظات مصرية، وسعوا إلى تكوين خلايا شيعية سرية تحت اسم (الحسينيات) جمعها مستوى قيادي باسم (المجلس الشيعي الأعلى لقيادة الحركة الشيعية في مصر)، وقد تبين أن التنظيم برمته موالٍ لإيران، وثبت أن ثمانية من الأعضاء النشيطين، زاروا إيران في المدة التي سبقت حملة عام ١٩٩٦م، وإن عدداً آخر تردد على بعض الدول العربية من بينها البحرين، والتقوا هناك مع قيادات شيعية إيرانية وعربية بوصفها تمثل المرجعية المذهبية الشيعية. وقد نجحت الجهات الأمنية في مصر في اختراق التنظيم والحصول على معلومات من داخله حول البناء التنظيمي، وأساليب التجنيد، والتمويل ومخططات التحرك، وحين ألقي القبض على عناصره، تم العثور على مبالغ مالية كبيرة ومطبوعات وأشرطة كاسيت وديسكات كمبيوتر مبرمج عليها خططهم، وأوراق تثبت تورطهم في علاقة مع إيران. وقد تبين أن حسن شحاتة إمام مسجد الرحمن، على علاقة بالتنظيم.

الرابعة: في نوفمبر سنة ٢٠٠٢م: حيث تم القبض على تنظيم بزعامة محمد يوسف إبراهيم، ويعمل مدرساً في محافظة الشرقية، ويحيى يوسف، إضافة إلى صاحب مطبعة، اتهموا بالترويج لتنظيم شيعي يسعى لقلب نظام الحكم، وكان ذلك بقرية (المنى صافور) التابعة لمركز ديرب نجم، وقد تم الإفراج عنهم بعد أقل من أسبوعين من اعتقالهم[٨].

وللشيعة المصريين مطالب أهمها:

- إنشاء مركز يحمل اسم الشيعة يحتوي مكتبة شيعية.
- الاعتراف الرسمي بمذهبهم، وحريتهم في ممارسة طقوسهم، والسماح لهم بإنشاء مساجد خاصة بهم وإقامة الحسينيات والسماح

لهم بإلقاء المحاضرات السياسية والدينية، وطباعة ونشر الكتب الشيعية التي تدعو السنة لاعتناق المذهب الشيعي.

- إعادة افتتاح جمعية أهل البيت، التي تم إغلاقها سنة ١٩٧٩م.

- تأسيس مجلس أعلى لرعاية شؤونهم باسم (المجلس الشيعي الأعلى في مصر) شبيه بالمجلس الموجود في لبنان، ومحاولة إشهار فرع لرابطة أهل البيت الشيعية اللندنية في القاهرة.

- تحويل الأزهر إلى جامعة شيعية، وهم دائمو الهجوم عليه وعلى قياداته ومناهجه، وعلى الرغم من أن الأزهر يتساهل كثيرًا مع المذهب الشيعي، من حيث اعتباره مذهباً إسلامياً خامساً كالمذاهب السنية يجوز التعبد به، ومن حيث تدريس المذهب الإمامي الجعفري، وإدراجه في مناهجه الدراسية، والسماح للكثير من الكتب والمطبوعات الشيعية المخالفة للإسلام بالصدور والدخول إلى مصر، وإصدار فتاوى موافقة لمذهبهم ومخالفة للمذاهب الأربعة، وعلى الرغم من ذلك كله دأب المتشيعون على الانتقاص من الأزهر، والمطالبة الدائمة بتحويله إلى هيئة شيعية بحجة أن الفاطميين الشيعة هم الذين بنوه في أثناء احتلالهم لمصر.

وقد أدت العلاقات المصرية الإيرانية دوراً كبيراً في التأثير في شيعة مصر أو المتشيعين في مصر، ويمكن تقسيم هذه العلاقات وتأثيراتها إلى مرحلتين:

الأولى: قبل قيام الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م، وقد سبق القول: إن الرئيس المصري السابق أنور السادات كان يحتفظ بعلاقات قوية مع شاه إيران، وذلك

ترتب عليه إنشاء جمعية آل البيت سنة ١٩٧٣م، وغض الطرف عن الأنشطة الشيعية، أما في زمن الرئيس عبدالناصر، فقد كانت علاقاته مع الشاه في مجملها متوترة، حيث دعم جمال عبدالناصر الخميني في صراعه مع الشاه. وفي عهد النظام الملكي في مصر قبل الثورة سنة ١٩٥٢م، كانت العلاقات حميمة بين مصر وإيران.

الثانية: بعد قيام الثورة الإيرانية، تأزمت العلاقات بسبب استضافة السادات لشاه إيران في مصر، ورفض تسليمه إلى حكومة إيران الجديدة، ونتج عن تردي العلاقات إلغاء فتوى شيخ الأزهر السابق محمود شلتوت بجواز التعبد على المذهب الجعفري (الاثنا عشري)، وحل جمعية آل البيت، وملاحقة الشيعة والتضييق على أنشطتهم، ومنع دخول الكتب الشيعية إلى البلاد.

لكن هذا الوضع المتأزم ليس هو السمة المطلقة لمرحلة ما بعد الثورة، إذ إن هذه المدة المتوترة في مجملها كانت تشهد الكثير من أوقات التقارب والتساهل، ومن ذلك الانفتاح المصري على الهيئات الشيعية مثل مؤسسة الخوئي في لندن والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في إيران، واستضافة مؤتمرات للتقريب بين السنة والشيعة[٩] والتعاون الأزهري الإيراني في تحقيق المخطوطات ودعم المكتبات الموجودة في البلدين[١٠]، والسماح للشيعة بإنشاء هيئات ومؤسسات، مثل المجلس الأعلى لرعاية آل البيت وإعادة افتتاح جمعية آل البيت والتوسع في تدريس اللغة الفارسية في الجامعات المصرية، والعودة إلى فتوى الشيخ شلتوت التي تقول: (إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب (الاثنا عشرية)، مذهب يجوز التعبد به شرعًا كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير حق لمذاهب معينة..).

لكن ينبغي أن نسجل هنا أن مصر طوال تاريخها متسامحة ومعتدلة، ولم تتبع أي تشيع؛ لأن الفكرة الشيعية غير صحيحة في جوهرها.. والزيدية و(الاثنا عشرية) جاء منشأهما نتيجة لي النصوص. ومصر لها دور حضاري وتاريخي، أما التشيع فتاريخه سيئ، وكان الشيعة دائماً يتحالفون مع أعداء الأمة، و(حزب الله) اللبناني حاول خلال السنوات الماضية غسل هذه المسألة بمواقفه ضد الصهاينة، لكنه في المسألة العراقية لم يكن موفقاً، وكان طرحه مغايرًا لمواقف الأمة، وقد سحب هذا من رصيده كثيراً.

إننا مع (حزب الله) ضد أمريكا ومع الثورة الإيرانية ضد أمريكا .. لكن مصالحنا الإسلامية والقومية أكبر من هذا وذاك. وقد كان موقف مصر من العدوان الأمريكي على أفغانستان أفضل من الجارة إيران، فولاؤنا أولاً يجب أن يتحدد وفقاً لمصالح الأمة الإسلامية، وموقفنا يجب أن يتحدد وفق تحديات العالم الإسلامي.

كل الظروف التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، بل النفسية تؤكد أن النفسية والذهنية المصرية العامة التي لفظت التشيع في الماضي لا يمكن أن تتقبله مرة أخرى.

إننا لكي نجلي هذا الموضوع فسوف نتوقف ثلاث وقفات: مع طبيعة مصر السنية، ومع قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، ثم مع حقيقة موقف (حزب الله) في جنوب لبنان فيما سمي انتصاراً لم تحققه الجيوش العربية على إسرائيل.

بالنسبة إلى النقطة الأولى، وهي طبيعة مصر السنية، فإن مصر منذ أن فتحها عمرو بن العاص، وهي سنية فكراً وحركة. وما حدث في العهد

الفاطمي - حتى إن استمر مئتي سنة - فقد كان طارئاً غير ذي أساس، والصبغة الشيعية التي حدثت للمجتمع المصري كانت صبغة للدولة السياسية فقط بما فيها من قادة وقضاة وشيوخ لهم علاقة بالسلطة، ولذلك فحينما جاء صلاح الدين الأيوبي أعاد الأمر لوضعه الطبيعي، وأعاد لمصر هويتها السنية. وصلاح الدين لم يحارب الوجود الشيعي، ويرتكب المذابح ضده ويبيد القرى والمدن الشيعية - كما يزعم الشيعة - وإنما كل جهد صلاح الدين كان جهداً ثقافيًّا بحتاً، وليس جهداً عسكريًّا أو استئصاليًّا، وإلا لحدث رد فعل ومقاومة من الفكر الشيعي والمؤمنين به، ولبقي لهذا الفكر بريق إلى يومنا هذا. ولكن أن ينسى الفكر الشيعي تماماً، ويصبح كأن لم يكن فهذا يدل على أنه كان طارئاً وغير متناغم من النفسية والشخصية المصرية.

ومصر دائماً هي قائدة العالم السني فكراً وحركة: فعلى مستوى الحركة، فهي التي قادت العالم الإسلامي في حطين وعين جالوت ضد الصليبين والمغول، وهي التي قادته في العصر الحديث وحتى وقتنا الراهن.

وعلى المستوى الفكري كان الأزهر هو مدرسة الفكر السني التي أضاءت العالم الإسلامي. ولا يمكن في هذا السياق أن ننسى ريادة جمال الدين الأفغاني - الأفغاني الذي انطلق من مصر - ومعه محمد عبده، وبعدهما رشيد رضا - الشامي الذي انطلق من مصر أيضاً - في قيادة الفكر السني للتحرر من التبعية والاستعمار، وفي الانطلاق للانعتاق من حالة الجمود والتخلف.

أما النقطة الثانية فقد رفعت الثورة الإيرانية الشعارات الإسلامية الجامعة وغير المذهبية لتجذب إليها الشباب السني، ولكن مع مرور الوقت

انكشف القناع وظهر الوجه المذهبي، وكان لسقوط نظام صدام حسن العامل الأكبر في كشف الطائفية والمذهبية الإيرانية، هذا كله أذهب الوهج والانبهار بالثورة الإيرانية ودعاياتها السياسية، وحل محله حالة من الاستياء الشديد لمجمل السياسات الإيرانية، وسياسات الشيعة في العراق، من تحالف مع الاحتلال الأمريكي ضد سنة العراق.

أما النقطة الثالثة التي نتوقف أمامها فهي الانبهار بحالة «حزب الله» اللبناني وموقفه ضد إسرائيل، ونحن لا نشكك في هذا الدور، وإنما نثمنه، ونثني عليه، وهو موقف أكسب (حزب الله) شعبية كبيرة في كل أنحاء العالم الإسلامي، ولكنه يخسر الآن هذه الشعبية بسبب تأييده المطلق للموقف الإيراني ولموقف شيعة العراق ضد السنة وتوافقه مع المشروع الأمريكي وتغطيته للاحتلال الأمريكي. هذا الموقف أكد أن (حزب الله) يتحرك من منظور طائفي ومذهبي ضيق وأنه يتحرك في إطار المشروع الشيعي العام في المنطقة بقيادة إيران.

هذه النقاط الثلاث توضح أنه لا يمكن أن يكون للفكر الشيعي أي عمق أو وجود ذي قيمة داخل المجتمع المصري.

الشيعة المصريون بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م:

بعد نجاح ثورة يناير، وبعد تأسيس الأحزاب المتنوعة، تقدم الدكتور أحمد راسم النفيس بأوراق تأسيس حزب (التحرير) إلى لجنة الأحزاب حاملًا توكيلات من ليبراليين وأقباط وشيوعيين، وقبلهم صوفيون، في محاولة لتدشين حزب شيعي مصري.

وأثار مشروع الحزب أسئلة كثيرة لدى الكُتاب والسياسيين حول هويته ودوره في نشر التشيّع وإشعال الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في مناخ محتقن أصلاً بالفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط، والأهم من هذا كله أن الحزب مخالف للدستور بوصفه حزباً دينيًّا، وهو ما يؤدي إلى الطعن عليه ورفض إشهاره قبل الترخيص له بممارسة النشاط السياسي.

وإذا كان يحق، من حيث المبدأ، لأي جماعة أو أفراد إنشاء حزب سياسي يعبر عن أفكارهم وبرامجهم للإصلاح الشامل في المجتمع وتحقيق الديمقراطية، لكن إنشاء حزب سياسي على أساس ديني أو طائفي معناه تجدد الصراع التاريخي بين السنة والشيعة، فالمسألة يجب ألا تترك هكذا؛ لأن المناخ في مصر محتقن أصلًا بالفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط، وإقرار هذا الحزب الشيعي هو عودة إلى الوراء وقضية شديدة الخطورة على أمن مصر القومي[١١].

الدستور والقوانين تمنع إنشاء أحزاب دينية في المجتمع، فالأحزاب الإسلامية التي نشأت مثل (الحرية والعدالة) و(النور) لم تنشأ بوصفها أحزاباً دينية، إنما بوصفها أحزاباً سياسية ذات مرجعية دينية، والترخيص لهذا الحزب الشيعي يدفعنا للتساؤل عن هويته وانتمائه وعلاقته بحزب الله الشيعي اللبناني.

ونحن نعتقد أن هذا الحزب لا يشكل إضافة للحياة السياسية المصرية، بل يشكل عبئاً عليها وارتباكاً لها؛ لأنه حتماً – إذا نشأ الحزب وتم الترخيص له – ستنشأ صراعات دينية – دينية نحن في غنى عنها.

وإذا ما نجح حزب (التحرير) الشيعي في إخفاء هويته الدينية، وأظهر وجهاً سياسيًّا لا ترفضه القوانين، فهل يغلّب الحزب الجانب الوطني على

الجانب المذهبي؟ أم يحدث العكس، وتصبح المرجعية الدينية هي الأساس الذي يحتكم إليه وتنظم عمله؟

إنشاء أحزاب مذهبية في مصر أمر غير مبرر على الإطلاق، خصوصاً في هذا التوقيت الذي يتميز بالانفلات في كل شيء، ولكن في ذات الوقت يجب ألا يخيفنا إنشاء حزب شيعي في مصر، وباختصار الأحزاب الشيعية ليس لها ما يبررها أو يخيفنا منها[١٢].

وإذا كانت لجنة شؤون الأحزاب السياسية، قد رفضت تأسيس حزب (التحرير)، الشيعي، وقررت عدم قبول الإخطار المقدم من أحمد راسم النفيس، على أن يعرض القرار على المحكمة الإدارية العليا، فإن الرفض جاء بسبب عدم استيفاء الشروط المقررة قانونيًّا، حيث إن الإخطار الذي تقدم به أحمد النفيس منفرداً اقتصر على ٣٦ توكيلاً صادراً له بوصفه وكيلاً عن المؤسسين، ولم يحضر باقي وكلاء المؤسسين أو وكلاء عنهم لاتخاذ الإجراءات أمام لجنة الأحزاب السياسية.

وتقدم أحدهم وهو، وليد عادل عبيد، الصادر له ٢٦٥٦ توكيلاً بطلب استرداد التوكيلات المشار إليها الصادرة له بدعوى أنه لم يفوض أحداً في تقديمها، وبذلك فإن الإخطار لم يستوفِ شرطاً أساسيًّا خاصًّا بنصاب الإخطار العددي الوارد في المادة السابعة من قانون الأحزاب السياسية رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٧م المعدل بالمرسوم بقانون رقم ١٢ لسنة ٢٠١١م، فضلاً عن أنه لم يتم النشر خلال الثمانية أيام اللاحقة للإخطار بالمخالفة للفقرة السادسة من المادة الثامنة من القانون المشار إليه[١٣].

الهوامش:

(١) أهل البيت في مصر، مجموعة، قدم له هادي خسرو السفير الإيراني الأسبق في مصر.

(٢) د. ناصر القفاري، قضية التقريب بين السنة والشيعة.

(٣) موقع المعصومين الأربعة عشر، نقلاً عن مجلة المنبر الشيعية الكويتية.

(٤) تقرير مركز ابن خلدون حول الأقليات لسنة ١٩٩٩، ص١٨٣.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٦) مقال (الصحافة الفارسية في مصر) للسفير الإيراني السابق في مصر هادي خسرو المنشور في صحيفة القاهرة، بتاريخ ٢٠٠٣/١١/٤م.

(٧) تقرير مركز ابن خلدون لسنة ١٩٩٩، ص ١٨٤.

(٨) مجلة الوطن العربي ١٩٩٦/١١/١م، وصحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٢/١١/١٧م.

(٩) مجلة النور التي تصدرها مؤسسة الخوئي، الأعداد ١٢٢، ١٢٣، ١٣٣، ١٤٨.

(١٠) صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٠/٨/٢١م.

(١١) العربية نت، ٣٠ أكتوبر ٢٠١١م.

(١٢) المرجع السابق.

(١٣) المصري اليوم، ١٢ نوفمبر ٢٠١١م.

الفصل الرابع عشر

التشيع في السودان.. تمدد في هدوء

طوال التاريخ الإسلامي، لم يعرف التشيع إلا عندما توثقت العلاقة بين السودان وإيران بعد نجاح الثورة الإيرانية، وعن طريق ما تقدمه إيران من منح دراسية للطلاب السودانيين، وعن طريق نشاط السفارة الإيرانية في مجال تطوير العلاقات السودانية الإيرانية، وحرصها على إنشاء المراكز الثقافية ورعايتها بعناية.

وقد ركز الإيرانيون في بدايات دخولهم إلى السودان على زياراتهم لشيوخ الطرق الصوفية وتوثيق العلاقة بهم؛ وخصوصًا من يدعي منهم أنه من آل البيت، والتظاهر لهؤلاء الشيوخ بأنهم يجتمعون وإياهم في محبة آل البيت ومناصرتهم، وادعاؤهم أن أساس اعتقادهم واحد، وهكذا تتوالى الزيارات لهؤلاء مع الإغراءات المادية لهم، فتكونت العلاقات المتينة؛ ومن خلال هؤلاء الشيوخ تم الوصول إلى مريديهم وأتباع طرقهم، وسمح لهم بإلقاء المحاضرات في مساجدهم وقراهم[1].

العمل المؤسسي من أشد الأنشطة تأثيراً على الفرد والمجتمع؛ إذ يجد الفرد نفسه عضوًا في العمل بالتدريج، ولا بد أن يتشرب في أثناء عمله شاء أم أبى أفكار صاحب العمل، وهذا ما اتجهت إليه أنظار الشيعة في السودان، فاستوعبوا أكبر عدد ممكن من الموظفين سواء في المراكز أو المعاهد التابعة لهم على شكل حراس ومستخدمين وسكرتارية وسائقين ومترجمين وغير ذلك، وهذا التوظيف بهذه الكثرة ليس سببه كثرة العمل وضغوطه بقدر ما هو استيعاب أكبر قدر ممكن للتأثير المباشر عليهم عقديًا. وإضافة إلى ذلك اتجه اهتمام الشيعة إلى الأساليب التي تمس المجتمع مباشرة، مثل إنشاء المدارس والمعاهد، والجمعيات.

وقد ركزت إيران على إنشاء المراكز الثقافية، وأهمها مركزا الخرطوم وأم درمان، حيث تُعدّ هذه المراكز آليات لتنفيذ الأنشطة في مجال نشر التشيع بين المثقفين، وهي في الوقت نفسه تمثل واجهات يتستر خلفها دعاة الشيعة لنشر التشيع في السودان.

وللمركز الثقافي أقسام عدة أهمها قسم الإعلام والثقافة، وهو يحتوي على مكتبة لأشرطة الفيديو، وأشرطة الكاسيت، والجرائد الإيرانية، ومن أهم عروض الفيديو التي تقدم: عروض عن ولاية الإمام علي رضي الله عنه، وعن بطلان بيعة أبي بكر رضي الله عنه في السقيفة، وأنها كانت بمحاباة وقبلية، ويتم في هذا القسم نشر أشرطة فيها سبٌّ للصحابة رضي الله عنهم خصوصاً أبا بكر و عمر، وتوزع في هذا القسم الكتب الخاصة بفكر الشيعة لزوار المركز وخاصة الطلاب. ومن أخطر أنشطة هذا القسم تقديم المنح الدراسية للجامعات الإيرانية، وأكثر المنح تكون لجامعة الإمام الخميني؛ لأن

هذه الجامعة تقوم بتدريس ما يعرف بالفقه الجعفري، وقد تم خلال السنوات الأخيرة إرسال عدد كبير من الطلاب إلى تلك الجامعة، وخاصة الطالبات، وقد تخرج في تلك الجامعة عدد كبير، وتم تعيين أغلبهم في المراكز الثقافية الإيرانية، وبعضهم في السفارة الإيرانية بالخرطوم، وتعطى تلك المنح للطلاب الذين سبق التحاقهم بإحدى الدورات التي ينظمها المركز، والذين يبدو عليهم الاستعداد لمناقشة العقيدة، أو يظهر أن لديهم رغبة في المال مقابل التنازل عن عقيدتهم، ويقوم بمهمة مراقبة الطلاب مشرف مكلف رسميًّا بتدوين ملاحظاته عن مدى تأثر الدارسين.

أما قسم الدورات، فيقدم عددًا من الدورات حول عدد من الموضوعات والمهارات: فهناك دورات في اللغة الفارسية للعامة والمثقفين، فيستشهدون في أثناء تدريسها بأفكارهم، ويناقشون فكرة الإمامة والرجعة، وغيرها من عقائد القوم، ووقع بذلك كثير من الدارسين بسبب الدورات في شباكهم.

وهناك دورات في الخط الفارسي، وعبرها يضعون السم في العسل بترسيخ أصولهم في خطوط عريضة لا تغيب عن الذهن بتكرارها.

وهناك دورات في الفقه المقارن، يدرس في منهجها كتاب (الفقه على المذاهب الخمسة) ويعنُون بها المذاهب السنِّية الأربعة المعروفة، إضافة إلى مذهب الشيعة الفقهي (المذهب الجعفري)، ويؤتى بالمعلمين الذين يقومون بتدريس هذا النوع من الدورات من إيران مباشرة، ويقوم من يدرس في هذه الدورات بترجيح جانب المذهب الجعفري دومًا وفي كل قضية، مركِّزًا على أن الإمام جعفر الصادق إمام معصوم، وأن كل المذاهب السنية قد أخذت منه، ويحرصون على تكرار مقولة منسوبة للإمام أبي حنيفة، وهي: (لولا السَّنَتان

لهلك النعمان)، ويعنون بذلك أن أبا حنيفة قد درس سَنَتين على الإمام جعفر الصادق.

ويتم تنظيم دورات في المنطق، يدرس فيها كتاب (خلاصة المنطق) وهو مدخل للتشكيك في عقائد الطلاب، فبه يبدؤون، ثم يدخلون في الفقه المقارن، ثم يُخرِجون الطلاب من السُّنَّة إلى التشيع.

وتنظم أيضًا دورات في أصول الفقه، وتقام للطلاب الجامعيين، وبالأخص طلاب جامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، فيقوم المدرس الإيراني بتدريس هذه المادة لأهميتها عندهم؛ ففي هذه المادة خاصة يتكلمون عن الخلاف بين السنة والشيعة، وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويكفِّرون الصحابة إلا قليلاً، فيثور النقاش بين الطلاب في مسألة لعن الصحابة، وينتهي هذا النقاش بإقناع عدد ليس بالقليل من الطلاب.

ومن أهم أقسام المركز الثقافي، قسم المكتبة، فتوجد في المركز مكتبة عامة تحوي كميات من الكتب في جميع التخصصات؛ وذلك لجلب كل طبقات الطلاب والباحثين، واستقطاب كل فصائل المجتمع، ومن أقسام تلك المكتبة جناح خاص بالعلوم الشيعية باللغتين العربية والفارسية، وتتوافر فيها الصحف اليومية السودانية والإيرانية.

ويحتوي المركز على قسم المناسبات، وهو من الأقسام المهمة جداً في المركز؛ فهو يختص بإقامة المناسبات الدينية والسياسية، مثل إقامة ذكرى ميلاد الأئمة الاثني عشر، وذكرى ميلاد السيدة فاطمة الزهراء، ومولد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وذكرى الإسراء والمعراج، ويوم عاشوراء الذي

يجتمعون فيه ويبكون ويسبُّون الصحابة، وتقام مناسبات أخرى مثل تأبين الأئمة، وكذلك الاحتفالات السياسية كذكرى تولي الحكم، وميلاد الخميني وموته، وعيد النيروز (وهو عيد وثني مجوسي معروف)، وسائر الاحتفالات التي يقيمها الشيعة في العالم.

ونظراً للاهتمام العظيم الذي يوليه الشيعة لأنشطة التشييع قاموا بإنشاء المكتبات العامة التي تمثل في السودان مأوى لكل الطلاب لاعتبارات عدة، ومن أبرز تلك المكتبات: مكتبة المركز الثقافي الإيراني بالخرطوم، مكتبة المركز الثقافي الإيراني بأم درمان، مكتبة الكوثر بحي السجانة، مكتبة مركز فاطمة الزهراء بحي العمارات، مكتبة مدرسة الجيل الإسلامي بحي مايو، مكتبة معهد الإمام جعفر الصادق بحي العمارات.

وقد حققوا نجاحاً في استخراج إعفاءات جمركية (عبر الاتفاقيات بين السودان وإيران ومن خلال الأنظمة والأعراف الدبلوماسية بين الدول) لإدخال الكتب والأشرطة المسموعة والمرئية، وقد أدخلوا ٨ ملايين نسخة من الكتب المختلفة التي تدعو إلى فكر الشيعة، وقد نشرت منها كميات ووزعت على المتصوفة والطلاب والمعاهد الدينية بالسودان عبر مشرفي المعهد الإيراني بالخرطوم.

أما المؤسسات التعليمية التي أنشأتها إيران، فأهمها المدارس، فهناك مدرسة الإمام علي بن أبي طالب الثانوية للبنين بمنطقة الحاج يوسف في محافظة شرق النيل، ومدرسة الجيل الإسلامي لمرحلة الأساس للبنين بمنطقة مايو في محافظة الخرطوم، ومدرسة فاطمة الزهراء لمرحلة الأساس للبنات بمنطقة مايو في محافظة الخرطوم.

ومن المعاهد، يوجد معهد الإمام علي العلمي الثانوي للقراءات بمنطقة الفتيحاب بمحافظة أم درمان، الذي أنشئ سنة ١٩٩٦م، لاستقطاب طلاب الخلاوي، ومعهد الإمام جعفر الصادق الثانوي للعلوم القرآنية والدينية بحي العمارات، محافظة الخرطوم، وهو من أخطر مراكز التشيع؛ إذ لا يقبل سوى حَفَظَة القرآن الكريم، ويلاحظ تركيزهم على حفظ القرآن ممن لا يحملون علوماً شرعية أخرى لهدف واحد، وهو قبول الناس واحترامهم لحافظ القرآن الكريم، وخصوصاً أبناء الأرياف والقرى، ومن ثم وبعد التأثير عليهم يرسل من حفظ منهم القرآن إلى قريته، ويتبنى إما فتح خلوة له أو بناء مسجد يؤمه هو، أو أن يكون إمام مسجد القرية القديم، ثم يبدأ في التأثير في أهل قريته وقبيلته.

وتهتم إيران بالجمعيات والروابط والمنظمات، فأنشأت رابطة أصدقاء المركز الثقافي الإيراني، وهذه الرابطة ليست إلا (رابطة شيعة السودان) فهي واجهة شيعية تتم عبرها اللقاءات مع المدعوين للتشيع، ويتم في هذه اللقاءات إلقاء المحاضرات وتقديم الكتب والهدايا من قبل مدير المركز.

وهناك أيضاً رابطة الثقلين، ورابطة آل البيت، ورابطة المودة، ورابطة الظهير. وهذه الروابط الأربع روابط طلابية يشرف عليها بعض خريجي الجامعات الإيرانية والسورية واللبنانية والتركية، ولها أنشطة مختلفة كإقامة الندوات والمحاضرات وإصدار مجلات حائطية ومطويات.

أما رابطة الزهراء، فهي رابطة خاصة بالطالبات في المدارس والمعاهد والجامعات، وتشرف عليها إحدى أهم الناشطات في الحركة الشيعية النسائية، وهي أيضًا عضو مهم ومؤثر في الاتحاد النسائي الإسلامي السوداني العالمي.

يقوم المركز الثقافي الإيراني بدفع مبالغ كبيرة لكل الروابط المذكورة من أجل تمويل الأنشطة؛ إضافة إلى الرسوم الدراسية للأعضاء، وتأمين ملابس وكتب دراسية ومبالغ مالية للمواصلات، وغير ذلك مما يحتاج إليه الطلاب.

وتوجد أيضاً جمعية الصداقة السودانية الإيرانية، ونشأت هذه الجمعية بدعم بعض السياسيين من البلدين، ويرأسها حالياً الدكتور المكاشفي طه الكباشي، وهو شخصية لها اعتبارها عند العامة؛ لارتباطه الكبير بالصوفية، فهو من كبار زعماء الصوفية في السودان ومن أشهر رجالاتها، وكان رئيساً للقضاء في مدة تطبيق الشريعة في عهد النميري، وقد أصدر حكماً نهائيًّا بإعدام محمود محمد طه زعيم الحزب الجمهوري ومؤسسه، ردةً، وللمشرفة على رابطة الزهراء جهود كبيرة في الجمعية نفسها.

وتوجد أيضاً منظمة طيبة الإسلامية، وهي تعنى بإنشاء المدارس والمعاهد، ويتبعها بعض المعاهد والمدارس سالفة الذكر، ويتبعها ما يعرف بـ (مجلس أمناء المدارس الإيرانية بالسودان) الذي يضم عدداً كبيراً من الشخصيات السودانية الموالية للشيعة في السودان.

الهوامش:

(١) مادة هذا الفصل مستقاة من مقال د. عثمان عيسى، (حتى لا يقال: كان السودان بلداً سُنيًّا، مجلة البيان - العدد ١٦٦).

الفصل الخامس عشر

التشيع في الجزائر.. كمون وتحفز

كان الخبر الذي نشرته صحيفة (الشروق) اليومية الجزائرية في عددها الصادر بتاريخ: ٢٣/٠١/٢٠٠٧م تحت عنوان: (جهات إدارية تتلقى تعليمات للتحقيق في ظاهرة التشيع في الجزائر)، دون أن تكشف عن طبيعة هذه الجهات، ثم التقارير التي أعقبت ذلك، وأسندت إلى جهات أمنية مطلعة أن مصالح الأمن لولايات عدة منها وهران ومعسكر وتيارت وتبسة وباتنة وسطيف وقسنطينة وجيجل والجزائر العاصمة هي التي تقوم بالتحقيق السري لمعرفة حقيقة ما يروج له في الأوساط الشعبية خاصة.... كان هذا الخبر وهذه التقارير مفاجئين للشارع الجزائري الذي كان بعيدًا تمامًا عن ظاهرة التشيع وثقافتها[1].

غير أن أول بروز علني لشيعة الجزائر كان عام ٢٠٠٦م خلال الاحتفال بيوم عاشوراء، حيث خرج عشرات المتشيعين إلى شوارع مدينة عين تيموشنت الواقعة في غرب الجزائر في صورة لا تختلف عن احتفالات الشيعة بهذا اليوم، سواء في إيران أو العراق أو جنوب لبنان. وقد فتح هذا الحدث أعين السلطات

التي شعرت بالحرج؛ لأنها لم تتحرك في الوقت المناسب، خاصة أنها كانت تقول بعدم وجود أنصار للمذهب الشيعي في الجزائر، بل غضت الطرف عن خلايا شيعية كانت تنشط في مدينة وهران الساحلية الغربية وبعض مدن الشرق وخاصة سطيف وباتنة.

وعلى الرغم من المؤشرات التي تعلن عن دخول التشيع للجزائر، إلا أن هذه المسألة مازالت غير مطروحة رسمياً، إذ لم يصدر أي موقف يشير إلى ذلك وينبه إلى هذا الأمر باستثناء بعض الكتابات المحدودة في الصحف، إلى جانب تسليط بعض المواقع الإعلامية على شبكة الإنترنت الضوء على هذا الموضوع.

لا تتوافر أرقام رسمية حول عدد الشيعة في الجزائر، ولا يزال الحضور الشيعي قليلاً في الجزائر مقارنة بذلك الحضور المسجل في بعض البلدان المغاربية كالمغرب الذي يبدو واضحاً من خلال وجود ثلاث جمعيات شيعية ثقافية معترف بها على الأقل، وهي (الغدير) و(البصائر) و(التواصل).

وإذا كان الحضور الشيعي في الجزائر قليلاً، ويمكن ملاحظته في بعض الولايات والمدن مثل الجزائر العاصمة، باتنة، تبسة، خنشلة، تيارت، سيدي بلعباس، غير أن عدداً من المواقع الشيعية عبر شبكة الإنترنت، من بينها موقع (مركز الأبحاث العقائدية)، وهو أكبر المواقع الشيعية، إضافة إلى (شبكة شيعة الجزائر) التي ترفع شعار (من المدرسة المصالية إلى المدرسة الخمينية)، تقول عبر تقارير نقلتها - هذه المواقع الإلكترونية - إن المذهب الشيعي (يزداد انتشاراً بشكل سرّي في قطاعات واسعة من المجتمع الجزائري، بعد أن نقله إليهم مدرسون وموظفون قدموا للعمل من العراق وسورية ولبنان). ويرى المشرف العام على (شبكة شيعة الجزائر) الذي

يسمي نفسه (محمد العامري - ٣٠ عاماً) أن الاستبصار - التشيع - في الجزائر مستمر وأكثر من منتشر، بل منفجر في كامل أرجاء التراب الجزائري، متنقلاً عبر كل الطبقات الاجتماعية، فسابقًا كان يدور بين الشبان والآن ببركة صاحب العصر والزمان (عليه السلام) دخلت بيوت بكاملها في التشيع.

ولا يملك المشرف على شبكة (شيعة الجزائر)، أي إحصاءات أو أرقام على مدى انتشار التشيع بين الجزائريين، ويقول: (ليس هناك إحصاءات حديثة، وحتى إن كانت هناك إحصاءات تبقى سرًّا، ولا تسلم لأي كان لأسباب يطول شرحها). غير أن بعض المراقبين يقدرون عدد الشيعة في الجزائر بالمئات (تقدرهم بعض المصادر الشيعية بثلاثة آلاف)، وهم منتشرون في أغلب مدن البلاد، كان عددهم لا يتجاوز العشرات في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات، يمارسون شعائرهم وطقوسهم بحرية كإحياء الحسينيات وقيام المآتم مع بداية كل محرم إلى العاشر منه، دون أن يتعرضوا إلى أي نوع من المضايقات.

ويرى باحثون جزائريون أن انتشار المذهب الشيعي في الجزائر يعد أمراً ذاتيًّا بالدرجة الأولى، لأن وسائل الدعاية المتبعة تعتمد على الانتشار السري، بسبب عوائق تتعلق بمدى قابلية المحيط لهذا النوع من الفكر، بمعنى أنه قد لا يتطور إلى درجة الظاهرة الاجتماعية.

ويرى المراقبون أن التشيع يتوسع وينتشر بفضل الدعاة النشطين الذين يوجد أغلبهم في المؤسسات التربوية، وتوافر المراجع الشيعية المتداولة كالمجلات والنشرات والكتب أبرزها: مرآة الأنوار، مشكاة الأسرار، تفسير

العسكري، مجمع البيان، تفسير الكاشي، تفسير العلوي، تفسير السعادة للخرساني، ومجمع البيان .. وغيرها من المراجع الأخرى التي كانت متداولة ببعض المساجد وبين عامة المصلين والطلبة لعدم معرفة حقيقتها وخطرها على الكثير من القراء.

وكان لوجود جاليات شيعية من العراق وسورية ولبنان في الجزائر دور في انتشار المذهب بين أهل البلاد حسب ما أشار إليه العامري: (إخوتنا العراقيون والسوريون واللبنانيون عندما كانوا في الجزائر أساتذة ومدرسين لعبوا دوراً في الدعوة، وكانوا من الممهدين لقبول فكرة الولاء لمحمد وآله صلوات الله عليهم، وعندما اندلعت الثورة الإسلامية الإيرانية وجد خط الإمام الخميني أرضية خصبة لنشاطه في أرض الثورة والرفض).

ويرى شيعة الجزائر أن مذهب (آل البيت) ليس غريباً عن بلادهم، وأن جذوره تعود إلى (مئات السنين). بدليل أن الأمازيغ (البربر سكان الجزائر الأوائل) في الأصل كانوا شيعة، فبالنسبة إليهم كان للبربر في الجزائر (ولاء عظيم لأهل البيت ولهم فيها ثورات، وبالخصوص في زمن استشهاد الإمام الحسين، وكانوا من الأوائل الذين فتحوا بيوتهم وصدورهم للفاطميين، وحاربوا معهم جنباً لجنب)[٢].

وتذكر (الجيرواس) وهي فتاة جزائرية من أصل بربري، أحد أعضاء شبكة شيعة الجزائر، أمثلة عدة للتأكيد على أمازيغ كانوا يعتنقون المذهب الشيعي، وذلك حسب قولها:

- بعض مناطق الأمازيغ لا يأكلون لحم الأرنب وهم لا يعلمون لماذا، ومعلوم أن الأرنب محرم عندنا نحن الشيعة.

- في عاشوراء يتوقف الأمازيغ عن العمل ويقولون: إن العمل في مثل هذا اليوم يجلب النحس وإن ما اكتسبته خلال ذلك اليوم لا بركة فيه.

- يذبحون في عاشوراء دجاجاً أو طيراً، فالمهم هو إسالة الدم في ذلك اليوم معتبرين أن هذا أمر مبارك دون أن يعلموا أن هذه الدماء رمز للتذكرة بدماء الحسين وأصحابه الذين استشهدوا في كربلاء.

- عند الأمازيغ لا تجد أحداً اسمه أبو بكر أو عمر أو عائشة... إلخ، لكنّك كثيراً ما تجد اسم سيد علي، وسيد أحمد وكلمة سيد لا تجدها في أسماء أخرى عدا اسم علي، واسم أحمد الذي هو في حد ذاته محمد.

- إذا ذكر الأمازيغ اسم فاطمة قالوا: (للا فاطمة) أي السيدة فاطمة، وإذا ذكروا عائشة لم يدرجوا لقب (للا)[٣].

وكان للمذهب الشيعي وجود كبير في الجزائر خلال مرحلة الدولة الرستمية (٧٧٦-٩٠٨ م) التي أسسها الإباضيون، وجعلوا من تيهرت (تيارت حاليًّا) عاصمة لهم ومهداً لثقافتهم وفكرهم في الشمال الإفريقي حتى قام الداعية الشيعي أبو عبيد الله الشيعي صاحب الفاطميين بالقضاء على دولتهم عام ٩٠٨م. وتحول الإباضيون نحو الجنوب الجزائري، واستقروا في منطقة وادي ميزاب (غرداية).

وكانت هناك دويلة أخرى قامت في الجنوب الغربي للجزائر وجنوب المغرب إلى جانب الدولة الرستيمة، سميت دولة سجلماسة (أو الدولة المدارية) (٧٥٨ - ٩٠٩م) وهي دولة كالرستمية أسسها شيعة، وقضى الفاطميون عليها كذلك.

ومع قيام الدولة الفاطمية (٩١٠ – ٩٧٣ م)، انتشر التشيع بالطريقة الفاطمية التي كانت إسماعيلية باطنية في الجزائر وسائر مناطق المغرب العربي. إلا أن الشيعة انقرضت بعد عهد الفاطميين ولم يعد لها أثر، ولم يأتِ ذكرها إلى أن ظهر التشيع الحديث مع ظهور الخميني بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران بالطريقة المنشرة بإيران لمذهب الإمامية (الاثنا عشرية) الجعفرية نهاية السبعينيات.

ولا يعرف للشيعة في الجزائر أي نشاط علني يمكن من خلاله تتبع مواقفهم وآرائهم في الشأن الوطني، وهو ما يجعل البحث في هذه المسألة تعترضه عراقيل عدة، حيث لا يوجد لهم أي صحيفة ناطقة باسمهم، ولا يوجد أي مسجد أو حسينية، ولكن ظهر لهم حديثاً مواقع إلكترونية عدة في الشبكة العالمية جعلوا منها منبراً لهم، للحديث عن وجودهم والتعبير عن آرائهم دون التدخل في شؤون الدولة بحكم أن لديهم – بحسب زعمهم – مهمة أسمى من ذلك بكثير، ألا وهي تقديم النصيحة وكشف الحقيقة.

ويقول (محمد العامري) المشرف العام على (شبكة شيعة الجزائر): (لا نعاني أيّ مشكلات مع النظام حالياً وكما أن الشيعة لم يعتدوا على أيّ مادة من الدستور أو رمز من رموز الدولة، وإن كانت هناك بعض التحفظات عبر تصرفات بعض من يعدّون أنفسهم فوق القانون، فهم بالنسبة إلينا لا يمثلون شيئاً، بل هم يزيدون من انتشار التشيّع دون أن يشعروا بذلك؛ لأن المظلوم منتصر عاجلاً أم آجلاً).

ويبرز العامري أنه لا يوجد أي عائق يعترض التشيع في الجزائر، ويفسر ذلك بعدم وجود أيّ ممانعة من حيث المبدأ من قبل السلطات الجزائرية

لانتشار التشيع، مشيراً إلى أن المادة ٦١ من الدستور الجزائري تنصّ على: (الحرية الفردية لجميع الناس في اختيار معتقداتهم التي يختارونها).

ويقول العامري: (إن معاناة الشيعة الآن مقتصرة مع المنظومة التربوية الجزائرية، نتيجة تمرّدهم على البرامج المسطرة لهم أو المفروضة عليهم من طرف وزارة التربية والتعليم).

وقد أوضح قرار وزير التربية الوطنية أبو بكر بن بوزيد، توقيف ١١ مدرّسًا شيعيًا من المدارس التعليمية التي كانوا يشتغلون فيها، مدى اختراق الشيعة المدارس الجزائرية، وتفسيرًا لمدى تذمر العامري من المنظومة التي تشرف عليها الوزارة.

لكن الذي تناساه العامري أن الوزارة قامت بتحويل المبعدين إلى (أجهزة أو مناصب إدارية)، وكان الهدف من إبعادهم تأمين الوسط المدرسي وحمايته وتجنب التأثير الشيعي المباشر على التلاميذ بالمؤسسات التربوية، وكذلك إبعاد المدرسة الجزائرية عن الولاءات والصراعات، سواء بين الأحزاب السياسية أو بين المذاهب الدينية.

وجاء قرار وزارة التربية الوطنية، بعد أن ناشد مجموعة من الأولياء بمدينة الشريعة (ولاية تبسة) الجهات المعنية للتحرك بقوة لوضع حد لخطر المد الشيعي ببعض المؤسسات التربوية، حيث يعمد بعض الأساتذة إلى تمرير معتقدات وتوجهات شيعية معتمدة أساسًا عن تقديس آل البيت والطعن في بعض الصحابة وشتمهم.

وغير بعيد عن مدينة الشريعة أرسلت مديرية التربية لجنة تحقيق لإحدى المتوسطات ببئر مقدم على إثر شكوى من مدير المتوسطة، مفادها أن أستاذاً

قام في أثناء إحدى الحصص بسب وشتم أحد الصحابة الكرام أمام مسمع التلاميذ الذين أبلغوا أولياءهم بالحادثة، حيث تحرك الأولياء بقوة وأخذت القضية أبعاداً وتداعيات كبيرة، كانت محل متابعة حتى من قبل المسؤولين بالمنطقة، وعلى الرغم من محاولات أطراف عدة طي الملف وتطويق المشكلة من خلال مطالبة بعض الجهات المسؤولة من الأستاذ الذي شتم الصحابة، تقديم اعتذار أمام الأولياء والتلاميذ، إلا أن البعض مازال يبدي تخوفًا من أن تكون هذه السلوكيات بداية لإحياء دعوة شيعية، خاصة أن هناك معلومات تؤكد أن منطقة بئر مقدم والشريعة وتبسة يوجد بها عناصر من أتباع المذهب الشيعي، البعض منهم لا يتورع عن الجهر بذلك والبعض الآخر مازال يستعمل (التقية) درءاً لأي مشكلة قد تلحق به[٤].

تقول بعض المصادر الجزائرية: إن مدينة سيدي خالد التابعة لولاية بسكرة (جنوب الجزائر) تُعدّ المركز الروحي لشيعة الجزائر. إذ في هذه المدينة يوجد ضريح رجل يدعى خالد بن سنان العبسي، وتدعي بعض المصادر التاريخية غير المدققة أنه كان نبيًّا وضيّعه قومه أهل الرس من أذربيجان، وكان وراء إطفاء نار الحرتين التي عبدها العرب المجوس، وانتقلت إلى بلاد فارس. ويذهب البعض بعيداً في تقديس النبي المجهول، إذ يؤمن هؤلاء بأنه بعث نبيًّا للبربر في منطقة تسمى (نارا) بمنطقة المنعة في باتنة بالشرق الجزائري. وعلى الرغم من أن الأحاديث الصحيحة نفت نبوته إلا أن قبره المزعوم اتخذ مزارًا من قبل شيعة الجزائر. وكانت السلطات على علم بالشعائر التي كانت تقام في هذا الضريح، ولكنها تغاضت لأسباب سياسية.

وقد فتحت بعض الصحف الجزائرية ملف شيعة الجزائر معتمدة على تقارير أمنية سابقة تشير إلى تمكن جزائريين شيعة من دخول العراق لمقاومة

الاحتلال الأمريكي والانضمام للطائفة الشيعية. وفي إيران يوجد جزائريون تشيعوا، وتمكنوا من بلوغ درجات متقدمة في الحوزة العلمية بعد أن أصبحت الجزائر في قائمة الدول التي تحظى باهتمام المسؤولين في إيران. وكان الدكتور القرضاوي قد صرح لصحيفة (أخبار اليوم) الجزائرية (بأن الجزائر تُعدّ من أهم البلاد العربية التي يستهدفها المد الشيعي، وهذه النزعة سوف تدفع إلى المواجهة بين المذهبين). وقد مثلت هذه الحقائق صدمة للمراقبين في الجزائر وخارجها. خاصة أن دعاة التشيع لم يواجهوا بمعارضة حازمة من قبل الكثير من علماء السنة، الذين بحسب الشيخ القرضاوي افتتنوا بالنموذج الإيراني في الحكم ومنجزاته السياسية والعسكرية.

ما يثير مخاوف السلطات الجزائرية هو محاولة الشيعة اللعب بورقة البربر من خلال دغدغة عواطفهم وتبني قضيتهم التي تحركها دوائر أجنبية وبأيادٍ جزائرية، خاصة أن دعوات التحريض التي نشرت باللهجة البربرية على موقع (شيعة الجزائر) أعطت صورة واضحة حول الخط العام لشيعة الجزائر وأهدافهم.

ولذلك لم تتوانَ مصادر جزائرية رسمية عن اتهام جهات استخباراتية أجنبية بإدارة خيوط شبكة التشيع العنكبوتية، وخاصة إيران التي تنفق أموالاً ضخمة لنشر المذهب الشيعي خدمة لقضاياها السياسية والعسكرية. وهذه الشبكة تستخدم الأساليب نفسها التي استخدمتها جماعات التنصير من خلال استغلال الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي تعاينها شريحة واسعة في الجزائر وأيضاً حالة عدم الاستقرار النفسي والديني التي أوجدتها سنوات العنف[٥].

الهوامش:

(١) أنور مالك، الشيعة والتشيع في الجزائر: حقائق مثيرة عن محاولات الغزو الفارسي، موقع عرب تايمز، ١٤ يونيه ٢٠٠٧م.

(٢) عبدالمالك حداد، التشيع يخترق المجتمع الجزائري، مجلة الراصد/ عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ.

(٣) شيعة الجزائر.. موسم خلط الأوراق واللعب بورقة البربر، مجلة المجلة ٧-١٢/١٣/٢٠٠٨م.

(٤) عبدالمالك حداد، التشيع يخترق المجتمع الجزائري، مجلة الراصد/ عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ.

(٥) شيعة الجزائر.. موسم خلط الأوراق واللعب بورقة البربر، مجلة المجلة ٧-١٢/١٣/٢٠٠٨م.

الفصل السادس عشر

التشيع في المغرب.. نمو مقلق

كان قرار المغرب بقطع علاقاته مع إيران في بداية شهر مارس عام ٢٠٠٩م، تعبيراً عن رفضه للعبث الإيراني في شؤون المغرب ومحاولات طهران نشر المذهب الشيعي، وهو ما اعتبرته الرباط مساساً (بوحدة السنة المالكية)، وهو المذهب السني السائد في المغرب.

أكدت الحكومة المغربية في بيانها الرسمي أن هناك أنشطة ثابتة للسلطات الإيرانية، وبخاصة من طرف البعثة الدبلوماسية بالرباط، تستهدف الإساءة للمقومات الدينية الجوهرية للمملكة، والمسّ بالهوية الراسخة للشعب المغربي ووحدة عقيدته ومذهبه السني المالكي.

واعتبر البيان أن هذا يعد (تدخلاً سافراً في الشؤون الداخلية للمملكة، ويتعارض مع قواعد وأخلاقيات العمل الدبلوماسي)[1].

تبين بعد ذلك أن تحركات الإيرانيين المقيمين في المغرب وفي أوروبا وضعت تحت مراقبة الاستخبارات المغربية، منذ سنة ٢٠٠٤م بعدما كشفت

التحريات الأولية أن الإيرانيين يسعون إلى نشر المذهب الشيعي في المغرب، عن طريق الجالية المغربية المقيمة في أوروبا، خاصة بلجيكا، بهدف تشييع أكبر نسبة ممكنة من الشباب، حينها تحركت عناصر مديرية الدراسات وحفظ المستندات ومديرية مراقبة التراب الوطني بتنسيق مع الاستخبارات الأوروبية، وأنجزت تقارير عدة مفصلة، تبين من خلالها أن هناك محاولات مكثفة من طرف حكومة طهران إيجاد تيار شيعي يمتد داخل المغرب، انطلاقاً من مناطق الشمال، عن طريق أفراد الجالية المغربية المنحدرين من منطقة الريف من الذين جرى استقطابهم.

وتبين أيضاً أن هذا الملف كان حاضراً بقوة في اجتماعات مسؤولي أجهزة الاستخبارات في الدول المغاربية، حيث تداولوا جميع التحركات المسجلة في المدة التي سبقت قطع العلاقات والتي عرفت تنامي النشاط الشيعي على أراضي المغرب سواء بشكل مباشر أو غير مباشر عبر ما يسمى منظمات غير حكومية تسعى من خلالها إلى نشر المذهب الشيعي.

وثبت لدى السلطات المغربية أن عدداً من الدبلوماسيين بالسفارة الإيرانية في الرباط، على رأسهم السفير الإيراني ومستشاره الإعلامي، يقودون حملة اتصالات وتعبئة واستقطاب أفراد وتنفيذ مخططات لاختراق أحزاب وجمعيات، وتأكد أن السفير الإيراني بالرباط، وحيد الأحمدي، لم يكن أبدًا دبلوماسيًّا في وزارة الخارجية الإيرانية، بل جرى استقدامه من المجمع العالمي لأهل البيت، الذي يوجد مقره في العاصمة طهران، حيث كان يشغل منصب معاون ثقافي للمجمع، وأميناً عامًّا للمؤتمر العالمي، الذي يعقده المجمع لأتباع المذهب الشيعي في العالم، ما يفسر الهدف الحقيقي لوجود سفير عالم دين

متخصص في نشر التشيع في العالم، وذلك يؤكد أن إيران كانت تخطط لاستهداف العقيدة الدينية للمغاربة.

خاصة أن المجمع العالمي لأهل البيت مؤسسة دينية تحظى بدعم مرشد الثورة الإيرانية، ويترأسها وزير الخارجية الإيراني السابق، علي أكبر ولايتي، وهي مؤسسة متخصصة في التعريف بالمذهب الشيعي عبر العالم، واستقطاب النخبة الثقافية والأكاديمية والدينية والإعلامية في العالم الإسلامي، وتضع ضمن أهدافها نشر المذهب الشيعي في سائر أنحاء العالم، والمساهمة في رفع مستوى الظروف المعيشية والأوضاع الاجتماعية لأتباع المذهب الشيعي، وطبع ونشر كتبهم ومؤلفاتهم وتراثهم الثقافي، وإقامة مشروعات اقتصادية لهم.

ومن المعروف أيضاً، أن هذه المؤسسة أسست بطهران جامعة أهل البيت لتدريس العلوم الإسلامية وفق المذهب الشيعي، ويوجد ضمنها طلاب من المغرب العربي، والسفير الإيراني وحيد الأحمدي واحد من القادة وكبار كوادر المجمع المذكور، وتعيينه على رأس البعثة الإيرانية بالرباط يحمل الكثير من الدلالات، أما مستشاره الإعلامي، محمد الشريف العسكري، الذي كان مثار شبهات منذ أن عين بالرباط، فكان يشغل منصب مستشار إعلامي في المجمع العالمي لأهل البيت، إضافة إلى أنه تولى مسؤولية الأنشطة الثقافية الشيعية للسفارة الإيرانية في العاصمة العراقية بغداد، وكان مكلفًا بالتواصل مع الهيئات والأحزاب الشيعية في العراق قبل ذهابه إلى المغرب، وهكذا يتضح أن إيران كان هدفها الأول هو تشييع المغاربة وتمزيق وحدة الصف المغربي من خلال إذكاء الصراع الطائفي ذي الصبغة الدينية والسياسية على غرار ما قامت به في العراق وفلسطين وقبلها في البحرين ولبنان.[٢]

وتحدّث تقارير مغربية أن هناك أكثر من ثلاثة آلاف مواطن مغربي اعتنقوا المذهَب الشِّيعي، إلا أن السلطات المغربية تنظُر أيضاً بريْبة إلى الأنشطة الإيرانية في أوساط الجالية المغربية في أوروبا واعتناق الآلاف منهم المذهب الشيعي.

وقد أراد المغرب من قطع علاقته الدبلوماسية مع إيران، تحذير نشطاء التيار الشيعي في المغرب، الذين بدؤوا يتحرّكون بكامل الحرية، وأصدروا جريدة (رُؤىً مُعاصرة) تُعبِّر عن مواقف بعض الشيعة المغاربة، التي توقّفت بدورها، ويتّجهون نحو تشكيل جمعيات شيعية، مع أن الدولة لم ترخِّص لهم، كما حدث مع جمعية (أنوار المودّة) في طنجة أو جمعية (اللقاء الإنساني) في وجدة[٢].

وقد اتضحت الصورة بشكل أكثر تفصيلاً بعد أن أصدرت الحكومة المغربية أمراً بإغلاق مدرسة عراقية تعمل في العاصمة الرباط منذ ٣٠ سنة بعد التأكد من ضلوعها في نشر المذهب الشيعي.

وقامت السلطات المغربية على إثر ذلك باستدعاء القائم بالأعمال في السفارة العراقية لإطلاعه على القرار.

وكشف والد أطفال في المدرسة أنه فوجئ بأسئلة من أطفاله في التاريخ الإسلامي لا يملك أجوبة عليها، وهي في رأيه مخالفة لمذهب الإمام مالك الذي عليه أهل المغرب السنة.

وزعم الأستاذ المتهم في المدرسة العراقية أن مدرسته تتبع المنهج العراقي المقرر من وزارة التربية العراقية الخالي من أي دس أو طائفية أو تشيع،

لكن وزارة التربية المغربية أماطت اللثام عن قيامها بإرسال لجنة للمدرسة، واتضح لها أن مناهجها مخالفة للمناهج المغربية.

واستدعت وزارة الخارجية المغربية القائم بالأعمال العراقي ومديرة المدرسة المرتبطة بحزب الدعوة الشيعي العراقي، وأطلعتهما على قرار الإغلاق.

وأشارت مصادر مطلعة إلى أن طفلين كانا قد طردا من المدرسة العراقية بالرباط بذريعة أنهما سنيان، وذلك وفقًا لإفادة والدهما، وهو صحافي وكاتب عراقي.

وأخبر الأب العراقي صحيفة (المساء) المغربية عن تجربة ولديه داخل المدرسة العراقية، وقال: (بدأ الأساتذة يطرحون على الطلبة أسئلة بعيدة عن المقررات الدراسية تؤثر في عقيدتهم، وعندما طلبت من الأساتذة تفسيرًا حول الأسباب التي تدفعهم إلى طرحها، خاصة أن القسم الدراسي يعرف تنوعاً في العقائد والمرجعيات، أصبح ولداي يعانيان الضرب والإهانة يوميًّا؛ لكونهما ينتميان إلى الطائفة السنية).

وأضاف: (توجهت بعد ذلك للتحدث مع المديرة من أجل وضع حد للتقصير الذي يطول ولدي، فأجابتني بأن ليس لها دخل فيما يقوم به المدرسون من تصرفات أو ما يلقنونه لتلاميذ المدرسة).

واختتم الأب تصريحاته بالقول: (بعد استمرار الوضع نحو أسبوع، تم منع الطفلين من دخول المدرسة دون إبداء أي سبب وجيه).

بعد ذلك شرعت وزارة الداخلية المغربية في شن حملة مراقبة على المكتبات العامة ومصادرة الكتب المرتبطة بالفكر الشيعي وبإيران

و(حـزب الله)؛ وذلك بهدف محاربة جميع مصـادر التغلغل الشيعي وضمان الاستقرار المذهبي الديني[٤].

إن المسافة من طهران إلى الرباط لا تقل عن ٥٢٠٠ كيلومتر، والعاصمة المغربية هي أبعد نقطة عربية على الخريطة من إيران، وعلى الرغم من هذا فقد بدأت الحكومة المغربية بالشكوى من التدخلات الإيرانية.

لا يوجد سبب يجعل المغاربة يفتعلون معركة مع الإيرانيين إلى درجة قطع العلاقات التي تُعدّ أقسى وسائل الاحتجاج الدبلوماسية، وللرباط علاقة مقبولة مع طهران، وتحاشت الانخراط في الجدل ضد مواقف إيران وممارساتها في المنطقة، لكن لدى المغرب حساسية عالية ضد الدعاية الدينية مهما كان مصدرها، وقد اتهم صراحة إيران بأنها تقوم بعمليات تبشير شيعية واسعة في بلد كل سكانه المسلمين سنة ومعظمهم من المذهب المالكي.

السؤال: ما الذي دفع بلداً منفتحاً ومعروفاً بحمايته للحريات الفكرية للغضب إلى درجة قطع علاقته الدبلوماسية ردًّا على نشاط فكري ديني؟ السبب أن البعثة الدبلوماسية الإيرانية في الرباط هي الطرف المتورط، فيما سمته المغرب ممارسات منافية للأعراف الدبلوماسية.

من الخطأ اتهام المغاربة بأنهم جزء من الدعاية السياسية المضادة لإيران، وتخويف السنة من التمدد الشيعي؛ لأن المغرب سبق أن شن حملة كبيرة ضد الحركة السلفية المتشددة السنية؛ لأنه يعدّها مسؤولة عن التطرف المرتبط بالعنف. وقد شملت الحملة اعتقالات ومصادرة كتب سنية تراثية، وأشرطة لدعاة سنة من السعودية ومصر، وغيرهما.

الفارق أن التطرف السلفي نشاط فردي، ومن جماعات غير حكومية، أما التغلغل الشيعي فهو جزء من نشاط المؤسسة الإيرانية الرسمية، كما يؤكد المغاربة. وقد سبق أن اعتقلوا خلية مغربية قيل: إن (حزب الله) دربها في جنوب لبنان، ويقول المسؤولون: (إن جزءاً من المغاربة المقيمين في الخارج كان هدفًا لممارسات إيرانية تفرض على المغرب رفع درجة اليقظة).

السؤال يكرر نفسه: لماذا التشييع، ولماذا الانتشار؟ والجواب أن إيران قررت مبكراً اعتماد حرب هجومية ضد ما تعدّه المؤسسات الدينية التقليدية والرسمية في الدول العربية بشكل عام، وتحديداً في الدول التي تعدها في دائرة الاختلاف السياسي، بما فيها المغرب، وإن لم يكن طرفاً مباشراً في النزاع.

الجماعات الإيرانية والمحسوبة على إيران تنشط في أوروبا وإفريقيا وأستراليا ومعها رسالة سياسية ودينية تعظم موقع إيران بوصفها قائدة للعالم الإسلامي. وهذه الرسالة تمارس كل ما تستطيعه للوصول إلى قلب المجتمعات العربية التي صارت إيران تعدها بعدها الإستراتيجي.

إنها تمثل مشروعاً سياسيًّا أكثر من كونه دينيًّا، وهو يعبر عن حالة جنون العظمة الذي تعكسه خطب القيادات في طهران، وكل ذلك على حساب ميزانية الشعب الإيراني وأمواله(٥).

الهوامش:

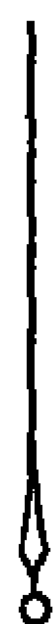
(١) الرباط تتهم إيران بنشر التشيع بين المغاربة، موقع بي بي سي باللغة العربية، ٠٧ مارس ٢٠٠٩م.

(٢) إدحماد مولاي عمر، خلفيات قرار قطع العلاقات بين المغرب و إيران، موقع الحوار المتمدن، ٢٢-٣-٢٠٠٩م.

(٣) محمود معروف، ماذا وراء قطع العلاقات الدبلوماسية المغربية - الإيرانية؟ سويس إنفو، ١١ مارس ٢٠٠٩م.

(٤) بعد طردها طلاباً سنة.. إغلاق مدرسة عراقية بتهمة نشر (التشيع) في المغرب، موقع مفكرة الإسلام، ٢٣ مارس ٢٠٠٩م.

(٥) عبدالرحمن الراشد، هل وصلت إيران حدود المغرب؟ جريدة الشرق الأوسط اللندنية، ١٨-٣-٢٠٠٩م.



الباب السادس

تناقض مع قضايا الأمة



الفصل السابع عشر

احتلال الأحواز العربية

تقع إمارة الأحواز العربية إلى الجنوب الشرقي من العراق، وهي محصورة بين خطي العرض ٣٠ و٣٣ درجة شمالاً، وبين خطي الطول ٤٨ و٥١ درجة شرقاً، وبهذا يكاد يكون امتداد إقليمها من الشرق إلى الغرب مساوياً تقريباً لامتداده من الشمال إلى الجنوب، حيث يبلغ طوله ٤٢٠ كم، وعرضه ٣٨٠ كم.

بعد احتلال إيران لها سعت إلى تغيير كُل معالمها العربية دون استثناء، فكانت أنْ بدأت بتغيير اسمها من إمارة (الأحواز) إلى تسمية (عربستان)، ومعناها في اللغة الفارسية (بلادُ العرب)، ثم عادوا وأطلقوا عليها اسم (خوزستان)، ومعناها بالفارسية أيضاً (بلاد القلاع والحصون).

يبلغ تعداد سكان إمارة الأحواز ثمانية ملايين نسمة، وجميعهم من العرب الأقحاح كابراً عن كابر. وتبلغ مساحتُها (٠٠٠, ٣٧٠ كم٢) ثلاث مئة وسبعين ألف كيلومتر مربع، يحدُها من الغرب العراق، ومن الجنوب الغربي الخليج العربي والجزيرة العربية، ومن الشمال والشرق والجنوب الشرقي جبال زاجروس والفاصل الطبيعي بين الأحواز وإيران.

يعود تاريخ الأحواز إلى عصور سحيقة، فنحن نجد ذكر الأحواز في التاريخ العربي الإسلامي بشكل كبير، كما في كتاب البداية والنهاية وتاريخ الطبري وآثار البلاد وأخبار العباد لزكريا بن محمد بن محمود القزويني، وجاء في لسان العرب: (الأحواز هي سبع كور بين البصرة وفارس، لكل واحدة منها اسم، وجمعها الأهواز أيضاً).

بعد انتصار القادسية قام أبو موسى الأشعري بفتح الأحواز، وظل إقليم الأحواز منذ عام ٦٣٧م إلى ١٢٥٨م تحت حكم الخلافة الإسلامية تابعاً لولاية البصرة، إلى أيام الغزو المغولي. ثم نشأت الدولة المشعشعية العربية (١٤٣٦م-١٧٢٤م)، واعترفت الدولتان الصفوية والعثمانية باستقلالها، ثم نشأت الدولة الكعبية (١٧٢٤م-١٩٢٥م) وحافظت على استقلالها كذلك. وبعد تأهيل نهر كارون وإعادة فتحه للتجارة وإنشاء خطوط سكك حديدية أصبحت مدينة الأحواز مرة أخرى نقطة تقاطع تجاري.

وأدى شق قناة السويس في مصر إلى زيادة النشاط التجاري في المنطقة حيث تم بناء مدينة ساحلية قرب القرية القديمة للأحواز، وسميت ببندر الناصري تمجيداً لناصر الدين شاه قاجار. وبين عامي ١٨٩٧م و١٩٢٥م حكمها الشيخ خزعل الكعبي الذي غير اسمها إلى الناصرية.

وبعد عام ١٩٢٠م، باتت بريطانيا تخشى من قوة الدولة الكعبية، فاتفقت مع إيران على إقصاء أمير الأحواز وضم الإقليم إلى إيران. حيث منح البريطانيون الإمارة الغنية بالنفط إلى إيران بعد اعتقال الأمير خزعل على ظهر طراد بريطاني، حيث أصبحت الأحواز وعاصمتها المحمرة محل نزاع إقليمي بين العراق وإيران.

ولم ينفك النزاع قائماً على الأحواز بعد استقلال العراق، حيث دخلت الحكومات العراقية المتلاحقة مفاوضات حول الإقليم، وعقدت الاتفاقيات بهذا الصدد منها اتفاقية ١٩٣٧م ومفاوضات عام ١٩٦٩م واتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥م بين شاه إيران محمد رضا بهلوي ونائب الرئيس العراقي صدام حسين الذي ما لبث أن ألغى الاتفاقية في أثناء الحرب العراقية الإيرانية بين عامي ١٩٨٠م – ١٩٨٨م، حيث أعلن عائدية الأحواز للعراق، غير أن غالبية الأحوازيين قاوموا القوات العراقية.

دخل الجيش الإيراني مدينة المحمرة بتاريخ ١٩٢٥م لإسقاطها وإسقاط آخر حكام الكعبيين، وهو خزعل جابر الكعبي وكان قائد القوات الإيرانية هو رضا خان، ويعد السبب الأصلي لاحتلال إيران لهذه المنطقة إلى كونها غنية بالموارد الطبيعية (النفط والغاز) والأراضي الزراعية الخصبة، حيث بها أحد أكبر أنهار المنطقة، وهو نهر كارون الذي يسقي سهلاً زراعيًّا خصباً تقع فيه مدينة الأحواز، فمنطقة الأحواز هي المنتج الرئيس لمحاصيل مثل السكر والذرة في إيران اليوم. وتساهم الموارد الموجودة في الأحواز بنحو نصف الناتج القومي الصافي لإيران وأكثر من ٨٠٪ من قيمة الصادرات في إيران. وهناك قول معروف للرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي يقول فيه: (إيران با خوزستان زنده است) ومعناه: (إيران تحيا بخوزستان).

وقد كان سكان المحمرة ومعظم منطقة الأحواز قبل الاحتلال في غالبيتهم عرباً، وكانت إمارة المحمرة هي مركز الحكومة، ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن يسعى المحتل الإيراني إلى زيادة نسبة غير العرب في الأحواز وتغيير الأسماء العربية الأصلية للمدن والبلدات والأنهار وغيرها من المواقع الجغرافية في

المنطقة. فمدينة المحمرة على سبيل المثال غيرت الحكومة الإيرانية اسمها إلى خورمشهر، وهي كلمة فارسية بمعنى البلد الأخضر.

أهم المدن العربية بالأحواز:

(١) مدينة الأحواز: تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة المحمرة، وهي عاصمة إمارة الأحواز، يلفظها الفرس بـ: (الأهواز) لأنه ليس في كلامهم حرف يماثل حرف (الحاء) العربي، فيلفظونه (هاء)، يقسمها نهر كارون الذي يمرُّ فيها إلى ضفتين هما: الناصرية والأمنية.

(٢) مدينة وميناء المُحمرة: تقع عند مصب نهر كارون في شط العرب، تبعد عن مدينة الأحواز (١٢٠ كم)، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية بـ (خرمشهر).

(٣) مدينة وميناء عبادان: تقع على شط العرب جنوب المحمرة بنحو (١٨ كم)، في جزيرة تحيط بها المياه من جميع جهاتها هي (جزيرة خضر)، وتسمى عبادان أيضاً (جزيرة المحرزي)، أما سبب تسميتها بـ(عبادان)، فكان نسبة إلى القائد العربي (عباد بن الحصين)، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (آبادان).

(٤) مدينة الحويزة: تقع على نهر الكرخة شمال غربي مدينة المحمرة في اتجاه محافظة ميسان (مدينة العمارة) العراقية، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (دشت ميشان).

(٥) مدينة تستر: وهي غوطة الأحواز الخصبة ذات المياه الوفيرة، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (شوشتر).

(٦) مدينة السوس: وهي مدينة تاريخية حضارية يرجع تاريخها إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وهي عاصمة الأحواز في العهود الأكادية، والعيلامية، والسومرية، والبابلية، والآشورية على التوالي، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية: (الشوش).

(٧) مدينة قنطرة القلعة: تقع على نهر الدز، وأراضيها عبارة عن تلول متوازية، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية: (دزفول/ديزفول/دسبول).

(٨) مدينة الفلاحية: تسمى عربيًا (الدورق) أيضاً، تقع على نهر الجراحي، تُعدُّ مركز أمراء إمارة الأحواز قبل بناء مدينة المُحمرة، سكنها قبائل بنوكعب، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية: (شادكان).

(٩) مدينة مسجد سليمان: تقع في أقصى شرق إمارة الأحواز، وتتركز فيها آبار النفط.

(١٠) مدينة الخفاجية: أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (سوسنكرد).

(١١) قرية الملا: تسمى عربيًا (البسيتين) أيضاً، أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (بستان).

(١٢) مدينة الصالحية: أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية: (أندمشك/أنديمشك).

(١٣) مدينة الأحجار السبعة: أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (هفتكل).

(١٤) مدينة الحميدية: أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (فرح آباد).

(١٥) مدينة العميدية: أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (أميدية) لخلو اللغة الفارسية من حرف العين وعدم تمكن الفرس من نطقه.

(١٦) ميناء خور عبدالله: أبدل الفرس اسمها العربي إلى التسمية الفارسية (بندر شابور- في عهد الشاهنشاهية العُنصري- أما في عهد نظام الملالي، فقد أطلق عليه: بندر خميني).

الحكومة الإيرانية، شأنها شأن الكيان الصهيوني المُحتل لفلسطين العربية، دأبت بكل ما تملك من وسائل إلى طمس ما يؤكد الهوية العربية لإمارة الأحواز، بما فيها التضليل بشأن المساحة الجغرافية الحقيقية للإمارة، ولتحقيق هذه الغاية الفاشستية العنصرية، فقد اقتطعت الحكومة الإيرانية عام ١٩٣٦م المئات من الكيلومترات من مساحة الإمارة، وضمتها إلى المحافظات الإيرانية/الفارسية المجاورة لإمارة الأحواز، تحت مُبرر تحديث التنظيمات الإدارية، وما يؤكد عدم صدق الحكومة الإيرانية في ادعائها هذا، أن تحديث تلك التنظيمات شمل فقط المدن العربية الواقعة ضمن إمارة الأحواز دون غيرها من المحافظات الإيرانية الأخرى.

لقد تم اقتطاع أحد عشر ألف كيلو متر مربع من الجزء الجنوبي لإمارة الأحواز وضمها لمحافظة فارس، وتم اقتطاع عشرة آلاف كيلومتر مربع من الجزء الشرقي للإمارة وضمها لمحافظة أصفهان، واقتطعت أربعة آلاف وأربع مئة كيلو متر مربع من الجزء الشمالي، وضمت لمحافظة لورستان.

ويُمكن الجزم أنَّ إجراءات الاحتلال الإيراني، هي على ذاتِ منوال إجراءات الكيان الصهيوني في تعامله مع المُدن والقرى الفلسطينية، التي كان - ولا يزال - يسعى بكُلِ الطرق إلى ضمها وهضمها واستيعابها، وهو كذلك على ذات منوال قضمهِ للأراضي العراقية الحُدودية، منذُ الغزو والاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م ولغاية أنْ أصبح ذلك الغزو والاحتلال تحالُفاً.

وعلى الرغم من أن الموقف العربي الرسمي كان مؤيداً وداعماً للقضية الأحوازية في البداية، ولا سيما في عقدي الخمسينيات والستينيات من العقد الماضي، فيذكر التاريخ أنه عام ١٩٦٤م أدرجت قضية عرب الأحواز على جدول أعمال مؤتمر القمة العربي الأول المنعقد في القاهرة، وكانت قرارات القمة حاسمة ومواقف قادتها واضحة وداعمة لهذه القضية، فكان من ضمن قرارات القمة إدراج قضية الشعب العربي الأحوازي في المناهج الدراسية العربية، والإعلام العربي إلى جانب قضايا العرب الأخرى كقضية فلسطين والمدن المغربية المحتلة (سبتة) (ومليلة)، وقضية الشعب الأرتيري.

إلا إنه مع مرور الأعوام وتوالي العقود، وتغير المواقف، غابت قضية الأحواز أو غيبت، وأضحى النسيان هو العنوان الرئيس لهذه القضية على الصعيد الرسمي، إلا من بعض المواقف العابرة التي لا تكاد تذكر، مقارنة بما يجب أن يكون، لقضية أمة واحدة، وجسد واحد ، ودم مشترك.

والإجرام الذي تمارسه إيران حق هذا الشعب العربي فاق حدود المعقول، وأظهر طائفية بغيضة ضد العرب المسلمين، ولم يتوقف عند مصادرة الحقوق الثقافية والممتلكات الشخصية فحسب، بل تعداه إلى مصادرة الحرية والحياة نفسها بسلاسل من الاعتقالات القمعية المتواصلة، ناهيك عن القتل المتعمد

والاغتيالات المستمرة في أثناء وقبل وبعد كل تحرك أحوازي، نتيجة الضغط الرهيب والتفرقة في المعاملة، هذه العنصرية البغيضة شملت كل مرافق الحياة على تنوعها، فيقدم الفارسي على العربي في جميع التعاملات اليومية لسبب واحد هو فارسيته فحسب.

إيران التي تحتل إقليم الأحواز العربي، والجزر الإماراتية الثلاث منذ عام ١٩٧١م، وتردد المزاعم في حق البحرين بين الفينة الأخرى، لا تعترف إلا بالقومية الفارسية، وتاريخها القديم والحديث لا يعرف سوى العداء والكره الشديدين للعرب، ولن تتوقف أطماعها الاستيطانية والتوسعية عند هذا الحد فحسب، فما الأحواز سوى نواة لأحواز جديدة على خريطة إيران التوسعية، وهي بذلك لا تقل خطراً عن دولة الكيان الصهيوني، وربما يكون خطرها أشد وأنكى؛ لأن إسرائيل عداؤها معلن وأطماعها ظاهرة للعيان، أما إيران فتتستر تحت غطاء الإسلام وادعاء الهم الواحد والعدو المشترك.

منذ اليوم الأول قامت الثورات في مواجهة المحتل الإيراني الذي مارس سياسة الأرض المحروقة التي كان يتبعها الاستعمار في ذلك الوقت ، فقاموا بتدمير القرى والمدن العربية الأحوازية وتم إعدام الشباب الأحوازي دون أي محاكمة أو فرصة للدفاع عن أنفسهم من أجل إرهاب باقي الأهالي. وحتى الآثار لم تنجُ من التدمير والتخريب من أجل طمس هوية الأحواز العربية وإنهاء ارتباطها التاريخي بعروبتها وربطها بالتاريخ الفارسي، فعمدت إيران إلى تزوير التاريخ والادعاء بحقها في الأحواز التي غيرت اسمها، كما قامت بتغيير أسماء المدن العربية إلى أسماء فارسية، ولم تنجُ الأسماء الشخصية

من التفريس، فكل الأسماء العربية تم تحويلها إلى أسماء فارسية، ولم يعد من حق أي أسرة أن تسمي أولادها إلا بأسماء فارسية.

ولم تكتفِ الحكومات الإيرانية بذلك، بل سعت لعملية التهجير للقبائل العربية المقيمة في الأحواز إلى مناطق الشمال الإيراني واستجلاب سكان هذه المناطق إلى الأحواز وإسكانهم فيها، ومارست سياسة التجويع للشباب الأحوازي نتيجة انعدام فرص العمل ومن أجل إجباره على الهجرة نحو الداخل الإيراني، ومن ثم يتم إبعادهم عن وطنهم وأهلهم وانتمائهم ولصقهم بمناطق جديدة بعادات وأعراف جديدة، أو الهجرة خارج البلاد وفقدهم لهويتهم العربية من خلال ارتباطهم بمعيشتهم وهمومهم الخاصة.

ولم يسلم التعليم من التفريس، فاللغة الفارسية هي اللغة المعتمدة بالتعليم، وحتى هي اللغة الرسمية الوحيدة بالبلاد (علمًا بأن الفرس في إيران يشكلون ثلاثة أخماس السكان، حيث يتوزع الخمسان الباقيان على كل من الأذربيجان والكرد والعرب والأرمن والآشوريين والبلوش) ومع ذلك، فإن التعليم فقط للمرحلة الابتدائية، ولا توجد مدارس للتعليم العالي، وغاية التعليم الابتدائي هو فقط لفرض اللغة الفارسية على السكان.

وتوسم الأحوازيون خيراً بعد قيام الثورة الإسلامية إلا أن آمالهم خابت، حيث استمرت إيران تجاه الأحواز بالسياسة نفسها التي كانت أيام الشاه، بل إن الأمور ساءت عن السابق بسبب الحرب الإيرانية العراقية التي استمرت ثمانية أعوام، وقف خلالها الشعب العربي في الأحواز إلى جانب أشقائه العراقيين.

وتتلخص الإجراءات التعسفية التي مارستها السلطات الفارسية ضد الشعب العربي الأحوازي - وما زالت حتى اللحظة - في الآتي:

- إلغاء مؤسسات الحكم العربي السياسية والإدارية والقضائية في الأحواز، وإعلان الحكم العسكري المباشر، حيث أقيمت الثكنات العسكرية والمعسكرات، وضم الإقليم إلى الأراضي الإيرانية.
- إنكار حق تقرير المصير للشعب الأحوازي، والحرمان من أبسط الحقوق والحريات السياسية التي تقضي بحق الشعب في المشاركة في حكم بلده سواء بصورة مباشرة أو عن طريق ممثلين عنهم.
- اقتطاع أجزاء من الإقليم وضمها إلى المحافظات الفارسية، وتغيير الملامح العربية للإقليم مثل تغيير اسمه من (عربستان) إلى (خوزستان)، وكذلك (تفريس) أسماء كثير من المدن وأسماء الشوارع والميادين بهدف طمس الهوية العربية.
- فرض الضرائب الباهظة على أبناء الأحواز واستخدام كل أنواع الاضطهاد ضدهم، كتهجيرهم إلى المدن الفارسية، وإحلال الأسر الفارسية محلهم بعد مصادرة أراضي العرب وأملاكهم.
- منع الحكومة الفارسية المحاكم (الأحوازية) من الترجمة للغة العربية وإليها، فوضعت بذلك أكبر عائق أمام المواطن الأحوازي لضمان حقوقه بمراجعة المحاكم.
- مصادرة جميع الكتب العربية الموجودة في الأحواز، سواء ملك المكتبات أو الأشخاص، ومن ثم منع تدريس اللغة العربية في المرحلة

الابتدائية على الرغم من وجود المادة ١٥ من الدستور الإيراني التي تنص على ضرورة تدريس لغة القوميات غير الفارسية في المدارس الابتدائية، ولكن السلطة الإيرانية لم تطبق هذه المادة على الرغم من مرور عشرات السنوات من المصادقة عليها، وبصفة عامة إهمال شؤون التعليم، وانعدام الرعاية الصحية.

- التباطؤ في عملية إعادة إعمار ما دمرته الحرب العراقية الإيرانية، والتجاهل المتعمد لمشكلة الألغام التي خلفتها تلك الحرب؛ وذلك يتسبب في مقتل وجرح المئات من أبناء الأحواز، ذلك على الرغم من المساعدات المالية الدولية التي تتلقاها إيران في هذا المجال.

- حرمان الشعب الأحوازي من مياه الشرب والزراعة من خلال تغيير مسار روافد نهر (كارون) في اتجاه المناطق الفارسية مثل (أصفهان)، أو من خلال السعي لتنفيذ مشروعات لتصدير هذه المياه إلى دول الخليج المجاورة.

- انتزاع الحكومة الفارسية الأراضي الزراعية من أصحابها العرب وإقامة مستوطنات فارسية تحت غطاء مشروعات صناعية زراعية مثل مشروع (قصب السكر).

- عقد الحكومة الإيرانية اتفاقيات مع دول أو شركات أجنبية في مجال استثمار ثروات نفط الأحواز، على الرغم من أحقية الشعب الأحوازي في التحكم في هذه الثروات.

- ومنذ احتلال الإقليم تفجرت ثورات وحركات مقاومة (أحوازية)، وكانت البداية بعد ٣ أشهر من الاحتلال بثورة شعبية سميت

(ثورة الغلمان)، وتوالت الانتفاضات والثورات، مثل ثورة الحويزة ١٩٢٨م، وثورة بني طرف ١٩٣٦م، ومعركة الشيخ عبدالله بن الشيخ خزعل ١٩٤٤م، وثورة عشيرة النصار ١٩٤٦م، وغيرها الكثير.

وتنوعت مقاومة الشعب الأحوازي بين المقاومة السلمية والعسكرية. وقد تكوَّن أول حزب سياسي منظم عام ١٩٤٦م عرف باسم حزب السعادة، وبعدها تشكلت منظمات ثورية وسياسية أخذت على عاتقها مقاومة المحتل، ومنها: (منظمة الجماهير الثورية الأحوازية)، و(حركة التحرير الوطني الأحوازي)، و(الاتحاد العام لطلبة وشباب الأحواز)، و(المجلس الوطني الأحوازي)، و(الجبهة العربية لتحرير الأحواز)، وغيرها كثير من المنظمات الثورية الأخرى التي تأثرت بحركات التحرر العربية.

الفصل الثامن عشر

الجزر العربية.. ما معنى الاحتلال؟

إذا كان الكثيرون في العالم العربي يتعاطفون مع إيران بخصوص برنامجها النووي، وما يظهر من مواقفها أنها ضد قوى الاستكبار العالمي، فإن هؤلاء يتناسون أن إيران حالها كحال إسرائيل، فكلتا الدولتين تحتل وتغتصب أرضًا عربية، وكلتا الدولتين تستعرض عضلاتها العسكرية على دول الجوار، وكلتا الدولتين تشترك في كرهها للعرب، فأين عقول هؤلاء؟

كل من إيران وإسرائيل طردت سكان الأراضي العربية التي تحتلها، فإيران قامت في صبيحة يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٩٧١م، وقبل يوم من إعلان اتحاد الإمارات العربية، باحتلال الجزر الإماراتية الثلاث (أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى) بالقوة العسكرية وانتهاك الاتفاقيات المبرمة واستغلالها للوضع آنذاك، وبتواطؤ من بريطانيا التي أغمضت عينيها لتترك المنطقة في وضع غير مستقر حتى الآن، واستمرت إيران بعدها في مضايقة سكان جزيرة أبو موسى حتى عام ١٩٩٢م حيث قامت بمنعهم في النزول إلى الجزيرة، وأعادتهم إلى الشارقة، وأصبحوا في العرف الدولي (مهجرين).

وهـذا يماثل تماماً ما قامت بـه إسرائيل، وبتواطؤ من بريطانيا، في فرض سيطرتهـا واحتلالها للأراضي العربية الفلسطينيـة، وتتفنن كل يوم في طرد وتهجـير الفلسطينيين مـن أراضيهم، حتـى أصبحوا يعيشـون في معسكرات اللجوء في الدول المجاورة.

لقد اعتقد الكثيرون في العالمين العربي والإسلامي أن ما حدث من احتلال إيراني للجزر العربية الإماراتية في عهد الشاه العلماني لا يمكن أن يستمر في عهد الثورة التي رفعت شعارات الإسلام والوحدة الإسلامية. ولكن ما حدث كان أكثر بشاعة، فلم تتغير السياسة الإيرانية تجاه الجزر المحتلة منذ قيام الثورة وبعد سقوط الشاه، وبقيت هذه السياسة كما كانت، بل زاد جبروتها على دول الجوار، وتفننت إيران في استعراض قوتها على دول الخليج وتمادت في إطلاق التصريحات الاستفزازية بخصوص هذه الدول، فيتحدثون باستمرار عن أن البحرين محافظة إيرانية وجزء من إيران، ولا يطلقون على الخليج إلا وصف (الفارسي) فيقولون: (الخليج الفارسي) ويطمسون حقيقته العربية.

مطامع إيران في منطقة الخليج العربي هي مطامع تاريخية عمرها أكثر من ألفي وخمس مئة سنة. ومهما حاولت إيران قبل وأثناء وبعد كل مناورة تقوم بها أن تؤكد نياتها الطيبة تجاه جيرانها على الضفة الأخرى من الخليج العربي، إلا أن ذلك لا يعني أن القوة الإيرانية المتعاظمة وُجدت فقط لحماية الخليج بضفتيه من الصهيونية والغرب. فإيران لا تزال تحتفظ بجزر خليجية عربية ذاتَ أبعاد جيو إستراتيجية، تابعة لإمارتي رأس الخيمة والشارقة، وهو احتلال تصفه إيران بأنه ناتج عن سوء فهم في حين تصفه دولة الإمارات العربية المتحدة بأنه احتلال.

يتردد في الأوساط الإيرانية أن إيران اشترت هذه الجزر من حكام رأس الخيمة (التي تتبع لها طنب الكبرى وطنب الصغرى) والشارقة (التي تتبع لها جزيرة أبي موسى) قبل قيام الاتحاد المتمثل في دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧١م.

إن الكثير من المحللين الاقتصاديين يذهبون إلى أن ادعاء سيادة إيران على الجزر الثلاث ليس فحسب له أهمية جيو إستراتيجية وجيو سياسية، بل هو أيضاً له علاقة بالنفط والغاز في الجزر الثلاث. فثمة دراسات جيوفيزيائية تؤكد وجود كميات مهولة من النفط والغاز في هذه الجزر، يمكن أن تكون أكبر بكثير مما تنتجه دولة الإمارات العربية المتحدة، وربما دول الخليج قاطبة باستثناء المملكة العربية السعودية.

الإمارات تقول: إنها حرصت على عدم إثارة أزمات إضافية في المنطقة، ولم تشأ تصعيد موضوع الجزر، وظلت كذلك إلى ما بعد غزو صدام للكويت وتحرير الكويت، التزامًا بموقفها الأخلاقي في عدم إثارة القضية وعدم استغلال الوضع الذي كانت فيه إيران للضغط عليها للمطالبة بالجزر الثلاث المحتلة، واتبعت النهج السلمي لتسوية هذه المشكلة.

ولا تستغل دولة الإمارات العربية الوثائق التاريخية التي تؤكد عروبة الجزر الثلاث، فهناك وثائق بريطانية تعود إلى بدايات الوجود البريطاني في الخليج وهناك وثائق عثمانية تؤكد استقلالية إمارة (لنجة) العربية على السواحل الشرقية للخليج العربي، وإن هناك أيضاً وثائق إيرانية تعود إلى العقد الثالث من القرن الحالي تعترف ضمناً بتبعية الجزر الثلاث إلى إمارتي الشارقة ورأس الخيمة.

الوثائق تؤكد عروبة الجانب الشرقي من الخليج العربي بأكمله، بكل ما يحوي من جزر ومدن وموانٍ حيث إمارة الأحواز في الشمال التي كان يسكنها قبيل سقوطها تحت الحكم الفارسي عام ١٩٢٥م ما يزيد على مليوني عربي ينتمون إلى قبائل عربية عريقة، حيث كانت تقوم سلسلة من الإمارات العربية على امتداد ذلك الجانب إلى جنوب الخليج حيث إمارة (لنجة) العربية التي سقطت كلها تحت الحكم الفارسي.

الوثائق تؤكد ممارسة الحكام العرب لحقوقهم وملكيتهم لهذه الجزر من قبل عام ١٨٨٧م وإلى عام ١٩٧١م، وذلك يُعدّ كافياً لإعطاء الأحقية والملكية للإمارات استنادًا لأحكام القانون الدولي.

ولكن يبدو أن نجاح تدخل إيران في الشؤون العراقية واللبنانية والفلسطينية واليمنية في الأيام الأخيرة، وكذلك صمت المجتمع الدولي عن اضطهاد النظام الإيراني للعرب والقوميات الأخرى داخل إيران، أغرى هذا النظام كي يتطاول على جيرانه العرب في دول الخليج، وأخاف في الوقت نفسه الدول العربية، حتى التي تحتل إيران جزءاً من أراضيها[٢].

لقد كان أحد مقترحات الإمارات هو عرض هذه القضية على محكمة العدل الدولية، ولكن إيران ترى أنها بقبولها لهذا الأمر سوف تضع ملكيتها لهذه الجزر موضع شك وتردد. والجزر الثلاث تبعد عن الإمارات نحو ٢٣ ميلاً تقريباً، بينما تبعد عن إيران ٤٣ ميلاً، وجزيرتا طنب الكبرى والصغرى تقريباً غير مسكونتين. وتقع هذه الجزر في طريق عبور السفن العالمية. جزيرة أبو موسى ذات موقع إستراتيجي؛ إذ من خلالها يمكن التحكم في مضيق هرمز، في هذه الجزيرة تعيش ٣٠٠ أسرة إماراتية كانوا يرغبون

في العودة إلى بلادهم، ولكن دولة الإمارات كانت تمنحهم معاشاً شهريًّا بأمر من الشيخ زايد بن سلطان؛ لتشجيع هذه الأسر على البقاء فيها. وكانت إيران قد رفضت اقتراح الإمارات بعرض القضية على محكمة العدل الدولية، وعقدت مباحثات ثنائية مع الإمارات في يونيو ١٩٩٩م طبقاً لاتفاقية ١٩٧١م، وشكل مجلس التعاون الخليجي لجنة ثلاثية بهدف الوساطة بين الطرفين، ولكن إيران رفضت هذه اللجنة، وبعد تحسن العلاقات الإيرانية - السعودية بدأت الرياض مساعيها بهدف عمل توازن للعلاقات بين إيران ودول مجلس التعاون.

الكاتب الإيراني (حميد تقوى بور) يرسم سيناريو لحل أزمة الجزر كالآتي:

(١) تخلي إيران عن ادعائها بخصوص جزيرة أبو موسى.

(٢) في إطار مذكرة التفاهم الثنائية بين إيران والشارقة سنة ١٩٧١م يتم تعديل المادة الأولى من المذكرة التي بموجبها:

(أ) سيتم صرف النظر عن أحقية إيران في جزيرة أبو موسى.

(ب) اعتراف إيران رسميًّا بهيمنة الإمارات (الشارقة) على أبو موسى.

(٣) رفض أي وجود عسكري لأي طرف ثالث في أبوموسى.

اتفقت الدولتان على أن أمن الجزيرة هو مسؤولية مشتركة للدولتين، إضافة إلى عدم وجود أي قوة عسكرية لطرف ثالث بحراً أو برّاً دون موافقة مشتركة ومسبقة من البلدين (إيران والشارقة).

(٤) اعتراف الإمارات رسميًّا بأحقية وسلطة إيران على جزر طنب الكبرى والصغرى.

يتم اعتراف الإمارات العربية المتحدة (إمارة رأس الخيمة) رسميًا دون قيد أو شرط بهيمنة وأحقية إيران في جزر طنب الكبرى والصغرى، وذلك وفقاً للآتي:

(أ) تقسيم الدخل النفطي في جزر طنب:

في حالة كشف مصادر نفطية أو غازية في جزر طنب أو فيما يحيط بها عن طريق إيران أو الإمارات، فإنها ستقسم طبقًا لقاعدة اتفاق مصالح البلدين، وسوف يصدر قرار استخراج المصادر الموجودة في جزء طنب من جانب إيران دون قيد أو شرط.

وتتفق الدولتان على أن جزر طنب الكبرى والصغرى لها الاعتبارات القانونية نفسها التي منحت عام ١٩٦٩م في إطار الاتفاقية الإيرانية، السعودية حول جزيرة (خارك).

(ب) حرية الملاحة:

يتفق الطرفان (إيران والإمارات) على أنه ليس من حق أي منهم منع عبور السفن التابعة للطرف الآخر، ولا يتدخل فيها، وعلى سبيل المثال لا يجوز للإمارات منع سفن إيران المتجهة إلى سيري وأبو موسى عبر المياه الإقليمية التابعة للإمارات.

(ج) التنسيق فيما بين الطرفين:

فيما يختص بالنفط والغاز أو سائر المصادر المعدنية البحرية الموجودة لدى الطرفين في الحدود البرية أو البحرية أو المياه الإقليمية يتم استخراجها

عن طريق حفارات، وذلك من خلال التنسيق بين الطرفين بشكل لا يخل بمصالح طرف عن آخر.

(د) التزام جميع الإمارات المشكّلة لدولة الإمارات العربية المتحدة:

على خلاف إيران، فإن دولة الإمارات العربية المتحدة دائماً لها رؤى مختلفة ودائماً يتحدث رئيس دولة الإمارات باسم كل الإمارات، في حين أن الإمارات السبع لها وجهات نظر مختلفة بخصوص موضوع الجزر (الشارقة ورأس الخيمة).

ولهذا، فإن الاتفاق بين إيران والإمارات بخصوص الجزر يجب أن يكون بتأييد كتابي ودون قيد أو شرط من جانب الإمارات المشكلة لدولة الإمارات العربية، وخاصة إمارتي الشارقة ورأس الخيمة.

(هـ) ضمان الطرف الثالث:

من المهم أن يضمن مجلس التعاون الخليجي ومنظمة الأمم المتحدة اتفاقية إيران والإمارات بخصوص الجزر؛ لأن القيام بهذا العمل يضمن عدم إخلال أحد الطرفين ببنود الاتفاق حول الجزر، وتشير تجربة إيران في منطقة الخليج (الفارسي) إلى أن التباحث دائماً لن يؤدي إلى حل، وخير مثال على ذلك الاتفاق بين العراق وإيران عام ١٩٧٥م الذي كان بعد عشرات السنين من الخلاف، وهناك مثال آخر، وهو مذكرة التفاهم بين إيران والشارقة عام ١٩٧١م بخصوص جزيرة أبو موسى، وكانت هذه المذكرة موضع تأييد وترحيب أمير الشارقة ونائبه الذي رحب شخصيًّا بدخول القوات الإيرانية إلى الجزيرة في ٣٠ نوفمبر ١٩٧١م، ووقتها اتهم أمير الشارقة (بأنه باع نفسه لإيران).

وبشكل عام، يمكن أن نشير إلى السيناريوهات الأخرى المحتملة لحل الخلاف حول الجزر، وأهمها:

(١) الصمت تجاه القضية والاكتفاء برفض البيانات الختامية التي تصدر عن مجلس التعاون الخليجي، وذلك مثلما حدث لإيران في بحر قزوين، وانتهى الموضوع إلى إحالته إلى المراجع الدولية مثل منظمة الأمم المتحدة.

(٢) إحالة الموضوع إلى الوساطة أو التحكيم الذي لن يكون حلاً مرغوبًا؛ لأنه من الممكن أن تكون مصالح الطرف الثالث (تصب) وتتوافق مع مصلحة الإمارات، وهذا لن يكون موضع رضا إيران، ومثال ذلك رفض إيران اللجنة الثلاثية لمجلس التعاون الخليجي، ومن ناحية أخرى، فإن عرض الخلاف القائم بخصوص الجزر على محكمة العدل الدولية يمكن أن يلزم إيران بقرارات لن تستطيع رفضها أو التقاعس عن تنفيذها.

(٣) وفي حالة حل الخلاف عن طريق المباحثات الثنائية مع الإمارات، فإيران بهذا ستواجه خيارين:

الأول: عقد سلسلة من الاتفاقيات مع الإمارات السبع منفصلة كما ذكر من قبل حول إحدى الجزر، وهذا الأسلوب أيضاً لن يكون في مصلحة إيران.

الثاني: وهو الأمر الأكثر أهمية، ويتعلق بالعمل على تدعيم العلاقات الاقتصادية والثقافية وزيادة الاستثمارات المشتركة، وإيجاد مناطق للتجارة الحرة في الجزء موضع الخلاف في مجال التربية والتعليم، مثل إنشاء اتحاد لجامعات الخليج (الفارسي)، وتبادل البعثات التعليمية والطلاب اللاعبين والمدربين مع الإمارات[٢].

الهوامش:

(١) د. علي الهيل، الخليج العربي: بريطانيا أساس البلاء.. إيران والجزر الإماراتية وفلسطين، صحيفة القدس العربي، ٢٠١٠/٥/١٧م.

(٢) محمد الحمادي، جزر الإمارات المحتلة وشاهنشاهية الملالي، صحيفة (الاتحاد) الإماراتية، ٢٦ يوليو ٢٠٠٧م.

(٣) حميد تقوى بور، إيران والإمارات وقضية الجزر الثلاث، صداي عدالت (صوت العدالة)، ١٠، ١١ / ٩ / ٢٠٠٢م.

الفصل التاسع عشر

أفغانستان.. ذهول التواطؤ

كان موقف إيران عدائيًّا ومعروفاً للجميع من حركة (طالبان) إبَّان حكمها لأفغانستان، وقد أدى هذا العداء، الذي يبدو أنه عداء ديني مذهبي في جانب كبير منه، إلى أن تقوم إيران التي تدَّعي أنها تدافع عن الإسلام والمستضعفين، بمساعدة الولايات المتحدة في حربها العدوانية ضد الحركة عام ٢٠٠١م؛ من أجل القضاء على نظامها الإسلامي السني.

كانت علاقة إيران سيئة وعدوانية بالحكم الوطني الذي مثلته (طالبان)، والذي حافظت من خلاله على الأمن والسلام في هذا البلد، ثم أصبحت هذه العلاقة جيدة ومتينة مع نظام الحكم العميل وغير الوطني الذي مثله حامد قرضاي، الذي عمل بأمر المحتل الأمريكي، واكتسب شرعيته من حماية هذا الاحتلال.

العلاقات القوية بين النظام الإيراني ونظام قرضاي العميل في أفغانستان، عبَّرت عن نفسها بالزيارة التي قام بها الرئيس الإيراني السابق (محمد

خاتمي) إلى العاصمة كابل في أغسطس ٢٠٠٢م، في أول زيارة رفيعة المستوى منذ ٤٠ عاماً.

ومنذ سقوط (طالبان) - العدو المذهبي والأيديولوجي لإيران - عززت الدولة الفارسية علاقاتها التجارية بأفغانستان؛ حيث وقَّع البلدان كثيراً من الاتفاقات التجارية في يناير ٢٠٠٣م، وقدمت إيران لأفغانستان خصمًا قيمته ٩٠٪ على الرسوم والتعريفات المفروضة على السلع المصدرة من خلال منطقة التجارة الحرة في (شاباهار)، ونمت التجارة الإيرانية ـ الأفغانية من أقل من ١٠ ملايين دولار عام ٢٠٠١م إلى ٥٠٠ مليون دولار عام ٢٠٠٦م، وفي منتصف عام ٢٠٠٧م أمدت إيران أفغانستان بأكثر من ٥٠٠ مليون دولار في شكل أرصدة دائنة.

وتقدم إيران مساعدات لأفغانستان تُعَد من قبيل الدعم العام لإعادة الإعمار؛ ففي يونيو ٢٠٠٦م وعدت طهران ببناء محطات توليد كهرباء ٥٢ ميجاوات في كابل بتكلفة نحو ٨٠ مليون دولار، وقدمت أيضاً ما يقرب من مليوني دولار للمساعدة على الإصلاحات الإدارية الأفغانية غير الحكومية، ومساعدة لجنة الخدمة المدنية لتدريب المسؤولين الحكوميين في (قندهار) و(هيرات) و(كابل) خلال عامي ٢٠٠٦م و٢٠٠٧م.

وساهمت إيران في بناء معهد اتصالات، وتوفير التدريب لموظفي البريد، وإنشاء برنامج لإرسال خبراء لتدريب المعلمين الأفغان، وفي الوقت ذاته تمكنت شركة (شهيدي كاندي) الإيرانية، بالتعاون مع شركة هندية، من إنشاء ١٥٠ ألف خط هاتف في كابل وقندهار ومزار شريف وجلال آباد.

فعلت إيران هذا، بل أكثر منه بكثير في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والعامة في أفغانستان، وكانت النتيجة الأساسية لهذا الدعم هي ربط غرب أفغانستان بإيران اقتصاديًّا وسياسيًّا أكثر من أي وقت مضى، خاصة أن المقاطعات الأفغانية الغربية أقرب لإيران منها إلى كابل، فمدينة أفغانية حدودية مثل (هيرات) تبعد عن الحدود الإيرانية بمقدار ٧٥ ميلاً، بينما تبعد عن كابل بمقدار ٦٥٠ ميلاً.

ولم يقتصر الدعم الإيراني لأفغانستان على الجوانب الاقتصادية، وإنما عملت طهران على تطوير علاقات ثقافية مع أفغانستان؛ حيث دعمت البرامج الدينية والتعليمية هناك، ولم تكتفِ إيران بعرض إرسال مدرسين إيرانيين لأفغانستان واستقدام المدرسين وعلماء الدين الأفغان إلى إيران للتدريب، بل بدأت برنامجاً لتشجيع تعليم وتعلم اللغة الفارسية في أفغانستان حتى في المناطق البعيدة عن حدود المقاطعات الغربية، وهو أمر سيكون له تأثير طويل المدى.

هناك كثير من الأمور التي يجب أخذها في الحسبان حول طبيعة الدور الإيراني في أفغانستان، ومن هذه الأمور أن طهران برهنت على قدرتها واستعدادها لزعزعة الاستقرار غرب أفغانستان، واستخدام العمال المهاجرين واللاجئين الأفغان بوصفها أدوات للمساومة مع كابل، وأدرك الأفغان بشكل واضح إستراتيجية (العصا والجزرة) من خلال طرد إيران الجماعي للاجئين بوصفه عصا، وبليون دولار من المساعدات والتجارة بوصفه جزرة[1].

عندما قامت حكومة طالبان السنية في أفغانستان، وسيطرت على كابل عام ١٩٩٦م، جن جنون إيران، فقامت بحشد الحشود على حدود أفغانستان، وأخذت تهدد، وتتوعد طالبان بأنها ستجتاحهم، وتقضي عليهم، هكذا دون

أي سبب، والذي جعلها تتراجع في حينها هو خوفها فقط من أن تغرق في مستنقع أفغانستان.

ولكن ما أن قررت الولايات المتحدة الأمريكية تشكيل قوات تحالف صليبية لمهاجمة أفغانستان لإسقاط حكومة طالبان والقضاء عليها بعد أحداث ٢٠٠١/٩/١١م كانت القوات الإيرانية في طليعة هذه القوات، حيث التقى العداء المذهبي لأهل السنة مع العداء الصليبي، وبالفعل كانت القوات الإيرانية طليعة قوات التحالف الصليبية التي دخلت كابل، فقامت بارتكاب المجازر بأهل السنة وخصوصاً العرب، حيث قتلت إيران منهم الكثير، وأخذت الكثير منهم أسرى، وما زالوا يقبعون في سجونها إلى الآن.

لقد صرح الجنرال ديفيد بتريوس قائد القيادة العسكرية الأمريكية الوسطى بأن: (الولايات المتحدة وحلفاءها لهم مصالح مشتركة مع إيران الشيعية ضد السنة في أفغانستان). وقال بتريوس: (هناك مصالح مشتركة بين أفغانستان والتحالف وإيران). وأوضح: (إن إيران التي يهيمن عليها الشيعة لا تريد عودة حكم طالبان السني، إنهم (إيران) لا يريدون أن يروا أفغانستان في قبضة قوات سنية متطرفة).

وقال بتريوس: (إن الأمر يرجع إلى رجال السياسة ليزنوا المصالح المشتركة هناك مقابل نزاعات رئيسية بين واشنطن وطهران فيما يتعلق بقضايا أخرى)[٢].

الباحث الإيراني محمد غلام رضا يؤكد أن: (الحوار الإيراني - الأمريكي يمكن أن يشهد ربيعاً في ظل الإدارة الأمريكية الجديدة، إدارة أوباما)، ويقول: (إن الحوار بين إيران وأمريكا لم ينقطع، حيث إن طهران كانت

في حوار دائم مع واشنطن في بغداد، وإنها تسلّمت رسائل من أمريكا عبر السفارة السويسرية). وأكد أنه: (لولا إيران لما تمكنت أمريكا من إسقاط حكومة طالبان في كابول ٢٠٠١م وحكومة صدام في العراق ٢٠٠٣م)[٣].

ومن المهم أن نتوقف قليلاً مع مقال ديفيد مونتيرو: (أمريكا وإيران في أفغانستان.. مصالح مشتركة) المنشور بصحيفة كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية، الذي ترجمه أحمد أبوعطاء لموقع مفكرة الإسلام في ١٦مايو ٢٠٠٦م، حيث يركز الكاتب الأمريكي على النقاط الآتية:

- تحرص إيران على البقاء بوصفها واحدة من أكبر وأهم شركاء حكومة الرئيس الأفغاني حامد كرزاي الموالية للاحتلال على الصعيد التجاري والدبلوماسي.
- ظلت طهران طوال سنوات عدة لا تعدّ أفغانستان سوى مسرح لإعداد المؤامرات والدسائس بغض النظر عن صالح المواطن الأفغاني العادي، خاصة إبان حكم حركة طالبان لأفغانستان.
- الولايات المتحدة وإيران، وفقاً للمعطيات الظاهرية على ساحة الأحداث الدولية، تبدوان في حالة نزاع وصدام خاصة ما يتعلق بالأزمة المترتبة على البرنامج النووي الإيراني المثير للجدل الذي تؤكد الولايات المتحدة وحلفاؤها من الدول الأوروبية أنه محاولة من جانب طهران لامتلاك القنبلة النووية، لكن النزاعات والصدامات المعلنة بين إيران والولايات المتحدة لم تؤثر من بعيد أو قريب في حقيقة التعاون الكامل والتوافق في الرؤى ووجهات النظر على مدار سنوات عدة في أفغانستان بين أمريكا وإيران، ذلك التعاون الذي اتضح بشكل ملحوظ، ولاسيما في

السنوات القليلة الماضية، وأكد أن أفغانستان باتت مسرحاً حقيقيًّا لتلاقي المصالح الأمريكية الإيرانية المشتركة.

- النزاع الدبلوماسي الدائر حالياً بسبب البرنامج النووي الإيراني، يمكن أن يسبب انتكاسة لجهود إيران التي تتم من وراء الستار الهادفة إلى محاصرة العدو الأخطر للولايات المتحدة المتمثل في الأطراف التي تسميها واشنطن (الإرهابية).

- ينقل الكاتب عن محمد رضا إبراهيمي السفير الإيراني في أفغانستان قوله: (الخلافات التي تظهر على السطح بيننا وبين المجتمع الدولي لم يظهر لها أي أثر في الساحة الأفغانية حتى الآن، ونحن نعتقد أن أفغانستان يمكن بالفعل أن تكون النموذج المأمول للتعاون الحقيقي والمثمر بين طهران والمجتمع الدولي)، في إشارة ضمنية للولايات المتحدة الأمريكية.

- التأثير الإيراني في أفغانستان يتم وفقًا لأجندة خاصة بطهران تغيرت بطبيعة الحال بطبيعة الأحداث والحروب والمتغيرات التي شهدتها الساحة الأفغانية، وهو تأثير مستمر منذ قرون وضارب بجذوره في عمق التاريخ بسبب الحدود المشتركة بين البلدين والمليئة بالثغور التي تصل لآلاف الأميال والتي يعبرها يوميًّا ما لا يقل عن ألفي شخص، وكذا بسبب وجود كثير من الطوائف الشيعية داخل أفغانستان قرب الحدود مع إيران تتشارك في اللغة والثقافة والميول والأهداف، وهو ما تجلى بشكل واضح في الدعم المتكامل الذي قدمته طهران لما يسمى (قوات تحالف الشمال) التي ظلت تناهض حكم طالبان الإسلامي السني في المدة ما بين عامي ١٩٩٦م و٢٠٠١م.

- تحالف الشمال الذي كان يحصل على المساندة التامة من جانب إيران كان هو أحد أهم الأسباب التي ساعدت الولايات المتحدة على حملتها الرامية إلى غزو أفغانستان وإبعاد حركة طالبان عن الحكم في كابل.

- النفوذ الإيراني في الشأن الأفغاني لا يقتصر فقط على الجانبين التجاري والاقتصادي، وإنما يمتد إلى الجانب الأمني، فإيران تمارس تدخلاً غير محدود في تنفيذ عمليات مسلحة وأخرى تفجيرية لخدمة مصالح خاصة في أفغانستان، بل يتحدث الكثيرون عن نفوذ كبير لقوات الحرس الثوري الإيراني بصورة سرية في محافظة هيرات على وجه الخصوص.

- أقرت لجنة من الخبراء الأمريكيين أمام جلسة للكونجرس الأمريكي في مارس من عام ٢٠٠٦م بشأن الأوضاع في أفغانستان بأن إيران تسهم بقوة في استقرار الأوضاع هناك، من المنظور الأمريكي[٤].

أما كلام الرئيس الإيراني السابق علي أكبر هاشم رفسنجاني، فقد كان واضحاً في تأكيد تعاون إيران مع أمريكا لاحتلال بغداد وأفغانستان، فقد نقلت صحيفة الشرق الأوسط اللندنية في ٢٠٠٢/٢/٩م عن الرئيس الإيراني السابق علي أكبر هاشم رفسنجاني قوله في جامعة طهران: (إن القوات الإيرانية قاتلت طالبان، وساهمت في دحرها، وإنه لو لم تساعد إيران على قتال طالبان لغرق الأمريكيون في المستنقع الأفغاني) وأضاف: (يجب على أمريكا أن تعلم أنه لولا الجيش الإيراني الشعبي ما استطاعت أمريكا أن تُسقط طالبان)[٥].

محمد علي أبطحي نائب الرئيس الإيراني للشؤون القانونية والبرلمانية وقف بفخر في ختام أعمال مؤتمر الخليج وتحديات المستقبل الذي نظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية في أبوظبي مساء ٢٠٠٤/١/١٥م ليعلن أن بلاده قدمت الكثير من العون للأمريكيين في حربيهم ضد أفغانستان والعراق، مؤكداً أنه لولا التعاون الإيراني لما سقطت كابل وبغداد بهذه السهولة(٦).

ويؤكد الدور الإيراني المشبوه ما قاله نائب الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية، فيلب ريكر: (نعرف كلنا بالطبع تاريخ جهود التحالف في أفغانستان التي أدت إلى تحرير ذلك البلد من طالبان واجتثاث الخلايا الإرهابية، بما فيها بالطبع (القاعدة)، التي كانت تتخذ من أفغانستان قاعدة لها، وكانت تلك عملية تمكنا بها من التباحث مع إيران أيضًا حول قضايا تتعلق بأفغانستان)(٧).

ويؤكده أيضاً ما أعلنه الناطق باسم الخارجية الإيرانية، وكذلك وزير الاستخبارات الإيراني علي يونسي، في حديث أدلى به في المدرسة الفيضية الدينية في قم، في أثناء العدوان من أن هناك شكلاً من أشكال الدعم تقدمه إيران أو اتفقت إيران على تقديمه للولايات المتحدة. وما نص عليه د.محسن رضائي الأمين العام لمجمع تشخيص مصلحة النظام في إيران خلال حديثه لبرنامج (بلا حدود) في فضائية الجزيرة في أثناء العدوان أيضاً؛ حين قال: (إن الخلاص منه (المستنقع الأفغاني) يجب أن يمر عبر إيران، أي إزالة طالبان والتيار السياسي الموجود في أفغانستان، وإذا وصلت أمريكا إلى طريق مسدود في أفغانستان لا بد أن تحصل على طريق للخلاص من هذا

الطريق المسدود، فإيران طريق جيد، وإيران يمكن بشتى الطرق أن تحل هذا الطريق، وتخلص المنطقة من الأزمة الحالية، وتنتهي هذه الأزمة[٨].

ويؤكد الموقف الإيراني أن إيران تعهدت بعد الحرب بأسابيع بتقديم ٥٠٠ مليون دولار للمساهمة فيما دعته (إعادة إعمار أفغانستان) في أثناء زيارة قام بها الرئيس الأفغاني حميد قرضاي لإيران، أشاد فيها بالدعم الإيراني في إسقاط طالبان، وقال: (لإيران دور مهم، فلديها الكثير من الموارد مع توافر حسن النية لمساعدتنا على إعادة إعمار أفغانستان، ونريد من دول العالم كافة أن تساعدنا كما ساعدتنا إيران)[٩].

الهوامش:

(١) محمود قطب، إيران في أفغانستان.. مواقف مخزية، موقع لواء الشريعة، ١-٣- ٢٠٠٩م.

(٢) الناتو يسعى للشراكة مع إيران في حربه ضد طالبان، موقع مفكرة الإسلام، ٢٧ يناير ٢٠٠٩م.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ديفيد مونتيرو، أمريكا وإيران في أفغانستان.. مصالح مشتركة، صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، ترجمة أحمد أبوعطاء، موقع مفكرة الإسلام، ١٦مايو ٢٠٠٦م.

(٥) صحيفة الشرق الأوسط، ٢٠٠٢/٢/٩م.

(٦) د. أيمن الهاشمي، يريدون تبرئة إيران... ترى من الذي تواطأ مع الغزاة؟، صحيفة السياسة الكويتية، ٢٠١٠/١١/٢٦م.

(٧) موقع وزارة الخارجية الأمريكية على شبكة الإنترنت.

(٨) برنامج بلا حدود في فضائية الجزيرة في ٢٠٠١/٧/٢٥م.

(٩) صحيفة الشعب الصينية ٢٠٠٢/٢/٢٥م.

الفصل العشرون

ولاء لأرمينيا النصرانية وعداء لأذربيجان المسلمة!

من الأمور العجيبة التي تثير التعجب من تناقضات إيران، أنها على الرغم من تبنيها الشعارات الإسلامية، إلا أنها تفضل الصداقة مع أرمينيا المسيحية على الصداقة والتعاون والأخوة مع أذربيجان المسلمة التي فيها أيضاً طائفة شيعية كبيرة، فالأخوة الإسلامية لا مكان لها في السياسة الإيرانية، وإنما المكان هو للهواجس الأمنية والمصالح التي تتحكم في سياسة طهران وخاصة الخشية من تنامي المشاعر القومية والانفصالية في أذربيجان الجنوبية.

فمن المفارقات أن نجد دولة مثل أذربيجان مع كثرة شيعتها إلا أن علاقتها مع إيران ليست على ما يرام، وربما كان منطلق إيران من ذلك أن (الأزرد) أصولهم تركية، ويتحدثون اللغة التركية، وأن إيران تفعل ذلك من باب مواجهة النفوذ التركي.

صحيح أن خريطة العلاقات الدولية تتغير، وتتبدل بتغير المصالح والأهداف، لكن سعي إيران إلى تعزيز نفوذها الإقليمي في وقت تمكنت فيه

واشنطن وتل أبيب من إحاطة طهران بشبكة قوية من العلاقات مع دول منطقة القوقاز وآسيا الوسطى، ينبغي ألا يكون على حساب أذربيجان المسلمة.

إيران تقوم باتخاذ خطوات إستراتيجية لإعادة تقييم علاقاتها مع الكثير من الدول بهدف الوقوف على قدم المساواة مع أمريكا وإسرائيل، واستعداداً لأي طارئ إذا ما اندلعت حرب في تلك المنطقة.. هذا أمر يمكن فهمه، لكن لا يمكن استيعاب أن يكون ذلك على حساب الأخوة الإسلامية.

كان يمكن لإيران أن تطور علاقاتها مع أرمينيا في مجالات عدة، لكن لا يعني هذا أن يكون هذا التطوير على حساب مناصرة أرمينيا المسيحية ضد أذربيجان المسلمة.

إذا ما ألقينا نظرة على النسيج السكاني في إيران سنجد أن ٥١٪ فرس، ٢٤٪ آذريون، والبقية من السكان هم من الكرد والعرب والبلوش والتركمان والبلوخيين. وبسبب ذلك دعمت إيران أرمينيا منذ اندلاع الحرب في أواخر ثمانينيات القرن الماضي حول مسألة (ناغورنو كرباخ) المتنازع عليها بين أذربيجان وأرمينيا، ودخلت المصالح الاقتصادية، النفط بشكل خاص المعادلة، لكن الجانب الإثني بعدم تقوية شوكة الجمهورية النفطية الواعدة (أذربيجان) التي لها امتداد قومي في أراضي الدولة الإيرانية غضّ الطرف عن العنصر الديني الذي يستعمل كما يبدو عند الطلب، فالعناصر الأخرى تستعمل وتكيف بحسب المصلحة والأمثلة كثيرة وقريبة.

هذه الصور، وإن بدت غير مترابطة إلا أنها تصب في سياق واحد هو أين تكمن المصلحة العليا لتلك الدول، والأمن هو العنصر الأهم فيها بوصفه ثابتاً رئيساً في بناء الموقف السياسي والاستراتيجي.

إن أذربيجان هي الدولة الشيعية الثانية بعد إيران التي غالبية سكانها (اثنا عشرية) ويحكمها الشيعة (الاثنا عشرية) ولكن لم يشفع لها ذلك أمام أنانية المصالح السياسية والاقتصادية عند النخبة الإيرانية.

لقد فرضت تركيا وأذربيجان حصاراً على أرمينيا في أثناء الحرب، ولكن تم اختراق هذا الحصار من قبل إيران، حيث إن أرمينيا محاطة بتركيا وأذربيجان وإيران، ولولا اختراق الحظر من قبل إيران وتقديمها الدعم اللازم لكانت هزيمة أرمينيا مؤكدة، لأن الاقتصاد الأرميني كان قد أوشك أن ينهار، وإن طرق الإمدادات لأرمينيا كانت قد أغلقت تمامًا من جانب الأتراك والآذريين ولم يتبقَّ إلا الإمداد عبر الحدود الإيرانية، وهذا ما جعل أرمينيا تصمد أمام الحظر.

لقد كان الدعم الإيراني موجهاً لأرمينيا لإضعاف أذربيجان نتيجة الخلاف بينهما على المناطق الآذرية المحتلة من قبل الإيرانيين والحد من النفوذ التركي في منطقة القوقاز، حيث إن الرابط الوحيد بين تركيا وباقي جمهوريات الاتحاد السوفيتي هي أذربيجان.

من الوهلة الأولى لا يبدو أن باستطاعة إيران وأرمينيا أن يكونا شريكين، فإيران دولة كبيرة يحكمها نظام إسلامي أوتوقراطي، وأرمينيا دولة مسيحية صغيرة تسعى إلى تطبيق إصلاحات ديمقراطية في اتجاه نظام السوق المفتوح، ومع ذلك فالواقع يشير إلى أن روابط إيران بأرمينيا تُعدّ أقوى من تلك التي تربطها بكثير من الدول الإسلامية المجاورة.

الضرورة تسير بالبلدين في اتجاه بعضهما، فإيران في حاجة إلى صداقة أرمينيا؛ لتوفير معبر بديل للنقل إلى روسيا وأوروبا، وأرمينيا بدورها تواجه

انسداداً متواصلاً في طرق التجارة من جانب أذربيجان وتركيا، وهي معنية بتأمين ممر آمن وموثوق للتجارة.

أرمينيا تفتقر إلى وجود كميات ذات أهمية من احتياطي الوقود، وتخطط لإغلاق مولدات الطاقة النووية التي تملكها في غضون سنوات، وسيساعد مشروع محطة الطاقة الحرارية والربط مع مراكز الإنتاج الإيرانية على تعزيز أمن أرمينيا الاقتصادي[1].

سياسات إيران ضد أذربيجان تشكل خطراً على أذربيجان، فتعميق الخلافات القومية بين الشعوب الإيرانية يهدد بإراقة الدماء، وينمي الميول الانفصالية في أذربيجان، وهاجس انتشار المشاعر القومية دفع السلطات الإيرانية إلى ملاحقة حتى المعتدلين الآذريين في أذربيجان الجنوبية التي هي الآن جزء من إيران، وطهران تنظر بقلق بالغ لدعوات توحيد أذربيجان الجنوبية بالوطن الأم أذربيجان.

إن إيران تلجأ إلى التستر وراء أفكار المساواة والأخوة الإسلامية لسحق الميول القومية والدعوات لانفصال جنوب أذربيجان، وعلى هذا الأساس، فان إيران ومنذ التسعينيات تقيم علاقات صداقة مع أرمينيا، التي تعيش على حساب إيران لعدم وجود حدود مشتركة لها مع روسيا ولها حدود إما مع دول عدوة أو ترتبط معها بعلاقات عدوانية مبطنة، مثل جورجيا. وهكذا، فإن الدولة الوحيدة التي تقيم علاقات ودية مع أرمينيا المسيحية هي إيران المسلمة.

إن إيران تلاحق، وتختطف في أذربيجان عناصر الحركات الانفصالية من أبناء أذربيجان الجنوبية، وكذلك المعارضين الإيرانيين ما اضطر هؤلاء إلى

طلب اللجوء في الدول الغربية، وأصبح لطهران شبكة واسعة من العملاء في أذربيجان تسعى لتحريكهم خدمةً لأغراضها في الوقت الذي تحدده[٢].

ولكي نقف على سبب العداء الإيراني لأذربيجان، فإنه يجدر بنا أن نتوقف أمام موقع الآذريين في تركيبة المجتمع والدولة في إيران.

إن الأتراك الآذاريين يشكلون أكثر من ثلاثين في المئة من مجموع سكان إيران البالغ عددهم سبعين مليون نسمة تقريباً. ويعد الآذاريون أكبر قومية بعد الفرس، بل إن بعضهم يرى أنهم يتجاوزن عدد الفرس إذا ما أضيف إليهم القشقائيون والتركمان والأوزبك، وهم جميعاً من الناطقين باللغة التركية.

وتنقسم أذربيجان الإيرانية إلى محافظتين: شرقية وعاصمتها «تبريز» وغربية وعاصمتها (أرومية) التي ينازعهم عليها الأكراد. وهناك محافظات أخرى يشكل الآذاريون أغلبية فيها، وهي أردبيل وزنجان وقزوين، إضافة إلى طهران التي يقنطنها أكثر من أربعة ملايين آذاري ويهيمنون على البازار فيها.

عام١٩٤٧م أقام الآذاريون جمهوريتهم الديمقراطية في تبريز بزعامة (سيد جعفر بيشه وري) الذي كان يحظى بدعم البلاشفة، ولكن التوافق الذي جرى بين أمريكا والاتحاد السوفيتي عقب الحرب العالمية الثانية أدى إلى تخلي البلاشفة عن حليفهم (بيشه وري) ما أدى إلى انهيار جمهوريته التي لم تدم سوى عام واحد فقط وفرّ بعد ذلك هارباً إلى باكو في الشق الشمالي من أذربيجان، التي تحولت إلى جمهورية شيوعية في إطار الاتحاد السوفيتي،

التي إلى ما قبل ذلك التاريخ كانت جزءاً من إقليم أذربيجان الجنوبي الذي يقع تحت سلطة الدولة الإيرانية.

يرى الآذاريون أنهم أصحاب الفضل في انفصال إيران واستقلالها عن دولة الخلافة العثمانية الإسلامية، وأنهم المؤسسون لأول دولة شيعية في إيران، وذلك حينما ناصروا إسماعيل الصفوي الذي أقام دولته في تبريز عاصمة أذربيجان بعد طرد العثمانيين منها بمساعدة قبائل القزلباش الآذارية قبل أن ينتقل بعد ذلك إلى أصفهان لتصبح عاصمة للصفويين.

بعد الإطاحة بنظام الشاه ارتفعت أسهم الآذاريين، وأصبح نصيبهم في السلطة أكثر بكثير عما كان عليه في عهد الشاه. وكانت العلاقة بين الآذاريين والنظام الإيراني تسير على ما يرام حتى مطلع التسعينيات، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي واستقلال الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز بدأت المنطقة تشهد تحالفات إقليمية جديدة يدور التنافس فيها بين إيران وتركيا، وقد أخذ كل منهم يسعى إلى توظيف العلاقات الثقافية واللغوية وسيلة لتوطيد علاقاته بالجمهوريات الإسلامية حديثة الاستقلال.

فبينما استطاعت إيران كسب ود طاجيكستان بحكم الروابط اللغوية المشتركة بينهما، فقد استطاعت تركيا في المقابل كسب ود أذربيجان الشمالية وإقامة روابط قوية معها بسبب الترابط اللغوي والقومي بينهما، وذلك على الرغم من أن تركيا تدين بالمذهب السني وأذربيجان بالمذهب الشيعي (الاثنا عشري) كما هو حال إيران الشيعية وطاجيكستان السنية.

فإيران التي فضلت تقديم الجانب القومي على الجانب المذهبي في علاقاتها مع الجمهوريات السوفيتية السابقة، فإنها بهذه الخطوة حركت

مشاعر الآذاريين ودفعتهم للإحساس بهويتهم واللجوء إلى دعم شقيقتهم أذربيجان الشمالية التي وقفت إيران ضدها. وهذا ما جعل الرئيس الآذاري الراحل حيدر علييف ومن بعده نجله الرئيس إلهام علييف يلعبان بورقة أذربيجان الجنوبية بوصفها وسيلة ضغط على إيران نكاية فيها على دعمها لأرمينيا وتحريكها للتيار الإسلامي في باكو.

وفي المقابل أيضاً وجد آذاريو إيران في باكو قاعدة لهم لتنشيط حركتهم السياسية والإعلامية المطالبة بالاعتراف بحقوقهم القومية المهضومة، وأصبحوا أكثر أملاً إلى تحقيق حلم توحيد شطري أذربيجان تحت ظل علم واحد.

لقد تميزت الحركة الآذارية عن باقي الحركات السياسية المطالبة بالحقوق القومية في إيران بأنها حاولت إلى الآن انتهاج الخيار السلمي في نضالها، ولم تلجأ إلى العمل العسكري لتحقيق مطالبها على الرغم من أن مناطقها من الناحية الإستراتيجية مهيأة لذلك العمل بشكل جيد، خصوصاً أن مناطق الجوار الكردي التركي والكردي الإيراني ومنذ أكثر من عشرين عاماً تعد مناطق ملتهبة بالصراع العسكري، غير أن ذلك لم يغرِ الآذاريين بخوض هذه التجربة التي توقفت عندهم بعد سقوط جمهوريتهم الأولى. والسبب في ذلك على ما يبدو يعود إلى معضلة سياسية معينة، وهي عدم رغبة حكومة أذربيجان في هذا الأمر؛ خشية من رد الفعل الإيراني الذي قد يقوم بدعم معارضيها في انتهاج العمل ذاته، وهو ما ليس لباكو طاقة على مواجهته؛ كونها تخوض حرباً مع أرمينيا، ولا تريد أن تفتح جبهة داخلية مع معارضيها.

الهوامش:

(١) هاروتيون خاشتريان، إيران تعتبر أرمينيا أفضل جار لها والأخيرة تريد شراكة اقتصادية وتجارية أوسع، موقع البينة نقلاً عن شبكة أواسيا في ٢٠/٢/٢٠٠٢م.

(٢) إيران بين أذربيجان المسلمة وأرمينيا المسيحية، موقع إيلاف، ٢-١٢-٢٠٠٨م.

(٣) صباح الموسوي، أذربيجان إيران على فوهة البركان، موقع التجديد العربي، ٦/٦/٢٠٠٦م.

الفصل الحادي والعشرون

القضية الفلسطينية.. شعارات ومزايدات

منذ احتلال بريطانيا للقدس في ٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٧م، وأهل فلسطين السنة يحملون راية الجهاد، بقيادة الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس في العشرينيات، ومن بعده الشيخ عزالدين القسام الذي كان استشهاده سنة ١٩٣٥م، سبباً لاشتعال الجهاد بقيادة نائبه الشيخ فرحان السعدي، الذي أشعل ثورة ١٩٣٦م، وبعدها تسلّم الراية والقيادة المجاهد عبدالقادر الحسيني حتى استشهد سنة ١٩٤٨م، ثم استمر الجهاد ضد اليهود.

وبسبب استيلاء اليساريين والقوميين على كثير من البلاد العربية في الخمسينيات والستينيات، حوصر المجاهدون في فلسطين وخَبَت شعلة الجهاد، لكن في مطلع الثمانينيات عادت جذوة الجهاد تشتعل من جديد، وأُعلن عن تشكل تنظيم (الجهاد) وحركة (حماس)، التي تبنّت العمل الجهادي من جديد على أرض فلسطين.

وقد قدم أهل فلسطين عبر هذه السنين في هذا الجهاد أروع الأمثلة في الإقدام والبذل بالمال والنفس والدم، فامتلأت السجون بالمعتقلين، وتضاعفت أعداد الشهداء، وشُرد الآلاف بعد أن هدمت بيوتهم، وجرفت مزارعهم.

وبعد هذا كله نجد أن الشيعة لا يعترفون بهذا الجهاد العظيم، ولا يقيمون له وزناً أو قيمة، ويتصورون أن الجهاد لا يأتي إلا منهم. ففي كتاب (أحمدي نجاد والثورة العالمية المقبلة) الصادر سنة ٢٠٠٦م، لمؤلفه (فارس فقيه) فصل بعنوان: (أنت في عصر الظهور) احتوى على ١٦ علامة لقرب ظهور المهدي، ومن ثم قام المؤلف بإفراد هذا الفصل في كتاب منفصل، وزوده بصور ملونة، ومن ثم زاد عليه علامتين جديدتين، جعل العلامة السادسة الكبرى تقع على أبواب بيت المقدس، بعنوان (حزب يقاتل على أبواب بيت المقدس يلقون عناية الإمام الحجة قبل الظهور) وأورد فيه رواية عن النبي ﷺ تقول: (لا تزال عصابة من أمّتي يقاتلون على أبواب بيت المقدس، وما حوله لا يضرهم خذلان من خذلهم ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة «الظهور») عزاه لمجمع الزوائد ج ١٠، ص٦٠. وورد في الرواية عن صاحب الأمر أنه: (حزب يقاتل على أبواب بيت المقدس أنا منهم وهم مني) عزاه لكتاب (مئتان وخمسون علامة للظهور).

ومن ثم شرح هذه الروايات بقوله: (تدل هذه الرواية على أن هناك حزباً يقاتل في سبيل الله، على أطراف بيت المقدس. وتنطبق هذه الرواية على جهاد المجاهدين في المقاومة الإسلامية الذين يقاتلون في جنوب لبنان أقوى قوة طاغوتية في العالم، وهي الكيان الصهيوني، واستطاعوا بعناية الإمام المهدي

أن يحققوا الانتصارات عليه، ويدحروه، عن جنوب لبنان، ومن الواضح أن هذا الحزب يلقى عناية خاصة من الإمام، وأنهم جنوده والمطيعون له) ا. هـ.

فهذا الشيعي يعبر عن فكر الشيعة الذي لا يعترف بجهاد أهل السنة في فلسطين طوال هذه السنين الطويلة، ولا يعترف بشهداء فلسطين، الذين قتلوا في القدس وما حولها، ويحصر هذا فقط بأفراد (حزب الله) اللبناني.

فالجهاد والمجاهدون في فلسطين عند الشيعة بين خيارين: إما إنهم غير موجودين بعد، أو هم الشيعة في جنوب لبنان كما يرى المؤلف السابق، وأحلى الخيارين مر[١].

يقول الإيرانيون: إن ثورتهم قد تبنت القضية الفلسطينية وتحرير فلسطين منذ لحظة انتصارها على نظام الشاه محمد رضا بهلوي، وإنها بقيت على مدى السنوات الماضية تعدّ هذه القضية أحد ثوابت سياساتها ومواقفها الخارجية، وإنها تصرفت على هذا الأساس وفقاً لما يتلاءم مع هذا المنطلق خلال كل هذه الأعوام، وإنها إذْ اتخذت من منظمة التحرير موقفاً عدائيًّا، فلأنها حادت عن طريق التحرير، ولأنها انخرطت في المساومات والألاعيب السياسية على حساب تطلعات الشعب الفلسطيني وحقه في تحرير وطنه المقدس من البحر إلى النهر. فهل هذا صحيح؟

كان أول اتصال بين الخميني، وحركة (فتح)، في بدايات سبعينيات القرن الماضي، حيث ذهب وفد فلسطيني للقاء الخميني في مقر إقامته في طهران، كان على رأسه صبري البنا (أبو نضال)، ثم ذهب وفد فلسطيني لمقابلة الخميني في النجف، حينما كان موجودًا بالعراق، وطلب الوفد الفلسطيني من الخميني إصدار فتوى بضرورة منح زكاة المسلمين، وبخاصة الشيعة

إلى حركة (فتح)، حدث جدل طويل أبدى خلاله الخميني ممانعة وتحفظًا، لكنه ما لبث أن أصدر الفتوى في النهاية تحت إغراء أنها ستفيده في معركته المصيرية ضد نظام الشاه.

بعد ذلك بقيت الأمور تتحرك في حدود التحفظ المتبادل والتردد إلى أن انتقل الخميني إلى باريس، وانفجرت الثورة، وإلى أن عاد إلى طهران. عندها تحرك ياسر عرفات، الذي كان يواجه تدهوراً متصاعداً في علاقاته مع شيعة لبنان، وبخاصة حركة (أمل)، بسرعة وقام بزيارة تاريخية إلى إيران بعد انتصار ثورتها بأيام قليلة على رأس وفد كبير.

كان الخميني ينزل في مدرسة علوي في شمالي طهران، وأجرى الرئيس الفلسطيني الراحل، الذي كان يرافقه أيضاً الرئيس الحالي محمود عباس، محادثات مطولة مع قائد الثورة المنتصر الذي رفض استخدام اللغة العربية في محادثاته تلك، مع أنه كان يتقنها أكثر كثيراً من ضيفه، وثبت لعرفات أن القضية الفلسطينية بعيدة عن ذهن زعيم وقائد إيران الجديد كل البعد، وأن كل ما يريده منها هو أن تشكل غطاءً لتصدير ثورته إلى الدول العربية القريبة والبعيدة.

لقد حاول عرفات الذي كان في حاجة إلى صداقة زعيم الثورة الإيرانية والاقتراب منه لمواجهة شيعة لبنان، الذين بدؤوا بعد أن أصبحت حركة «أمل» حركتهم السياسية ينقلبون عليه وعلى الثورة الفلسطينية، إقناع الخميني بضرورة الانفتاح على العرب وضرورة مساندة قضية فلسطين، لكن هذا الأخير أصر على أن يفك الرئيس الفلسطيني الراحل علاقاته بالعرب والعروبة، وأن يكون جزءاً من الثورة الإسلامية، وهكذا وقع الاختلاف الذي

تحول إلى خصومة شديدة بعد انحياز الفلسطينيين إلى العراق خلال كل سنوات الحرب العراقية ـ الإيرانية[٢].

رفض عرفات مطالب إيران ما جعله لا يحصل منهم إلا على الفتات؛ الذي أخذوا له ثمناً غالياً، وهو تولي (منظمة فتح) تدريب كوادر (حركة أمل الشيعية)، بل إن ياسر عرفات لما أجبر على ترك لبنان عام ١٩٨٢م ترك معظم أسلحته لحركة (أمل)؛ عساها تقوم بالدفاع عن اللاجئين الفلسطينيين في (لبنان)، التي كانت تدور فيها حرب أهلية طاحنة، كان الفلسطينيون دائمًا مستهدفين فيها؛ لأنهم – من وجهة نظر جميع الأحزاب المتناحرة – يعدّون إضافة لرصيد أهل السنة في لبنان.

ولكن (أمل) خذلت الفلسطينيين في مذبحة (صابرا وشاتيلا) الأولى عام ١٩٨٢م، التي نفذتها قوات الكتائب المسيحية في حماية وحراسة القوات الإسرائيلية، وفي ظل صمت تام من قوات (أمل) الشيعية، التي ورثت السلاح الفلسطيني غنيمة باردة، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد؛ بل قامت منظمة «أمل» نفسها بمذبحة (صابرا وشاتيلا) الثانية، التي أنست الناس ما فعله اليهود والنصارى في المذبحة الأولى؛ وذلك أن حركة (أمل) في أحد أطوار الحرب الأهلية اللبنانية فرضت حراسة على مخيمات (صابرا وشاتيلا) لمنع الفلسطينيين من دعم أهل السنة، ثم ادعت إحدى دوريات الأمن التابعة لحركة (أمل) أن صبيًّا فلسطينيًّا تعرض لهم، فاقتحموا المخيمات، وقاموا بمذبحة بشعة في أحد مستشفيات المخيم، ثم دار قتال شرس مدة أربعين يوماً عرقلت حركة (أمل) في أثنائه أي محاولة للصلح إلى أن سقط مخيم (صابرا)، وكان تعليق معظم شهود العيان على

ما ارتكبته قوات (أمل): (لقد فعل هؤلاء بنا ما لم يفعله اليهود)، ثم جلسوا للصلح الذي أعاد حصار (أمل) للمخيمات مع فض الاشتباك.

المذبحة بدأت في أول رمضان، ولم تنتهِ إلا بعد انتهائه، وكان الخميني يعتذر عن مقابلة كل من يطلب مقابلته بخصوص هذا الأمر بأنه منقطع للعبادة في رمضان، ثم لما انتهى رمضان ألقى خطاباً شاملاً لم يتعرض فيه للمذبحة إلا بجملة يسيرة دعا فيها الجميع إلى ضبط النفس.

عار (صابرا وشاتيلا) كان أحد أهم العوامل التي حدت بإيران إلى إنشاء منظمة جديدة هي (أمل الإسلامية)، التي تحولت فيما بعد إلى (حزب الله)؛ لكي يتسنى لهم ادعاء براءتهم من عار (صابرا وشاتيلا)، إلا أنه فاتهم أن معظم قادة (أمل) الإسلامية كانوا قادة أو على الأقل أعضاء في حركة (أمل) وقت المذبحة، ومنهم (حسن نصرالله) الأمين العام الحالي لحزب الله.

والحاصل أن حبال الود بين (منظمة التحرير) و(إيران) قد تقطعت تماماً بعد هذه المذبحة، ولا سيما أن المنظمة بدأت في هذه المدة المفاوضات الأولية للحل السلمي، ما يعني أن قادتها غير صالحين لأن يكونوا امتداداً للثورة الإيرانية.

ومع نهاية العلاقة بين (فتح) و(إيران) كان قد ظهر على الساحة الدكتور فتحي الشقاقي مؤسس جماعة (الجهاد) الفلسطينية، الذي تبنى الفكر الناصري في بداية حياته، ثم انضم إلى الإخوان عام ١٩٦٨م متأثراً بهزيمة عام ١٩٦٧م، ولكنه كان يحاول الدفع في اتجاه العمل المسلح، ولكن مع استمرار

رفض القيادات الإخوانية لهذا المبدأ استقال من الجماعة عام ١٩٧٤م، وذهب للدراسة في كلية طب الزقازيق في مصر، وهناك اتصل بجماعة (الجهاد المصرية)، واتصل بجمعية (أهل البيت)، وحصل منهم على ترجمة عربية لكتاب (الحكومة الإسلامية) للخميني.

ومن الواضح أن الشقاقي قد قرأ الكتاب بروحه الثورية القديمة، فرأى فيه الأمل للأمة، والمخرج لها من ورطتها، وأقنع نفسه بأن الكتاب كتب بروح إسلامية عامة وليس بروح مذهبية، أضف إلى ذلك أنه لم يكن متمكنًا من معرفة المنهج الشيعي.

وألف الشقاقي كتاب (الخميني الحل الإسلامي والبديل) الذي اعتقل بسببه في مصر، ثم أفرج عنه، وعاد إلى فلسطين ليؤسس جماعة (الجهاد الإسلامي الفلسطيني) عام ١٩٨٠م، وليظل مدافعاً عن كل مواقف (الثورة الإيرانية) إلى أن تم إبعاده إلى الجنوب اللبناني عام ١٩٨٨م، وعاد بعدها ليتمكن من السفر إلى إيران للحصول على الدعم اللازم، الذي فوجئ أن شروطه هي إعلان أن المرشد لحركة (الجهاد الإسلامي) هو مرشد الثورة الإيرانية، وأن يصعد من هجومه على (فتح). فرفض هذه الشروط إلى أن اغتاله الموساد عام ١٩٩٥م.

تولى قيادة (حركة الجهاد) بعد الشقاقي خلفه رمضان شلح، الذي أعلن أن مرشد حركته هو المرشد الأعلى للثورة الإيرانية، وبدأ بتوزيع كتب التقريب بين السنة والشيعة بكمية كبيرة، بل بدأ بتوزيع كتب تنتصر للمذهب الشيعي، ما نتج عنه تشيع بعض أفراد الحركة، ويبدو أن الحركة لم تكن تريد للأمور أن تصل إلى هذا الحد؛ حيث صرَّح أحد المتشيعين بأنه تعرض لضغوط من

قبل الحركة لما أعلن تشيعه، ويبدو أن الحركة كانت تريد أن تقف عند حدود التشيع السياسي كما يسمونه دون أن يمتد هذا إلى التشيع العقدي؛ لكن كانت هذه هي النتيجة الطبيعية لتمجيد رموز الشيعة ليل نهار مع نشر كتب ظاهرها التقريب، إلا أن الكثير منها كان باطنه الدعوة المباشرة إلى التشيع.

أما حركة (حماس) فقد ظهرت على الساحة الفلسطينية عام ١٩٨٧م على أنها جناح من أجنحة (الإخوان المسلمين)، ويبدو أن هذا لكي تتمكن من إعلان أنها حركة فلسطينية تجاهد من أجل فلسطين وداخل حدود فلسطين فقط، بخلاف الخطاب العالمي الذي تميل الجماعة الأم لاستخدامه عادة.

واستطاعت الجماعة من خلال قيادتها للانتفاضة ومن خلال عملها الدعوي والاجتماعي أن تكون هي الجماعة الأكثر انتشاراً بين الإسلاميين في فلسطين، بل أصبحت هي الجماعة الأكثر قبولاً لدى عموم الفلسطينيين في غزة، إضافة إلى مزاحمتها لـ (فتح) في الضفة الغربية.

وقد أخذت (حماس) على (الجهاد) انفتاحها على التشيع، حتى إن الشيخ (أحمد ياسين) لما وافق على إجراء بعض الاتصالات بـ (إيران) كتب موضحاً موقف (حماس) من (إيران) في كتاب (نحن والشيعة تقاطع مصالح لا تحالف)، وقد ظل ذلك الموقف حتى وقت قريب، ومن جهود الجماعة في محاربة التشيع أن الدكتور صالح الرقب القيادي البارز في (حماس) كتب عام ٢٠٠٢م كتاباً بعنوان: (الوشيعة في كشف شنائع وضلالات الشيعة)، ذكر أن الباعث على تأليفه هو زيادة الدعوة إلى منهج الشيعة (الاثنا عشرية) في غزة في الآونة الأخيرة.

والملاحظ أن العلاقة بين (إيران) و(حماس) قد تطورت باتفاق الجميع، ولكن قادة (حماس) يرون أنه تطور في حدود التقاء المصالح، ولم يتطرق إلى التحالف المذهبي[٢].

في السابع من أغسطس عام ١٩٧٩م أعلن الخميني في ذروة شعبية الثورة الإيرانية اعتبار الجمعة الأخيرة من شهر رمضان يوماً للقدس. وقد لاقت تلك الدعوة في ذلك الوقت زخماً شعبيًّا في العالم العربي قل نظيره، حيث كان الخميني في نظر الجماهير العربية وبعد الإطاحة بعرش طاوس إيران الأمريكي الشاه محمد رضا بهلوي، هو المنقذ، ووصل الوهم لدى بعض الناس مستويات لا سقف لها.

لم تكن دعوة الخميني إلا مجرد توظيف سياسي في قضية حساسة كالقدس والمسجد الأقصى سرعان ما انكشفت أبعادها، فبعد هذه الدعوة وبعد أشهر من بدء الحرب الإيرانية – العراقية، أعلن الخميني تشكيل (جيش القدس) الذي تحول بعد سنوات إلى فيلق القدس سيئ الصيت الذي مارس (نضالاته الجهادية) عبر أعمال تخريبية في دول الخليج العربي والعراق ومازال، وفي ذلك الوقت كان الشعار الإيراني هو أن طريق القدس تمر عبر كربلاء وبغداد، ومن الناحية العملية لم يتغير جوهر هذا الشعار، وبدل أن يكون الهدف الإيراني إسقاط نظام البعث في العراق بوصفه في نظرها عقبة في طريق طهران لتحرير القدس، نجد أنها وبعد أن خدمتها واشنطن بتغير النظام في العراق أخذت تعمل على تحويله إلى حديقة خلفية ودولة.

هذا التوظيف السياسي لقدسية القدس وفلسطين ومعاداة أمريكا وإسرائيل يتحدث عنه بكل وضوح المعارض من داخل رحم النظام السيد مير حسين موسوي،

عن أن جميع الشعارات والمراسم والمناسبات الإسلامية والثورية للنظام كيوم القدس ومعاداة إسرائيل هي مجرد وسائل وأدوات بيد النظام لخدمة مصالحه في الداخل والخارج.

هذا في البعد السياسي، أما في البعد العقديّ فإن علماء الدين التابعين لولاية الفقيه لهم نظرة خاصة للقدس والمسجد الأقصى تتناقض مع أبسط الأدبيات الإسلامية.

يخلص جعفر مرتضى العاملي، عالم الدين الشيعي المعروف والمقرب من القيادة الإيرانية في كتابه المعنون: (الصحيح من سيرة الرسول الأعظم)، الذي حاز جائزة أفضل كتاب في إيران، وكرمه عليه الرئيس أحمدي نجاد شخصيًّا، إلى: (أن المسجد الأقصى في السماء، وليس في القدس) (الجزء الثالث، ص١٠٤-١٠٦).

ويستند العاملي في استنتاجه هذا إلى كتاب (بحار الأنوار) للشيخ محمّد باقر تقي المجلسي، وهو من كبار علماء الشيعة، حيث يورد ما نصه: (عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته يوماً عن المساجد التي لها الفضل، فقال المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه، قلت: والمسجد الأقصى جعلت فداك؟ فقال ذالك في السماء، وإليه أسري برسول الله ﷺ، فقلت: إن الناس يقولون: إنه بيت المقدس؟ فقال: مسجد الكوفة أفضل منه) (ج ٢٢ ص ٩٠).

وهكذا، فإن المسجد الأقصى والقدس ليسا لهما القدسية التي يتم الإيحاء بها من قبل سياسيي ولاية الفقيه، ولكنهما تحولا كما قال مير حسين

موسوي إلى وسيلة دعائية وأداة لدغدغة عواطف المسلمين وتوظيفهما سياسياً وأيدولوجياً.(٤)

لو كان ملالي طهران عازمين حقًّا على تحرير القدس لكان لهم دور في صد العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، ولكان لهم دور في كسر الحصار الإسرائيلي المفروض على غزة منذ سنوات، ولكنهم اكتفوا هم ووكيلهم (حزب الله) بكل ترسانته من الصواريخ الإيرانية بموقف المتفرج في حين أن تصريحاته العنترية الطنانة كانت تتوعد اليهود بسيل من الصواريخ إن هم اعتدوا على غزة!

لقد وعت الأمة العربية الآن المرامي الخداعة من رفع شعار يوم القدس، للمتاجرة بالقضية الفلسطينية، وبات معلوماً للقاصي والداني أن القوم لا تهمهم فلسطين، ولا تهمهم القدس، ولا تعنيهم في شيء، سوى استخدامهما ورقة دعائية وخديعة للمخدوعين من العرب والمسلمين الذين صدقوا أو يصدقون أن إيران عازمة على تحرير القدس، لكنها استبدلت شعار (الطريق إلى القدس يمر عبر بغداد) بشعار (الطريق إلى فلسطين يمر عبر نشر التشيع في العالمين العربي والإسلامي)، فإلى متى يظل المخدوعون على انخداعهم بهذه الشعارات الإيرانية الجوفاء التي بان كذبها، وافتضحت مراميها؟

تلك هي ساحة الجهاد والنضال في فلسطين، فلتتحرك جحافل الجيش الإسلامي الإيراني لتحريرها إن كانت إيران صادقة في الشعارات التي ترفعها، ولكن هيهات، فقد افتضحت العلاقات السرية الوثيقة بين إيران وإسرائيل، والساحة العراقية بعد غزو العراق تشهد على تنسيق كامل بين إيران وبين الشيطان الأكبر (أي الولايات المتحدة الأمريكية)، لإدارة الشأن

العراقي، وأمريكا هي التي سمحت لإيران بالتمدد في العراق، فإلى متى يستمر الخداع والكذب والتضليل؟[٥].

بعد كل ما ذكرناه لم يكن مفاجئاً أن يظهر تنظيم شيعي في فلسطين، فقد حملت لنا الأنباء خبرين غير سارين: أولهما أن الشيخ نور اليقين يونس بدران، إمام مسجد النور في قرية (البعنة) الجليلية داخل الخط الأخضر اعتنق المذهب الشيعي وترك المذهب السني، وبذلك يكون أول إمام شيعي في البلاد (القدس العربي ٢٠٠٦/٩/١٨م)، الخبر الثاني: أن تنظيماً فلسطينيًّا في الأرض المحتلة ظهر باسم (المجلس الشرعي الأعلى) للدعوة الشيعية بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٦م على حد ما تناقلته وكالات الأنباء.

وكان صادماً أن يصدر في مدينة غزة بيان وزع على وسائل الإعلام يعلن فيه عن تأسيس تنظيم إسلامي شيعي، ويحمل هذا البيان اسم (المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في فلسطين).

وجاء في البيان: (إننا وباسم الإسلام العظيم ومن قلب فلسطين نعلن عن تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في فلسطين).

وأضاف البيان على لسان رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى محمد غوانمة: (إن الجمهورية الإيرانية هي ركيزة المشروع الإسلامي العالمي على طريق إقامة خلافة إسلامية راشدة وعاصمتها القدس الشريف).

وأكد البيان: (إن مشروع المجلس الأعلى هو إسلامي دعوي، وإنه سيكون في دولة فلسطين).

وفي الثالث من يونيو/ حزيران ٢٠٠٨م، نقلت وكالة الأنباء الألمانية نص تصريحات مؤتمر صحفي مع قائد تنظيم (جيش الإسلام) في قطاع غزة (أبو محمد المقدسي) أطلق فيه تهديدات صريحة ضد مجموعات فلسطينية تم تشييعها بالمال الإيراني في قطاع غزة بحسب قوله، ونقلت الوكالة قوله لمجموعة من الصحفيين: (جيش الإسلام) اكتشف في قطاع غزة (مجموعة تتبع النهج الشيعي لدرجة أنهم يحيون شعائر الشيعة (الاثنا عشرية)، ويقومون بضرب أنفسهم بالسلاسل في بعض المناسبات).

وأضاف: (هذه المجموعة تتلقى تمويلها المباشر من إيران لتطبيق نهجها الشيعي تمهيداً للسيطرة على المنطقة).

وحذر المقدسي من (مخطط إيراني يلوح في الأفق يسعى إلى وضع موطئ قدم له على الأرض الفلسطينية)، متهماً إيران بالسعي لـ (ترسيخ منهجها الشيعي في قطاع غزة).

وشدد المقدسي على أن تنظيمه (سيجتث أي بذرة لهذا المخطط)، وهدد (بتصفية هذه العناصر؛ لتطهير القطاع من الفتنة وبذور الطائفية).

فهل يمكن لعاقل أن يتصور أن هذا السلوك الإيراني هو دعم لجبهة الصمود والمواجهة مع العدو الصهيوني؟ أم أنها بذلك تقدم خدمة عظيمة للصهاينة بتفتيت الصف الفلسطيني طائفياً؟ ولنا أن نتخيل لو أن هذه (الجيوب) الشيعية حصلت على السلاح وشكلت ميليشيات، كيف يكون وضع الأراضي الفلسطينية؟ بكل تأكيد سنرى عراقاً آخر بدمويته وتمزقه واهتراء نسيجه ما يتيح لعشرات من أجهزة الاستخبارات الأجنبية أن تتلاعب بمصيره واستقراره.

عمليات الاختراق الإيراني لفلسطين طائفيًّا تتستر بالعلاقات الخاصة مع حركات المقاومة، ونحن لا نعتب على حركات المقاومة في علاقاتها السياسية مع هذه الدولة أو تلك تحت وطأة الاضطرار، غير أننا نأمل في ألا يمنعها الحرج السياسي من وقف مثل هذا العبث بالنسيج الوطني الفلسطيني؛ لأن هذا الجانب أكثر حساسية وخطورة من أي خلاف سياسي آخر بين القوى الوطنية الفلسطينية.

وهل يمكن أن يصدق عاقل أو ناصح لأمته أن يعدّ هذا العبث الإيراني دعماً لمعسكر الممانعة والمقاومة، لمجرد أنها تخوض مواجهات إعلامية حتى الآن مع الأمريكيين على خلفية الكعكة العراقية، بينما هي تبيع المقاومة وصلابتها بحثاً عن كسب طائفي رخيص، ويباهي رئيسها علناً بأنه على استعداد للاعتراف بالكيان الصهيوني إذا تحققت مصالح بلاده مع الغرب؟!(٦).

وفي النهاية، فإنه لا يمكن إنكار الدعم بالمال والسلاح وبالسياسة الذي قدمته إيران لحركتي (حماس) و(الجهاد) ولبعض الفصائل الفلسطينية الأخرى، لكن ما لا يمكن إنكاره أيضاً أن تطورات الأحداث في المنطقة بدءاً من الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، والحرب الإسرائيلية على جنوب لبنان صيف ٢٠٠٦م، ثم العدوان على غزة نهاية عام ٢٠٠٨م وبداية عام ٢٠٠٩م، كشفت النقاب عن أن هذا الدعم السخي لم يكن، لا من أجل فلسطين، ولا من أجل القضية الفلسطينية، وإنما من أجل الدور الذي يسعى إليه الإيرانيون في هذه المنطقة، ومن أجل استعادة نفوذ فارس القديمة في الإقليم كله.

لقد كان بإمكان طهران لو أن القضية الفلسطينية هي همها فعلاً، أن تساند غزة المحاصرة بإطلاق ولو أعداداً قليلة من صواريخها البعيدة المدى على دولة العدو الصهيوني.

ولقد كان من المفترض، لو أنه ليس لإيران حسابات أخرى غير حسابات فلسطين وقضيتها، ألا يُصدر علي خامنئي الفتوى التي أصدرها بمنع مواطنيه من التطوع للقتال إلى جانب الفلسطينيين، ومنع (حزب الله) من استخدام صواريخه لفتح جبهة قتالٍ أخرى عبر الجنوب اللبناني لتخفيف الضغط الإسرائيلي على أبناء غزة.

الهوامش:

(١) أسامة شحادة، حقيقة موقف الشيعة من الجهاد والمجاهدين في فلسطين، موقع المسلم، ٥ ديسمبر ٢٠٠٩م.

(٢) صالح القلاب، الحقيقة والوهم في مساندة إيران لفلسطين والثورة الفلسطينية!، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، ٢٢-١-٢٠٠٩م.

(٣) عبدالمنعم الشحات، محاولة التغلغل الإيراني في المقاومة الفلسطينية وموقفنا منه، مقال منشور على مواقع إليكترونية عدة.

(٤) رجا طلب، طريق إيران إلى القدس يمر بماذا؟!، صحيفة الرأي الأردنية، ٦ سبتمبر ٢٠١٠م.

(٥) د. أيمن الهاشمي، أكذوبة اسمها يوم القدس العالمي، جريدة السياسة الكويتية، ٥ سبتمبر ٢٠١٠م.

(٦) جمال سلطان، العبث الإيراني الطائفي في فلسطين المحتلة!، جريدة المصريون، ٥-١٠-٢٠٠٨م.

الفصل الثاني والعشرون

سنة إيران يفضحون الأكاذيب

أحوال أهل السنة في العراق، وفلسفة الدولة الإيرانية في النظر إليهم والتعامل معهم، ومنعهم من حقوقهم المشروعة بوصفهم أقلية مذهبية كبيرة، كل ذلك وصمة عار في جبين النظام الإيراني الذي يدّعي الإسلام، والذي يخدع الناس بأنه ينفذ الشريعة، بل يطرح نفسه بوصفه نموذجاً يُحتذى في العالم الإسلامي.

وتتضارب المعلومات بشأن الحجم الحقيقي للسنة في إيران، فالإحصاءات شبه الرسمية لحكومة إيران تقول: إنهم يشكلون ١٠٪ من السكان، إلا أن بعض مصادر السنة تؤكد أنهم يشكلون ٣٠٪، وهو يوافق الإحصائية القديمة التي أجريت في أثناء حكم الشاه. وهناك مصادر أخرى تقول: إن السنة يشكلون من ١٥ إلى ٢٠٪ من سكان إيران، إلا أن مصادر أهل السنة تؤكد أنهم لا يقلون أبداً عن ٢٠ مليون سني من جملة عدد السكان البالغ ٧٥ مليون نسمة.

ويتوزع السنة على أطراف إيران بعيداً عن المركز الذي تشيع في أثناء الحكم الصفوي، وأكثرهم من الأكراد (شافعية) والبلوش (حنفية)

والتركمان (حنفية) والطوالش (الديلم، غرب بحر قزوين في محافظة غيلان ومحافظة أردبيل)، ثم يليهم العرب (خاصة في لنجة) وبعض الآذاريين (حنفية نقشبندية). أما الفرس الشافعية فكثير منهم في محافظة فارس، وبعضهم في طهران.

وأهل السنة يشكلون الغالبية في كردستان (من مدينة قصر شيرين شمال الأحواز إلى حدود أرمينية على طول حدود تركيا) وبلوشستان وبندر عباس والجزر الخليجية وبو شهر وتركمن صحرا (من بحر قزوين إلى حدود تركمانستان) وشرقي خراسان (تحدها، من الشمال تركمانستان، ومن ناحية الشرق أفغانستان). ويوجدون بوصفهم أقليات في كرمنشاه وخوزستان، ومناطق في محافظة لرستان، إضافة إلى من هاجر منهم للمدن الكبرى، كطهران وأصفهان ومشهد.

وتاريخيًّا، كان أهل السنة (الشافعية والحنفية) هم الأكثرية في إيران، وكان الشيعة أقلية، محصورة في بعض المدن الإيرانية، مثل قم، وقاشان، ونيسابور، ولما وصل الشاه إسماعيل الصفوي إلى الحكم سنة ٩٠٧هـ أجبر أهل السنة على التشيع، حين خيرهم بينه وبين الموت، ففرض التشيع على الإيرانيين بالقوة، وجعل شعاره سب الخلفاء الثلاثة، وكان شديد الحماس في ذلك، سفاكاً لا يتردد أن يأمر بذبح كل من يخالف أمره أو لا يجاريه، وقيل: إن عدد قتلاه زاد على ألف ألف نفس (أي: مليون سني)، وانتشر المذهب الشيعي بالتدريج في وسط إيران، نتيجة لهذا القهر والعنف والقتل وإراقة الدماء، بينما بقي أهل السنة في الأطراف.

وأهل السنة في إيران مقسمون إلى ثلاث عرقيات رئيسة: هي الأكراد والبلوش والتركمان، وقليل من العرب في إقليم عربستان (الأحواز). أما المسلمون السنة من العرق الفارسي فوجودهم نادر.

ويتمركز سنة إيران بالقرب من خطوط الحدود التي تفصل إيران عن الدول المجاورة ذات الأغلبية السنية مثل باكستان وأفغانستان والعراق وتركمانستان.

والسنة في إيران هم الأكثر فقراً والأقل تعليماً والأبعد سكناً عن العاصمة طهران، التي يمنع أهل السنة من إقامة مسجد لهم فيها حتى الآن، على الرغم من الكثير من المناشدات والوعود. وتبرر الحكومة رفضها بأن المساجد الشيعية مفتوحة أمام أهل السنة ليصلوا فيها، وأنه لا داعي لبناء مساجد خاصة بهم ضماناً للوحدة.

وحين اندلعت الثورة في إيران عام ١٩٧٩م، شارك أبناء أهل السنة بكل أطيافهم فيها، وكان علماؤهم وشبابهم في مقدمة المتظاهرين، وقدّموا مئات الأرواح في سبيل نيل الحرية والخلاص من الظلم والاستبداد وإقامة الجمهورية الإسلامية.

لكن بعد انتصار الثورة وسقوط نظام الشاه بأشهر قليلة، بدأ الخميني وتلاميذه مسلسل الخداع الذي مازال مستمراً حتى اليوم؛ لاحتكار السلطة والسيطرة على الحكم، بعدما نجحوا في تحويل آمال الشعب في إقامة جمهورية إسلامية إلى إقامة جمهورية طائفية شيعية، واستعملوا السلطة؛ لقمع الأقليات المذهبية والقومية، واتخذوا مذهبهم الشيعي الإمامي (الاثنا

عشري) مصدراً للدستور، وبدأ المسلسل المشبوه لتشجيع الشيعة على معاداة أهل السنة، مستفيدين من جميع الوسائل السياسية والاقتصادية والإعلامية المتاحة لهم.

منذ ثورة الخميني حتى اليوم، يمارس النظام الإيراني أبشع أنواع الظلم والتميز ضد علماء ودعاة وشباب وطلبة ومثقفي وأبناء أهل السنة.

وإذا كان حكام إيران يتحدثون عن حرية أهل السنة في بيان عقائدهم وممارسة طقوسهم، فهذا كله كذب، فالجاري على أرض الواقع أنه يتم منع أئمة وعلماء أهل السنة من إلقاء الدروس والخطب في المدارس والمساجد والجامعات، فكل ما سبق يجب أن يكون بأمر من وزارة الإرشاد الإسلامي وتحت مراقبة وزارة الأمن والاستخبارات، ويجب ألا يخرج الإمام عن الحدود المقررة له وإلا اتهموه بالوهابيّة.

والأدهى من ذلك أن مراكز أهل السنة ومساجدهم تحت المراقبة الدائمة وتجسس رجال الأمن وأفراد الاستخبارات، خاصة أيام الجمعة.

أهل السنة، أيضاً، ممنوعون من جميع وسائل الإعلام والنشر، فهي مخصصة فقط لأبناء الطائفة؛ كي يستخدموها لضرب أهل السنة وإضعافهم، وهم أيضًا ممنوعون ومحرومون من تأسيس المنظمات وتنظيم الندوات والاجتماعات مهما كان نوعها أو حجمها.

أما الكتب الدينية، والعقائدية منها خاصة، مثل كتب ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبدالوهاب، فمحرم بيعها وشراؤها، كما هو محرم وممنوع دخول أي كتاب أو أي منشورات أو مجلات إسلامية من الدول العربية أو الإسلامية إلا بعد أن تمرّ على وزارة الإرشاد الإسلامي وتوافق عليها.

أما اعتقال وسجن مشايخ أهل السنة وعلمائهم وطلبة العلم والشباب المخلص الملتزم، فإنه من قبيل الأحداث اليومية المتكررة، تحت ذرائع واهية وكاذبة وملفقة.

ففي السجون الإيرانية الآن رموز لمشايخ وعلماء أهل السنة وطلبة العلم مثل: مولانا عبدالله قهستاني، الشيخ عبدالعزيز سليمي، الشيخ أحمد رحيمي، مولانا إبراهيم دامني، مولانا عبدالغني شيخ جامى، مولانا عبدالباقي شيرازي، مولانا سيد أحمد حسيني، الشيخ عبدالقادر عزيزي، الشيخ عبدالله حسيني، مولانا جوانشير داوودي، مولانا نور الدين كردار، مولانا سيد محمد موسوي، الشيخ عمر شابري السنندجي، مولانا غلام سرور سربازي، الشيخ خالد رحمتي.

الاغتيال والاختطاف والإعدام للعشرات من العلماء والدعاة البارزين والمثقفين وطلبة العلم، سياسة دائمة ومستمرة للنظام الإيراني، ودماء هؤلاء شاهدة على الجريمة: الشيخ العلامة ناصر سبحاني، الشيخ عبدالوهاب صديقي، الشيخ العلامة أحمد مفتى زادة، الشيخ الدكتور علي مظفريان، الشيخ عبدالحق، الشيخ الدكتور أحمد ميرين سياد البلوشي، الشيخ محيي الدين خراساني، المهندس فاروق فرصاد، الشيخ العلامة والقارئ الكبير محمد ربيعي، الأستاذ إبراهيم صفي زادة، الشيخ نظر محمد البلوشي، الشيخ دوست محمد البلوشي، الشيخ محمد ضيائي، الشيخ عبدالملك ملازادة، الشيخ عبدالناصر جمشيد زهي، الشيخ القاضي بهمن شكوري .. وغيرهم العشرات والمئات من النشطاء السنة.

ومع أن النظام الإيراني كان ينكر دوماً أنه يقوم باضطهاد أهل السنة في إيران أو يعذبهم، ولكنه اضطر أخيراً تحت ضغط الصحافة ووسائل الإعلام،

إلى الاعتراف بأن عدداً من رجال النظام قاموا بأعمال عنف ضد المسلمين السنة وغيرهم من المعارضين، غير أن السلطات زعمت أن ذلك لم يحدث بأوامر رسمية.

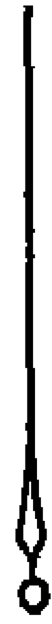
كل التصرفات السابقة ألقت بآثارها على أهل السنة، وجعلتهم محرومين من المشاركة في إدارة شؤونهم، وأبعدتهم عن المشاركة في أمور الدولة عامة.

ومن أجل أن يثبت علماء أهل السنة حسن نياتهم، وحرصهم على الوحدة الوطنية، فقد حثّوا المجتمع السني على المشاركة في جميع الانتخابات الرئاسية والبرلمانية، وغيرها؛ للتعبير عن حسن نياتهم، ولكي لا يتهموا بمقاطعة الحكومة والنظام، ليتخذ ذلك وسيلة للزيادة في اضطهادهم. وقد سعى كثير من العلماء والشخصيات الفكرية السنية البارزة، طوال الوقت على إيصال صوت مظلومية أهل السنة، إلى أعلى المسؤولين في النظام الإيراني، إلا إن كل تلك المواقف، والمساعي الحثيثة طوال عمر النظام الإيراني الحالي قد باءت بالفشل، ولم تفلح في رفع سيف التمييز الطائفي من على رأس أهل السنة، وبقيت النخب السنية محرومة من حصتها في المناصب السياسية والإدارية العليا، كمنصب نائب رئيس الجمهورية، أو منصب وزير، أو معاون وزير، أو وكيل وزارة، أو محافظ، أو سفير. وحتى في المناطق ذات الأغلبية السنية، لم تراعَ العدالة في توزيع المناصب، فالغلبة فيها دائمًا للشيعة، وفي الكثير من المناطق السنية يتعامل مسؤولو الدوائر الحكومية وفق مزاجهم، ضاربين بالقوانين والمقررات، عرض الحائط ما تسبب في سلب الحقوق القانونية للسكان السنة.

زار مفتي أهل السنة في إيران مصر والأزهر الشريف، والتقى فضيلة شيخ الأزهر (د. محمد سيد طنطاوي)، وبعد محادثات جرت بينهما ادّعى

الوفد المذكور (الذي يعبر عن وجهة النظر الرسمية) أن أهل السنّة فى إيران يشكلون عشرين في المئة من السكان، ولهم عشرون ممثلاً في البرلمان، ولديهم المناصب القيادية، ولهم مساجدهم ومدارسهم الخاصّة بهم، ما أثلج صدر شيخ الأزهر، وأثنى عليه، وليته علم أن هذا كذب وتضليل، فالدستور الإيراني جعل منصب رئاسة الوزراء للجعفري فقط، أمّا الوزراء وهيئة الدولة، فمنذ انتصار الثورة حتى الآن لم تعرف هذه المناصب طريقًا لأهل السنة، ولم نسمع - حتى الآن، منذ أكثر من ثلاثين سنة - عن وزير سنّي أو نائب وزير أو سفير أو محافظ أو رئيس جامعة أو أي منصب قيادي سني!

أمّا الممثلون في البرلمان كما ادّعى الوفد المذكور، فصحيح أنه يوجد للسنة عشرون ممثلاً، ولكن عدد السكان في إيران من أهل السنّة يقتضي أن يكون لهم أكثر من خمسين ممثلاً، وإن العشرين نائباً جاؤوا بعد أكثر من تصفية وتطهير، وإن الكفاءات والنخب الحقيقية هم الذين لم تؤيدهم الحكومة، وهم الذين ردت هيئة الرقابة كفاءتهم وصلاحيتهم، ومنعتهم من تمثيل قومهم السنة.



الباب السابع

حقيقة الموقف من أعداء الأمة



الفصل الثالث والعشرون

عــــداء وهــمي لإســــــرائـيـل

في بداية تسرب الأخبار عن علاقات عسكرية بين إيران وإسرائيل أصيب الكثيرون من العرب والمسلمين بالدهشة، واعتبروا ذلك من قبيل تشويه صورة إيران والثورة الإيرانية، وما ترفعه من شعارات إسلامية تتحدث عن مواجهة إيران لمشروعات الهيمنة الغربية على العرب والمسلمين، لكن مرور السنوات وتراكم المواقف الإيرانية أثبت الحقائق وأزال الغموض.

كانت البداية في قضية (إيـران كونترا) أو (إيـران جيت) التي عقدت بموجبها إدارة الرئيس الأمريكي ريجان اتفاقاً مع إيران لتزويدها بالأسلحة، بسبب حاجة إيران الماسة إلى أنواع متطورة منها في أثناء حربها مع العراق، مقابل إطلاق سراح بعض الأمريكان الذين كانوا محتجزين في لبنان، وكان الاتفاق يقضي ببيع إيران وعن طريق إسرائيل ما يقارب ثلاثة آلاف صاروخ (تاو) مضادة للدروع وصواريخ (هوك) أرض جو مضادة للطائرات.

وقد عقد جورج بوش الأب عندما كان نائباً للرئيس رونالد ريجان في ذلك الوقت، هذا الاتفاق عند اجتماعه برئيس الوزراء الإيراني أبو الحسن

بني صدر في باريس، اللقاء الذي حضره أيضاً المندوب عن المخابرات الإسرائيلية الخارجية (الموساد) (آري بن ميناشيا)، الذي كان له دور رئيس في نقل تلك الأسلحة من إسرائيل إلى إيران. وفي آب/ أغسطس من عام ١٩٨٥م، تم إرسال ٩٦ صاروخاً من نوع (تاو) من إسرائيل إلى إيران على متن طائرة DC-٨ انطلقت من إسرائيل، إضافة إلى دفع مبلغ مقداره مليار ومئتا دولار أمريكي إلى الإيرانيين لحساب في مصرف سويسرا يعود إلى تاجر سلاح إيراني يدعى (جوربانيفار). وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٨٥م، تم إرسال ١٨ صاروخاً تم شحنها من البرتغال وإسرائيل، تبعها ٦٢ صاروخاً آخر أرسلت من إسرائيل.

(إيران كونترا) كانت عبارة عن مخطط سري تعتزم إدارة ريجان بمقتضاه بيع أسلحة لدولة عدوة هي إيران، واستعمال أموال الصفقة لتمويل حركات (الكونترا) المناوئة للنظام الشيوعي في نيكاراجوا[1].

كانت إجراءات صفقة بيع الأسلحة قد سارت ضد قوانين الكونجرس الذي يحرم تمويل الحركة المضادة لثوار نيكاراجوا وبيع الأسلحة لإيران. وإضافة ذلك، فإن جميع تلك الأنشطة كانت تشكل تعدياً على عقوبات الأمم المتحدة وقتها.

إدارة ريجان تحايلت على قوانين الكونجرس ومررت التمويل والأسلحة ضد ثوار نيكاراجوا (الكونترا) التي هي اللفظ الإسباني لمصطلح حركة معارضة الثورة. الحركة المعارضة لثوار نيكاراجوا حصلت على الأسلحة والتدريب من الولايات المتحدة ووكالة الاستخبارات المركزية، وخاصة فيما يخص تكنيك حرب العصابات، مثل تدمير عناصر البنية التحتية وعمليات الاغتيال.

بعد أن تمت مواجهة الرئيس الأمريكي بقدر كبير من الضغط أعلن عن تشكيل لجنة مراجعة خاصة تبحث في الفضيحة في إطار لجنة رئاسية عرفت فيما بعد باسم لجنة تاور، وادعي ريجان أنه لم يكن على علم بالعملية. ولكن في ١٨ نوفمبر ١٩٨٧م أعلن الكونجرس الأمريكي تقريره النهائي حول القضية، وجاء فيه أن ريجان مسؤول مسؤولية تامة عن الفعل الآثم الذي قام به معاونوه وأن إدارته مارست التكتم والخداع، وازدرت القانون، وتضمن التقرير تهماً متعددة(٢).

في ١٨ يوليو/ تموز عام ١٩٨١م انكشف التصدير الإسرائيلي إلى إيران عندما أسقطت وسائل الدفاع السوفيتية طائرة أرجنتينية تابعة لشركة (أروريو بلنتس) وهي واحدة من سلسلة طائرات كانت تنتقل بين إيران وإسرائيل محملة بأنواع السلاح وقطع الغيار، وكانت الطائرة قد ضلت طريقها، ودخلت الأجواء السوفيتية على أن صحيفة التايمز اللندنية نشرت تفاصيل دقيقة عن هذا الجسر الجوي المتكتم عليه.

وفي مقابلة مع جريدة (الهيرلد تريديون) الأمريكية في ٢٤-٨-١٩٨١م اعترف الرئيس الإيراني السابق أبو الحسن بني صدر أنه أحيط علماً بوجود هذه العلاقة بين إيران وإسرائيل، وأنه لم يكن يستطيع أن يواجه التيار الديني هناك الذي كان متورطاً في التنسيق والتعاون الإيراني الإسرائيلي.

وفي ٣ حزيران ١٩٨٢م اعترف مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلي بأن إسرائيل كانت تمد إيران بالسلاح، وعلل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي أسباب ذلك المد العسكري الإسرائيلي إلى إيران بأن من شأن ذلك إضعاف العراق(٣).

ونشرت صحيفة (هيرالد تريبيون) لباحث إستراتيجي أمريكي من أصل يهودي مقالة بعنوان: (إيران وإسرائيل والرابط التاريخي) لستانلي فايس الذي كان له دور في السنة الأولى من ولاية الرئيس الإيراني محمد خاتمي، حينما كان المسؤولون الإسرائيليون يستطلعون الآفاق بحثاً عن وسيلة تمكنهم من تسديد الديون التي يدينون بها لإيران عن كميات النفط التي تسلموها في زمن الشاه. وقيل في حينه: إن صادرات إسرائيل إلى إيران عبر دول أوروبية تدخل طرفاً ثالثاً في العملية قد تجاوزت ٣٠٠ مليون دولار، وشكلت المعدات الزراعية الجزء الأكبر من تلك الصادرات.

يقول ستانلي: (العداوة بين إيران وإسرائيل ليست سوى شذوذ عن مسيرة العلاقات التاريخية بين الشعبين، فقد عملت الروابط الثقافية والمصالح الإستراتيجية بين الفرس واليهود على جعل إيران وإسرائيل حليفتين متضامنتين لحين قيام الثورة الإسلامية في إيران. وعلى الرغم من الصورة القاتمة لما آلت إليه العلاقة بين البلدين في الوقت الحاضر، فإن المصالح الإستراتيجية الثابتة تشير إلى أن إعادة إحياء الشراكة الفارسية – اليهودية أمر محتوم، وإن لم يكن متوقعاً على المدى القريب)(٤).

وتحدَّث (الدكتور سيامك) رئيس جمعية يهود طهران لوكالة أنباء (قدسنا) من ناحيته عن وفاء اليهود الإيرانيين الذين هاجروا إلى الكيان الصهيوني لإيران، وضرب أمثلة على دورهم في التعاون مع جهاز الأمن (السافاك) في عهد الشاه ومشاركتهم في الحرب الإيرانية ضد العراق معتبرًا ذلك أفضل وأروع دليل على وفاء اليهود الإيرانيين أينما كانوا للدفاع عن إيران. وأضاف قائلاً: (إن اليهود الإيرانيين كانوا دوماً مساندين لسيادة

إيـران والمصالح الوطنية الإيرانيـة). مضيفاً: (إن اليهود خلال وجودهم فى إيـران - الذي استمَـرَّ أكثر من ثلاثين قرناً - لم يواجهوا أي حركات عدوانية مضـادة. وهذا يُعدّ من مفاخر الثقافـة الإيرانية، وأن (الإمام الخميني) أكد مبدأ رعاية كامل حقوق الطائفة اليهودية فى إيران).

وأضـاف الدكتور سيامـك قائلاً: (نظراً لتاريخ اليهـود العريق فى إيران؛ فـإن ثقافتهم فـى الحقيقة ثقافة إيرانيـة، ونحن نكتب ونتكلـم ونفكر باللغة الفارسيـة، والفارق الوحيد بيننا هو ديننا). وعلى الرغم من التبني والرعاية الغربيـة الكاملـة للكيان الصهيـوني إلا أن ذلك لم يُسقِـط دور إيران وأهمية التعـاون معها، وإن ذلـك لم يُلْغِ المسعى الإيراني لتحقيق حلـم إعادة الهيمنة الفارسيـة على المنطقـة؛ حيث لم تجد إيران في وجود هـذا الكيان (اللقيط) عائقـاً لتحقيق مخططها بقدر ما هو مساعـد لها على تحقيق ذلك؛ فالنظرة الإيرانيـة لليهـود تقوم على الأساس نفسه الذي وضعـه الإمبراطور (قورش الإخمينـي) عند تحريـره اليهود مـن السَّبْيِ البابلـي؛ وهـو أن اليهود جنس لـه شبه كبير بالجنس الآري (الفارسـي) ويمكن الاستفـادة منه من خلال إغرائه بالمال.

وهذا ما يفسر سبب عدم ظهور حركة احتجاج واحدة من قِبَل أي جماعة دينية أو سياسية في إيران عند إعلان قيام الكيان الصهيوني (١٩٤٨م) على أرض فلسطين؛ فقد التزمت وقتها (حوزة قم الدينية) السكوت ولم تدعُ إلى أي مظهر من مظاهر الاحتجاج، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الحركات السياسية؛ فقد جاء موقفها مطابقاً لموقف الشاه غير أن الموقف الاحتجاجي الوحيد الذي ظهر آنذاك تَمثَّل في موقف الشيخ نواب الصفوي - أُعدم ١٩٥٦م - زعيم

حركة (فدائيان الإسلام) فهو عالم الدين الإيراني الوحيد الذي حضر مؤتمر القدس في مدينة القدس سنة ١٩٥٣م وقد لقي حضوره في المؤتمر اعتراضاً شديداً من قِبَل المرجعيات الشيعية في قُم(٥).

وقد كشف الصحافي الإيراني نادر كريمي، المعتقل في أحد السجون الإيرانية، أن طهران ترتبط بعلاقة سرية حميمة مع إسرائيل، وذلك من واقع مقابلات يقول: إنه تمكن من إجرائها مع عناصر من الموساد استمرت ٢٠ ساعة، ومع المخابرات الإيرانية (الاطلاعات) تخللتها استجوابات وصلت مدتها إلى ٢٠٠ ساعة ترافق بعضها مع تعرضه لتعذيب جسدي.

وزود نادر كريمي نزيل سجن إيفين في طهران، (العربية. نت) بمعلومات حول ذلك، واعداً بنشر كتاب عنها بعد خروجه من السجن.

ويعد نادر كريمي من الصحفيين المنتقدين لحكومة الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، وهو من جرحى الحرب العراقية الإيرانية، حيث كان عضواً في قوات الحرس الثوري الإيراني، وترأس مدة تحرير صحف منها (سياست روز) و(جهان صنعت) ومجلة (كزارش).

قال كريمي: إنه التقى عدداً من عملاء (الموساد) بهدف إجراء مقابلات معهم لمصلحة الكتاب الذي ينوي نشره بخصوص العلاقات الإيرانية الإسرائيلية.

ويؤكد كريمي أن الحرب بين طهران وتل أبيب لا تتجاوز الحرب الكلامية، قائلاً: (إن الحرب الكلامية والعنتريات التي تخوضها طهران ضد تل أبيب أوهمت المسلمين أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية ألد أو على أقل تقدير

أحد ألد أعداء إسرائيل وأهم حماة الفلسطينيين أو أحد أهم حماتهم في العالم).

وأضاف: لم تتوافر الظروف لوضع إيران على المحك، ولم يتمكن المحللون والمراقبون والصحفيون من الاتصال بصنّاع القرار على هذا الصعيد، ولا سيما عناصر الاستخبارات في البلدين، وذلك أغرق المراقبين في متاهة الحرب الكلامية، وذلك نتيجة لعدم اطلاعهم على واقع العلاقات بين طهران وتل أبيب.

ويضيف: إيران وإسرائيل حولتا الصحفيين إلى أداة للنفخ في بالون العداء بين البلدين، وإلى أدوات مثيرة في مسرحية التخاصم بينهما، إلا أن ثمة واقعاً آخر خلف ستار هذه التمثيلية التي كتبت فصولها في فئة الإثارة[٦].

ويقول كريمي، الخبير في الشؤون الإيرانية الإسرائيلية: إن السنوات التي أمضاها في الحديث مع الدبلوماسيين الإيرانيين ودراسة خريطة العداء بين طهران وتل أبيب زادت لديه الغموض الذي يكتنف جوهر هذا العداء، وهو يعتقد أنه في واقع الأمر هناك تمثيل عدائي يستثمره الطرفان لمصالحهما السياسية، مؤكداً: (مما لا شك فيه لا تخفي كل من إيران وإسرائيل العداء اللفظي بينهما، إلا أن الهدف من وراء هذا العداء وخلافًا للحرب الإعلامية يتبلور في استثماره بصورة نفعية).

وأشار نادر كريمي إلى أنه التقى عملاء الموساد في تركيا، وكتب بهذا الخصوص: (بوصفي صحفيًا ملتزماً بعقائده وبالرأي العام، رأيت أن الخوض في هذا المجال -العلاقات الإيرانية الإسرائيلية- دون مقابلة العناصر الاستخباراتية للبلدين سيكون عملاً ناقصاً، ولكن الأسئلة الملحة التي طرحت

نفسها كانت كيف وأين أتمكن أن ألتقي عملاء جهازي الاستخبارات للبلدين لسماع الحقيقة نسبيًا منهم).

وأضاف: (أنا أعترف أن التقاء مسؤولي شعبة إيران في الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) كان أسهل وأكثر أمناً وأقل كلفة بكثير من التقاء مسؤولي شعبة إسرائيل في الاستخبارات الإيرانية (اطلاعات) حيث كان يكفي أن أمثل على العملاء الإسرائيليين اليهود من أصول إيرانية في تركيا، دور الصحفي المعارض للحكومة الإيرانية والداعي إلى الإطاحة بها حتى أحصل على ثقتهم).

وحول حصوله على المعلومات من الجانب الإيراني كتب يقول: (أما تمهيداً لأرضية اللقاء بعناصر الاستخبارات الإيرانية الذين يحظون بتعاون الاستخبارات التركية لمراقبة القنصلية الإسرائيلية في إسطنبول فقد مثلت دور متهم أحمق نادم لأخطائه السابقة، فحاولت تفريغ المعلومات والتحليلات الاستخباراتية الإيرانية بخصوص إسرائيل).

ويكشف نادر كريمي أنه أجرى ٢٠ ساعة من المقابلات على مدى شهرين مع عملاء الموساد، وتحمل نحو ٢٠٠ ساعة من الاستجواب الذي رافقه التعذيب الجسدي في بعض الأحيان على يد عناصر الاستخبارات الإيرانية في وزارة الأمن والاستخبارات، حيث أرغموه على كتابة اعترافات قسرية، إلا أنه يؤكد أن الحصول على المعلومات من عملاء الاستخبارات الإيرانية خلال الاستجواب أسهل بكثير من حصول مثل هذه المعلومات من العملاء الإسرائيليين.

وينتقل نادر كريمي بالحديث عن شراء إيران بضائع إسرائيلية مشيراً إلى أنه: (في الوقت الذي تستخدم إيران لغة غاضبة ضد إسرائيل ولمصلحة

الشعب الفلسطيني المظلوم، ويبذل المسؤولون الإيرانيون في الداخل والخارج جهوداً مضنية لتأليب الرأي العام، إلا أنهم يقدمون في بعض الأحيان على شراء البضائع الاستهلاكية الإسرائيلية كالفواكه على سبيل المثال، أو يختارون في تعاملاتهم شركات من أصول إسرائيلية، وبهذا يرفدون اقتصاد البلد الذي ينعتونه بالعدو).

ويواصل قائلاً: (إن إيران لم تنظم أي قائمة للبضائع أو الشركات الإسرائيلية المحظورة من قبلها، ولا تنوي القيام بذلك).

وأشار نادر كريمي إلى ما اعدّه صفقات بين تل أبيب وطهران: (منذ الحرب العراقية الإيرانية وإلى الآن يقوم وسطاء إيرانيون مليئة جيوبهم بالأموال بشراء أسلحة وأجهزة غربية غالية الثمن بمساعدة وسطاء إسرائيليين جشعين، حيث يدفع الزبون الإيراني الفائض الكرم أضعاف الأسعار الحقيقية للأسلحة المتطورة الغربية).

وحول هذه الصفقات ينوه كريمي إلى: (أن الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية، في أثناء الحرب العراقية الإيرانية إلى أدوات الحرب الإلكترونية والرادارات الحساسة للغاية وأجهزة اللاسلكي المشفرة، تشكل كلها غيضاً من فيض على صعيد الصفقات المبرمة في الظلام والصمت بين إيران والوسطاء الإسرائيليين).

ويشير كريمي إلى دخول عملاء إسرائيل وخروجهم بحرية وبجوازات غير إسرائيلية إلى إيران، ويلتقون أصدقاءهم تحت مرأى وزارة الأمن والاستخبارات الإيرانية بحسب قوله.

ويقول الصحفي السجين من خلال المعلومات التي قدمها لـ(العربية. نت): (إن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تستغل بعض الطلاب الفلسطينيين الموجودين على الأراضي الإيرانية، فالكثير من الفلسطينيين الذين حصلوا على منح دراسية من قبل ممثليات الجمهورية الإسلامية الإيرانية السياسية والثقافية في الخارج، وانتقلوا للدراسة في الحوزة الدينية والجامعات الإيرانية تعرضوا للضغط بغية إرغامهم على التجسس على المجموعات الفلسطينية والسفارات العربية في طهران).

وذكر نادر كريمي بالاسم طالباً فلسطينيًّا تحول إلى المذهب الشيعي، وكان يحضر رسالة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بجامعة إعداد المدرسين بطهران، كلفته وزارة الأمن والاستخبارات الإيرانية بمهمة التجسس على سفارتي الأردن والسودان في طهران إلا أنه طرد في النهاية من إيران بعد أن سجن فيها مدة ١٥ شهراً.

وينقل عن خبراء وزارة الأمن والاستخبارات الإيرانية قولهم: (من الضروري وجود كيان إسرائيلي يطلق بين الحين والآخر حرباً كلامية، ويغامر بتصرفاته في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وذلك من شأنه أن يمهد الأرضية للجمهورية الإسلامية الإيرانية لتستعرض عضلاتها، وتطبق سياساتها في المنطقة، وتمارس الضغط على الحكومات العربية عبر تحريض الرأي العام العربي في البلدان العربية).

ويستطرد نادر كريمي: (إن الشعارات الإيرانية ضد إسرائيل ومغامرات النظام الإيراني تمنح إسرائيل أفضل الأوراق لتمثل دور الضحية المظلوم أمام الرأي العام العالمي، وتمارس الضغوط على الفلسطينيين، وتتملص بذلك

من التزاماتها ومسؤولياتها الإقليمية والدولية، وتجلب في المقابل المزيد من المساعدات الأوروبية والأمريكية)(٧).

في ٢٠ يوليو/ تموز ٢٠٠٨م، نقلت صحيفة (اعتماد) ووكالة أنباء (فارس) الإيرانيتين عن نائب الرئيس الإيراني (إسفنديار رحيم مشائي) إعلانه الصريح والواضح بأن: (إيران اليوم هي صديقة الشعب الأمريكي والشعب الإسرائيلي، ما من أمة في العالم هي عدوتنا، وهذا فخر لنا).

هذا الكلام قاله نائب (نجاد) و(صهره) في آن - ابنة الأول متزوجة من ابن الرئيس - في الوقت الذي ما انفكت فيه طهران، تصعد من حربها الكلامية والهوليودية مع الإسرائيليين والأمريكيين، بل إن نجاد ذاته هدد بـ(مسح إسرائيل من على الخريطة)!

في ٢٤ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٨م، فجر أحمدي نجاد - بنفسه - مفاجأة مدوية، لصحيفة (نيوريوك ديلي نيوز) الأمريكية، حين أكد لها، استعداد بلاده للاعتراف بإسرائيل!

الإعلام الإيراني تجاهل تصريحات رئيسه، ولم يبرزها إلا موقع (فردا نيوز) القريب من رئيس بلدية طهران، نقلاً عن صحيفة (جارديان) وهو يكاد يقطر عرقاً من الخزي والكسوف والخجل، تحت عنوان: (ادعاءات صحيفة جارديان حول حذف تصريحات أحمدي نجاد).

بعد ذلك بأيام قليلة، أبدت كبرى الصحف البريطانية (جارديان) استغرابها من تجاهل وسائل الإعلام الغربية، لتصريحات الرئيس الإيراني..

وتساءل (بيتر تاتشل) في عمود (الرأي الحر): (لماذا لم تناور وسائل الإعلام العالمية على تصريحات الرئيس الإيراني بخصوص اعتراف بلاده بإسرائيل؟) وتساءل مجدداً عن (أسباب هذا التجاهل الإعلامي من المنظور السياسي والصحفي)، واصفاً تصريحات الرئيس الإيراني بالخروج الجذري على مواقفه الصلبة تجاه إسرائيل السابقة، مضيفاً: (منذ أسبوع واحد فقط كان يقول في طهران: إن دولة إسرائيل لن تعيش)[8]!

وقد كشف الكاتب الأمريكي (تريتا بارسي) حقائق مثيرة حول العلاقات والاتصالات السرية بين إسرائيل وإيران وأمريكا التي تتم خلف الكواليس، وشرح الآليات وطرق الاتصال والتواصل بين الأطراف الثلاثة، التي تبدو ملتهبة على السطح ودافئة خلف الستار في سبيل تحقيق المصلحة المشتركة التي لا تعكسها الشعارات والخطابات والتصريحات النارية بينهم.

وقال (تريتا بارسي) أستاذ العلاقات الدولية في جامعة (جون هوبكينز) في مقدمة كتابه (التحالف الغادر: التعاملات السريّة بين إسرائيل وإيران والولايات المتّحدة الأمريكية): إن إيران وإسرائيل ليستا في صراع أيديولوجي، كما يتخيل الكثيرون بقدر ما هو نزاع إستراتيجي قابل للحل، مدللاً على ذلك بعدم لجوء أحد الطرفين إلى استخدام أو تطبيق ما يعلنه خلال تصريحاته النارية، فالخطابات في وادٍ والتصرفات في وادٍ آخر معاكس.

وكان أهم ما تضمنه الكتاب هو كشفه عن الاجتماعات السرية الكثيرة التي عقدت بين إيران وإسرائيل في عواصم أوروبية، اقترح فيها الإيرانيون تحقيق المصالح المشتركة للبلدين من خلال سلة متكاملة تشكل صفقة كبيرة.

ويقول الكاتب: إنّ المسؤولين الإيرانيين وجدوا أنّ الفرصة الوحيدة لكسب الإدارة الأمريكية تكمن في تقديم مساعدة أكبر وأهم لها في غزو العراق عام ٢٠٠٣م عبر الاستجابة لما تحتاج إليه، مقابل ما ستطلبه إيران منها، على أمل أن يؤدي ذلك إلى عقد صفقة متكاملة تعود العلاقات الطبيعية بموجبها بين البلدين، وتنتهي مخاوف الطرفين.

وبينما كان الأمريكيون يغزون العراق في إبريل من عام ٢٠٠٣م، كانت إيران تعمل على إعداد اقتراح جريء ومتكامل يتضمن جميع الموضوعات المهمة ليكون أساساً لعقد (صفقة كبيرة) مع الأمريكيين عند التفاوض عليه في حل النزاع الأمريكي - الإيراني.

وشمل العرض الإيراني الذي أرسل إلى واشنطن عبر وثيقة سريّة، مجموعة مثيرة من التنازلات السياسية التي ستقوم بها إيران في حال تمّت الموافقة على (الصفقة الكبرى) التي تتناول عدداً من الموضوعات، منها: برنامجها النووي، وسياستها تجاه إسرائيل، ومحاربة تنظيم القاعدة.

ووافقت إيران على إيقاف دعمها لفصائل المقاومة الفلسطينية والضغط عليها لإيقاف عملياتها الفدائية ضدّ قوات الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وكان من أهم فقرات الوثيقة السرية هو التزام إيران بتحويل (حزب الله) اللبناني إلى حزب سياسي منخرط بشكل كامل في الإطار اللبناني. وكذلك قبولها بإعلان المبادرة العربية التي طرحت في قمّة بيروت عام ٢٠٠٢م، التي تنص على إقامة دولتين والقبول بعلاقات طبيعية وسلام مع إسرائيل مقابل انسحابها إلى ما بعد حدود ١٩٦٧م.

المفاجأة الكبرى في هذا العرض كانت تتمثل في استعداد إيران تقديم اعترافها بإسرائيل بوصفها دولة شرعية، الذي سبّب إحراجاً كبيراً لصقور البيت الأبيض بزعامة نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، الذين كانوا يناورون على مسألة (تدمير إيران لإسرائيل) و(محوها عن الخريطة).

وقال (بارسي) في كتابه: إنّ صقور الإدارة الأمريكية المتمثلة في ديك تشيني ووزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد كانا وراء تعطيل هذا الاقتراح ورفضه.

ويشير الكتاب أيضاً إلى أنّ إيران حاولت مرّات عدة بعد رفض هذا العرض، التقرب من الولايات المتّحدة، لكن إسرائيل كانت تعطّل هذه المساعي دوماً خوفاً من أن تكون هذه العلاقة على حسابها في المنطقة.

وخلاصة ما توصل اليه بارسي: إنّ إيران ليست خصماً للولايات المتّحدة وإسرائيل كما كان الحال بالنسبة إلى العراق بقيادة صدّام حسين وأفغانستان بقيادة حركة (طالبان).

فطهران تعمد إلى استخدام التصريحات الاستفزازية، ولكنها لا تتصرف بناءاً عليها بأسلوب متهور وأرعن من شأنه أن يزعزع نظامها. وعليه، فيمكن توقع تحركات إيران، وهي ضمن هذا المنظور (لا تشكّل خطراً لا يمكن احتواؤه) عبر الطرق التقليدية الدبلوماسية.

ويؤكد الكاتب: إننا إذا ما تجاوزنا القشور السطحية التي تظهر من خلال المهاترات والتراشقات الإعلامية والدعائية بين إيران وإسرائيل، فإننا سنرى تشابهاً مثيراً بين الدولتين في كثير من المحاور، بحيث إننا سنجد أنّ ما يجمعهما أكبر بكثير مما يفرقهما.

ويضيف: إن الدولتين تميلان إلى تقديم نفسيهما على أنّهما متفوقتان على جيرانهما العرب، حيث ينظر كثير من الإيرانيين إلى أنّ جيرانهم العرب في الغرب والجنوب على أنهم أقل منهم شأنًا من الناحية الثقافية والتاريخية وفي مستوى دوني. ويرون أن الوجود الفارسي على تخومهم ساعد على تحضّرهم وتمدّنهم ولولاه لما كان لهم شأن يذكر.

في المقابل، يرى الإسرائيليون أنّهم متفوقون على العرب بدليل أنّهم انتصروا عليهم في حروب كثيرة، ويقول أحد المسؤولين الإسرائيليين في هذا المجال لبارسي: «إننا نعرف ما باستطاعة العرب فعله، وهو ليس بالشيء الكبير»، في إشارة إلى استهزائه بقدرتهم على فعل شيء حيال الأمور(٩).

والتعاون الإيراني الإسرائيلي يتم في الخفاء وبسلاسة تامة، فقد أكدت تقارير صحافية إسرائيلية أن وزارة المواصلات الإيرانية طلبت شحنة مؤلفة من ١٥ ألف جهاز إنذار، من صناعة إسرائيلية، لحماية السيارات الحكومية من السرقة.

وبحسب صحيفة (يديعوت أحرونوت) الإسرائيلية، فإن إيران طلبت شراء هذه الأجهزة من شركة صينية تسوق منتجات شركة (سونار) التي يقع مقرها في مدينة (رمات هشارون) الواقعة شمال تل أبيب وسط إسرائيل.

وطبقاً للتقرير الذي نشرته صحيفة (البيان) الإماراتية الثلاثاء ١١-٤-٢٠٠٦م فإن الصفقة تمت بين الحكومة الإيرانية والشركة الصينية بعد زيارة مندوب عن وزارة المواصلات الإيرانية في معرض لأجهزة الإنذار في الصين، وأعجب بالمنتج الإسرائيلي.

وحمل المندوب الإيراني ٢٠ جهاز إنذار لدى عودته إلى بلاده، وبعد مرور أسبوعين طلبت الحكومة الإيرانية من الشركة الصينية تزويدها بـ ١٥ ألف جهاز.

وقال مدير عام شركة (سونار) يعقوب سلمان: (لم أصدق) عندما أبلغه المروج الصيني بأن الإيرانيين يريدون شراء أجهزة إنذار من صنع إسرائيل.

وأكد أن الصفقة تمت من دون أن تكون هناك اتصالات مباشرة بين مسؤولين إيرانيين والشركة الإسرائيلية، وإنما مع ممثل الشركة الإسرائيلية في الصين.

وذكرت وكالة أنباء نوفوستي الروسية يوم الأربعاء ٢٠٠٦/١٢/٦م نقلاً عن صحيفة (هآرتس) الإسرائيلية أن هناك مفاوضات مستمرة منذ ٢٠ عاماً بين إيران وإسرائيل حول الديون المليونية التي كان قد منحها الشاه لإسرائيل.

وطبقاً لما جاء في الخبر، فإن القضية التي تشمل مئات الملايين من الدولارات تعكف المحكمة الأوروبية العليا على متابعتها سرّاً، ويتم تقسيم القضية إلى ثلاثة ملفات، حيث تم الانتهاء من الملف الأول الذي قبلت عدد من شركات الوقود الإسرائيلية بالتزاماتها.

وصرح وزير الخارجية الصهيوني في حكومة نتنياهو (ديفيد ليفي) لصحيفة (هآرتس) يوم ١٩٩٧/٦/١م، أن: (إسرائيل لم تقل في يوم من الأيام: إن إيران هي العدو).

يقول الصحفي الإسرائيلي (وري شمحوني)، في صحيفة (معاريف) يوم ٢٣ /١٩٩٧/٩م: (إيران دولة إقليمية، ولنا الكثير من المصالح الإستراتيجية

معها، فإيران تؤثر في مجريات الأحداث، وبالتأكيد على ما سيجري في المستقبل، إن التهديد الجاثم على إيران لا يأتيها من ناحيتنا، بل من الدول العربية المجاورة، فإسرائيل لم تكن أبداً، ولن تكون عدواً لإيران).

إن مسلسل التعاون الإسرائيلي الإيراني لم يقتصر على السلاح، بل تعددت مجالات هذا التعاون. فشملت السلاح والتجارة والنفط وغيرها، وهنا يجب ملاحظة أن التعاون في مجال التسليح ينفي أسطورة العداء الكلي، فليس من المعقول أنك تسلح عدوك[١٠].

لقد كانت إسرائيل المصدر الأول للسلاح لإيران في المدة من ١٩٨٠م- ١٩٨٥م، عبر صفقات كثيرة ومتعددة اشتركت فيها أطراف عدة وتمت عبر دول عدة، لكن كان المصدر والطرف الأساسي فيها والمحرك لخيوطها هو إسرائيل[١١].

وجاءت الأخبار في ديسمبر من عام ٢٠٠٢م أن رجل أعمال إيرانيًّا يدير شركة يمتلكها مقرّب من الرئيس خاتمي قام بزيارة سرية إلى إسرائيل في محاولة لفحص إمكانية تجديد عمل أنبوب النفط إيلات- أشكلون الذي تعود ملكيته إلى الحكومتين الإيرانية والإسرائيلية.

وخلال الزيارة غير الرسمية، التقى رجل الأعمال الإيراني مع مموّل إسرائيلي، في فندق (إنتركونتننتال) في مدينة تل أبيب. ونسق اللقاء (يهوشواع مئيري) أحد رؤساء جمعية تعنى بإقامة علاقات إسرائيلية - عربية أيضاً. وكان من بين الشخصيات التي حضرت اللقاء إلى جانب (يهوشواع مئيري)، الدكتور (شبارزاند) الذي شغل قبل سنة ونصف منصب مستشار الرئيس الإيراني الخاص للشؤون الإسرائيلية.

وطرحت خلال اللقاء إمكانية التعاون مع الشركة التي يديرها المندوب الإيراني. واتفقت الأطراف على أن تقوم الشركة الإيرانية بتحميل النفط على ناقلات النفط ونقله إلى ميناء مدينة إيلات الواقعة في جنوب إسرائيل، ومن ثم سينقل عبر الأنبوب إلى مدينة أشكلون، حيث سيسوق من هناك إلى الدول الأوروبية.

الهدف المباشر لهذا المشروع المطروح كان اختصار الوقت وتخفيف التكلفة المالية، ذلك أنّ ناقلات النفط الإيرانية تقوم بالمرور عبر قناة السويس في طريقها إلى أوروبا، وهي تستغرق أسابيع قبل الوصول إلى وجهتها النهائية، إضافة إلى العمولات التي يجب أن يتم دفعها خلال مرور القناة، وهو الأمر الذي سيتم تلافيه في حال إعادة إحياء الخط الذي سيختصر الوقت إلى أسبوع واحد فقط مع انخفاض في تكاليف النقل.

وسلّطت وسائل الإعلام في يناير من عام ٢٠٠٧م الضوء من جديد على مشروع إسرائيلي لنقل الغاز الطبيعي من إيران إلى إسرائيل عبر تركيا. وكشفت أوساط سياسية النقاب عن أنّ المشروع إستراتيجي الطموح الذي هو عبارة عن أنبوب تحت بحري بطول ٦١٠ كيلومترات بين الشاطئ الجنوبي-الشرقي لتركيا وحيفا هو ثمرة أفكار مشتركة لوزير البنى التحتية آنذاك (بنيامين بن اليعازر)[١٢].

وامتد التعاون في مجالات أخرى غير السلاح والنفط، فقد قالت صحيفة (يديعوت أحرونوت): إن ثلاثة مهندسين إسرائيليين شاركوا في ترميم بنى تحتية قريبة من المنشأة النووية في مدينة بوشهر الإيرانية تضررت من هزات أرضية في السنوات الأخيرة، بعدما عملوا طوال ٢٠ يوماً.

ونقلت الصحيفة عن أحد المهندسين قوله: (لقد أدهشنا حجم الفجوة بين المواجهة العلنية الإسرائيلية الإيرانية وعمق التعاون التجاري بين الدولتين الذي يصل حجمه إلى عشرات ملايين الدولارات في كل سنة، وقد تم استقبالنا بدفء، ولم نشعر بعدائية لحظة واحدة من قبل مرافقينا).

ووفقاً للصحيفة، فإن نائب مدير عام وزارة الزراعة الإيرانية من منطقة بوشهر زار إسرائيل سرّاً قبل ثلاث سنوات ونصف السنة؛ لفحص إمكانية تجديد مخزون العتاد الزراعي من إسرائيل. ومضى رئيس وفد المهندسين قائلاً: (إن هناك ازدهاراً في العلاقات التجارية مع إيران خلال السنوات الأخيرة، وخصوصاً في المجال الزراعي). ويشتري الإيرانيون من إسرائيل بصورة غير مباشرة قطع غيار للمعدات الزراعية، خصوصاً في مجال زراعة القطن والبذور لزراعة الخضراوات وأجهزة ري.

وروى المهندس أنه مع زملائه التقوا مع عائلات يهودية إيرانية، وتناولوا معهم وجبات طعام احتفالية تخللها شرب النبيذ بمناسبة عيد الفصح العبري.

وبحسب المهندس الإسرائيلي، فإن هناك ٢٦ ألف يهودي في إيران يعيشون حياتهم، ويمارسون عباداتهم دون عائق، حتى إن السلطات الإيرانية تحرس الكنس.

وأضاف المهندس رئيس الوفد: (من المتوقع أن أسافر مجدداً إلى إيران خلال الأشهر القريبة القادمة لتنفيذ أعمال تم استدعاؤها في أثناء وجودنا في إيران، وتتعلق بتطهير المياه الآسنة).

الهوامش:

(١) ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) (إيران جيت). جريمة تهريب سلاح بـ (توقيع الرئيس)!، صحيفة الرياض السعودية، ١٥ يونيه ٢٠٠٥م.

(٣) (إيران جيت) القصة الكاملة، المنتدى العربي للدفاع والتسليح.

(٤) محمد الحسناوي، المخطط الإيراني للنفوذ والهيمنة، موقع إخوان سوريا، دون تاريخ. العرب اليوم، ٢٠٠٦/٧/١٣م.

(٥) صباح الموسوي، التمدد الإيراني في الوطن العربي وأخطاره المحدقة بنا، موقع إيلاف، ١٣ أغسطس ٢٠٠٩م.

(٦) علاقة حميمة بين إيران وإسرائيل، موقع العربية نت، ١١ يناير ٢٠١١م.

(٧) المرجع السابق.

(٨) محمود سلطان، إيران وإسرائيل، موقع المصريون، ٢٠٠٨/١٠/٨م.

(٩) كاتب أمريكي يكشف عن العلاقة السرية بين إيران وإسرائيل وأمريكا في سقوط بغداد، موقع محيط ووكالات الأنباء، ٧ - ٥ - ٢٠٠٨م.

(١٠) أسامة شحادة، التعاون الإسرائيلي الإيراني، الراصد نت، دون تاريخ.

(١١) حسين علي هاشمي، الحرب المشتركة إيران وإسرائيل، ص ٣٥.

(١٢) أسامة شحادة، التعاون الإسرائيلي الإيراني، الراصد نت، دون تاريخ.

(١٣) المرجع السابق.

الفصل الرابع والعشرون

الصراع مع أمريكا.. المسرح العبثي

بعدما رأى العالم أجمع التعاون الكبير والتنسيق الكامل بين الاحتلال الأمريكي وإيران في العراق، لابد من طرح السؤالين الآتيين لفهم ما جرى وما يجري:

هل بقيت ثمة أسرار حول طبيعة الصلة الأمريكية - الإيرانية؟

إن الانتخابات المزورة التي اشترك فيها الطرفان في العراق أكدت بلا أدنى شك أن هناك صفقة أمريكية – إيرانية طبخت، وكانت الانتخابات قمة هذه الطبخة، فما هي هذه الصفقة؟

المتابع الدقيق لتطور العلاقات الأمريكية الإيرانية في المنطقة يستطيع أن يلمس أن هناك اتفاقاً إقليميًّا شاملاً بين أمريكا وإيران تم قبل غزو أفغانستان والعراق، وتعزز بعدهما، ويتمثل في النقاط الآتية:

(أ) التعاون المتبادل بين أمريكا وإيران حول تنفيذ غزو أفغانستان والعراق وإنجاحه.

(ب) مشاركة إيران في الترتيبات السياسية والأمنية في البلدين.

(ج) استمرار التعاون المتبادل على الرغم من وجود خلافات ساخنة إعلاميًّا فقط وباردة جدًّا عسكريًّا، تتركز حول تقاسم المنطقة، وليس نتيجة نهج تحرري إيراني كما يدعي البعض.

(د) نشوب حرب بالوكالة بين الطرفين الأمريكي والإيراني نتيجة الخلافات حول تقاسم وتقسيمها الأقطار العربية.

والسؤال الذي تنتجه الحقائق السالفة هو: لم حصل هذا التوافق الإستراتيجي الأمريكي – الإيراني مع أن إيران تهاجم (إعلاميًّا فقط) أمريكا والكيان الصهيوني؟ وهذا السؤال من الضروري طرحه لمواجهة التضليل الإعلامي الأمريكي – الصهيوني – الإيراني (المشترك)، والتذكير به لإنقاذ من يوشك على السقوط في فخه[1].

وللحصول على جواب موضوعي متطابق مع واقع الحال، لا بد من التذكير بحقائق إستراتيجية وجيوبولتيكية حاكمة، أهمها:

(أ) المشروع القومي الإيراني، وبحدوده القصوى لا يشكل نقضاً للمشروع الاستعماري الأمريكي الذي يتركز على استعمار الوطن العربي، وليس على إيران، وهو يقوم، أي المشروع الإيراني، على إعادة بناء إمبراطورية فارس مع وجود مطامع في أقطار عربية معروفة، وأمريكا تعرف أن الطبيعة البراجماتية للنخب الحاكمة في إيران تجعلها واقعية في التعامل معها، على طريقة تعاونها في غزو العراق وأفغانستان، لذلك فإن المطامع الإيرانية في أقطار عربية التي تشكل أحد أهم مصادر

الصراع بينهما، هي مع المشروع النووي الإيراني وسائل مساومة على أمريكا وضغط عليها من أجل الحصول على مكاسب أقل من السيطرة على أقطار عربية وأكثر من مجرد نفوذ فيها، وهي مطالب إيرانية تعدها نخب في واشنطن ولندن وتل أبيب معقولة في إطار تقاسم متفق عليه للمنطقة تحصل أمريكا بموجبه على حصة الأسد من أجل التخلص من المضايقات الإيرانية من جهة، وضمان خدمة إيران للمخططات الأمريكية – الصهيونية العامة من جهة أخرى.

(ب) تكتمل بيئة اللقاء التوافقي الأمريكي – الإيراني بوجود حقيقة أخرى، وهي أن المشروع القومي الإيراني لا يتناقض أيضاً مع المشروع الصهيوني، فالمشروع الصهيوني قام على الأرض العربية، وليس على أراضٍ إيرانية، وحدود إسرائيل التوراتية تنتهي عند الضفة الغربية لنهر الفرات، بحسب الهدف المبدئي والإستراتيجي الصهيوني المعروف (أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل)، وهذه الحقيقة محسوبة جيوبولتيكيًّا من قبل الطرفين الصهيوني والقومي الفارسي، في زمن الشاه وفي زمن خلفه الخميني. وفي إطار هذا التوافق الإستراتيجي والمبدئي، توضع حدود فولاذية تمنع نشوب صراع إستراتيجي بين الطرفين، حتى لو نشأت خلافات بينهما لأنها ستبقى ثانوية مقارنة بطبيعة صراع الطرفين مع العرب.

(ج) محور الصراع بين الأطراف الثلاثة المتلاقية (أمريكا وإيران وإسرائيل) هو حجم ونوعية مكاسب كل طرف، ولذلك فإن حقيقة وجود اسم إيران ضمن المشروع الأمريكي – الصهيوني للشرق الأوسط الجديد، إضافة إلى تركيا والكيان الصهيوني، هو تعبير واقعي وطبيعي

أيضاً عن وجود قاسم مشترك بين هذه الأطراف الثلاثة، وهو تقسيم وتقاسم الأقطار العربية.

هذه الملاحظات والحقائق فرضتها عمليات غزو أفغانستان والعراق، التي اتحدت فيها إيران وأمريكا لإنجاح هذا الغزو، واندلاع وتدفق المطامع الإيرانية في الأقطار العربية ونشرها للفتن الطائفية فيها، وهي اتجاهات تخدم أمريكا والكيان الصهيوني تلقائيًّا، والمبالغة المتعمدة الأمريكية - الصهيونية، والإيرانية أيضاً، بخطورة المشروع النووي الإيراني، مع أنه أداة مساومة مع أمريكا والكيان الصهيوني، كل ذلك وغيره دفع بأحد أشهر العلماء والخبراء الإسرائيليين لتأكيد أن الدور الإيراني ليس كما يطرح إعلاميًّا، بل هو عنصر شغب ومشاكسة لا غير.

فالدكتور (أفنير كوهين)، أحد أهم الخبراء الإسرائيليين في المجال النووي ومؤلف كتاب (إسرائيل والقنبلة النووية)، يرى أن البرنامج النووي الإيراني لا يشكل تهديداً وجوديًّا، لأسباب تتعلق بحرص إسرائيلي تقليدي على استغلال أي ظاهرة، ولو كانت ثانوية لحشد الرأي العام خلف الكيان الصهيوني وزيادة دعمه، وحصول إيران على سلاح نووي، هو مجرد مشكلة سياسية عالمية.

التصريحات الأمريكية لإيران تقول لها بوضوح وصراحة: افعلي ما شئت، فنحن لن نفعل لك شيئاً سوى فرض عقوبات عليك، مواصلين ما فعلناه في العقود الماضية، وهي عقوبات لم تمنع تعاوننا في غزو أفغانستان والعراق، ولم تشل الحياة في إيران.

لنتذكر أيضاً أن المشروع النووي الإيراني دعم من قبل المخابرات الأمريكية التي اعترفت رسمياً بأنها قدمت معلومات نووية خطيرة لإيران ساعدتها على تحقيق تقدم كبير في مشروعها النووي، وبررت هذا الدعم بأنه نتيجة خطأ استخباراتي! هل هذا معقول؟ هل يعقل أن المخابرات الأمريكية تقدم معلومات نووية خطيرة إلى العدو المفترض نتيجة خطأ، وهي التي عرف عنها تدقيقها المعلومات مرات عدة ووفقاً لآليات لا تقبل الخطأ في أمر كهذا؟

إن ما يفسر التناقضات الظاهرية في الموقف الأمريكي من إيران هو أمر جوهري أثبتته مواقف أمريكا المساندة لإيران في أثناء الحرب مع العراق، وأبرز أدلته الحاسمة (إيران - جيت)، واحتلال العراق وأفغانستان بتعاون أمريكي - إيراني، فأمريكا لها مصلحة مباشرة في إيران القوية وفي بقائها في العراق وممارسة نفوذ قوي فيه؛ لأن العراق القوي الموحد هو مدخل طبيعي لنهوض حركة التحرر الوطني العربية وإحباط المخططات المشتركة الأمريكية - الإيرانية - الصهيونية الملتقية حول هدف مركزي وإستراتيجي خطير هو تمزيق الأقطار العربية، في إطار (سايكس بيكو) جديدة.

والسبب مزدوج العناصر، فإيران (النخب الحاكمة) من جهة أولى لديها الدافع، وهو أنها خاضعة لنزعة عداء عنصري تقليدي ضد العرب ولديها مطامع في أرضهم، لذلك فإنها تملك الدافع الذاتي الذي يجعلها جاهزة لخوض صراعات مع العرب لاستنزافهم وتمزيقهم، ومن جهة ثانية فإن إيران تملك أداة التأثير المطلوب لتقسيم الأقطار العربية، وهي أداة لا تملكها أمريكا ولا الكيان الصهيوني، وهي الفتن الطائفية، وفي إطار هاتين الحقيقتين يبدو واضحاً أن إيران ذخيرة إستراتيجية لأمريكا والكيان

الصهيوني؛ لأنها وحدها من نجح في نشر الفتن الطائفية في الأقطار العربية مع أن كلاً من بريطانيا وفرنسا وأمريكا والكيان الصهيوني فشل في تحقيق هذا الهدف خلال نحو قرن من الزمن الاستعماري الغربي(٢).

لقد نقلت الصحف العالمية وشبكات الأخبار يوم ٢٠٠٩/٩/١٧م، عن الرئيس الأمريكي باراك أوباما، قرار إلغاء نشر منظومة الدرع الصاروخي في أوروبا، وعقد في اليوم نفسه وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس مؤتمرًا صحفيًّا مشتركًا مع الجنرال جيمس كارترايت، نائب رئيس أركان الجيش الأمريكي أعلنا فيه إلغاء نشر الدرع في بولونيا وتشيكيا، وأن تحل محله بتكنولوجيا اعتراضية أرضية - بحرية، تتمتع بمرونة عالية في الاستجابة للتهديدات، وتخفض النفقات الحربية بشكل كبير كما قالا.

واللافت للنظر هو ما قاله جيتس عن الخطر الإيراني المزعوم الذي حوّله إلى مصدر رعب وقلق في أوروبا والعالم، حيث قال: إن الصواريخ الإيرانية البعيدة المدى لا تشكل تهديداً فوريًّا كما اعتقدنا سابقاً! لذلك استبدلنا بتلك السياسة السياسة الجديدة التي أقرها الكونجرس والبنتاجون.

إعلان هذا التغيير الأمريكي قد يبدو عاديًّا، وهو كذلك بالنسبة إلى من يعرفون خفايا العلاقات الأمريكية الإيرانية، لكنه مفاجئ وكبير بالنسبة إلى من جهلوا، أو تجاهلوا، الطبيعة الحقيقية للعلاقات الأمريكية الإيرانية، وافترضوا وجود صراع حقيقي بينهما خلال أربعة؛ عقود من الزمن، لأن هذا التغيير الأمريكي، وهو تغيير إستراتيجي كبير، يؤكد ويدعم أن الصراع الأمريكي الإيراني ما هو إلا صراع ديوك، الاصطناع فيه طاغٍ ومحرك له، لدرجة أن أحد الطرفين حينما ينقر الطرف الآخر، فإن الطرفين يعلمان أنه

نقر تمثيل غير مؤلم ومحسوب الهدف الرئيس منه، تمامًا كما هي تكتيكات المصارعة الحرة الأمريكية، وهكذا تضمن أمريكا وإيران وجود أطراف تدعم كل منهما بصدق؛ لأنها صارت ضحية تضليل حول تحديد طبيعة الصراع الحقيقية: هل هو صراع ديوك مرتب يحركه تنافس حول المغانم؟ أم أنه صراع عدائي حقيقي ورئيس؟

ومن المؤشرات ذات الدلالة ترحيب روسيا فوراً بالخطوة الأمريكية، إذ إن موسكو في السابق ضغطت على واشنطن طويلاً، وهددتها بنشر منظومة صواريخ روسية مضادة إذا نشرت منظومة الصواريخ في أوروبا، من أجل إلغاء نشر الدرع في بولندا وتشيكيا، وثار خلاف وحصل توتر بين العاصمتين بسبب ذلك المشروع الإستراتيجي، وترحيب موسكو يقوم على إدراك رسمي ومعلن في الكرملين بأن الدرع الصاروخي موجه الأساس والواقع لروسيا وليس لإيران، وهو جزء من إستراتيجية أمريكا بالتوسع شرقاً التي تبنتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، فروسيا تبقى كابوساً مفزعاً لأمريكا؛ لأنها قوة نووية عظمى تستطيع حرق أمريكا مئة مرة بسلاحها النووي. أما إيران فإن صواريخها بدائية وبسيطة مقارنة بالروسية، ومداها مازال محدوداً، وهي صيد سهل للصواريخ الأمريكية المضادة للصواريخ، لذلك فإن خطر هذه الصواريخ على أمريكا منعدم، والخطر الأساسي الذي تشكله هذه الصواريخ هو على الأقطار العربية، وتأكيداً لذلك هددت إيران رسميًّا بقصف منشآت النفط العربية[٣].

وإن علينا تذكر أن الصواريخ الإيرانية الأولى استخدمت في ضرب مدن العراق بكثافة في الثمانينيات، وذهب ضحيتها آلاف العراقيين، وليس

لقصف الكيان الصهيوني أو القواعد الأمريكية، وأخيراً فلا بد من التنبه إلى أن الصواريخ الإيرانية خطر على إيران ذاتها، لأنها إذا استخدمتها ضد أوروبا أو أمريكا، على افتراض أنها قادرة على الوصول إليهما، فإن الرد عليها سيكون ساحقاً وماحقاً ومدمراً وكارثيًّا، وهو ما تعرفه إيران.

هل كانت أمريكا، بكل أجهزة مخابراتها المتطورة وعلمها وتكنولوجيتها، تجهل أن صواريخ إيران لم تتقدم بما يكفي لتشكل خطراً عليها؟ الجواب هو كلا، فأمريكا لديها القدرة على تحديد الإطار العام للمستوى الذي بلغته إيران تكنولوجيًّا وعسكريًّا، لكنها أرادت أن توحي بأنها لا تعرف وتجهل ما يجري في إيران، وذلك جزء من لعبة استغلال (البعبع الإيراني) لتمرير مشروعات أمريكية في العالم، مثل الدرع الصاروخي الموجه ضد روسيا في الأساس، أو في منطقتنا، مثل نشر الفتن الطائفية لتقسيم الأقطار العربية والقضاء على وحدتها عن طريق الأدوات الإيرانية.

أما إذا كان الجواب: نعم، أمريكا تجهل ما يجري في إيران، فنحن أمام سؤال محرج لأمريكا، وهو: كيف عرفتم الآن أن صواريخ إيران لا تشكل خطراً؟ وأين تذهب المبالغ الأسطورية المخصصة لوكالة المخابرات الأمريكية التي أعلن أنها أكثر من سبعين مليار دولار سنويًّا؟

إن حجم التضليل الأمريكي والصهيوني كبير وخطير؛ لأنه استهدف عمداً وتخطيطاً تقديم إيران بصفتها القوة المناهضة لأمريكا والكيان الصهيوني والتي تهددهما، ومن ثم يجب تركيز الجهد عليها، وهو أمر يخدم إيران عربيًّا بتصويرها كأنها تحارب أمريكا والكيان الصهيوني، فيما الأنظمة العربية تتواطأ مع إسرائيل وأمريكا ضد المصالح العربية، وبذلك يتحقق

لأمريكا والكيان الصهيوني هدف خطير، وهو وجود عرب يدعمون إيران حتى وهي تحتل العراق، مع أمريكا، وتحتل الأحواز والجزر الإماراتية، وتنشر الفتن الطائفية لمجرد أنها تدعم القضية الفلسطينية، وتناهض أمريكا والكيان الصهيوني، وذلك يزيد من تمزق العرب وتشرذمهم واضطراب رؤيتهم للعدو وتحديده بدقة.

ونتيجة هذا التكتيك الأمريكي - الصهيوني بارزة أمامنا، فهناك عرب يجادلون بأن إيران تخوض صراعًا مع أمريكا والكيان الصهيوني، وأن الصراع الرئيس في المنطقة هو بين أمريكا وإسرائيل من جهة وبين إيران من جهة أخرى، ويترتب على هذه الكذبة جعل إيران في موقع من يجب دعمه من قبل العرب ضد أمريكا والكيان الصهيوني وتأجيل مناقشة أو إثارة المشكلات معها بسبب احتلال العراق والأحواز والجزر العربية، وغير ذلك لما بعد دحر أمريكا والكيان الصهيوني، وكذلك إنزال مرتبة المقاومة العراقية إلى مستوى الظاهرة الثانوية مع أنها هي وليس إيران من تقاتل أمريكا في المعركة الرئيسة، ووصم من يكشف الدور الإيراني بأنه يخدم أمريكا والكيان الصهيوني، على الرغم من أن إيران لم تطلق رصاصة واحدة على أمريكا والكيان الصهيوني.

في عهد الرئيس رونالد ريجان في مطلع الثمانينيات أعلن عن تبني مشروع إستراتيجي كبير وخطير، وهو منظومة حرب النجوم، أو مبادرة الدفاع الإستراتيجي، وقيل وقتها: إن الهدف من هذه المنظومة هو إنشاء شبكة دفاع صاروخي في الفضاء تستطيع اصطياد الصواريخ المتجهة للولايات المتحدة الأمريكية قبل الوصول إلى أراضيها وتدميرها في الجو. وقتها كان واضحاً

أن أمريكا تريد تدمير الاتحاد السوفيتي ليس بالوسائل العسكرية بل باستنزافه ماديًا من خلال إجباره على دخول سباق تسلح جديد مكلف جدًا لموازنة الشبكة الصاروخية الأمريكية، ما اضطر موسكو وقتها إلى تحويل موارد مالية ضخمة من التنمية والخدمات العامة إلى تطوير صواريخ جديدة لمنع أمريكا من تحقيق تفوق كبير وإبقاء الاتحاد السوفيتي قادرًا على الردع الإستراتيجي، وهكذا وقعت موسكو في الفخ الأمريكي.

لكن العنصر الدعائي والطبيعة النظرية لبرنامج حرب النجوم كانا واضحين، وذلك للصعوبة القصوى لتطوير صواريخ قادرة على إسقاط صواريخ متطورة وبدقة متناهية، خصوصاً أن الاتحاد السوفيتي كانت لديه صواريخ نووية (عنقودية) أي صاروخ يطلق صواريخ أخرى عدة من داخله لتضليل وتعجيز القدرة الأمريكية على إصابة كل الصواريخ.

نتيجة التكلفة العالية وعدم الدقة في الإصابة تركت الإدارات الأمريكية المتعاقبة مشروع حرب النجوم دون أن تلغيه، وأبقته أداة ابتزاز للاتحاد السوفيتي. وفي عهد بوش الابن – تشيني، وبالنظر لوجود مخطط استعماري لتلك الإدارة التي بدأت بتنفيذه بعد أحداث ١١سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠١م، عادت تلك الإدارة لبرنامج حرب النجوم، واستخدمت له تسمية أخرى هي (الدرع الصاروخي) لتحقيق هدفين مترابطين: الأول زيادة إنعاش الصناعات العسكرية، وهي أحد أهم المؤثرات في صنع القرار الأمريكي وأحد أهم مصادر الدخل القومي الأمريكي، والثاني إكمال نفس سيناريو ريجان، وهو إيجاد مبرر للتدخل في العالم بحجة وجود تهديد خطير للأمن القومي الأمريكي.

في هذا الإطار كانت قصة الخطر الإيراني وخطر (القاعدة) هي مبرر العودة للعبة حرب النجوم، فقد استغلت إدارة بوش هجمات سبتمبر لغزو أفغانستان والعراق وتدميرهما، وبعد أن تم لها ذلك بدعم إيراني شامل وكامل، بدأت اللعبة الأخرى، وهي التلويح بالخطر الإيراني النووي والصاروخي من أجل مواصلة التوسع الإمبريالي الأمريكي في العالم، لذلك كان من مصلحة أمريكا تضخيم الخطر الإيراني سواء التوسعي في الأقطار العربية أو الحربي ممثلاً في المشروع النووي الإيراني وتابعه الصواريخ الإيرانية.

لقد استغلت الدعاية الأمريكية أفضل استغلال ما سمي (الخطر الإيراني) عليها لحشد الرأي العام الأمريكي خلفها ودعمها، مع أنها بكل أجهزتها الأمنية كانت تعرف أن إيران لا تشكل خطرًا عليها ولا على حليفتها أوروبا، ومن جهة أخرى عززت أمريكا تعاونها مع إيران في إطار خطة تمزيق وتفتيت الأقطار العربية بنشر الفتن الطائفية بواسطتها، وهو أحد أهم الأهداف الإستراتيجية الأمريكية – الصهيونية، ولهذا فإن الدور الطائفي الإيراني كان ومازال الخطر المميت بالنسبة إلى الأقطار العربية.

وهكذا ولدت معادلة سرطانية شيطانية: فمن جهة تستخدم أمريكا أطروحة الخطر الإيراني لضمان دعم الرأي العام الأمريكي والأوروبي لها مع أنه خطر وهمي، لكنها، من جهة ثانية هي الداعم الرئيس للتوسع الإيراني في نشر الفتن الطائفية مع أنه خطر حقيقي وقاتل بالنسبة إلى العرب والمسلمين كافة؛ لأن هذا الدور ينفذ ما يخدم أمريكا والكيان الصهيوني[٤].

لقد سئم كل من يتابع الملف النووي الإيراني ومعارضة واشنطن له، من تكرار الأسطوانات المشروخة من التعنت والرفض والدلع الإيراني، والصبر

الأمريكي المنقطع النظير الذي ضرب أروع الأمثلة، يذكرنا بصبر سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، وكأننا نخال أحيانًا أن الهدف من كل الحرب الإعلامية الدائرة، إنما هو إقناع الناس أن إيران لا تزال على ولائها وعهدها الذي روجت له في معاداة الشيطان الأكبر، على الرغم من أن الأفعال تثبت أن الشيطان الأكبر ما هو إلا الحليف الأكبر، والخل الوفي، في زمن عزّ فيه الوفاء والخلة.

فوقوف إيران في كل خندق تتمترس فيه واشنطن، إشارة ينبغي تحليلها وفهمها، وتجلى ذلك في أفغانستان، إذ لم تعترف طهران بحكومة (طالبان)، في حين دعمت وساندت على الفور الحكومة الأفغانية التي جاءت مع الاحتلال الأمريكي.

أما الموقف الإيراني في العراق، فإنه كان واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، ولا يحتاج إلى محاولة النظر والاجتهاد من أصغر طفل.

لقد أعلنت طهران وتعلن صباح مساء أن لديها العشرات من قادة وعناصر تنظيم القاعدة، ولم نسمع مرة واحدة أن أمريكا طالبتها بتسليم أحد منهم للتحقيق معهم، في حين تطالب باكستان بتسليمها حتى لو تم اعتقال دجاجة يعتقد أنها مصابة بإنفلونزا القاعدة وطالبان(٥).

نشرت الصحف البريطانية عام ٢٠٠٦م، تقريراً استخباراتيًا خطيراً، ترجمته ونشرته بعد ذلك مجلة البلاغ، عدد ١٧٠٨، في رجب ١٤٢٧هـ- أغسطس ٢٠٠٦م.

يوضح التقرير خفايا ما جرى، ويجري في منطقة الشرق الأوسط، ويذكر أنه عقب حادثة هجوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، حصلت اتصالات بين

الجهات العليا في إيران والولايات المتحدة الأمريكية، حيث قام وفد إيراني حكومي بمقابلة الرئيس الأمريكي وتعزيته على الحادث، وقام الإيرانيون بطرح عرض تحالف وتبادل مصالح في منطقة الشرق الأوسط مع أمريكا، خاصة أن الشيعة مضطهدون ومهددون من قبل الإرهابيين السنة، وأن الشيعة لا يؤمنون بالجهاد أبدًا كما في عقيدتهم إلا بخروج المهدي، فمثلاً في أفغانستان تم دحر الشيعة إلى الشمال وتهميشهم، وهناك تهديد من قبل «طالبان» السنية الإرهابية لإيران خاصة أن (طالبان) والمجاهدين قد أصبحوا يمثلون دولة سنية إرهابية كبرى، وبالنسبة إلى العراق، فإن الشيعة أيضًا مضطهدون ومحاربون من قبل صدام حسين وحكومته السنية وما زال يمثل تهديداً لإيران، خاصة أن إيران تعتقد أن نظام صدام يؤدي عناصر تنظيم القاعدة، وكذلك الحال في لبنان، فإن الشيعة مهمشون، وليس لهم حقوق هناك وإلا ما طالبوا إسرائيل بمزارع شبعا التي لا تكاد تذكر، وكذلك الحال في دول أخرى.

وقد اشترطت إيران في ذلك التحالف شروطاً عدة على أمريكا، من ضمنها أن تمكنها أمريكا من الحكم في أفغانستان والعراق ولبنان وسورية والبحرين، وأيضاً اشترطوا ألا تتعرض أمريكا للمنظمات الشيعية حول العالم وعدم اتهامها بالإرهاب وعدم تجميد أرصدتها، ومن ضمن تلك المنظمات (حزب الله) في لبنان، وهذا فعلاً ما تحقق، حيث تم تجميد أرصدة جميع المنظمات الإسلامية السنية وشطبها من الوجود عبر التعاون الدولي مع الدول المستضيفة لتلك المنظمات، وبقيت فقط المنظمات الشيعية ومن ضمنها (حزب الله) على الرغم من قوته وتهديده المعلن دوماً للحليف الإستراتيجي لأمريكا (إسرائيل)، حتى إن (حزب الله) استطاع أن يفتتح قناة خاصة به

وبموافقة أمريكية وبوساطة إيرانية، وبعد هذا كله، فإن إيران نبهت أمريكا إلى نقطة مهمة جدًّا في قوة تأثيرها في هذا التحالف، وهي أن الشيعة في أي مكان وأي أرض لهم ولاء وطاعة عمياء للأئمة والمراجع الشيعية في إيران، وينفذون أوامرهم وتوصياتهم دون أي تردد من منطلق ديني عقدي شيعي، ويستفاد من ذلك أن أمريكا إذا قررت غزو أي أرض يوجد بها شيعة، فإن إيران ستسهل لأمريكا تلك المهمة عبر توجيهاتها لأتباعها المطيعين من الشيعة في أفغانستان أو العراق أو لبنان أو سورية أو البحرين أو السعودية.

وعند رغبة أمريكا في غزو أفغانستان، فإن التنسيق سيتم مع شيعة أفغانستان في الشمال، ولن يذعن الشيعة هناك لأمريكا إلا بتوجيه من مرجعياتهم في إيران، وهذا ما حصل، وقد تابع العالم تلك الأحداث بكل وضوح ورأى كيف تولى حزب الشمال الشيعي القتال نيابة عن الأمريكان، وقد قام الأمريكان بمدهم بالسلاح والمال وتغطيتهم بالضربات الجوية لصفوف الطالبان. وكذلك الحال في العراق، فإن الشيعة هناك ذوو تعداد كبير للغاية، ولن يذعنوا لأمريكا إلا بتوجيه من مرجعياتهم في إيران، وهذا ما حصل، وتسبب في انهيار سريع للجيش العراقي بسبب خيانات الشيعة للحكومة وتحالفهم مع الأمريكان في ضرب الجيش من الخلف ونشر الإشاعات والمعلومات المغلوطة في أوساط الجيش، وذلك سهل وعجل بالاحتلال الأمريكي، وقد أوفت أمريكا لإيران، ومكنت الشيعة من الإمساك بالحكم هناك كما فعلت في أفغانستان أيضاً، وقد اشترط الأمريكان أن يكون هناك إشراف أمريكي مباشر لضمان عدم الغدر، وهذا قائم أيضاً في أفغانستان والعراق حاليًّا.

وكشف الكاتب الأمريكي (تريتا بارسي) حقائق مثيرة حول العلاقات والاتصالات السرية بين إيران وأمريكا التي تتم خلف الكواليس، وشرح الآليات

وطرق الاتصال والتواصل بين الطرفين، التي تبدو ملتهبة على السطح ودافئة خلف الستار في سبيل تحقيق المصلحة المشتركة التي لا تعكسها الشعارات والخطابات والتصريحات النارية بينهم.

وقال (تريتا بارسي) أستاذ العلاقات الدولية في جامعة (جون هوبكينز) في كتابه (التحالف الغادر: التعاملات السريّة بين إسرائيل وإيران والولايات المتّحدة الأمريكية): إنّ المسؤولين الإيرانيين وجدوا أنّ الفرصة الوحيدة لكسب الإدارة الأمريكية تكمن في تقديم مساعدة أكبر وأهم لها في غزو العراق عام ٢٠٠٣م عبر الاستجابة لما تحتاج إليه، مقابل ما ستطلبه إيران منها، على أمل أن يؤدي ذلك إلى عقد صفقة متكاملة تعود العلاقات الطبيعية بموجبها بين البلدين، وتنتهي مخاوف الطرفين. وقد أشرنا إلى ما جاء في هذا الكتاب في الفصل السابق.

يتساءل الكاتب الأمريكي جورج فريدمان: (هل تعرفون ما هو أهم حدث عالمي في بداية القرن الحادي والعشرين بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ إنه التحالف الأمريكي الإيراني).

لا نعتقد أن الباحث الأمريكي قال هذا الكلام جزافاً أو لمجرد الإثارة الإعلامية. فالحقائق على الأرض صارخة جدًّا، وتدعم نظريته، على الرغم من كل التهويل الإعلامي حول إمكانية التصادم بين واشنطن وطهران.

وكي لا نبقى في إطار القيل والقال، فلننظر إلى الوقائع على الأرض. لقد غزت أمريكا العراق بتعاون وتنسيق لا يخفى على أحد مع الأحزاب العراقية المرتبطة بإيران عضويًا، كالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي

ولد وترعرع في طهران، وحزب الدعوة وحتى حزب الجلبي وغيره من الجماعات المرتبطة بإيران منذ ما قبل الحرب العراقية - الإيرانية.

قد يقول البعض: من حق الأكثرية الشيعية في العراق أن تستلم مقاليد الحكم في البلاد بعد تهميشها لأكثر منذ ثمانين عاماً، وقد يكون ذلك صحيحًا ومن حقها. وقد يقول آخر: لقد التقت المصالح بين شيعة العراق والأمريكيين. وهذا ممكن ولا غبار عليه. لكن لن لا يقول لنا أحد: إن إيران وأمريكا في حالة عداء مستحكم، وإن صواريخ «شهاب» ستدك الحاملات الأمريكية في عرض البحر.

لقد دخلت إيران من خلال الأحزاب العراقية المرتبطة بها أيديولوجيًا وروحيًا في تحالف صارخ مع الأمريكان. ومن مظاهر هذا التحالف أن الأحزاب الممسكة بالسلطة العراقية ترفض رفضاً قاطعاً السماح بإطلاق رصاصة واحدة على القوات الأمريكية، من منطلق أنها قوات حليفة وصديقة. ولو أن المحسوبين على إيران قاوموا الأمريكيين عند دخولهم العراق لتغيرت الموازين بين ليلة وضحاها، ولما استتب الأمر للقوات الأمريكية حتى هذا الوقت. وقد اعترف الإستراتيجي والسياسي الأمريكي الشهير هنري كسنجر في مقال له في صحيفة عربية (بأن الوجود العسكري الأمريكي في العراق لن يستمر أسبوعين فيما لو أطلقت المرجعيات المرتبطة بإيران فتاوى بمجرد التظاهر ضد الأمريكيين)، فما بالك بمقاتلتهم؟

وقد لاحظنا أن فتاوى المرجعيات الشيعية في إيران والعراق لا تصدر إلا لكبح جماح الشعب العراقي وعدم التصدي للمحتلين. وقد التزم حلفاء إيران حتى هذه اللحظة بمسالمة القوات الأمريكية، بل القتال إلى صفها. وكم

توقع بعض المخدوعين صدور فتاوى شيعية عراقية ضد الأمريكيين أيام العدوان الإسرائيلي على لبنان. لكن توقعاتهم خابت شر خيبة، لعدم رؤيتهم الواضحة لطبيعة المصالح بين إيران والأمريكيين في المنطقة. لقد قال الخميني ذات مرة: (إذا رضيت عنك أمريكا فاتهم نفسك)، لكن أمريكا لم ترضَ عن إيران فحسب، بل مكنتها من العراق! فهل يا ترى يستطيع الإيرانيون أن يوفوا فضل العم سام (ملك الروم) الذي أعاد مجدهم التليد دون أن يضربوا طلقة واحدة أو يضحوا بجندي واحد؟[٦].

الهوامش:

(١) صلاح المختار، الصلة الأمريكية-الإيرانية: زواج متعة أم زواج كاثوليكي؟ الوطن الدولية ١٢مارس٢٠١٠م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صلاح المختار، وأخيراً أسدل الستار على أسطورة الصراع الأمريكي- الإيراني، شبكة البصرة، ٢٥/ ٩ / ٢٠٠٩م.

(٤) المرجع السابق.

(٥) أحمد موفق زيدان، التواطؤ الأمريكي الإيراني في المنطقة، الشرق القطرية - ٢٠٠٦/٣/٢٩م.

(٦) فيصل القاسم، التحالف الإيراني - الأمريكي، موقع الحوار المتمدن، العدد ١٧٤٠، ٢٠٠٦/١١/٢٠م.



الباب الثامن

الأمة وقضايا إيران الخارجية



الفصل الخامس والعشرون

النووي الإيراني لن يخدم الأمة

شكل إعلان إيران عن دخولها مرحلة متقدمة في سعيها للحصول على الطاقة النووية للاستخدامات السلمية، إرباكاً لرد الفعل العربي، سواءً على المستوى الشعبي أو على المستوى الرسمي.

فهناك قطاع شعبي كبير في العالم العربي، ومعه كتاب ومثقفون، يرى أن من حق إيران أن تمتلك السلاح النووي؛ لأن في هذا إضافة لقوة المسلمين، التي عن طريقها يمكن تحييد إمكانات وقدرات الأعداء، وعلى رأسهم إمكانات العدو الصهيوني.

ويساند هؤلاء الموقف الإيراني على اعتبار أن إيران دولة إسلامية، فلماذا لا يسمح لها بامتلاك السلاح النووي، في الوقت الذي يتم السماح لدولة الكيان الصهيوني بامتلاك ترسانة نووية تهدد العرب والمسلمين.

ويعتقد هؤلاء أن القنبلة النووية الإيرانية سترعب الصهاينة، وستعيد توازن القوى في المنطقة العربية، وستجعل الصهاينة يفكرون جيداً قبل استهداف الداخل الفلسطيني واللبناني أو أي دولة عربية.

ويقول هؤلاء: إن إيران لها مواقف مسبقة في دعم الجهاد الفلسطيني بالمال والسلاح، وكذلك دعم (حزب الله) في صراعه مع الصهاينة، فلماذا نستكثر عليها أن تكون قنبلتها النووية في مصلحة القضايا العربية والإسلامية.

وقد بنى هؤلاء موقفهم على أساس أن كل ما هو ضد الكيان الصهيوني فإنهم يؤيدونه ويدعمونه ويقفون بجانبه؛ لأن أي نجاح لإيران سيعدّ خصماً من إمكانات بني صهيون ومن يواليهم ويدعمهم بكل أشكال الدعم.

ولهؤلاء نقول: إنه ليس بمجرد صخب الشعارات وجزالة الجمل الإنشائية، لا نلتفت إلى من يهدد أمننا ومن يدخل مع الأمريكيين في صفقة تاريخية على حسابنا وعلى حساب قضايانا الأمنية. ونهدي لهؤلاء الموقف الإيراني ما يحدث في العراق، حيث لم يعد خافياً الدعم غير المحدود الذي يقدمه الإيرانيون لشيعة العراق في مواجهة السنة.

فغالبية، إن لم يكن كل، المليشيات العراقية الشيعية التي ذبحت من أهل السنة مئات الآلاف والتي هجرت منهم الملايين.. كلها تأسست في إيران، ودربها إيرانيون، وتسلحت بأسلحة إيرانية، وتمول بتمويل إيراني. ونهدي لهؤلاء التحليلات الموثقة المنشورة في كبريات الصحف العالمية التي تؤكد أن الجنوب العراقي، الذي يسكنه الشيعة، قد بات مرتعاً خصباً ومأوى لعشرات الآلاف من عناصر المخابرات الإيرانية.

ونهدي هؤلاء أيضاً التحليلات الرصينة التي انتشرت في كل أنحاء العالم والتي فضحت أهداف إيران وشيعة العراق في إقامة الهلال الشيعي، الذي يبدأ من إيران، ويمر بالعراق، ولبنان، ويتصل بشكل أو آخر بالشيعة في دول الخليج.

ونقول لهؤلاء: إن الدور الخطير الذي تؤديه إيران في العراق الآن بات نموذجاً لما يمكن أن يكون بالنسبة إلى كثير من الدول العربية المجاورة والبعيدة.

ونقول لهم كذلك إن إيران - لو نجحت نوويًّا - فلن تقبل بأقل من أن تكون رقماً رئيساً في القضية الفلسطينية وفي العراق ولبنان ولاعباً أساسيًّا في معادلات المنطقة كلها من تطوان في الغرب وحتى البصرة في الشرق.

إن هدف الإيرانيين النووي ليس إسرائيل، وإنما فرض أنفسهم على هذه المنطقة بالقوة، وهو أيضاً تحويل الدول العربية إلى مجرد أجرام صغيرة تدور بحركة منضبطة حول الفلك الإيراني الذي من المستبعد أن يتخذ مسارًا تصادميًّا مع الفلك الإسرائيلي.

وفي هذا الاتجاه، فإن هناك من الكتاب والمحللين من يعتقد أن الخطر النووي الإيراني ربما أصبح أكبر من الخطر النووي الصهيوني على الأمن القومي العربي، لأسباب قد يكون من بينها الاعتقاد السائد أن الصراع مع إسرائيل قد رسم إطاره، وإن لم يحسم في الواقع، وإن المعادلة السياسية مستقرة في تل أبيب، في حين لم تجد الملفات الإيرانية - العربية المعقدة طريقها للحل، أي مشكلة الجزر الإماراتية الثلاث والمشكلات المتولدة عن الوضع العراقي الجديد.

ويرى الغالبية العظمى في الشارع العربي أن العرب يجب أن يمتلكوا مشروعاً نوويًّا يردع المشروع النووي الصهيوني، ويغل يده في استباحة الأرض العربية والدم العربي الذي سال أنهاراً على يد هؤلاء الصهاينة.

إلا إن هناك قطاعاً آخر لا يستهان به يرى أن المشروع النووي العربي المنتظر يجب أن يكون في الأساس لردع التحدي النووي الإيراني الجديد،

بعد أن أكدت إيران بسلوكها في العراق أن لها أطماعاً كبيرة في البلاد العربية، لا تقل عن الأطماع الصهيونية، إن لم تتفوق عليها.

ومسألة امتلاك العرب للسلاح المتقدم، ومنه طبعاً السلاح النووي، مسألة بشر بها كثير من المثقفين العرب بعد انتهاء الحقبة الاستعمارية، ومع الانفتاح على الغرب، والاحتكاك بالثقافة الغربية. وقد قرر هؤلاء أن المسافة الفاصلة بين المسلمين والغرب تفسر بالتفاوت في حجم ونوعية القدرات التقنية الحربية وليس بالتفاوت الثقافي أو العقدي، ومن ثم فإن الإصلاح المطلوب يتمثل في السعي لامتلاك هذه الصناعات المتطورة.

وبعد احتلال فلسطين واندلاع الصراع العربي الإسرائيلي، ظهرت نظرية الأمن القومي التي بلورتها الأنظمة القومية الثورية على هذا المفهوم ذاته.

لكن مع تغير إستراتيجية إدارة الصراع مع إسرائيل التي أصبحت تراهن على مسار التسوية السلمية مع الدولة العبرية لانتزاع جزء من الحقوق المسلوبة في إطار صفقة (الأرض مقابل السلام) التي تحولت إلى صفقة (التطبيع الكامل مقابل الانسحاب الكامل)، فإن هذه النظرية التقليدية المطالبة بامتلاك التقنيات العسكرية المتطورة بدأت تضعف في مواجهة نظريات لا تحبذ ذلك. وبدأ الحديث عن أن الخوف من البرنامج النووي الإيراني أكبر من الخوف من البرنامج النووي الإسرائيلي.

لكن البعض لا يحبذ التكالب على السلاح المتقدم، ومنه السلاح النووي، لاعتبارات عدة منها أن الصناعة العسكرية تظل هشة ومحدودة الأثر إذا لم تستند لبنية صناعية تقنية كاملة قائمة على منظومة إنتاج علمي وتقني

صلب. فدون هذه البنية، تتحول الصناعة الحربية إلى مجرد أدوات منتزعة من سياقها الموضوعي، فهي في الغالب مجرد تطوير هش لأسلحة مستوردة، بتكاليف باهظة ترهق الاقتصاديات الوطنية الضعيفة، وتعزز موقع المؤسسة العسكرية في الحقل السياسي، ما يؤدي إلى غلق منافذ الانفتاح السياسي بذريعة الدفاع عن الأمن القومي.

ومن هذه الاعتبارات أيضًا أنه لا يمكن اختزال مقتضيات الأمن القومي في التقنيات العسكرية، بل إن هذه الأدوات لا تشكل سوى جانب محدود من متطلبات هذا الأمن التي تشمل مرتكزات محورية من قبيل فاعلية النظام السياسي وصلابة شرعيته، ومستوى النمو الاجتماعي والاقتصادي، ومنظومة الإنتاج العلمي والتقني.

وقد أدى امتلاك طهران التقنية اللازمة لإنتاج طاقة نووية إلى انتقال إيران من شريحة الدول الإقليمية المتوسطة القوة إلى ما يمكن تسميته الدول الإقليمية فائقة القوة، وذلك يستلزم البحث في وجهة النظر العربية تجاه هذا الوضع الجديد في المنطقة، وكيفية التعامل مع هذه الدولة الإقليمية الكبرى في المنطقة.

ويجب الإقرار بأن الرؤية العربية للجار الإيراني يشوبها غموض وضبابية إلي حد بعيد، نتيجة لاعتبارات متعددة، أبرزها التباين الواضح بين الحسابات القطرية والقومية، ليس في التعامل العربي مع إيران وحسب، لكن في التعامل العربي مع قضايا وموضوعات وأطراف ذات أهمية قصوى للدول العربية، فرادى وجماعة.

إن الإدارة العربية للعلاقة مع إيران تنطلق في الأساس من رؤية وحسابات كل دولة لمصالحها وأهدافها وتوازناتها مع إيران بشكل منفرد، وليس من منطلق جماعي قومي يعتمد الإطار العربي مرجعية وخطّاً حاكماً لتلك العلاقة.

العرب الآن ليس لهم كلمة ولا أحد يسمع كلمتهم أو يضع في الحسبان مواقفهم، ولا أحد يهتم إن رضوا أو سخطوا، فالأمر سيان ولا فرق بين هذا وذاك؛ لأنهم لا بد في النهاية أن يرضخوا وينفذوا ما يملى عليهم، وأن يخضعوا في كل الأحوال ليطبقوا وبصورة مطلقة كل ما يتم تقريره بدلاً من أن يكونوا طرفًا في صناعة القرار في المنظمات والمحافل الدولية.

وعلى الرغم من كون العرب يشكلون قوة عددية بالنظر إلى كونهم يتوزعون على ٢٢ دولة، ويشكلون ٢٨٠ مليون نسمة، إلا أن كل هذا العدد الكبير لم يشفع لهم، ولم يضعهم في مكانة معتبرة تسمح لهم بالتحدي والمواجهة والرفض واتخاذ مواقف ساخنة وقرارات عملية جريئة والخروج من دائرة الشجب والتنديد والاستنكار، وما شابه ذلك.

ولننظر إلى كوريا الشمالية التي تملك السلاح النووي، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها أو استفزازها، وحتى إن تجرأ أحدهم وفتح باب الحوار معها، فإنه يكون باحترام، وتكون فيه كوريا الشمالية في مركز قوة تتحدث بلغة الند للند، وتفرض شروطها، وترفض كل ما تراه غير ملائم لها. وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية مراراً أن تجبر كوريا على التخلي عن برنامجها النووي، لكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً ولم تستطع أمريكا أن تفعل شيئاً لتظل كوريا الشمالية تطبق سياساتها الداخلية بكل حرية، وتواصل برنامجها النووي دون اكتراث أو خوف.

ولننظر أيضاً إلى إسرائيل، وكيف تتعامل مع العالم كله، والعرب خصوصاً، بكل عنجهية وتكبر واستعلاء، وهي تدوس على كل القرارات الأممية، وتضرب بالقوانين عرض الحائط، مطبقة ما تراه مناسباً لها، ولا أحد يجرؤ على جرح مشاعرها أو تأنيبها، ولو كانت على خطأ، لماذا كل هذا؟ لأنها وبكل بساطة تملك السلاح النووي الذي منحها القوة، خاصة أنه لا أحد من جيرانها في الشرق الأوسط عموماً يملك مثل هذا السلاح.

إذن من هنا ندرك أن امتلاك السلاح النووي أصبح ضرورة ملحة بالنسبة إلى العرب وأمراً لا بد منه اليوم قبل الغد؛ حتى يواكبوا المتغيرات الدولية الخطيرة خاصة أن العرب يملكون كل الإمكانيات التي تسمح لهم بذلك، أهمها المال والعقل، ولا شيء يقف في وجه العرب لدخول النادي النووي إلا اتخاذ خطوات عملية والتخلي عن الخوف والتردد لكي يرفع المواطن العربي رأسه، ويشعر بالثقة في النفس والاعتزاز بالانتماء إلى الصف العربي.

لو امتلك العرب السلاح النووي، فإن الوضع سيتغير رأساً على عقب، ويرتفع شأنهم، وتصبح كلمتهم مسموعة ورأيهم له مكانة، ولا أحد يفكر في الاقتراب منهم بما في ذلك إسرائيل، بل سيستعيد العرب ثقتهم في النفس ومجدهم السابق، ويتحولون إلى أناس يتكلمون من مركز قوة بدلاً من لغة الضعف والرضوخ.

أما رؤيتنا للبرنامج النووي الإيراني فهي أنه مثل البرنامج النووي الإسرائيلي، هما على درب واحد؛ لأننا نختلف معهم في العقيدة كما نختلف مع اليهود، فاليهود يبيحون قتل أطفال المسلمين، والشيعة كذلك في كتبهم وعقائدهم يبيحون قتل أطفال السنة، ومن نواقض الوضوء عند الشيعة لمس المسلم السني، أما لعق الخنزير فيكفيه الغسل!

حينما يسأل اليهود عن أشرفهم يقولون: المؤمنون بموسى والذين أحاطوا به، وحينما يسأل النصارى عن أفضلهم يقولون: الحواريون والذين أحاطوا بعيسى، لكن لو سألنا الشيعة: من ألعن خلق الله عندكم؟ لقالوا: تلاميذ محمد ﷺ وزوجاته. كل الصحابة والخلفاء عندهم ملاعين وفجرة ومنافقون إلا علي بن أبي طالب وعياله والعباس وعياله.

إن الشيعة يطعنون في القرآن الكريم، وأعداء القرآن لا يجدون مرجعاً يدعمهم إلا كتب الشيعة. وعند الشيعة كتاب (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب) للطبارسي، وهو يطعن في القرآن، ويصفه بالتزوير والتزييف.

الإيمان الشيعي يقوم على البذاءة والتجريح وهتك الأعراض والحرمات. فالمعروف علميًا في العالم كله أن الإيمان بالله حينما يستقر في القلب، فإنه يكسب صاحبه أدبًا جمًّا، ويحسن من أخلاقه، ويرقي من سلوكه، ويورثه التواضع واحترام الناس، سواء اتفق معهم أو اختلف. وما يفعله الشيعة إنما هو نتيجة ضعف إيمان ناشئ عن فساد في العقيدة.

وكل هذه الأمور العقديَّة لها بطبيعة الحال ترجمة في أرض الواقع بالنسبة إلى علاقة الشيعة بالسنة، وهي مواقف وسياسات ليست نظرية، وإنما رأيناها مطبقة في الواقع.

إيران لم تترفع عن الخصومات، ولم تضع عزة لا إله إلا الله فوق أي اعتبار، وإنما ما حدث، ويحدث طوال تاريخ الشيعة هو مزيد من تمزيق الأمة وبث الحقد والتباغض عن طريق لعن الخلفاء الراشدين، والطعن في أمهات المؤمنين.

استيلاء شيعة العراق، بعد احتلال بلاد الرافدين وبمساعدة كاملة من إيران، على مساجد السنة، دليل على تنفيس عن الحقد الدفين في قلوبهم نحو أهل السنة وعلى فساد العقيدة... فبيوت العبادة للخصوم والأعداء يجب أن تكون خارجة عن دائرة الأحقاد.

إن إيران تنطلق من رؤيتها لدورها في المنطقة العربية على أساس إمبراطوري أو شبيه بالإمبراطوري من خلال مشروع الهلال الشيعي، فقد بدأت في التفكير في هذا المشروع التوسعي على حساب الدول العربية مع نجاح الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م.. والثورة في بدايتها أعلنت أنها ثورة إسلامية وطرحت أطروحات سياسية وفكرية وثقافية غير طائفية لتسوق نفسها في العالم الإسلامي.. ولكن بمرور السنين ظهرت الناحية المذهبية واضحة. فالملمح المذهبي كان مستتراً وراء معارك الثورة الإيرانية، ولم يظهره الإيرانيون إلا بعد أن ثبتت الثورة أقدامها وبعد الهدوء على الساحة الإيرانية، وبعد أن خفت حدة المعارك مع الولايات المتحدة وأوروبا.

هناك حلم فارسي إمبراطوري قديم كان الشاه يجسده بشكل مباشر، ويقوم هذا الحلم على محاولة بناء إمبراطورية. لكن كانت هناك أمور عدة تحول دون تحقيق هذا الحلم، منها أنه كانت هناك دولة كبرى (هي الاتحاد السوفيتي) على حدود إيران، وإن المنطقة العربية كانت متماسكة إلى حد ما، إضافة إلى وجود ثلاث دول قوية، ويحسب لها حساب في المنطقة، وهي تركيا، ومصر، وإسرائيل.. وكان الحلم الفارسي يصطدم بهذه الدول.

ومع قيام الثورة الإسلامية في إيران ظلت هذه الأحلام تعمل تحت السطح.. فالقادة والمديرون وجهاز الدولة الأساسي لديه هذا الطموح، وكنا نأمل أن

تختفي الفكرة الإمبراطورية الفارسية مع سيادة النموذج الإسلامي.. لكن الملاحظ أن المصلحة الوطنية الفارسية تفوقت على الاتجاه الإسلامي.

ولو نجحت إيران في إتمام برنامجها النووي، وامتلكت القنبلة النووية، فسوف تستخدم ذلك في دعم مشروعها الطائفي وفي الضغط على الدول العربية التي بها وجود شيعي لتحقيق مكاسب كبيرة للأقليات الشيعية.

وخلاصة الأمر، إننا نتوقع تفاهماً أمريكيًّا مع إيران على حساب العرب (الأقوياء يتفاهمون على حساب الضعفاء) كما هو ثابت ومقرر في العلاقات الدولية.

وهكذا فإن من اعتقد أنّ السلاح النووي الإيراني سيكون في صالح العرب إنما هو واهم بالتأكيد، فالنووي الإيراني أخطر من النووي الإسرائيلي، فعلى الرغم من امتلاك الأخيرة له إلا إنّها هزمت في حرب عام ١٩٧٣م ولم تستطع استخدامه ضدّ العرب، في حين يتم تجاهل الأطماع الإيرانية في المنطقة منذ ١٣٠٠ سنة!

إن امتلاك إيران للسلاح النووي يعد أكبر تهديد للأمن القومي العربي - إنْ بقي شيء منه - فإيران ترى نفسها الأحق بقيادة المنطقة في وجه العرب والأتراك (في الخليج العربي والقوقاز)، وإيران لا تزال تحتل أراضي عربية شأنها شأن الأمريكيين والإسرائيليين، وكون الأولويات تفرض على العرب التأكيد على المساعي السلمية في حل المسألة إلا أن إيران تأبى دائماً الحلول السلمية والوساطات والمفاوضات.

لقد نشرت صحيفة جمهوري إسلامي، الإيرانية في مقالها الافتتاحي في عدد ٧-٣-٢٠٠٤م أن الإمارات كانت جزءاً من الأراضي الإيرانية

فيما مضى، وذكرت الصحيفة هذه الادعاءات في سياق انتقادها لمطالب الإمارات استرجاع الجزر الثلاث التي احتلتها إيران، وطرحها المستمر لهذه القضية، واتهمت الصحيفة دولة الإمارات بتنفيذ رغبات القوى المهيمنة في العالم لإثارة التوتر في المنطقة، وطالبت حكامها بأخذ العبر والدروس من صدام حسين الذي كان يطالب أيضاً بدوره بتحرير الجزر الثلاث، وهاجمت الصحيفة أيضاً بعض قادة الدول العربية، ووصفتهم بالزعماء العرب الرجعيين، وادعت أنهم لم يدركوا أن عهد الكلام الفارغ، ومنح الجباية للقوى الشيطانية في العالم العربي قد ولّى.

وتصرّ إيران على استعمال القوّة في مواجهة أي عقبة تحصل في علاقاتها مع العرب، فقد رفضت في ٢٠٠٤/١٢/٦م عرضاً قدمه الرئيس الإماراتي الجديد الشيخ خليفة بن زايد آل سلطان باللجوء إلى الحوار أو التحكيم الدولي لحل النزاع بين البلدين حول الجزر، وقال المتحدث باسم الخارجية الإيرانية حميد رضا آصفي: (سبق، وقلنا: إن هذه الجزر تابعة، وستبقي مستقبلاً للسيادة الإيرانية دون أدنى شك). وقامت إيران بمنع توزيع مجلة (ناشينال جيوغرافيك) العلمية في الأسواق الإيرانية، وصادرت جميع النسخ التابعة لها، ومنعت صحافييها وكوادرها من دخول إيران، وذلك لأنّ المجلّة أضافت اسم (الخليج العربي) إلى جانب (الخليج الفارسي)!

وإن إيران هدّدت بأنّها ستقاطع دورة الألعاب الآسيوية التي أقيمت عام ٢٠٠٦م في الدوحة إذا استخدم المنظمون كلمة (الخليج العربي) بدلاً من (الخليج الفارسي)، بحسب ما ذكر التلفزيون الرسمي الإيراني، ونقل

التلفزيون عن نائب الرئيس الإيراني، ورئيس المنظمة الإيرانية للتربية البدنية، محسن مير علي زاده قوله: إذا زوروا الاسم التاريخي للخليج الفارسي خلال الألعاب الآسيوية عام ٢٠٠٦م ستقاطع إيران بالتأكيد هذه الألعاب.

وأكد أن: (كلمة الخليج العربي استخدمت بدلاً من الخليج الفارسي) في كتيبات أعدها المسؤولون الرياضيون في قطر، وأكدت السلطات الإيرانية أكثر من مرة في الأسابيع الماضية أن استخدام كلمة (الخليج العربي) هو (مؤامرة من إعداد الصهاينة).

الفصل السادس والعشرون

الموقف الإسلامي من المواجهة الإيرانية الأمريكية

منذ أن سقطت بغداد في يد الاحتلال الأمريكي، وسقط معها نظام الرئيس صدام حسين، قوي سلطان الشيعة، الذين يحملون ثأراً تاريخيًّا ضد أهل السنة من يوم أن زالت دولهم المتطرفة، مثل القرامطة والعبيديين، الذين نشروا أعاجيب باطلهم بين المسلمين، وحينما قوي سلطانهم، وسيطروا على العراق مرة أخرى ساموا أهل السنة في بلاد الرافدين سوء العذاب.

رأينا إيران تدعم شيعة العراق لينفس الجميع عن حقده التاريخي الذي طفح من قلوب القوم وعقولهم ونفوسهم، وإذا كانت الآلة الإعلامية الشيعية قد انطلقت في العراق – بمساعدة كاملة من إيران – بعد سقوط صدام حسين واحتلال العراق، لتفرغ ما خزنته داخلها عبر قرون التاريخ الإسلامي ضد السنة – الذين هم ٩٠٪ من أمة محمد ﷺ – لتعمل فيهم سبًّا وتجريحاً وتخويناً، ثم تأتي الآلة العسكرية – بمساعدة الأمريكان النصارى والإيرانيين الشيعة – لتعمل في سنة العراق تقتيلاً ما سمعت عنه البشرية من قبل، حيث ثقب الرؤوس بالمثاقيب الكهربائية.

حينما رأت الأمة ذلك في كل البلاد الإسلامية تألمت، واكتشفت وعرفت الحق من الباطل، وعرفت مدى صدق ما يردده البعض من خطابات ملتبسة ومزيفة.

عندها تساءل الناس: ما حكم هؤلاء الذين يفعلون بأهل السنة ما لم يفعله بهم الأمريكان والبريطانيون؟

ومع ظهور الأزمات بين إيران والولايات المتحدة، أخذ الناس يسألون عن الموقف الذي ينبغي أن تتخذه الأمة تجاه الشيعة في أزماتهم وحروبهم (لو وقعت) مع أمريكا والغرب؟

وإذا كنا لا نستطيع أن نمنع الأمة من الغضب والكراهية لإيران نتيجة تشجيعها للمشروع الشيعي في العراق، فإن هذا الموقف من إيران يجب ألا ينسحب على الموقف من الشيعة العرب، فالموقف القومي والإسلامي الرسمي والعام يُعدّ الشيعة العرب جزءاً من الأمة العربية، كغيرهم من الطوائف والفئات التي تكوّن الأمة العربية، وهو يرفض أن يكون مع الفتنة والتفتيت.

إذا كان كل ذلك قد حدث، فإن الشريعة الغراء التي يحمل أهل السنة لواءها، لا تأمرنا بالرد على الحقد والهمجية والإجرام بمثله، وإنما نحق الحق ونبطل الباطل، وننطلق من نفس الأسس التي انطلق منها رسولنا صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام.

إننا يجب أن نسأل: ما طبيعة الصراع بين إيران وأمريكا؟ هل هو صراع بين قوى التحرر وقوى الإمبريالية مثلاً، أم أنه صراع على النفوذ والمجال الحيوي بين مشروعي هيمنة لا يختلفان من حيث المضمون؟

لو كان النظام الإيراني الحالي يحمل مشروعاً تحررياً نهضوياً، ولو كان يطبق برنامجاً قائماً على تحرر الشعوب الإيرانية، (إيران تتألف من قوميات عدة: الفرس (٥١٪) والآذاريون (٢٤٪) والأكراد والعرب والبلوش والتركمان والأرمن وغيرهم)، ولو كان يطرح مشروعاً لتحرر الشعوب من الإمبريالية بدلاً من استبدال هيمنة بأخرى، ولو كان انتصاره لو انتصر مفيداً للأمة العربية موضوعياً، حتى لو كان معادياً للعروبة بشكل صريح لأنها تناقض شروط هيمنتهم على الإقليم، لحق علينا دعمه في مواجهة الولايات المتحدة.

ولكن الموقف الإيراني ليس فيه شيء من ذلك أبداً، فواقعه أنه متكامل بصورة أو بأخرى مع المشروعات التي يخيّل لنا أنه متناقض معها ومواجه لها، فتعامله مع الأمريكان واليهود لم يعد خافياً، كما أوضحنا في أماكن أخرى من هذا الكتاب، وكما في تصريحات رموز إيرانية تعترف بصداقة الشعب الإسرائيلي.

وعليه، فإن الصراع الظاهري بين إيران والولايات المتحدة، ليس صراعاً مبدئياً منطلقه العقيدة والدين، ولكنه صراع المصالح.

فإيران تريد أن تكون اللاعب الإقليمي الأول في المنطقة، وهو دور يتعارض مع الدور الإسرائيلي الذي يدعمه الغرب بقيادة الولايات المتحدة.

إن النظام الإيراني لم يترك لنا عملياً أي وسيلة لتأييده؛ لأنه يطرح عملياً التبعية للفرس مقابل التبعية للروم، والمشروع الإيراني في الإقليم هو مشروع هيمنة وتفكيك، فهذه معركة بين الفرس والروم لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

والذي لا يصدق فإن عليه أن ينظر إلى ما يفعله الشيعة في دول الخليج التي بها أقلية شيعية، ويقرأ ما تكتبه هذه الأقليات، ويتعرف على ولائها الحقيقي: هل هو لدولهم التي يقيمون فيها أم لإيران؟

المشروع الإيراني استطاع أن يحقق الإلحاق الكامل والتبعية الكاملة لـ (حزب الله) الشيعي في لبنان ولشيعة العراق، ويسعى جاهداً لتحقيق نجاحات مماثلة في دول الخليج.

والأكثر من ذلك أنه يشن حملة شعواء، ويجند عشرات الآلاف من أهل البلاد العربية بعد أن يغدق عليهم بأمواله، وينفق الملايين لتأسيس المقرات والإصدارات وشراء الذمم من أجل نشر مذهبه المخالف لعقيدة الغالبية العظمى من الأمة.

إننا لا يمكننا، ولن نستطيع، أن ندعم الأمريكان والصهاينة، العدو الرئيس للأمة، ولكننا لن نستطيع أيضاً أن نقف مع النظام الإيراني، الذي لا ينطلق من منطلق الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية، ولكنه يقف موقف الطائفية المذهبية الكارهة للأغلبية السنية، ومن ثم فإننا لا ينبغي أن نؤيد أحد الطرفين ضد الآخر، وإنما هم ظالمون سلطهم الله على بعض لاختلاف مصالحهم وجشعهم.

إن معركة الأمة الأساسية اليوم هي معركة المقاومة العراقية، فإن انتصرت المقاومة وتحرر العراق، ولم تؤدِّ إيران دور المناهض لتحرره، نستطيع عندها أن نغير من موقفنا. أما أعداء المقاومة العراقية، فهم أعداء الأمة بأسرها، والمقاومة العراقية هي المقياس الرئيس الذي يتعين علينا أن نقيس به مواقف

الدول والأفراد، فمن أيدها ونصرها أيدناه ونصرناه، ومن تواطأ عليها وتحالف ضدها استبعدناه من حساباتنا ووقفنا ضده.

إن الحديث عن ضربة جوية مرتقبة تنفذها الولايات المتحدة ضد إيران، أصبح يتردد في وسائل الإعلام.

فهل تقوم هذه الحرب فعلاً؟ وما السيناريوهات المنتظرة من الطرفين؟ وما التصور الثقافي والفكري عن الولايات المتحدة في عقول النخبة الإيرانية الحاكمة؟ وما نقاط التلاقي والابتعاد بين الطرفين؟

سوف نرسم سيناريو وهميًا (مجرد تخيل) لصدام أمريكي إيراني متوقع نتيجة الخلاف على الملف النووي الإيراني، ثم نحاول تصور موقف عربي منطقي ومقنع ومتوازن تجاه المشروع النووي الإيراني من ناحية، وتجاه الشيعة عموماً، وتجاه العدوان الأمريكي المنتظر على إيران، في حالة وقوعه، ونحاول أيضاً توقع آثار نجاح المشروع النووي الإيراني على المنطقة العربية.

أولاً: هل تشن أمريكا حرباً بالفعل على إيران؟

من حيث العموم، من الصعب على واشنطن أن تخوض مواجهة عسكرية مباشرة مع إيران لأسباب عدة:

(١) الكلفة الباهظة التي يمكن أن تدفعها أمريكا في هذه المواجهة بصورة آنية ومستقبلية؛ لأن قواتها المتمركزة في المنطقة لن تكون بمنأى عن اليد الإيرانية التي طالت تلك القوات في مدينة الخبر السعودية عام ١٩٩٦م.

(٢) الكلفة السياسية الغالية، وخاصة بعد السياسات التوريطية للمحافظين الجدد، وبعد أن ملّ الأمريكان من إرسال أبنائهم إلى حروب في مناطق متعددة من العالم، لا يحققون فيها النصر، وإنما يعودون جثثاً في توابيت أو يصابون بعاهات مستديمة أو بأمراض نفسية لا شفاء منها.

(٣) صعوبة تكوين رأي عام وحلف دولي كالذي تشكل إبان حرب العراق الأولى والثانية خاصة مع الرفض الفرنسي والألماني والصيني والروسي لأي مغامرات تضر وتتجاوز مصالحهم في المنطقة.

(٤) تملك إيران أن تصعد من عناء الولايات المتحدة في العراق من خلال تأليب الشيعة ودفعهم إلى القيام بعمليات مواجهة مجهضة للوجود الأمريكي هناك، ومن ثم تقع القوات فريسة بين فكي السنة والشيعة.

(أ) الأسباب التي ترجح إمكانية توجيه ضربة أمريكية لإيران:

(١) لا تريد الولايات المتحدة لهذه المنطقة الحساسة من العالم أن تشهد نوعاً من توازن القوى بينها (إسرائيل) من جهة وبين أي دولة في المنطقة من جهة أخرى، ومن ثم لن تسمح بوجود سلاح نووي في أيدي الموالين لها فضلاً عن غيرهم في الخليج. ويسيطر على الأمريكان خوف حقيقي معزز بخوف غربي عام من أن تمتلك الثورة الإيرانية السلاح النووي، وما يمكن أن يمثله ذلك من تحول في الوضع الإستراتيجي للمنطقة.

(٢) لن تسمح الولايات المتحدة بنوع من اقتسام النفوذ والكعكة الخليجية بينها وبين أي قوة أخرى، سواء كانت عظمى أم إقليمية، ومن ثم

ستشدد من أجل عدم حصول إيران على السلاح النووي، وقد تصل لضرب هذا المشروع من أجل تحقيق هذا الهدف.

(٣) المتاح إعلاميًّا وسياسيًّا أن الإدارات الأمريكية المختلفة منذ قيام الثورة الإيرانية كانت لديها طموحات أيديولوجية للعصف بهذه الثورة، عكستها كثير من كتابات الخبراء الأمريكيين السياسيين والعسكريين.

(٤) الولايات المتحدة فشلت - حتى الآن على الأقل - في عملياتها العسكرية في العراق، وهي تحمل إيران جزءاً من المسؤولية عن الفوضى والعنف والفتنة السارية في بغداد. فإيران من ناحية احتفظت بجسور مالية وتسليحية مع جميع القوى العراقية الشيعية، وظلت سنداً تسليحيًّا وماليًّا وسياسيًّا للقوى الشيعية المختلفة (جيش بدر ومليشيا المهدي وغيرهما) ومن ثم أدت إلى تصلبها في المفاوضات مع القوى السياسية والطائفية الأخرى في العراق ومشاركتها في أعمال العنف والانتقام المتبادل.

(٥) الولايات المتحدة وحلفاؤها باتوا يعتقدون أن إيران أصبحت واحداً من الأسباب الرئيسة لعدم الاستقرار في الشرق الأوسط من خلال تعزيز القوى المناهضة لها مثل (حزب الله) في لبنان الذي شن حرباً بالإنابة عن إيران مع (إسرائيل)، ويريد السيطرة على مفاصل القرار السياسي اللبناني، فضلاً عن التعاون المتنامي مع حركة (حماس) المناهضة للمشروع الصهيوأمريكي في المنطقة، ولا سيما في فلسطين المحتلة، التي يتسم الفريق الآخر في السلطة الفلسطينية بالقدرة على التماهي مع مفردات هذا المشروع، ولا سيما في توقيع معاهدات سلام مع (إسرائيل).

(٦) الولايات المتحدة الأمريكية نمر جريح، ولذلك فهي في حاجة ماسة لتلقين أحد ما درساً ما، على الأقل لأنها تظن أن أي سلوكٍ غير هذا سوف يشجع بقية الأمم عليها وعلى جبروتها.

ومما يؤكد ما سبق أن الإدارة الأمريكية رفضت بازدراء توصيات لجنة بيكر - هاملتون التي قالت بضرورة الحوار مع إيران، واعتبرت ذلك نوعاً من اللغو الدبلوماسي الذي لا يصلح في التعامل مع دولة ثورية مصممة على تحقيق أهدافها الطموحة في السيطرة على منطقة الخليج من ناحية، وقيادة العالم الإسلامي على أسس ثورية من ناحية أخرى.

(ب) الأسباب التي من خلالها يمكن استبعاد توجيه ضربة أمريكية لإيران:

(١) قدرة إيران على إغلاق مضيق هرمز، ما سيمنع تدفق النفط لدول العالم، وإمكانية أن يصل سعر البرميل إلى أكثر من ١٥٠ دولاراً، مع ما يمثله ذلك من خسائر اقتصادية كبيرة للاقتصاد الأمريكي.

(٢) قدرة إيران على حرق آبار نفط الخليج أو بعضها.

(٣) قدرة إيران على استهداف القوات الأمريكية في العراق، من خلال توجيه الشيعة العراقيين لاستهداف عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين الموجودين في العراق.

(٤) قدرة إيران على تحريك الشيعة في دول الخليج ضد الأهداف والقوات الأمريكية.

(٥) قدرة إيران على ضرب القواعد والقوات العسكرية الأمريكية في دول الخليج بعمليات تخريب.

(٦) استهداف القوة الدولية في لبنان وضرب شمال (إسرائيل)، بمساعدة (حزب الله).

(٧) الضغط على (حماس) و(الجهاد) لتكثيف الهجمات على (الإسرائيليين).

(٨) استهداف السفارات الأمريكية والإسرائيلية في أي دولة من دول العالم.

(٩) دور ما لسورية، وإن كان غير واضح، ماهية هذا الدور، وما مدى خطورته.

(١٠) لا يمكن للإدارة الأمريكية القيام بعملية كبيرة للتدخل العسكري دون تأييد شعبي كبير وهو غير متوافر لا في الكونجرس بمجلسيه ولا عند الرأي العام.

(١١) القوات الجوية الأمريكية لن تحسم المعركة ما لم تعززها في النهاية قوات برية كافية.

ثانياً: التحسب الأمريكي للرد الإيراني:

وتحسباً لما يمكن أن تقدم عليه إيران قامت الولايات المتحدة بوضع خطة تقوم على المحاور الآتية:

(أ) بالنسبة إلى الانتقام الشيعي المتوقع:

سحب القوات الأمريكية من المدن، كما حدث، وتسليم الملف الأمني للحكومة العراقية الشيعية، التي تعهدت أمام الأمريكان بتجريد الميليشيات الشيعية المسلحة من أسلحتها.

(ب) لمواجهة الصواريخ الإيرانية التي هي مصدر قوة إيران:

تعزيز الوجود الجوي والبحري في الخليج بإرسال حاملة الطائرات (يو إس إس جون سي. ستينيس) لتنضم إلى حاملة الطائرات (يو إس إس دوايت دي. أيزنهاور) وعلى متنها ٦٥٠٠ بحار وجندي، مزودين بطائرات مهمتها الإنذار المبكر وطائرات لتوفير الحماية للطائرات المقاتلة مصحوبة بعدد من المدمرات والغواصات الهجومية.

وأما الحاملة (يو إس إس جون سي. ستينيس) فلديها أسلحة دفاعية للمسافات القصيرة وأنظمة (رام) لإطلاق صاروخ أرض جو ونظام فلانكس المضاد لصواريخ كروز وأنظمة إلكترونية أخرى، وعلى متنها مستشفى بمخزون المضادات الحيوية تحسباً لأي هجوم يستخدم فيه الأنثراكس أو غاز الأعصاب، وذلك تخوفاً من أي انتقام إيراني بالأسلحة غير التقليدية.

ونشر فوج دفاع جوي في منطقة الخليج مجهز بصواريخ باتريوت.

(ج) هذه الآلة العسكرية الضخمة قادرة على إفشال مخطط إغلاق مضيق هرمز.

ولكن في حال نجحت إيران في إغلاقه ولمدة معينة عبر زوارق انتحارية أو عبر زرع ألغام بحرية على جنباته، فقد عملت الولايات المتحدة على زيادة مخزونها النفطي بشكل هائل، وبما يكفي أكثر من ٢٠ شهراً إضافية.

(د) لمواجهة الضغط الإيراني على الفلسطينيين والسوريين:

فإن واشنطن تسعى إلى تشكيل جبهة عربية موحدة ضد النفوذ الإيراني.

(هـ) محاربة (حزب الله) من الداخل اللبناني.

بإعطاء الضوء الأخضر لوكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) للقيام بتنفيذ خطة سرية لمساعدة الحكومة اللبنانية على التصدي للنفوذ الإيراني، عبر تمويل المجموعات المناهضة لـ(حزب الله) في لبنان والإنفاق على النشطاء المؤيدين للحكومة اللبنانية.

ثالثاً: جوانب الابتعاد والتقارب بين الولايات المتحدة وإيران:

(أ) الابتعاد والعداء:

(١) اعتبار إيران لأمريكا أنها (الشيطان الأكبر) منذ قيام الثورة، على الأقل من الناحية اللفظية.

(٢) إعلان إيران لمظاهر البغض عبر مسيرات الولاء والبراء، خاصة في الحج.

(٣) فتوى إهدار دم سلمان رشدي، وما صاحبها من حملات ثقافية وسياسية إيرانية ضد الولايات المتحدة.

(٤) دعم قوى مناهضة للولايات المتحدة الأمريكية.

(٥) انضمامها لأحلاف أو تقاربها مع دول كروسيا والصين خصما من رصيد الولايات المتحدة الدولي والإقليمي.

(٦) تفردها بمشروع توسعي مصادم للولايات المتحدة، ولاسيما في منطقة الخليج.

(ب) التقارب والتعاون:

(١) فضيحة (إيران كونترا)، التي تنازلت فيها إيران عن شعاراتها، حينما احتاجت إلى سلاح أمريكي لحرب العراق.

(٢) التعاون الإيراني الكامل مع الولايات المتحدة في أثناء عدوانها على أفغانستان.

(٣) التعاون الإيراني الكامل مع الولايات المتحدة في العراق.

وهكذا، فإن الموقف الإيراني الأساسي من الولايات المتحدة هو: علاقات منفعة وبرجماتية واستعداد للتعاون. ومكمن الاختلاف بين الطرفين هو تضارب المصالح بين المشروع الإقليمي الإيراني للهيمنة على العالم العربي، والمشروع الأمريكي للهيمنة على المنطقة، ثم وجود إسرائيل، وتقاطعها مع الدور والفكر الإيراني، في الوقت الذي تعدّ فيه الولايات المتحدة أن مصالحها تأتي في المرتبة الثانية بعد مصالح (إسرائيل).

رابعاً: موقف شعوب المنطقة من المشروع النووي الإيراني:

(أ) حجج المؤيدين للمشروع النووي الإيراني:

(١) إذا دعم العرب إيران في مشروعها النووي، فستصبح إيران عوناً لهم ضد (إسرائيل)، وستغنيهم عن مظلة الحماية الأمريكية.

(٢) يجب ألا يكرر العرب خطأهم مع إيران، فقد دعموا صدام في حربه العدوانية عليها، فأهدروا طاقات دولهم، واستنزفوها في حرب لم

تقـد غـير أعدائها، وهـم الآن يقفـون مع الغـرب في محاولتـه فرض إرادته على إيران، ومنعها من بناء قوة لمصلحة العرب والمسلمين.

(٣) الحكومات العربية المعارضة لبرنامج إيران النووي هي الخاسرة في الحالتين:

- إذا تم وأد البرنامج النووي الإيـراني في مهده، فستخسر لأنها ستظل مرتهنة للوجود العسكري الأمريكي الذي تعارضه شعوبها، وهو مصدر كثير من الأزمـات والتناقضات الداخلية في دولها، إضافة إلى ابتزاز (إسرائيل) لحكام المنطقة وشعوبها.

- وإذا نجحت إيران في بناء سلاح نووي، فستكون تلك الحكومات خاسرة أيضاً؛ لأن واشنطن في هذه الحالة ستسعى للتفاهم مع إيـران وتقاسم النفوذ والمصالح في المنطقة معها على حساب الدول العربية.

ب- المعارضون للمشروع النووي الإيراني:

في رأيهم أن كل الاحتمالات المتعلقة بالمواجهة الأمريكية ـ الإيرانية أقل ما يمكن أن يقال فيها: إن كل احتمال منها أسوأ من الآخر.

(١) فإذا انتهت الأزمة الأمريكية ـ الإيرانية إلى الصدام العسكري المفتوح الذي سيكون حتماً باستخدام الأسلحة غير التقليدية، فسيكون الأمر كارثيًا على الدول العربية.

(٢) إذا أفلحت محاولات حل هذه الأزمـة بالوسائل السلمية، فالمؤكد أن أقل ما يمكن أن تقبل به إيران هو أن تسلم لها أمريكا بدور إقليمي

مميز يتلاءم مع كونها تعدّ نفسها الدولة الأهم والأكبر التي من حقها أن يجري التعامل معها بوصفها رقماً رئيساً في كل معادلات الشرق الأوسط، وفي مقدمة ذلك القضية الفلسطينية والمسألة العراقية. ولأن وضع أمريكا هو هذا الوضع المزري، فإن إيران لن تقبل بأقل من أن تكون رقماً رئيسيًّا في القضية الفلسطينية وفي العراق ولبنان ولاعباً أساسيًّا في معادلات المنطقة كلها.

(٣) الخوف من تملك إيران للسلاح النووي لا ينحصر في كيفية استعماله، لكن الخطر الأكبر يكمن في سوء إدارة المشروع النووي برمته، فإيران بوصفها دولة تنتمي إلى العالم الثالث لا تزال الإدارة فيها ضعيفة لا تقاس بإدارة الدول الصناعية الكبرى، بما ينذر بكارثة بيئية سيعاني منها الخليج بأكمله.

(٤) النظام الحالي في طهران نظام مذهبي وشعوبي وطائفي يقوم على الرفض وسب الصحابة رضوان الله عليهم ولعنهم والقول بتحريف القرآن الكريم (لدى بعضهم على الأقل) وسب أمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ واتهامهم ...إلخ.

ويكنّ الحقد الدفين لكل ما هو عربي وسني، ومستعد للتحالف مع الشيطان الرجيم ضد العرب وأهل السنة. والتاريخ يحفظ ما صنعوا عندما سنحت لهم فرص، حيث ارتكبوا جرائم نكراء في حق أمتنا بدءاً من ابن العلقمي والطوسي والدور الذي لعباه، وأدى إلى دخول هولاكو إلى بغداد وقتل مليوني مسلم، وكذلك المذابح التي ارتكبوها في المغرب أيام حكمهم في دولة العبيديين، وجرائمهم وخياناتهم أيام دولة الفاطميين في مصر معروفة، وما

اقترفته الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية، ومواقف إيران بعد الثورة في التعاون والتنسيق مع اليهود والأمريكان.

وبناءًا على هذا التاريخ وهذه الخبرة السلبية، فإنه ليس مستبعداً أن إيران لو امتلكت القنبلة النووية ستقوم في اليوم اللاحق بتنفيذ برنامجها الأول للسيطرة على العرب السنة والعبث في الحرمين الشريفين ونبش قبور أبي بكر وعمر وأمهات المؤمنين والصحابة في البقيع.

خامساً: نحو موقف عام في التعامل مع الشيعة:

لا بد من التأكيد على أن الموقف من إيران لا ينسحب على الموقف من الشيعة العرب، فالموقف القومي والإسلامي الرسمي والعام يعدّ الشيعة العرب جزءًا من الأمة العربية، كغيرهم من الطوائف والفئات التي تكوّن الأمة العربية، وهو يرفض أن يكون مع الفتنة والتفتيت.

ولكن النظام الإيراني لم يترك لنا عمليًّا أي وسيلة لتأييده؛ لأنه يطرح عمليًّا التبعية للفرس مقابل التبعية للروم، والمشروع الإيراني في الإقليم هو مشروع هيمنة وتفكيك، فهذه معركة بين الفرس والروم لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

ومع ذلك، فلا يمكننا أن نقف مع الطرف الأمريكي- الصهيوني، العدو الرئيس للأمة العربية والمسلمين وشعوب العالم الثالث، ولكننا لو وقفنا مع النظام الإيراني الآن فإن ذلك لن يخدم مصلحة الأمة العربية ولا المسلمين ولا شعوب العالم الثالث. وعليه فإن أداء دور المتفرج أفضل.

معركتنا الأساسية اليوم هي معركة المقاومة العراقية، فإن تحرر العراق، يصبح لكل حادث حديث، ويمكن عندها أن نتحدث عن عقد التحالفات مع إيران من موقع مختلف. أما أعداء المقاومة العراقية، فهم أعداء الأمة بأسرها، والمقاومة العراقية هي المقياس الرئيس الذي يجب أن نقيس به كل المواقف والشخصيات والدول في هذه اللحظة من تاريخنا، ففي العراق اليوم، يتحدد مصير كل الأمة العربية.

سادساً: أثر نجاح المشروع النووي الإيراني على المنطقة:

(أ) أثر هذا النجاح على سنة العراق:

(١) نحن لا نتوقع، وإنما أمامنا ما فعلته إيران وتفعله في العراق، فهي تؤيد العملية السياسية التي بدأتها وصممتها الولايات المتحدة، والمرتكزة على تهميش السنة، وتشجيع الشيعة والأكراد، وإذكاء الطائفية، والمساعدة على استيلاء الشيعة على الثروة والسلطة وحرمان السنة منها.

ومن ثم، فنحن نتصور أن تستمر إيران في أداء هذا الدور، بل بشكل أكثر وضوحاً واستفزازاً، واستهانة بأي طرف عربي سني.

(٢) العمل على ربط جنوب العراق بإيران ربطاً كاملاً، سياسيًّا واقتصاديًّا، ومحاولة الوصول لإقليم واحد مراكزه الأساسية، النجف وكربلاء وقم، وفي هذا خطورة فائقة على سنة العراق.

(ب) أثر هذا النجاح على دول الجوار:

(١) التمدد على حساب الدور السعودي وتحجيمه.

(٢) هضم الجزر العربية الإماراتية إلى الأبد.

(٣) التدخل في شؤون دول الجوار التي بها وجود شيعي، بتحريض الشيعة للحصول على حقوقهم السياسية (المهضومة) في حكم بلادهم، والحديث عن منعهم من الوظائف القيادية... إلخ، وكذلك للحصول على حقوقهم الثقافية والإعلامية، تماماً كما يفعل الأقباط في مصر بتشجيع أمريكا، ويمكن الحديث في هذا الصدد عن مناهج التعليم، والصحف والمجلات والإذاعات والفضائيات... إلخ.

(٤) دعم تكوين أحزاب وجماعات سياسية وثقافية شيعية في هذه البلاد.

(٥) زعزعة الاستقرار داخل هذه الدول، باستغلال الأقليات الشيعية، وشغل هذه الدول بمشكلاتها، لكي تصبح إيران هي المتحكمة في طرق أداء المنطقة.

(٦) محاولة نشر المذهب الشيعي، واختراق الدول العربية للدعوة إليه، ما سوف يتسبب في تمزيق العالم الإسلامي، من خلال هذا المشروع الطائفي.

(٧) تفاهم أمريكي مع إيران على حساب العرب (الأقوياء يتفاهمون على حساب الضعفاء).

سابعاً: الآثار المتوقعة من جراء الحرب المنتظرة بين أمريكا وإيران:

أ- الآثار المتوقعة على أمريكا:

(١) ستتمكن أمريكا من ضرب المنشآت النووية الإيرانية، وستضرب منشآت حيوية أخرى مثل مواني تصدير البترول، ومحطات الكهرباء، ووحدات وقواعد ومنشآت عسكرية مختارة، ومطارات، ومحطات إذاعة وتليفزيون... إلخ.

وسوف يسبب ذلك دماراً هائلاً وخسائر إيرانية جسيمة، لكن النظام الإيراني لن يسقط، وسوف تستطيع إيران امتصاص هذه الضربات، التي سوف توحد الشعب الإيراني، وتستفزه لمواجهة أكثر حدة وشمولاً مع الأمريكان.

(٢) ستؤيد الشعوب العربية والإسلامية الموقف الإيراني، ومعها كثير من شعوب العالم. وبدلاً من أن يتم عزل إيران (كما تسعى واشنطن) فسوف يحدث العكس، وتلتف حولها الدول والشعوب، وسوف تكسب السياسة الإيرانية الكثير نتيجة لذلك.

(٣) ربما يدفع هذا العدوان النخبة الإيرانية للتراجع عن المواقف الانتهازية والتعاون مع الأمريكان، كما حدث قبل ذلك، والتأكيد على مفهوم الشيطان الأكبر، الذي دمر البلاد، وقتل من أبنائها الكثير، واستهدفها ظلمًا، ومنعها من تحقيق حلم قومي هو حق لها في نظرها، مثلما حققه الأمريكان أنفسهم ودول أخرى قبل ذلك.

(٤) سيزيد محور (إيران – سورية – (حزب الله) – الجهاد وحماس بدرجة أقل) تماسكاً وقوة، وسوف تكتسب مقولاته منطقية وصدقية، وسوف تزداد المعاناة الأمريكية نتيجة لذلك.

(٥) فقدان واشنطن لمصداقيتها أمام دول وشعوب العالم، وتشجيع الكثيرين على كراهيتها.

(٦) خسائر هائلة للاقتصاد الأمريكي، ستؤثر بشكل ملحوظ في المواطن الأمريكي البسيط، في الخدمات والضرائب، خاصة أنه يئن الآن من آثار تمويل حربي أفغانستان والعراق، ومن ثم فسوف يتسع نطاق الرأي العام الأمريكي الرافض لسياسات الجمهوريين.

(٧) ستنجح إيران في إغلاق مضيق هرمز، ما سيوفر الأجواء لأن يصل سعر برميل النفط إلى أكثر من ١٥٠ دولاراً إلى أن يتراجع بعد مدة.

(٨) ستتمكن إيران من حرق كثير من آبار النفط في دول الخليج، ما ستترتب عليه نتائج وخيمة.

(٩) سوف تتمكن إيران من تحريك الشيعة في العراق ودول الخليج ضد الأهداف والقوات الأمريكية، وستخسر أمريكا الكثير نتيجة ذلك، وسوف يصبح ١٨٠ ألف جندي وضابط أمريكي رهائن في يد إيران.

(١٠) ربما تنجح إيران في ضرب القواعد والقوات العسكرية الأمريكية في دول الخليج بعمليات تفجير.

(١١) ستوجه إيران (حزب الله) لاستهداف القوة الدولية في لبنان وضرب شمال (إسرائيل).

(١٢) ستضغط إيران على حماس والجهاد لتكثيف الهجمات على (الإسرائيليين).

(١٣) سوف تستهدف إيران السفارات الأمريكية و(الإسرائيلية) في كثير من دول العالم.

(ب) الآثار المتوقعة على إيران:

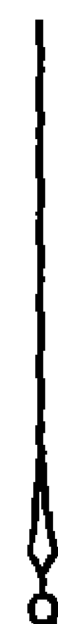
(١) زيادة الإصرار على إنجاز المشروع النووي، وسوف تنجزه؛ لأنها وصلت إلى مرحلة متقدمة فيه، واكتسبت الخبرات اللازمة، وساعتها سوف لا يكون هناك مجال لأي تفاوض سياسي أو ضغط، سيتم فرض عقوبات على إيران، لكنها سوف تستطيع التعامل معها، وتقليل تأثيراتها السلبية.

(٢) سوف يتأثر الاقتصاد الإيراني سلبيًّا، لكن إيران ستكون في حالة استنفار واستفزاز لبناء ما تم تدميره.

(٣) لن تسهم الضربة في إنهاء المشروع الإقليمي الإيراني، بل ربما ساعدت على تدعيمه وتوفير المبررات له.

لكن ينبغي في النهاية أن نؤكد أن هذا السيناريو إنما هو سيناريو افتراضي فقط، قمنا فيه بالافتراض جدلاً، وبمجاراة البعض الذين يتصورون أن المواجهة العسكرية يمكن أن تقع بين الطرفين.

وبعد أن استعرضنا الأمر من جوانبه المختلفة نؤكد أننا نستبعد هذه المواجهة لأكثر من سبب كما أكدنا في أماكن أخرى من هذا الكتاب، فالخلاف بين الطرفين خلاف مصالح نفعي برجماتي، وليس خلافاً مفصليًّا مبدئيًّا أساسيًّا.



الباب التاسع

الوعي الإسلامي يكشف الفتنة



الفصل السابع والعشرون

التعصب الإيراني للقومية الفارسية

لم يترك لنا حكام إيران الحاليون، الذين يقولون: إن ثورتهم إسلامية، فرصة لكي لا نصمهم بالتطرف العرقي والقومي، أي التطرف في التعصب للقومية الفارسية على حساب الأخوة الإسلامية والانتماء الإسلامي.

إن الإسلام لا يمنع أن يحب المسلمُ بلدَه ووطنه الذي عاش فيه وتربى، لكن المنكَر هو عقد الولاء والبراء عليه، وجعل المحبة والبغض بسببه، فليس من ينتمي إلى بلدك، وينتسب إليها بأقرب إليك من المسلم في بلادٍ أخرى، فلا ينبغي أن يكون سبب الموالاة والمعاداة هو الانتماء للوطن أو عدم الانتماء له، بل الولاء والبراء، والحب والبغض ميزانها جميعاً: الإسلام والتقوى.

فالنبي ﷺ كان يحب مكة؛ لأنها أحب البلاد إلى الله، ولم يكن ليحب كفارها، بل قاتلهم لما حاربوا الدين وقاتلوا المسلمين، ولم يكن هو ولا أصحابه ليقدموا حبهم لمكة على شرع الله تعالى، فلما حرَّم الله تعالى على المهاجرين من مكة الرجوع إليها بعد هجرتهم منها إلا للمناسك وثلاثة أيام بعدها

التزموا هذا، ولم يمكثوا فيها أكثر من تلك المدة، فلم يكن حبهم لمكة ليجعلهم يعصون الله تعالى فضلاً عن وقوعهم فيما هو أشد من ذلك.

وقد كان المرجو والمنتظر أن تسير إيران بعد ثورتها التي تصفها بأنها (إسلامية) على نهج الرسول ﷺ، لكن القوم أبوا ذلك، وأصروا على أن يكون مشروعهم السياسي (فارسيًّا)، ونحن نطلق على الإيرانيين اليوم اسم الفُرس، ونسمي مشروعَهم بالمشروع الفارسيّ، للأسباب الآتية:

(١) القومية الرسمية الرئيسة المعتَمَدَة للإيرانيين هي القومية الفارسية، وإيران كانت تُسمى: (بلاد فارس)، إلى أن بدأ عهد الأسرة البهلوية، فسُمِّيَت في عهد الشاه (رضا بهلوي) بالاسم الحالي: (إيران)، وعُمِّمَ اسمها الجديد دبلوماسيًّا ودوليًّا، واعتُمِد رسميًّا عام ١٩٢٥م.

(٢) إصرار إيران على تسمية الخليج العربي بالخليج الفارسي، وقد رفض زعيمها (الخميني) ثم قادتها تسميته بالخليج الإسلامي، الذي اقترحه عليهم، حلاً وسطاً، بعضُ قادة الحركات الإسلامية المخدوعة بالثورة الإيرانية الشيعية الفارسية.

(٣) اللغة الرسمية في البلاد هي الفارسية، وذلك بموجب المادة رقم (١٥) من الدستور الإيرانيّ الحاليّ، التي تنصّ حرفيًّا في شقِّها الأول على أنّ: (اللغة والكتابة الرسمية والمشتركة لشعب إيران هي الفارسية، فيجب أن تكونَ الوثائق والمراسلات والنصوص الرسمية والكتب الدراسية والكتابة بهذه اللغة). ثم يتبعه الشقّ الثاني من المادّة نفسها، الذي بقي مُعطّلًا لم يُعمَل به منذ اعتماد الدستور رسميًّا، وذلك بأمر (الوليّ الفقيه): (ولكن يجوز استعمال اللغات المحلية والقومية الأخرى في

مجال الصحافة ووسائل الإعلام العامة، وتدريس آدابها في المدارس إلى جانب اللغة الفارسية)، أي إنّ الشق الثاني من هذه المادة أدرِجَ لذرّ الرماد في العيون وحسب.[1]

(٤) نظام الحكم الإيرانيّ يتّبع سياسة تمييزٍ عنصريةٍ ضد كل الإيرانيين من غير الفرس (كالآذاريين والبلوش والعرب والأكراد)، وقد وصف الرئيسُ هاشمي رفسنجاني العربَ الإيرانيين عام ١٩٨٥م بأنهم (غجر متخلّفون)، وكذلك وصفهم مرشدُ الثورة علي خامنئي عام ١٩٩٧م بأنهم (متخلّفون وجاهليون)!

(٥) تأكيداً على القومية الفارسية، وأنّ العمل لها وفي سبيلها (عنصريًّا) كان حاضراً دوماً في عقول زعمائها وفقهاء الشيعة الإمامية عبر التاريخ، يقول الطوسي في ص٢٨٤ من كتابه (الغيبة): (اتّقِ العرب، فإنّ لهم خبرَ سوء، لم يخرج مع القائم منهم واحد)!.. (القائم: هو الإمام المهدي المنتَظَر عند الشيعة).

كما ورد في الجزء ٥٢ ص٢٣١ من موسوعة (بحار الأنوار) للمجلسي ما يأتي: (وليس بيننا وبين العرب إلا الذبح)!

فهذان الفقيهان من أكابر فقهاء الشيعة الإمامية، ينظران إلى العرب وغيرهم نظرةً عنصريةً شاذّة، بكل ما تحمل من حقدٍ تاريخيٍّ عميق الجذور.

(٦) عرب الأحواز محرَّم عليهم أن يُسمّوا أبناءهم بأسماء عربية، أو أن يتقلّدوا أي منصبٍ حكوميّ، أو أن يتحدّثوا باللغة العربية، مع أنّ غالبيّتهم من الشيعة، فالتعصّب تعصّب قوميّ فارسيّ إذن.

(٧) أصدر الرئيس الإيراني الحاليّ (أحمدي نجاد) قرارًا في شهر أغسطس/ آب ٢٠٠٦م، يقضي بـ (تفريس) كل جوانب الحياة الإيرانية، العلمية والثقافية والأدبية.. وغيرها[٢].

(٨) ورد في الوصية السياسية الشهيرة للوليّ الفقيه مرشد الثورة الإيرانية: (الخميني)، في الصفحة٢٣ ما يأتي: (وأنا أزعم بجرأة، أنّ الشعبَ الإيرانيَّ بجماهيره المليونية في العصر الراهن أفضلُ من أهل الحجاز في عصر رسول الله). هكذا، يعدّ الخميني أنّ الفُرس اليوم هم أعظم درجةً حتى من جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

(٩) انتشار اللغة الفارسية حالياً في جنوبيّ العراق الشيعيّ، بما في ذلك الأوراق الرسمية التي تقدَّم للمسافرين القادمين من الكويت، وذلك عند بوابات العبور إلى العراق. وإن اللغة الفارسية بدأت تنتشر في إدارات الدولة ومعاملاتها الرسمية في محافظات جنوبيّ العراق الشيعية، وحول هذا يقول طبيب عراقي يعمل في البصرة: (صار علينا أن نتعلّمَ اللغة الفارسية؛ حتى نتمكّنَ من التفاهم مع الناس هنا). (جريدة الشرق الأوسط، النفوذ الإيراني: المستور والمكشوف، ١٨/٥/٢٠٠٧م).

وقد رصدت جريدة الشرق الأوسط -أيضاً- في الجنوب العراقيّ جيل الشباب هناك، (الذي يتعلّم اللغة الفارسية لغةً بديلةً عن الإنجليزية، وينخرط في الثقافة الفارسية إلى درجة اعتياد الاستماع إلى الأغاني الفارسية)، وهي دلالة أكيدة على عمق تغلغل الاحتلال الإيرانيّ القوميّ الفارسيّ للعراق! إذ لماذا تُستبدل اللغة الفارسية تحديداً باللغة العربية، وهي لغة القرآن الكريم، وذلك في بلدٍ عربيٍ مسلم؟!

(١٠) بعض أهالي بلدة (المدائن) العراقية يقولون: (إنّ الهجمات التي استهدفتهم من قبل الميليشيات الطائفية المسلّحة العميلة لإيران، كان هدفها إخلاء المنطقة من سكّانها أهل السنة، ليُتاحَ للإيرانيين الاستيلاء على المدائن وإعادة ترميم (إيوان كسرى)، (بوصفه صرحاً فارسيًّا يذكّرهم بأمجادهم التاريخية)!.. (جريدة الشرق الأوسط، النفوذ الإيراني: المستور والمكشوف، ١٨/٥/٢٠٠٧م).

(١٢) المادّة رقم (١٥) في الدستور الإيرانيّ الحاليّ، تنصّ في شقّها الثاني، كما ذكرنا في الفقرة رقم (٣) على حق الأقليات القومية بإيران في التمتع أو التعلم أو إصدار وسائل إعلامٍ بلغتها.

والمادّة رقم (١٩) تنصّ على أنه (يتمتع أفراد الشعب الإيرانيّ، من أي قوميةٍ أو قبيلةٍ كانوا، بالمساواة في الحقوق، ولا يُعدّ اللون أو العنصر أو اللغة أو ما شابه، سببًا للتفاضل).

وتنصّ المادة رقم (٢٠) على أنّ (حماية القانون تشمل جميعَ أفراد الشعب، نساءً ورجالًا، بصورةٍ متساوية، وهم يتمتّعون بجميع الحقوق الإنسانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ضمن الموازين الإسلامية)!

إلا أنّ هذه الموادّ الدستورية وغيرها، قد عُطِّلَت بأوامر رسميةٍ صادرةٍ عن (الوليّ الفقيه) الصفويّ الفارسيّ، وذلك منذ قيام الجمهورية الإيرانية الخمينية الحالية، ومنذ تدوين الدستور الإيرانيّ الشيعيّ الجديد[٣].

ومن الأمور التي تثير الريبة في السلوك الإيراني، وتؤكد ما قلناه أن إيران ترفض أن تسمي الخليج بـ (الخليج العربي) وتصر على تسميته بـ (الخليج

الفارسي)، وهي تعدّ ذلك قضية كبرى، لا تهاون فيها ولا تنازل، لدرجة أنه هددت بمقاضاة موقع البحث الشهير على الإنترنت (جوجل) لإزالته اسم الخليج الفارسي من خرائطه. وقال التلفزيون الحكومي الإيراني: إن وزارة الخارجية الإيرانية هددت باتخاذ إجراءات قانونية ضد (جوجل) بسبب رفعه اسم (الخليج الفارسي) من خرائطه، وترك الخليج الواقع بين إيران والدول العربية دون اسم.

وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الإيرانية رامين مهمان باراست: (أحد الأعمال المثيرة للفتنة التي تتخذ في إطار الحرب الناعمة ضد إيران هي عمل (جوجل) المشين بإسقاط اسم (الخليج الفارسي)، وهو مخالف للوثائق التاريخية)[٤].

وهددت إيران عام ٢٠١٠م بمنع شركات الطيران من استخدام مجالها الجوي، إذا أشارت إلى الخليج باسم (الخليج العربي) بدلاً من (الخليج الفارسي).

ولأن المواطنين الإيرانيين العاديين يعلمون مدى حساسية هذه القضية لأهل الحكم، فخلال مباراة كرة قدم بين فريقين إيرانيين أحدهما ينتمي لإقليم أذربيجان ذي الأغلبية التركية شمال إيران، هتفت الجماهير ذات القومية الآذارية بـ (الخليج العربي) بدلًا من التسمية الإيرانية المعروفة: (الخليج الفارسي).

وسبق للأمين العام السابق لمجلس التعاون الخليجي عبدالرحمن العطية أن وصف تسمية الخليج الفارسي بأنها (ضحك على التاريخ) لأن الوجود العربي على الساحل الشرقي للخليج العربي مستمر ومثبت تاريخيًّا منذ أكثر

من ثلاثة آلاف عام، فيما الوجود الفارسي هناك مستحدث لا يعود لأكثر من الدولة الصفوية، أي منذ حوالي خمسة قرون.

وتنوه موسوعة (Wikipedia) الإلكترونية في مقالة بعنوان: (الخليج العربي) إلى أنه نتيجة للتخريب فقد تم تعطيل القدرة على تحرير الصفحة للمستخدمين الجدد أو المجهولين بصورة مؤقتة، إذ يبدو أنه تخريب إيراني متعمد بسبب هذه التسمية، مشيرة إلى أن الساحل العربي للخليج أطول من الساحل الإيراني بأكثر من ألف كيلومتر، وتؤكد الموسوعة أن تسمية (الخليج العربي) معتمدة في جميع البلدان والمنظمات العربية، وتعتمدها الأمم المتحدة في محاضرها ومراسلاتها باللغة العربية.

ولتأكيد الاختلاف في التسمية تشير الموسوعة إلى أن تركيا في العصر الحالي والعثماني سابقاً تطلق اسم (خليج البصرة) بينما تستعمل بقية دول العالم تسمية (الخليج الفارسي) نقلاً عن المصادر الغربية، وتعرض الموسوعة خريطة قديمة نُشرت عام ١٦٣٤ للميلاد في الأطلس الصغير الذي يظهر فيه الخليج، وقد كتب عليه باللاتينية اسم (الخليج العربي).

وعلى الرغم من الجدال بين الدول العربية وإيران حول التسمية، إلا أن السبب ليس التسمية في حد ذاتها، ولا حتى استمرار احتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث، التي كانت تحتلها زمن الشاه أيضًا، حيث لم يظهر التصعيد السياسي والمذهبي بهذا الشكل إلا بعد ارتقاء الملالي للحكم في إيران بعد الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، وبات التوتر مسيطراً على العلاقات العربية الإيرانية، بل هي أكثر تأزماً كلما تقدم بها الوقت بفعل الأحداث السياسية المتلاحقة التي لم تُبدِ خلالها إيران نية حسنة تجاه الدول.

والوجود الفارسي في إيران اليوم لا يقتصر على اللغة الفارسية الرسمية، بل إن له مظاهر عدة وسياسات كثيرة تهدف إلى تعزيز الوجود الفارسي وتكريسه، والأمر هذا ليس وليد اليوم بل كان للدولة الصفوية الشيعية (٩٠٦ هـ) السبق في ذلك، فقد أشار المفكر الإيراني الشيعي د. علي شريعتي، إلى أن الدولة الصفوية قامت على مزيج من القومية الفارسية والمذهب الشيعي، حيث تولّدت آنذاك تيارات تدعو لإحياء التراث الوطني والاعتزاز بالهوية الإيرانية، وتفضيل العجم على العرب، وإشاعة اليأس من الإسلام، وفصل الإيرانيين عن تيار النهضة الإسلامية المندفع وتمجيد الأكاسرة.

وحافظت إيران في عهد الثورة على هذا الإرث ورعته، فالعنصر الفارسي في إيران اليوم هو العنصر الحاكم والمسيطر على مقاليد الأمور على الرغم من وجود عرقيات أخرى كثيرة، وتؤكد الدكتورة آمال السبكي أنه في بداية الثورة ازدادت الخلافات العرقية بين الإيرانيين (الفرس) والأقليات الأكراد والتركمان والعرب والبلوش الذين لم يشاركوا في مكاسب الثورة.

ويصل التعصب الإيراني للعنصر الفارسي ذروته في سعي إيران إلى حصر المرجعية الشيعية فيها، وعدم ذهاب المرجعية إلى مناطق أخرى كالنجف في العراق أو جبل عامل في لبنان، على الرغم من أن (جبل عامل) كان له الدور الأكبر في إرساء المذهب الشيعي في إيران في أثناء حكم الصفويين، وتصر إيران على أن تكون قبلة الشيعة مدينة قم الإيرانية، ولا يكون للعرب هذه الوضعية، وهذا يفسر تعرض المرجع الشيعي اللبناني محمد حسين فضل الله للتشكيك في مرجعيته، ذلك أن عنصرًا غير العنصر الفارسي لن يكون بوسعه أن يكون المرجع الأعلى للشيعة، وإن مدينة غير إيرانية لن يكون بوسعها أن تكون (حوزة) الشيعة وقبلتهم.

ويعترف الدستور الإيراني رسميًا بالديانات القديمة التي هي موجودة في بلاد فارس قديماً كالزردشتية، ويعترف بحقوق أفرادها، ويعطيهم مقاعد في مجلس الشورى منصوصاً عليها، في الوقت الذي لا يحصل أهل السنة هناك على اعتراف رسمي حقيقي وملموس بمذهبهم أو على حرية في ممارسة شعائر الإسلام.

وفي الوقت الذي أبطل فيه الإسلام جميع الأعياد الجاهلية، يحظى عيد النيروز الفارسي بأهمية خاصة في إيران، وإن الشهور الفارسية تحل محل الأشهر الهجرية الإسلامية التي أجمع المسلمون على استخدامها والتي ترتبط بالشعائر والمناسبات الإسلامية ارتباطاً وثيقاً.

وإذا كان الفرس قد أقاموا في السابق دولة قوية، واحتلوا أجزاء من بلدان عربية، وحاربوا الإسلام، فإن هناك في العصر الحديث في إيران من اقتفى هذا الأثر، وحلم بإنشاء دولة قوية، ولو على حساب الآخرين.

كان شاه إيران المخلوع محمد رضا بهلوي يعدّ نفسه قوة كبرى أمام كيانات صغيرة، وكان يرى بلاده القوة الرابعة في العالم، وكان التسليح يستهلك الجزء الأكبر من ميزانية الدولة، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية قام الشاه باحتلال ثلاث جزر إماراتية عام ١٩٧١م بتواطؤ مع بريطانيا، وكان دائم التهديد للبحرين ومطالباً بضمها إلى إيران، ولم يتوقف عن مطالبته إلا عام ١٩٧٠م، رضوخاً للأمر الواقع والضغط البريطاني.

ولم يكن العراق بعيداً عن الإساءات والأطماع الإيرانية، فقد دعم الشاه عام ١٩٦٨م الفصائل الكردية للثورة والتمرد في شمال العراق، وإضعاف الحكم في العراق.

وعلى منوال الشاه سارت الثورة، على الرغم من العداء الذي ناصبته للشاه، فقد أعادت إيران في ظل الثورة احتلال جزر الإمارات الثلاث أبوموسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى بداية التسعينيات مدّعية ملكيتها لها، وحتى اللحظة ترفض إيران الوساطة أو مناقشة القضية مع الإمارات(٥).

الهوامش:

(١) د. محمد بسام يوسف، المشروع الإيرانيّ الصفويّ الفارسيّ.. مقدّماته، وأخطاره، ووسائل التصدّي له، منتديات كل السلفيين، ١٤-٧-٢٠٠٩م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) موقع اليوم السابع، ١٨ مايو ٢٠١٢م.

(٥) الملامح العامة للسياسة الخارجية الإيرانية، مركز التنوير للدراسات الإنسانية.

الفصل الثامن والعشرون

الفكر الصفوي حي في الواقع الإيراني الحالي

ربما يتصــور كثير من العــرب والمسلمين أن فكر الدولــة الصفوية انتهى، ولم يعـد لــه وجـود في الواقع الإيراني اليـوم، وهذا غير صحيـح ويؤكده واقع ممارسات الدولة الإيرانية على الأرض. فإذا كانت الدولة الصفوية قد جعلت الشيعة (الاثنا عشرية) كيانــاً مختلفاً تماماً عن باقي كيان الأمة الإسلامية، عن طريــق تأصيل الأفــكار المذهبيــة والطائفيــة وجعلها مذهباً وديـنــاً، فإن السائد في الفكر الإيراني في عصر الثورة الإسلامية هو أن:

(أ) إيــران ترعى الأفـكار الشيعية المتطرفة، وتحتضن فكـرة الأئمة، وكان الخمينــي نفسه مؤلفاً لنظرية (ولاية الفقيه) التي كانت تأليفاً إضافيًّا في الأفـكار الشيعيــة يبتعـد بها كثيرًا عــن الأمة الإسلاميــة وعقيدتها وثقافتها.

(ب) لم ترعِ إيران أي مساعٍ للوحدة الإسلامية، وإنما فعلت العكس وعملت على تصدير الثورة ونشر المذهب (الاثنا عشري) داخل البلاد العربية السنية. فهي لا تريد الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية إلا إذا كانتا

نابعتين من التصور الإيراني ومن الفكرة الشيعية. وإلا فماذا يعني مساعدتها لـ (حزب الله) في لبنان وجعله أقوى من الدولة اللبنانية؟ وماذا يعني مساعدتها لـ (الحوثيين) في اليمن حتى يخرجوا على الدولة ويرفعوا السلاح في وجهها؟ وماذا يعني مساعدتها لشيعة (البحرين) و(السعودية) حتى يخرجوا على دولهم؟

(ج) ولقد كان التضييق على أهل السنة داخل إيران وقمعهم ومنعهم من أي حقوق، دليلاً دامغاً على روح التعصب المذهبي، لدرجة منع إقامة مساجد السنة؛ لإجبارهم على الصلاة في (الحسينيات) الشيعية التي أسست على الباطل وعلى البدع.

(د) المتأمل للممارسات الشيعية على أرض الواقع يجد أن قادة إيران يجيدون رفع الشعارات وإلقاء الخطب، أما على أرض الواقع، فإن الأفعال تناقض الأقوال، فالشعارات المرفوعة عن (فلسطين) و(الأقصى) و(القدس) كثيرة ولكنها غير مترجمة في الواقع، ولا نجد إجراءً إيرانيًا واحداً ضد الكيان الصهيوني.

(هـ) إذا كانت الدولة الصفوية كان دأبها وديدنها التعاون مع الدول غير الإسلامية ضد دولة الخلافة العثمانية السنية والدخول معها في حروب دائمة، نتيجة لكراهيتها لأهل السنة، فإن إيران اليوم على علاقة غير جيدة بغالبية الدول العربية، نتيجة للمؤامرات والمخططات الشريرة التي تديرها ضدهم وتتمكن هذه الدول العربية من كشفها.

وإذا كنا قد تعرضنا بالتفصيل في هذا الكتاب لتاريخ وكوارث الدولة الصفوية الشيعية المتطرفة، فإننا نوجز هنا ونركز على تطرف هذه الدولة وعنصريتها وعدائها ضد كل ما هو عربي وسني.

وتطلق (الدولة الصفوية) على الدولة التي أسّسها الشاه إسماعيل الصفويّ وعلى أتباعه، وهو من سلالة الشيخ صفيّ الدين الأردبيلي الذي كان يسكن مدينة (أردبيل) التابعة لإقليم أذربيجان في شماليّ غرب إيران. والشيخ الأردبيلي هو أحد مريدي الشيخ تاج الدين الزاهد الكيلاني، صاحب إحدى الطرق الصوفية، وكان ينتمي إلى المذهب الشافعيّ.

وقد قام حفيد صفيّ الدين (الشيخ إبراهيم) بتطوير طريقته الصوفية، ثم باعتناق المذهب الشيعيّ (الشيعة الإمامية) وتحويل طريقته إلى طريقةٍ شيعيةٍ إماميةٍ متعصّبةٍ. وسار على دربه ابنه الأصغر (جنيد) الذي قُتِلَ في إحدى حروبه، فخلفه ابنه (حيدر) الذي لُقِّبَ بلقب (سلطان)، وأمر أتباعه بأن يضعوا على رؤوسهم (قلنسواتٍ) من الجوخ الأحمر، تضم الواحدة منها اثنتي عشرة طيّةً رمزاً للأئمّة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية، وقد قُتِلَ (حيدر) أيضاً في إحدى حروب الثأر لوالده، وخلفه ابنه (إسماعيل)، الذي أعلن فيما بعد دولته الصفوية، عام ١٥٠١م، ووطّد دعائمها، فامتدّت من إيران إلى ما حولها، إلى أن وصلت بغداد.

كان المسلمون في إيران بأغلبيتهم الساحقة (٩٠٪) من أهل السنة الشافعية، إلى أن قامت الدولة الصفوية على يد (إسماعيل الصفويّ) عام ١٥٠١م، الذي اتّخذ من مدينة (تبريز) عاصمةً له، وأعلن أنّ دولتَه (شيعية إمامية اثنا عشرية)، وقام بفرض عقيدته بالقوّة، على الرغم من أنّ علماء الشيعة حذّروه بألا يفعل ذلك؛ لأنّ الأغلبية الإيرانية الساحقة تنتمي إلى أهل السنة، لكنه رفض وقال قولته المشهورة: (إنني لا أخاف من أحد، فإن تنطق الرعية بحرفٍ واحد، فسوف أمتشق الحسام، ولن أتركَ أحداً على قيد الحياة)[1].

ثم قام بصكّ عملة الدولة، منقوشًا عليها مع اسمه عبارة: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي وَليّ الله)، ثم أمر جنوده بالسجود له كلما قابلوه، وقد اشتهر بدمويّته وساديّته الشديدة، فقام بقتل علماء المسلمين وعامّتهم، فقتل أكثر من مليون مسلمٍ سنّي، ونهب أموالهم، وانتهك أعراضهم، وسبى نساءهم، وأمر خطباء المساجد من أهل السنة بسبّ الخلفاء الراشدين الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) رضي الله عنهم، وبالمبالغة في تقديس الأئمة الاثني عشر.. ووصل الأمر به إلى أن ينبشَ قبور علماء المسلمين من أهل السنة ومشايخهم، ثم يحرقَ عظامهم!.. وهكذا كانت دولة الشاه (إسماعيل الصفوي) تأسيساً لكل الدول الإمامية (الإثنا عشرية) ومثالاً يُحتَذى بها شيعيًّا فيما بعد، من حيث ممارساتها الشاذة.

امتدّت الدولة الصفوية فيما بعد في كل أنحاء إيران وما جاورها، فقضى (الشاه إسماعيل) على الدولة التركمانية السنية في إيران، ثم سيطر على (فارس وكرمان وعربستان) وغيرها. وكان في كل موقعةٍ يذبح عشرات الآلاف من أهل السنة إلى أن هاجم بغداد واستولى عليها، ومارس أفظع الأعمال فيها ضد أهل السنة، ومما فعله: قام بهدم مدينة بغداد، وقَتل الآلاف من أهل السنّة، واستخدم التعذيب الشديد بحقّهم قبل قتلهم، ثم توجّه إلى مقابرهم، فنبش قبور موتاهم، وأحرق عظامهم. وتوجّه إلى قبر (أبي حنيفة) و(عبد القادر الجيلاني) ونكّل بهما ونبشهما. وكذلك قام بقتل كل من ينتسب لذرية القائد المسلم (خالد بن الوليد) رضي الله عنه في بغداد لمجرّد أنهم من نسبه، وقَتَلهم قتلةً شنيعة.

عندما وصلت أخبار المجازر الصفوية وممارساتها إلى السلطان العثماني (سليم الأول) عام ١٥١٤م، قام بتجهيز جيشه وحرّر بغداد بعد ست سنواتٍ

من الاحتلال الصفويّ، وأسر زوجة (إسماعيل الصفوي)، وقتل المتواطئين على احتلال العراق. وبعد فراره، قام (إسماعيل الصفويّ) بإبرام حلفٍ مع الصليبيين البرتغاليين، على أن يحتل الصفويون (مصر والبحرين والقطيف)، ويحتل البرتغاليون (هرمز وفلسطين).. لكنّ العثمانيين أحبطوا مخطّطه هذا، إلى أن هلك (إسماعيل الصفوي) في (تبريز) عام ١٥٢٤م.. فخلفه ابنه (طهمباسب الصفويّ).

خلف (إسماعيل الصفوي) ابنه (طهماسب)، الذي تحالف مع المجر والنمسا ضد الدولة العثمانية التي كان يحكمها السلطان (سليمان القانوني) عام ١٥٢٥م. واستعان (طهماسب) بأحد رجال الدين الشيعة اللبنانيين «نور الدين علي بن عبدالعال الكركي»، فكتب له المؤلّفات التي برّرت ممارسات الشيعة ضد السنة، وأسّس بفكره ومؤلّفاته الشيعية لما يُسمى بـ (ولاية الفقيه)، بأن اعتبر زعيمَ الدولة الصفوية (نائبًا للإمام المنتَظَر الغائب) وكالةً. وعاد نفوذ الصفويين إلى العراق عن طريق عملائهم الشيعة هناك، لكن السلطان (سليمان القانوني) أعاد فتح العراق من جديد، وقضى على حكامه الموالين للصفويين.

هلك (طهماسب) بالسمّ على يدي زوجته، فخلفه من بعده ابنه (إسماعيل الثاني) ثم ابنه الثاني (محمد خدابنده) ثم جاء (عباس الكبير بن محمد خدابنده).

تواطأ (الشاه عباس الكبير) مع بريطانيا ضد العثمانيين، وحاصر المدن السنية، ونكّل بها وبأهلها، وقام بترحيل (١٥٠٠) عائلة سنية كردية، وقتل سبعين ألفاً من الأكراد السنة، ومنع الحج إلى مكة المكرّمة، وأجبر الناس على

أن يحجّوا إلى قبر (الإمام موسى بن الرضا) في مدينة (مشهد)، بينما قام بتكريم النصارى والأوروبيين، وبنى لهم الكنائس، وأعفاهم من الضرائب، وشاركهم أعيادهم، واحتسى الخمر معهم.

هاجم الشاهُ (عباس الكبير) العراقَ، واستولى على بغداد والموصل وكركوك، ثم على معظم البلاد، وحاول فرض (التشيّع) بالقوة، لكنّ أهل العراق رفضوا ذلك، فنكّل بهم، قتلاً وتشريداً وتعذيباً، وسبى النساء والأطفال، وأعاد هدم مرقدي الشيخ (عبدالقادر الجيلاني) و(أبي حنيفة النعمان)، وحوّل المدارس السنّية إلى (إصطبلات)، وقام بإعداد قوائم طويلةٍ لإبادة أهل السنّة في العراق.. إلى أن أهلكه الله، فخلفه الشاه (صفيّ الأول)، الذي حرّر العثمانيون العراقَ في عهده مرةً جديدةً وأخيرة.

وانتهت الدولة الصفوية بعد مئة عامٍ تقريباً من عهد (صفيّ الأول)، أي عام (١٧٢٢م)، بعد أن استمرّت (٢٢١) سنة. ولم يعد الصفويون إلى بغداد، إلا عام ٢٠٠٣م، على ظهور الدبابات الأمريكية الصليبية.. وذلك بعد أن عادوا إلى حكم بلاد فارس (إيران)، إثر انتصار ثورتهم الصفوية الشيعية بزعامة (الخميني) عام ١٩٧٩م، وبعد أن رفعوا شعار: (تصدير الثورة الصفوية الخمينية) منذ ذلك الحين[٢].

وقد استُحدِثَت مجموعة من البدع في العهد الصفوي، ثم سار الشيعة على نهجها، وكأنها عقائد بدهية، ومن ذلك:

(١) سبّ الصحابة والخلفاء الراشدين الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) رضوان الله عليهم، وذلك على المنابر وفي الشوارع والأسواق.

(٢) الاحتفال سنويًا بذكرى مقتل الحسين رضوان الله عليه، وممارسة التطبير (ضرب الرؤوس بالسكاكين الحادة)، واللطم على الوجوه والصدور، وضرب الظهور بالجنازير، وارتداء الثياب السوداء، وإنشاد أشعار البكائيات، وذلك منذ دخول شهر (المحرّم)، وحتى اليوم العاشر منه (يوم عاشوراء)، وتم تحريم الزواج في هذا الشهر.

(٣) إدخال الشهادة الثالثة على الأذان: (أشهد أنّ عليًا وليّ الله).

(٤) السجود على التربة الحسينية (قطعة من طين كربلاء).

(٥) وجوب دفن الموتى الشيعة في النجف.

(٦) تغيير اتجاه القبلة في مساجد الشيعة، مخالفةً لأهل السنة.

(٧) إجازة سجود الإنسان للإنسان.

(٨) رصد مرتّباتٍ ضخمةٍ لرجال الدين الشيعة، ومَنحهم إقطاعياتٍ وأوقافٍ خاصة، وهي مستحدَثات مأخوذة عن (الفُرس)، وذلك تأسيساً لما يُسمى عند الشيعة اليوم بـ (الخُمس)، وكل ذلك لكي يقومَ رجال الدين بدعم الشاه أو السلطان عند عامة الشعب.

وهكذا، اتصفت حقبة الحكم الصفوي بثلاثة أمورٍ رئيسة:

(١) فرض التشيّع بالقوّة، وارتكاب مختلف أنواع الجرائم في حق أهل السنة، وتحويل إيران من دولةٍ سنّيةٍ خالصةٍ إلى دولةٍ ذات أغلبيةٍ شيعيةٍ صفوية (النسب الحالية هي: ٦٣٪ شيعة، و٣٥٪ سنّة، و٢٪ نصارى وأرمن ويهود وزارادشت وبهائيون).. إذ يقدَّر عدد أهل السنة في إيران اليوم بخمسةٍ وعشرين مليون نسمة.

(٢) الغلوّ وإدخال مختلف أنواع الخرافات والبدع والطقوس (اليهودية والمجوسية والنصرانية) إلى الشعائر الإسلامية وعقيدة الإسلام.

(٣) التحالف مع النصارى والصليبيين ضد المسلمين[٢].

إن سمة العنف التي يتصف بها نظام رجال الدين الحاكمين في إيران تستمد جذورها التاريخية، من بناة الفكر الشيعي الصفوي، حيث نجد أوجهاً كثيرة للتشابه بين مذهب الصفوي ونظام ولاية الفقيه الحاكم في طهران. وأوجه هذا التشابه تتمثل في مجالات عدة منها اعتماد العنف وسيلة في مواجهة خصومه واتباع فكرة الولاء والبراء، والتوسع عبر الاحتلال والضم القسري، والاعتقاد بالغيبيات والعمل على نشرها، والاستنجاد بعلماء الشيعة في لبنان دون سواهم لمساعدتهم على نشر الدعوة الصفوية، واعتماد اللغة الفارسية وسيلة للتخاطب بين أتباعهم وفرضها على الغير بالأسلوب نفسه.

هذه المرتكزات تشكل حجر الزاوية لنظام ولي الفقيه الذي يتبعونه اليوم في إيران، ويسيطرون من خلاله على زمام الأمور.

فالشاه إسماعيل الصفوي عندما حاول نشر الدعوة أول مرة في «تبريز» وهي عاصمة إقليم أذربيجان دعا وجهاء أهلها إلى الاجتماع في إحدى ساحتها العامة وطلب منهم سب الخلفاء الراشدين الثلاثة، وعندما رفضوا ذلك تشير بعض الروايات إلى أنه قتل منهم ما يقارب ٤ آلاف مواطن، وهذه الفكرة نجدها لدى الصفويين الجدد في إيران، فعندما أقيم نظام ولاية الفقيه في إيران أول مرة عقب انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، أقدم على مواجهة خصومه عبر أدوات العنف، وكان أول ضحاياه المجازر البشعة وأعمال العنف

التي ارتكبت في حق الشعب العربي الأهوازي أوائل عام ١٩٨٠م، وكذلك المجازر التي ارتكبت في حق الشعب التركماني والأكراد وسائر القوميات الإيرانية الأخرى، حيث نجد تجليات هذا العنف في تصريحات آية الله صادق خلخالي، الذي خاطب بها الشعب العربي الأهوازي، الذي كان يطالب بحقوقه القومية إبان انتصار الثورة، قائلاً: (سنملأ شط العرب بالدماء، ولن نسمح بذلك أبداً). وذكر في مذكراته التي نشرتها جريدة (همشهري) في عددها العاشر عام ٢٠٠١م قائلاً: (لقد قتلت الكثير من الشعب الكردي والعربي وبقايا النظام الملكي، ولكنني لست نادماً، ولا يعذبني ضميري). أما الجنرال مدني الذي قال الخميني في حقه: (إنه نور عيني) فقد قال: (إن العرب يثيرون الشغب، وسأشرب من دمائهم إذا استمروا في الضغط من أجل تحقيق مطالبهم)[٤].

وحينما استقر الأمر للشاه إسماعيل الصفوي، كان أول ما فكر فيه هو احتلال العراق، وتفيد المصادر التاريخية أنه استخدم ضد أهلها والمدن العراقية التي خضعت لاحتلاله الأسلوب نفسه الذي كان قد استخدمه من قبل في حق الأتراك - الآذاريين وجمهرة كبيرة من المواطنين الإيرانيين الذين كانوا يعتنقون المذهب السني. وعجبًا أن نرى إيران الآن، وقد احتلت العراق، وسيطرت عليه.

لقد اتخذ الشاه إسماعيل سب الخلفاء الثلاث وسيلة لامتحان الإيرانيين في موالاتهم للمذهب الصفوي، وهذا ما نراه في فكر نظام ولاية الفقيه الذي ما إن استقر به الأمر في إيران، حتى انتهج نهج تصدير الثورة، ولم يفكر في تصديرها إلى أي من جيرانه سواء في باكستان أو أفغانستان أو تركيا، وإنما

إلى البلدان العربية وفي مقدمتها العراق. وكان من نتائج هذا الفكر اندلاع الحرب العراقية الإيرانية التي راح ضحيتها الملايين من الأبرياء.

وعلى غرار المذهب الصفوي في اتباع العنف، يرى الصفويون الجدد من أنصار نظام ولاية الفقيه أن هناك جرائم بحسب ادعائهم لا تتطلب الحاجة للرجوع للقاضي، ومن حق أي موالٍ إن بلغ الرشد أن يبت بها، وينفذها دون مجوز شرعي، وقد تصل عقوبتها إلى الإعدام، مثل: (القصاص، والمرتد، وسابّ النبي، ومدعى النبوة، وغيرها).

واليوم نرى فرق الموت للقوى الموالية للنظام الصفوي الإيراني والتي تغلغلت في أوساط المجتمع العراقي وفي مفاصل الدولة العراقية بعد سقوطها، وهي تعمل قتلاً وتنكيلاً في خصومها السياسيين، ومن غير أتباع المذهب الشيعي، مستندين على التوجيهات الصادرة عن الولي الفقيه[٥].

لقد كان الشاه إسماعيل الصفوي يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الله سبحانه وتعالى اصطفاه لفرض التشيع على المسلمين، وأن هاتفاً غيبياً يدفعه ويرشده، وكان يؤمن بالكشف، أي الإلهام الغيبي، والمعروف عنه أنه كان يعلن لمريديه أنه لا يتحرك إلا بمقتضى أوامر الأئمة الاثني عشر، وأنه لذلك معصوم، وليس بينه وبين المهدي أي فاصل، ويروى عنه أنه عندما فتح (تبريز) قال: (أنا مكلف بذلك، والله والأئمة المعصومون معي، وإني لا أخاف أحداً، فإذا وجدت من الناس كلمة اعتراض شهرت سيفي بعون الله فيهم، فلا أبقي أحداً منهم حيًّا». ومثل هذا التفكير نجد صداه اليوم في تصريحات الغالبية العظمى من زعماء نظام ولاية الفقيه، حيث يعتقد أنصار هذا النظام أن الإمام المهدي يخصهم بالاجتماع به لتلقي الأوامر دون غيرهم، وعندما صرحت امرأة من

أراك أنها تلتقي المهدي تم اعتقالها على الفور، وإن خطابات أحمدي نجاد لا تخلو من هذا الغلو، فقد صرح مراراً أنه يتلقى أوامره من الائمة المعصومين ومن الإمام المهدي تحديداً.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين علماء الشيعة في لبنان ونظام ولاية الفقيه في إيران، فإن مثل هذه العلاقة تعود جذورها إلى النشأة الأولى للمذهب الصفوي في إيران، فعندما توفي الشاه إسماعيل الصفوي عام ١٥٢٤م تولى الخلافة من بعده ابنه (الشاه طهماسب) الذي أدرك أنه لا يستطيع أن يكون مثل أبيه، رئيساً للدين والدولة في آن واحد، فرأى أن الحكمة تقتضي أن يترك أمر التشيع بيد الفقهاء، فاستدعى إليه الشيخ علي بن عبدالعالي الكر كي، وهو من «كرك نوح» من قرى بعلبك لينهض بأعباء هذه المهمة، وقد أصدر فرمانًا اعتبر فيه الكر كي صاحب الدولة الحقيقي بوصفه نائب الإمام الغائب صاحب الزمان، وأن على الجميع امتثال أوامره، فمعزول الشيخ لا يستخدم ومنصوبة لا يعزل.

وعادت الفكرة في إيران الحديثة، حيث أصبح شيعة لبنان أحد مقومات الأمن الإستراتيجي الإيراني في المنطقة، وقد بنيت النواة الأولى لتسليح هذه الطائفة على يد الإمام موسى الصدر، القادم من إيران الذي أسس «حركة أمل» الشيعية، وبعد انتصار الثورة الإيرانية تخلى أتباع نظام ولاية الفقيه عن «حركة أمل»، وتبنوا منظمة أكثر صرامة، فشكلوا (حزب الله) اللبناني الذي سداه ولحمته من إيران، حيث أصبح هذه الحزب حصان طروادة للنفوذ عبره إلى العالم العربي[٦].

الهوامش:

(١) د. محمد بسام يوسف، المشروع الإيرانيّ الصفويّ الفارسيّ.. مقدّماته، وأخطاره، ووسائل التصدّي له، منتديات كل السلفيين، ١٤-٧-٢٠٠٩م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) جابر أحمد، العنف في الفكر الشيعي الصفوي من شاه إسماعيل إلى أحمدي نجاد، موقع الحوار المتمدن، العدد: ١٨١١، ٢٠٠٧/١/٣٠م.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

الفصل التاسع والعشرون

ولاية الفقيه تقويض لدور الأمة

نظام ولاية الفقيه فكرة مستحدثة في الفقه السياسي الشيعي في القرن الرابع عشر، لم يكن ثمة إجماع بين المفكرين الشيعة، بما في ذلك الشيعة الإمامية (الاثنا عشرية) المذهب الرسمي لإيران فيما بعد، على حجيتها سواء عند نشأتها أو في كل مراحل تطورها. فالفكر الشيعي كما أسسه الإمام السادس جعفر الصادق وشرحه هشام بن الحكم، والكليني، والمازنداني، يؤمن بفكرة محورية هي الإمام المعصوم المعين بالنص والوصية من الله سبحانه وتعالي ومن رسوله ومن علي بن أبي طالب. وهذا الإمام معصوم، حيث سلطته مطلقة، وطاعته واجبة، وباختفاء الإمام الثاني عشر، محمد بن الحسن العسكري، سنة ٨٣٧ م بدأ عصر الغيبة، ولكن الإمام المعصوم الثاني عشر سيعود لكي يقيم العدل في الأرض. وفي غيبته على الأمة أن تنتظر انتظاراً سلبيًّا، بمعني أنه لا يجوز لأفراد الأمة العمل بالسياسة أو مقاومة الحكام الظالمين؛ لأن ذلك سيؤخر من عودة الإمام. لهذا انسحب الشيعة (الاثنا عشرية) من العمل السياسي في عصر غيبة الإمام؛ لأن تلك المهمة

تقع على عاتق الله، وليس على عاتق الأمة. امتدت تلك المرحلة في الفكر (الاثنا عشري) من عصر اختفاء الإمام الثاني عشر في القرن التاسع، وحتى القرن الرابع عشر مع ظهور فكر الجزيني. ساد فيها الاعتقاد بأن عودة الإمام الغائب ستكون تتويجاً لعموم الظلم، وأن هذا الظلم لن ينجلي إلا بعودة الإمام الغائب، ومن ثم فلا دور للفقيه[1].

ومع طول غيبة الإمام، بدأ الفكر الشيعي في التساؤل عما إذا كان ثمة من يشغل الفراغ الذي نتج عن الغيبة بشكل مؤقت، بحيث يقوم ببعض وظائف الإمام. وقد أدى ذلك التساؤل إلى انقسام الفكر الشيعي إلى تيارين: أولهما إخباري، والثاني أصولي. تألف التيار الأول ممن أطلق عليهم اسم (الإخباريين)، وهم الذين اعتبروا أن الفقه هو ما صدر عن الأئمة فقط، وأن دور الفقهاء هو (الإخبار) بما قاله الإمام، وليس تقديم أي اجتهاد فقهي. فمثل هذا الاجتهاد يعد انتهاكاً لحقوق الأئمة. ومن ثم، فليس لأحد، بمن في ذلك الفقهاء، أن ينوب عن الأئمة في اختصاصاتهم. وبناءً عليه يظل الوضع الراهن قائماً إلى حين عودة الإمام، مع ضرورة تخليص الفقه من شوائب الاجتهاد العقلي وإلى الالتزام بالفقه الذي يقصر الإمامة على الأئمة المعصومين، أي أن يكون الفقيه مجرد مخبر لأحاديث الرسول والأئمة المعصومين. يلاحظ أن هذا التيار ظهر لاحقاً لظهور تيار ولاية الفقيه. وكان أهم من مثله الميرزا محمد أمين الإسترابادي، والشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.

أما التيار الثاني، وهو التيار الأصولي، فقد رأى أنه في غيبة الإمام يحل الفقيه محله. بيد أن دور الفقيه ينبغي أن يقتصر على المسائل الدينية ورعاية

أحوال الأتباع من خلال الفتوى والقضاء وإقامة الشعائر، ومباشرة الأوقاف، دون الدخول في معترك السياسة، اللهم إلا في حدود التأكد من مطابقة القوانين الصادرة عن السلطة التشريعية للشريعة الإسلامية. يقول أنصار هذا التيار إذن بوجود دور للفقيه في غيبة الإمام، ولكن هذا الدور دور محدود بالأمور الدينية والاجتماعية، وهو ما سمي (بخصوص ولاية الفقيه). تبلور هذا التيار بوضوح مع ظهور فكر محمد بن مكي العاملي الجزيني المعروف بالشهيد الأول (١٣٣٣-١٣٨٤)، الذي رأى أنه في غيبة الإمام المعصوم، فإن الفقيه ينوب عنه نيابة عامة ومطلقة في جمع الشؤون الدينية والاجتماعية، ويتحصل ذلك في القيام بمهام القضاء، وإقامة الحدود، وصلاة الجمعة. قال الجزيني: إن كل فقيه اجتمعت فيه أوصاف معلومة هو نائب عام عن الإمام، سماه (نائب الغيبة)، مع الإشارة إلى أن كلمة (عام) هي وصف للنائب، وليس للنيابة، تمييزاً له عن النائب (الخاص) الذي كان الإمام الثاني عشر يتصل به لرعاية المؤمنين في البلاد البعيدة. قال الجزيني: إن (النائب العام) له صلاحيات قضائية وحسبية، ويجب أن يدفع له الخمس، وكان الجزيني أول من أمر بالعمل بالخمس. ويرى بعضهم أن هذا هو سبب اعتقاله ثم إعدامه؛ لأنه بذلك كان يؤسس لمرجعية وسلطة موازية للخلافة. ولكنه لم يشر إلى دور سياسي للفقيه، وكان يعتقد بحرمة إقامة الحكومة الإسلامية وعدم جوازها إلا للإمام المعصوم.

ولم يبدأ الفكر الشيعي في الحديث عن الدور السياسي للفقيه إلا مع تأسيس الدولة الصفوية سنة ١٥٠٠م، حيث استعانت تلك الدولة بالفقهاء من جبل عامل لنشر المذهب الشيعي الإمامي، ومنهم نور الدين علي بن الحسن الملقب بالعاملي الكركي (١٤٦٦-١٥٣٤م)، المحقق الثاني. وكان تأسيس الدولة

الصفوية بمنزلة خروج على النظرية التقليدية للإمامة، إذ أدت إلى تطور انقلابي في الفكر الشيعي (الاثنا عشري). فالدولة الصفوية نقلت الشيعة من مرحلة الانتظار السلبي إلى مرحلة تأسيس الدولة. وقد قال الشاه إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة، إنه قد أخذ إجازة من (صاحب الزمان، المهدي المنتظر) (الإمام الثاني عشر)، بالثورة والخروج على أمراء التركمان الذين كانوا يحكمون فارس، وأكد أنه شاهد الإمام علي بن أبي طالب، وأنه حثه على إعلان الدولة. واعتبر الشاه إسماعيل نفسه (نائب الله، وخليفة الرسول والأئمة الاثنا عشر) تأسيساً على الحق الإلهي للملوك الإيرانيين قبل الإسلام، وعلى وراثة هذا الحق نتيجة زواج جده الحسين بن علي ببنت يزدجرد، فأنجبت منه الإمام زين العابدين، ومن ثم اجتمع الحقان: حق الملوك الإيرانيين، ونيابة الإمام المهدي.

أتى الكركي إلى إيران من جبل عامل في لبنان. وهناك طور نظرية النيابة العامة للفقهاء متأثراً بقيام الدولة الصفوية. وأجاز للفقهاء في حالة الغيبة إقامة الحدود، والقضاء، وصلاة الجمعة. ومن ثم حصر النيابة العامة للفقهاء دون الشاه إسماعيل الصفوي. ولكن بعد وفاة الشاه وتولي ابنه طهماسب الحكم، أعلن الكركي أنه هو نائب الإمام وأعطي للشاه طهماسب إجازة لحكم البلاد. وهكذا قبل الفكر الشيعي (الاثنا عشري) فكرة إقامة الدولة في عصر الغيبة، وهو الأمر الذي كان مرفوضاً في عصر الإمام جعفر الصادق.

وفي عهد الدولة القاجارية التي حلت محل الدولة الصفوية، قام الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٨١٢م بمنح السلاطين القاجار إجازة

للحكم باسمه بوصفه نائباً عن الإمام، وجعل سلطة نائب الإمام تدور حول إقامة الحدود، وتلقي الخمس. وقد كان قيام التحالف بين الكركي والشاه إسماعيل وما تلاه من تحالفات سبباً أساسيًّا في ظهور التيار الإخباري الذي رأى أن فكرة ولاية الفقيه تمثل هدماً للنظرية الشيعية التقليدية(٢).

وخلاصة القول: إن الفكر السياسي الشيعي شهد على يد التيار الأصولي تحولاً جذريًّا تمثل في ابتداع نظرية ولاية الفقيه، وإن كان قد حصر تلك الولاية في الأمور الدينية والاجتماعية، دون أن تشمل الأمور السياسية. وهو ما تبلور منذ عهد الدولة الصفوية، وأكده النراقي والخميني، حيث بدأت المرحلة الثالثة من تطور الفكر السياسي الشيعي (الاثنا عشري)، وهي مرحلة عمومية ولاية الفقيه، وإن نظرية ولاية الفقيه عند نشأتها وفي كل مراحل تطورها، لقيت اعتراضات كثيرة من داخل دائرة الفقه السياسي الشيعي ذاته.

عندما كان الخميني في النجف ألف كتاباً سماه (ولاية الفقيه)، ولم يفكر أحد قط في أن هذا الكتاب سيكون في يوم ما مثل (كفاحي) لأدولف هتلر، ويطبق على شعب إيران المسكين، ولذلك لم يعر أحد اهتماماً بمضامينه وفحواه، واعتبر فرضية فقهية كثيراً ما نجد مثلها في مؤلفات المؤلفين.

وموضوع ولاية الفقيه من البدع التي ابتدعها الخميني في الدين الإسلامي، واتخذ منه أساساً للاستبداد المطلق باسم الدين، فقد جاء الخميني الشيعة (الاثنا عشرية) بفكرة جديدة على مذهبهم، وهي ما عرفت بـ (ولاية الفقيه) وملخصها أن الفقيه المعتبر عندهم له الحق في القيام بما يقوم به الإمام الغائب في كل شيء عدا الجهاد الأكبر، وأن كثيرين من فقهاء الشيعة اليوم مؤهلون للقيام بهذه الولاية إلا أنه هو الذي تولى العملية كاملة.

ويبرر الخميني استحداثه لهذه النظرية بأن الشيعة انتظروا ألف سنة الآن، ولم يخرج الإمام المنتظر، وقد ينتظرون ألفاً أخرى قبل خروجه، فلا يمكن تعطيل الدين والحرمان من دولة شيعية آلاف السنين قبل خروجه، لذلك يمكن أن يقوم الفقيه في المذهب الشيعي بهذا العمل نيابة عنه.

وكما نرى، فهي نظرية قائمة على أدلة عقلية مجردة، وليس لها أي مستند نصّي في دينهم، لذا فهي أقرب إلى المناورة السياسية منها إلى النظرية الدينية، وفي الوقت نفسه، فإنها لم تحظَ بالقبول لدى المراجع الشيعية العليا التي كانت تعدّ أعلى من الخميني نفسه، وعلى رأسهم آية الله الخوئي في العراق، الذي كان يُعدّ وقت خروج الخميني أعلى مرجع شيعي في العالم. إلا أن نظام الحوزات الشيعي مكن الخميني من كسب الأتباع له واحدًا واحدًا حتى جعل الآخرين أمام الأمر الواقع. ثم حصل له ما أراد من إسقاط النظام الشاهنشاهي في إيران، وأقام مكانه نظاماً شيعيًّا رافضيًّا متعصبًّا(٢).

لقد كان المذهب الشيعي قبل ذلك ينتظر الإمام الثاني عشر الذي دخل في السرداب قبل أكثر من ألف سنة، ومازال حيًّا إلى الآن ليظهر من سردابه، ويقيم له دولة يتبعونها في ذلك. حيث يشترط الشيعة لصحة الدولة في أي وقت من الأوقات أن يرأسها أحد الأئمة (الاثنا عشر)، وقد ذهبوا كلهم ولم يبقَ غير صاحب السرداب، فمن دونه لا يجوز أن يقيموا دولة أو أن يصلوا الجمعة أو أن يجاهدوا ضد عدو (إلا للدفاع عن النفس) وغيرها من واجبات الإمامة، والإمام عندهم معصوم من الخطأ والنسيان.

ولما جاء الخميني بولاية الفقيه قال: إن الفقيه الذي ينوب عن الإمام له أيضاً العصمة، لذلك ادّعاها لنفسه، وهي اليوم تدّعى لمن جاء مكانه، وهو علي خامئني.

وولاية الفقيه واقع الأمر ادعاء للمهدية بأسلوب ذكي وبطريقة محنكة، فهو قد وضع نفسه موضع الإمام له ما للإمام الذي تخلع عليه كتب الشيعة ومدوناتها صفات أسطورية تذكرك بمعبودات الرومان.

وفي الصحافة والإذاعة الإيرانية يُسمى الإمام، وهذه التسمية في مدلول الشيعة لها معنى خاص ومنزلة فريدة، وهل هناك فرق بين ادعاء المهدية وادعاء النيابة عن المهدي في كل شيء. وقد فصّل الخميني نظريته هذه في كتابه (ولاية الفقيه) أو ما يسمى بـ (الحكومة الإسلامية).

ويبدو أن هذه النظرية قد أعطت مكاسب ضخمة للآيات ليس من السهل أن يتنازلوا عنها، غير أنها في الباب الآخر فتحت مجالاً نظريًا لتقويض مذهب الشيعة كله من حيث لا يشعرون، فما دام الخميني فتح باب النقاش العقلي لواجبات الإمام ورضي بتعديلها نتيجةً للعقل والمنطق، فمن المتوقع أن يطالب كثيرون بعده بإخضاع بقية تفاصيل الدين للنقاش العقلي، مثل العصمة والرجعة والغيبة بل الإمامة نفسها التي هي أساس مذهبهم، بل إن كثيرًا من المثقفين في الشارع الإيراني بدؤوا بالفعل يسخرون من فكرة الإمام الغائب علنًا، وبعضهم يسخر من نائبه الحالي الذي لم يكن معصومًا قبل منصبه الجديد، ثم صار كذلك![٤].

الشيعة الإمامية يرون أن الولاية تكون للفقيه.. أما أهل السنة فيرون أن الولاية تكون (للأمة)، وهي تعني حق الأمة في اختيار حكامها وتوليتهم وعزلهم ومحاسبتهم إذا لزم الأمر.

وقد وضح ذلك من مبايعة جميع الصحابة في دار السقيفة لأبي بكر الصديق رضوان الله عليه، وكذلك بيعة عمر وعثمان وعلي وعمر بن

عبدالعزيز. ووضح ذلك من اتفاق الحكمين أبي موسي الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما من رد الأمر إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ، وهو عنهم راضٍ (أي إلى الأمة).

لقد كان الإسلام عظيماً حينما اعتمد نظرية (ولاية الأمة).. وهذا يعطي الاستقلال لكل دولة في اختيار حكامها.. بل إنه يعطي سكان الولايات حق اختيار حكامها المحليين بالانتخاب، كما يحدث الآن في النظام الفيدرالي الأمريكي وفي بريطانيا وفرنسا.. ليكون ولاؤهم للشعب الذي أولاهم ثقته وعينهم .. ولا يكون ولاؤهم للحاكم الذي منّ عليهم بهذه الوظيفة.

إن بعضهم يظن أن نظرية (ولاية الأمة) أو سيادتها تعاكس مبدأ تطبيق الشريعة، ناسين أن سيادة أو ولاية الأمة تعني أن الأمة هي (صاحبة السلطات) لأنها تملك توليتها ومحاسبتها أو عزلها بالطرق القانونية والسلمية، أما الشريعة الإسلامية فتمثل الإطار القانوني للدولة .. أو ما يطلق عليه المرجعية القانونية العليا للدولة.

(وولاية الأمة أو سيادتها) يتيح لفقهاء ومفكري كل دولة أن يجتهدوا فيما يناسب هذه الدولة من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية .. فلكل دولة ظروفها .. ولكل شعب أعرافه ومداخلاته ومخرجاته، وما يحب وما يكره .. شريطة ألا يصطدم ذلك بثابت من ثوابت الإسلام أو يحل حرامًا أو يحرم حلالًا .. وهذا كله يعطي الشريعة الغراء ومذهب أهل السنة والجماعة مرونة سياسية واقتصادية وإدارية كبيرة تمكنها من التعامل مع شتى المجتمعات والأعراف مهما كان تباينها .. ولعل ذلك يعد سرّاً من أسرار خلود الشريعة الإسلامية[٥].

إن فكرة «ولاية الفقيه» تنحي الأمة جانبًا «وهي من هي».. وتقدم الفقيه عليها .. والأمة أولى من الفقيه مهما كان علمه وشأنه وتضحياته.

وإن فكرة «ولاية الفقيه» تعتمد على عصمة الإمام أو الفقيه.. والعصمة انتهت بموت النبي ﷺ، .. لأن العصمة مستمدة من الوحي وبانقطاع الوحي تنقطع العصمة.

فالرسول ﷺ، بشر كسائر البشر ولكنه يتميز عن غيره بالوحي الذي يعصمه، ويصحح اجتهاده، ويصوب حركته باستمرار قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أما اجتهادات الرسول ﷺ، البعيدة عن الوحي فهي محل أخذ ورد، سواءً في الحرب أو الزراعة أو شؤون الحياة التي لا وحي فيها.. وقد حصرها الفقهاء وأوسعوها ذكراً.

ولذلك قال الصحابي الجليل للرسول ﷺ، بعد أن نزل بالجيش خلف آبار بدر: (أمنزل أنزلكه الله، فلا نتقدم عنه أو نتأخر .. أم هو الرأي والحرب والمشورة)؟ فرد عليه النبي ﷺ: **بل هو الرأي والحرب والمشورة**، فقال الصحابي: (ليس هذا بمنزل)، وكأن الصحابي، رضوان الله عليه، أراد أن يفرق بين اجتهاد الرسول ﷺ البشري الذي يقبل الأخذ والرد وبين ما جاءه عن طريق الوحي الذي يلزم جميع المسلمين.

إن فكرة (عصمة الإمام) تجعله وحكمه غير قابلين للنقد أو التصويب أو التصحيح، وتجعل قوله ملزماً للكافة والخاصة والعسكريين والسياسيين والاقتصاديين، حتى في مجالات تخصصهم، وهذا موضع خطر عظيم في إدارة الدول ومؤسساتها.

ورحم الله أبا بكر الصديق الذي قال: (إن أصبت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني).. على الرغم من أنه أكثر المسلمين إيماناً وأعظمهم عطاءً. وهذا عمر بن الخطاب أعظم حكام المسلمين قاطبة يقول: (أصابت امرأة وأخطأ عمر).

إننا في حاجة إلى (ولاية الأمة) لأنها أقرب إلى النفوس والنظم العالمية الحديثة وكفيلة بأن تتولى الأمة كلها مسؤولياتها، ولا تضعها برمتها في عنق شخص أو أشخاص مهما كان صلاحهم وتقواهم وتضحياتهم ونظافة أيديهم[٦].

الهوامش:

(١) د. محمد السيد سليم، صحيفة الشروق المصرية، ٧ يوليو ٢٠٠٩م.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الخميني وولاية الفقيه، المصدر: مجلة السنة - العدد ٩٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) د. ناجح إبراهيم، ولاية الفقيه أم الأمة.. رؤية شرعية سياسية، جريدة الوطن المصرية، ٢٥-١٠-١٤٣٣هـ/ ١٢-٩-٢٠١٢م.

(٦) المرجع السابق.

الفصل الثلاثون

حتى لا يكون العرب فريقين:

أحدهما مع (الروم) والثاني مع (الفرس)!

كان قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م فتنة كبيرة للعرب والمسلمين، فالإعلام الإيراني ومعه إعلام غالبية الحركات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، صور الأمر على أنه نجاح للعرب والمسلمين ضد محاولات السيطرة والهيمنة الغربية، وكذلك ضد المشروع الصهيوني في العالم العربي.

وقد صدّق الكثيرون هذا الكلام وهذه الادعاءات لثلاثة أسباب رئيسة: السبب الأول أن سلوك النظام السياسي الذي تمخضت عنه الثورة الإيرانية لم يكن قد تراكم، وكذلك لم يكن قد تأكد ممارسته لتصدير الثورة ونشر المذهب، ولم يكن الوجه الفارسي قد ظهر بعد. والسبب الثاني أن الحركات الإسلامية، وخاصة في البلاد العربية، اعتبرت أن الثورة الإيرانية بشرى خير لها، فكما استطاع الإيرانيون إسقاط النظام غير الإسلامي الموالي للغرب وإسرائيل، فإنه فأل حسن للحركات الإسلامية العربية للسير على الطريق نفسه. والسبب الثالث أن الشعوب العربية والإسلامية اعتبرت أن الغرب طالما يهاجم الثورة الإيرانية، فإن هذا معناه أنها تسير على الطريق الصحيح.

وجاءت خطب آية الله الخميني وتصريحاته، المنددة بالغرب وإسرائيل، والرافعة للشعارات الإسلامية، لتجعل الكثير من العرب والمسلمون ينخدعون بهذه الشعارات، ويعجبون بالزعامة الثورية الإيرانية، وبالثورة الإيرانية بشكل عام.

وهز الخميني كثيراً من الأوساط العربية حين أدت ثورته إلى تغيير البنية السياسية والاجتماعية والدينية في إيران بشكل جذري، وأدت إلى إرساء دعائم نظام يقوم (شكليًّا) على مبادئ الديمقراطية (حيث الانتخابات البرلمانية وتداول السلطة فيما دون المرجع الأعلى).

وقد كانت للخميني كاريزما ونجاحات سياسية، جعلت أعداداً من الشباب السنة يعجبون، ليس بالسياسات الإيرانية فحسب، بل بالمذهب الشيعي نفسه، واستمر ذلك سنوات طويلة حتى تراكمت السياسات الإيرانية، وانكشف الوجه الطائفي لإيران.

وتوالت الكاريزمات بعد الخميني، فجاء محمد خاتمي رئيساً لإيران، وهو يشكل رمزاً للسياسي المستنير والمتوافق في ذات الوقت مع المبادئ الدينية الشيعية، فوسع بذلك الإعجاب بالشيعة ونجاحاتهم في الحفاظ على منظومتهم السياسية والاجتماعية، ووقوفهم أمام العالم الغربي، وخاصة أمريكا، دفاعاً عن هويتهم وكرامتهم ومصالحهم، وقد حققوا من ذلك الكثير، على الرغم من حدوث أزمات كانوا يخرجون منها بمكاسب محسوبة في كل مرة.

وجاء أحمدي نجاد ليشكل، في نظر الشباب العربي المخدوع، رمزاً لبطل قومي شيعي يكافح من أجل امتلاك بلاده للسلاح النووي، أمام غطرسة القوة

الأمريكية الباطشة والباغية والبليدة، واستطاع هو ومؤسسة الحكم في إيران أن يديروا المواجهة مع أمريكا والغرب بنجاح حتى هذه اللحظة.

ولم يتوقف ظهور الشخصيات ذات الكاريزما على إيران، وإنما ظهرت كاريزما أخرى في لبنان ممثلة في حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله، فهو يمتلك مظهراً وفصاحة لسان وثقافة وقدرة على مخاطبة العقول، وتزامن ظهوره في الإعلام مع عدد من العمليات العسكرية التي سجلت انتصاراً عسكريًّا لـ (حزب الله) على إسرائيل، فأدى ذلك إلى حالة من الانبهار بشخصية حسن نصر الله، ولم تتوقف هذه الحالة عند عامة الناس، بل امتدت إلى قطاعات كبيرة من المثقفين وجدوا في حسن نصر الله صورة القائد العربي المسلم المنتصر.

وما أدى إلى تنامي ظاهرة الإعجاب بالسياسات الإيرانية والمعبرين عنها، حالة الاستبداد السياسي في العالم العربي، وحالة الفساد التي أصابت أجهزة الحكم، وحالة التردي في الأوضاع العامة، وحالة الاستسلام والخضوع للإرادة الأمريكية التي وصلت في كثير من الدول العربية إلى حالة من التبعية الذليلة للمشروع الأمريكي الصهيوني.

ها نحن الآن قد رصدنا الطرف العربي المعجب بالسياسات الإيرانية، وهذا الطرف، وإن كان في تناقص بشكل مطرد، بسبب الوجه المتعصب للسياسة الإيرانية، وانكشاف الدور الإيراني السلبي في أفغانستان والعراق والبحرين ولبنان واليمن، بل كثير من الدول العربية.

والطرف الثاني الذي نريد أن نرصده هذا القطاع من العالم العربي الذي يؤيد الرؤية الغربية والأمريكية، فهو قطاع غير قليل، أغلبه من المثقفين

الذين درسوا في الخارج، أو انهزموا أمام العلم الغربي والثقافة الغربية والحضارة الغربية. وهؤلاء يعيشون بين ظهرانينا بأجسادهم فقط، أما عقولهم وقلوبهم فهي مع الغرب وثقافته وحضارته ونمط عيشه وسياساته.

ومن أكبر العوائق التي تحول بيننا وبين النهضة المرتقبة، التي يرجى أن تحررنا من سيطرة الغرب الصليبي الاستعماري الراعي للصهيونية ضدنا، تلك الهزيمة النفسية التي أصابت قادة الرأي وأصحاب القرار منا، حتى أصبح هؤلاء لا يرون العلم والمنطق والفكر إلا في هذا الغرب، بينما لا يرون في أمتهم أي إضافة وأي خير.

وبلغت الهزيمة مداها، فأصبح حملة الشهادات العليا يتفاخرون بأنهم خريجو (أكسفورد) و(السوربون) و(كلورادو) و(ميتشجان) ...إلخ، ويعرفون عن (شكسبير) و(دانتي) و(نيتشه) و(فولتير) و(جان جاك روسو) أكثر مئات المرات مما يعرفون عن أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وابن حجر والذهبي والسيوطي والعز بن عبدالسلام...إلخ هؤلاء الأفذاذ الذين أضافوا للمعرفة الإنسانية وللعلم الكثير والكثير[1].

والخوف من أن يصبح العالم العربي مقسماً بين نفرين: الأول هواه وقلبه مع المشروع الفارسي والسياسات الإيرانية المغلفة بالغلاف الإسلامي، أي إن هذا النفر مع معسكر (فارس)، والثاني هواه مع المشروع الغربي الأمريكي الأوروبي، أي إنه مع معسكر (الروم).

فهل بعد أن أكرمنا الله سبحانه بالإسلام، وبعد أن قويت دولة الإسلام في الجزيرة العربية، وما جاورها حتى تمكنت من فتح بلاد فارس وبلاد الروم،

هل ننسى ذلك ونعود أدراجنا مرة أخرى إلى ذل وتبعية ما قبل الإسلام، ويصبح قطاع منا مبهوراً ومعجباً ومؤيداً لفارس، ويصبح القطاع الآخر مبهوراً ومعجباً ومؤيداً للروم؟

إن الصراع الإيراني الغربي (الفارسي الرومي)، له أطراف متعددة؛ فالطرف الرئيس فيه - بعد إيران - هو الولايات المتحدة الأمريكية، والطرف الثالث هم العرب، وبخاصة دول الجوار الإيراني، والطرف الرابع هو دولة اليهود (إسرائيل)، والطرف الخامس هو ما يسمى (المجتمع الدولي)، وأبرز أعضائه فيما يتعلق بتلك الأزمة هو أوروبا وروسيا والصين. وقد كانت المواقف التاريخية تؤكد الآتي:

أولاً: هناك نِدِّيَّة تقليدية بين كل من الغرب النصراني والطرف الإيراني، وهذه الندية الضدية تعد امتداداً لما كان في سالف الزمان من صراع اعتقادي وعنصري بين الفرس والروم.

ثانياً: الصراع بين الطرفين؛ كانت ساحته التقليدية عبر التاريخ، تمتد على طول المسافة بينهما من أقصى شرق العراق، إلى أقصى غرب الشام، وما يحاذيهما من أراضي شمال الجزيرة العربية، إضافة إلى ضفافها الشرقية.

ثالثاً: الطرفان المتصارعان على الرغم مما بينهما من بغضاء وعداء على مر التاريخ، كانا - ولا يزالان - يشتركان في النظر إلى العرب نظرة دونية، ملؤها الاحتقار، وهاجسها السيطرة والاحتكار، وفق مصالح الطرفين فقط.

رابعاً: هذه الكراهية المشتركة والممتدة عبر التاريخ للعرب، كانت تمزج دائماً بين الحقد العنصري، والبغض العقديّ. فالفرس كانوا قبل الإسلام

يزدرون العرب عنصريًّا، وبعد الإسلام كانوا - إلا من طهره الله بالدين الصحيح - يتعالون على العرب دينيًّا ومذهبيًّا، ويحاولون أن يجعلوا من أنفسهم حماة دين الإسلام الذي اختصروه كله في محبة أهل البيت بزعمهم. وأما النصارى الغربيون، فقد كانوا قبل الإسلام وبعده يجمعون في موقفهم من العرب بين بغض عنصري وحضاري وبُعد ديني.

خامسًا: وأما الطرف الرابع، وهم اليهود، فلا يشك أحد في أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، سواء كانوا عرباً أو عجماً؛ غير أن بغضهم للعرب أشد؛ لأنهم يبغضونهم دينيًّا بوصفهم مسلمين، وعنصريًّا بوصفهم عرباً، وموقف هؤلاء المغضوب عليهم من النصارى الضالين معلوم، فهم - دائماً - يتخذون منهم حميراً تُركب للوصول إلى مآربهم، وموقف اليهود من الفرس قبل الإسلام كان فيه تقارب بسبب إعادة الفرس ليهود السبي البابلي إلى فلسطين، وأما بعد الإسلام، فإن بغض العروبة بوصفها عنصر، والسنَّة بصفتها مذهباً، كان عاملاً مشتركاً بين اليهود وجمهور من الفرس المتشيعين، وهذه هي الأرضية التي بنى عليها عبدالله بن سبأ اليهودي دعائم المذهب الشيعي، حيث حملها فئام من الفرس بحماس، وتصدروا لها بإصرار؛ لأنها - باختصار - تقوم على بغض يهودي فارسي للعرب، وكل ما يتفرع عن ذلك مجرد تفاصيل.

سادساً: وأما ما يسمى (المجتمع الدولي) بدوله الكبرى، فإن الكِبْر يجمعها، والمصالح تفرقها، وهي إن تلاقت مصالحها مع العرب حيناً، فإن غلبة العداوة تتغلب عليها أحياناً، ولا نستثني من ذلك الروس أو الصينيين،

فلم يحدث أن أنصفوا المسلمين عموماً والعرب خصوصاً في أي قضية من قضاياهم المعاصرة، مع كامل قدرتهم على ذلك، لا، بل إن سياسة الروس على وجه الخصوص، كانت دائماً الطعن في الظهر، مع التبسم في الوجه.

وخلاصة تلك المواقف، هي أن أهل السنة بعامة، والعرب منهم خاصة، هم مجمع عداء الجميع، وموضع مكر الجميع، في الماضي والحاضر والمستقبل، وعليهم جميعاً أن يعوا درس التاريخ في ذلك[٢].

الهوامش:

(١) السيد أبوداود، جريمة المنهزمين نفسيًا في حق أمتهم، موقع لواء الشريعة، ٢٠-١١-٢٠٠٨م.

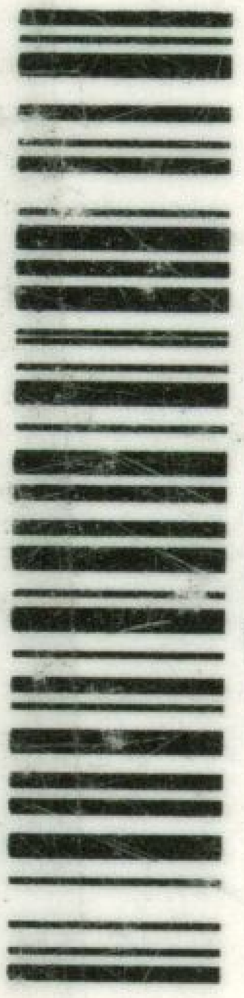
(٢) د. عبدالعزيز مصطفى كامل، أزمة الخليج الرابعة هل تعيد الصراع بين الفرس والروم؟ موقع صيد الفوائد، دون تاريخ.



وإذا كان الحديث قد كثر عن رغبة إيران في تأسيس ما يعرف بـ (**الهلال الشيعي**) الذي يمتد من إيران إلى داخل العمق العربي، مدعوماً بالنفوذ في سورية ولبنان، صانعًا (كماشة) عن طريق التكامل مع شيعة الخليج، مكملاً فكي (الكماشة) بالوجود العسكري في اليمن من خلال (الحوثيين)، فإن السلوك الإيراني وتطورات الأحداث أثبتت أن هذا كله ليس توهمات أو اتهامات لإيران لا تقوم على دليل، وإنما كلها (رتوش) تكمل الصورة التي تؤكد أن إيران تعمل جاهدة على إعادة المجد الإمبراطوري الفارسي، عن طريق زرع خلايا مزعجة لها في الجسد العربي، ثم عن طريق نشر التشيع وتصدير أفكار ثورتها.

في فصول هذا الكتاب سوف يلمس القارئ الكريم إذا ما كنا نكيل الاتهامات دون دليل إلى إيران، أم أن ما نتحدث عنه هو حقائق يصعب التشكيك فيها، وسيتأكد الكثيرون من حسني النية أن إيران لم تكن عند ظنهم ولم تنطلق من رعاية الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية، وإنما كان المنطلق المذهبي الضيق هو رائدها وهاديها.

المؤلف



ISBN:978-603-503-531-6





موضوع الكتاب:
العالم العربي - العلاقات الخارجية